

الأستاذ الدكتور وهيب الزحيلي

النفس المارة

في العقيدة والشريعة والمنهج



المجلد الثالث عشر

آفاق معرفة متجددة



www.fikr.com



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا نَدَاءَ الرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
الفرقان ٨ / ٢٤

النفس المنيعة

في العقيدة والشرعية والمنهج

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد الثالث عشر
الجزءان ٢٥ - ٢٦





دار الفكر - دمشق - البرامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

<http://www.fikr.com/>

e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد الثالث عشر

الرقم الاصطلاحي: ١٣ - ١١ - ١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٦٦٤ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ط ٢ / ٢٠٠٣م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير الميسر

في العقيدة والشرعية والمنهج

المجلد الثالث عشر

الجزءان ٢٥ - ٢٦

اختصاص علم الساعة بالله تعالى وانتهاء أسطورة الشرك فيها

﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ۝٤٨﴾

القراءات:

﴿ثَمَرَاتٍ﴾ : قرئ:

١- (ثمرات) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (ثمررة) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿شُرَكَائِيَ قَالُوا﴾ :

وقرأ ابن كثير (شركائي قالوا).

الإعراب:

﴿ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ «مَا» : نافية علقت الفعل «ءَاذَنَّاكَ» - أي أعلمناك - عن العمل. وكذلك:

﴿وَقَنُوتُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ «مَا» : علقت الفعل «وَقَنُوتُوا» عن العمل، وكأنه إذا وقع النفي بعد الظن جرى مجرى القسم، فيكون حكمه حكم القسم.

البلاغة:

﴿تَحْمِلُ﴾ «تَضَعُ» بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى الله وحده يرجع علم الساعة، متى تكون، لا يعلمها إلا هو، والساعة: يوم القيامة. ﴿مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ جمع لاختلاف الأنواع، وقرئ: من ثمرة. ﴿أَكْمَامَهَا﴾ أوعيتها، جمع كِم - بكسر الكاف: وهو وعاء الثمرة، وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره و﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ نافية، ومن: مزيدة للاستغراق، أي لا تخرج ثمرة إلا بعلمه تعالى. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ و﴿وَمَا﴾ أيضاً: نافية، أي لا مقروناً بعلمه. ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ بزعمكم. ﴿ءَاذَنْكَ﴾ أعلمناك وأخبرناك. ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي من أحد يشهد لهم بالشركة إذا تبرأنا منهم لما عاينا الحال، فيكون السؤال عنهم للتوبيخ.

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ غاب عنهم فلا ينفعهم أو لا يروونه. ﴿يَدْعُونَ﴾ يعبدون. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا من الأصنام ﴿وَطَنُوا﴾ أيقنوا. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَجِصٍ﴾ مهرب من العذاب، و﴿مَا﴾ نافية علقت الفعل ﴿وَطَنُوا﴾ عن العمل، وجلة النفي سدّت مسد المفعولين.

المناسبة:

بعد تهديد الكفار بأن جزاء كل أحد يصل إليه يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أوضح الله تعالى بأن علم هذا اليوم مختص به سبحانه، فلا يعلمه إلا هو، كما لا يعلم الإنسان بأمور أخرى. ثم ذكر انتهاء أسطورة الشرك في ذلك اليوم، إذ يتيقن الناس أن الله واحد لا شريك له، وتتبدد كل الآمال بأن الأصنام والأنداد تنفعهم.

التفسير والبيان.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي إن علم يوم القيامة مرده إلى الله، لا إلى غيره، وهذا جواب سؤال، فكأن سائلاً قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟

ونحو الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ۖ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۖ﴾ ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْهَلَا ۖ﴾ ﴿٤٤﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤/٧٩] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧/٧] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤/٣١] .

ولذا أجاب النبي ﷺ جبريل عليه السلام في حديث البخاري ومسلم عن عمر بقوله حينما سأله عن الساعة: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» .

ثم ذكر تعالى أنه مختص أيضاً بغيب المستقبل، فقال:

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ أي ويعلم سبحانه كل ثمرة تخرج من وعائها، ووقت ظهورها تماماً، ويعلم كل ما تحمله الحامل وما تضعه، وزمن الحمل والوضع بدقة، فإليه يرد علم الساعة، كما يرد إليه علم هذه الأمور.

ونظير مقدمة الآية: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩/٦] ونظير القسم الثاني: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۖ﴾ ﴿٨﴾ ﴿عِنْدَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ ۖ﴾ ﴿٩﴾ [الرعد: ٨-٩/١٣] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١/٣٥] .

ثم يبين الله تعالى انتهاء أسطورة الشرك، فيقول للرد على المشركين الذين دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد والتبرؤ من عبادة الأصنام والأوثان في بدء السورة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا مَا أَذْنُكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم ينادي الله سبحانه المشركين في يوم القيامة متسائلاً على سبيل التهكم والتوبيخ: أين شركائي الذي كنتم تزعمون من الأصنام وغيرها،

فادعوهم الآن فليشفعوا لكم، أو يدفعوا عنكم العذاب؟ فيجيبون: لقد أعلمناك أو أسمعناك أن ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً. ونفي الشهادة يراد به التبرؤ من الشركاء، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَئِيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣/٦] .

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ (٤٨) أي ذهب عنها آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا، من الأصنام وغيرها، فلم تنفعهم، وتيقنوا وعلموا ألا مهرب لهم ولا ملجأ من عذاب الله كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٢) [الكهف: ٥٣/١٨] .

وهذا وعيد وتهديد للمشركين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - استأثر الله تعالى بعلم الغيب مطلقاً علماً قطعياً يقينياً جازماً، فهو وحده العالم بوقت يوم القيامة، وبزمان خروج الثمرة من أوعيتها أي تحول الزهرة إلى ثمرة ومعرفة نوعها، وبلحظة حمل الأنثى ووضعها، ونوع الحمل وخصائصه وصفاته.

أما علم المنجمين فهو علم محدود جداً، ومن الحَدَس والتخمين والظن، لا من باب العلم واليقين، فإن العلم الذي هو الجزم واليقين مختص بالله تعالى، وعلم هؤلاء قد يصادف الواقع، والغالب أنه لا يتفق مع الواقع. وكذلك علم الأطباء بنوع الحمل أو تاريخ الوضع هو علم ظني، وليس في دقة علم الله، وليس شاملاً شمول علم الله، فالله هو المنفرد بعلم خصائص الحمل والمولود.

ب - انتهاء أسطورة الشرك والتعلق بشفاعة الأصنام والأوثان في يوم

القيامة، ففي هذا اليوم يعلن المشركون أن الله واحد لا شريك له، وأنه لا أمل بنفع الشركاء وشفاعتهم، وألا محيد ولا مهرب ولا فرار من عذاب النار.

لقد بدؤوا بنفي الشرك لما عاينوا القيامة، وتبرؤوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم، ثم أدركوا ألا نفع منها، ثم تيقنوا وعلموا أنهم واقعون حتماً في عذاب النار دون إمكان الفرار أو الهرب.

وهذا منسجم مع الموضوع الأساسي للسورة وهو إثبات التوحيد، ونبت عبادة الأصنام، والإقرار بيوم البعث، فقد دعا النبي ﷺ إلى ذلك كله، كما جاء في بدء السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ ولكن المشركين أعرضوا عن دعوته في الدنيا، وقالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه..

تبدل أحوال الإنسان وتغير أطواره

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۚ وَلَئِنْ أَدْنَيْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ فَأَنِيمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۚ وَإِذَا أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَغْرَضَ وَتَكَ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۚ﴾

القراءات:

﴿رَبِّيَ إِنَّ﴾ :

وقرأ ورش، وأبو عمرو (ربي إن).

﴿وَتَكَ﴾ :

وقرأ ابن ذكوان (وناء).

الإعراب:

﴿لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ «دُعَاءُ الْخَيْرِ»: مضاف ومضاف إليه، والتقدير: لا يسأم الإنسان من دعائه الله بالخير، فحذف الفاعل والمفعول به الأول، والباء من المفعول الثاني، وأضاف المصدر إلى المفعول الثاني. اللام في ﴿وَلَيْنَ﴾ الأولى، ﴿وَلَيْنَ﴾ الثانية، ﴿فَلْتُنِيتَنَّ﴾ «وَلْتُنِيتَنَّهْم» لام القسم.

البلاغة:

﴿الْخَيْرِ﴾ و﴿الشَّرِّ﴾ بينهما طباق.

﴿وَنَفَا يَجَانِبَهُ﴾ مجاز عن النفس.

﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استعارة، استعار الغلظ لشدة العذاب.

﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ استعارة، شبه الدعاء بماله عرض متسع، للإشعار بكثرته واستمراره.

المفردات اللغوية:

﴿لَا يَسْتَعْمِلُ﴾ لا يَمْلُ ولا يَقْتَرِ «مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ» طلب السعة في النعمة من المال والصحة وغيرها «وَأَنْ مَسَّهُ الشَّرُّ» الضيق من فقر وشدة ومرض ونحوها «فَيَتَوَسَّ قَنُوطٌ» من فضل الله ورحمته. واليأس: انقطاع الرجاء من حصول الخير، والقنوط: ظهور أثر اليأس على الإنسان من الذل والانكسار، والقنوط: من اتصف بالقنوط، وهو كثير اليأس من رَوْحِ الله.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ﴾ أتيناه، واللام: لام القسم «رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ»

سعة بعد شدة، والرحمة هنا: سعة العيش والصحة، والضراء ضيق العيش والمرض ونحوهما ﴿هَذَا لِي﴾ بعلمي أي هذا ما أستحقه لمالي من العمل والجهد ﴿لِلْحُسْنِ﴾ الجنة والكرامة ﴿فَلَنَنبِتَنَ﴾ لنخبرن ﴿غَلِيظٍ﴾ شديد لا يمكنهم التخلص منه.

﴿وَإِذَا أَقَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ﴾ جنس الإنسان ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَا بِجَانِبِهِ﴾ تكبر وانحرف وتباعد، والجانب: مجاز عن النفس كالجنب في قوله تعالى: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦/٣٩]. ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير مستمر، وهو أبلغ من الطويل، إذ الطول قد يشمل الشيء الدقيق.

سبب النزول:

هذه الآيات نزلت في كفار، قيل: في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عتبة بن ربيعة، وكثير من المسلمين وغيرهم يتصفون بوصف أولها من دعاء الخير.

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى تبدل أحوال الكفار بين الدنيا والآخرة، الذين كانوا في الدنيا مصرّين على إثبات الشركاء والأضداد لله، ثم تبرؤوا عن تلك الشركاء في الآخرة، أردفه ببيان أحوال الإنسان في جميع الأوقات، وتغير أطواره ومناهجه، فإن جاءه خير تعاضم، وإن تعرض لبلاء ومحنة تصاغر وذبل، وهذا دليل الطيش، والحرص على جمع المال، والجهل، وضعف الإيمان.

التفسير والبيان:

﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكُوفُ قَنُوطٌ﴾ أي لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير، كالمال والصحة والسلطان والرفعة ونحوها، وإن أصابه الشر من بلاء وشدة أو فقر أو مرض، كان شديد اليأس

من روح الله، بالغ القنوط من رحمة الله، حتى يظن أنه لا يتهياً له بعد هذا خير، أو يظن عدم زوال ما به من المكروه.

والآية تصوّر طبع الإنسان، وإن ظهر ذلك كثيراً في الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧/١٢] وقد جعل بعض المفسرين الآية خاصة بالكافر، وقال: هذه صفة الكافر، بدليل الآية المتقدمة: ﴿إِنَّكُمْ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. والظاهر إرادة الجنس، فكثير من المسلمين يصدر منهم هذا التغير والتبدل، كما تقدم بيانه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كَافِرٌ ۝٩ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: ٩/١١-١١].

ثم ذكر الله تعالى خصالاً ثلاثاً أقبح مما سبق، فقال:

أ - ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي ولئن آتيناه خيراً بتفريج كربته من بعد شدة أصابته، كغنى بعد فقر، وصحة أو عافية بعد مرض، وجاه بعد ذل، ليقولن: هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي وجهدي وخبرتي، متناسياً فضل الله وإحسانه، جاهلاً أن الله يتلي عبادته بالخير والشر، ليتبين له الشاكر من الجاحد، والصابر من الجزع. وهذا دليل على أن ذلك اليأس القانط لو عاودته النعمة، لعاد إلى الجحود والكفر.

٢ - ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي وما أعتقد أن القيامة ستقوم، كما يخبرنا به الأنبياء، فلا رجعة ولا حساب ولا عقاب على ذنب في الدنيا، ولأجل أنه رُزق نعمة يطر ويفخر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَبَطُورٌ ۝١٦ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ۝١٧﴾ [العلق: ٦/٩٦-٧].

والشك في البعث لا يكون إلا من الكافرين أو المنافقين المظهرين الإسلام المبطنين الكفر.

٣ - ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أي ولئن كان ثم معاد على فرض صدق الأنبياء بما أخبروا به من حصول البعث والنشور، فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار، و﴿لَلْحُسْنَى﴾ الكرامة والجنة. واللام فيها للتأكيد. والآية تدل على تيقن الكافر بوصول الثواب إليه من وجوه خمسة: الأول - كلمة ﴿إِنَّ﴾ تفيد التأكيد، الثاني - تقديم كلمة ﴿لِي﴾ يفيد التأكيد، والثالث - قوله ﴿عِنْدَهُ﴾ يدل على أن الخيرات حاضرة مهياً عنده، الرابع - لام ﴿لَلْحُسْنَى﴾ للتأكيد، الخامس - ﴿لَلْحُسْنَى﴾ تفيد الكمال في الحسن.

والمعنى: لقد ظن أنه استحق خير الآخرة بما أوتيته من خير الدنيا، وتمنى على الله عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين، وهذا غالب على الكافر.

فأجيب بمفاجأة نقيض ما يظن، فقال الله تعالى مهدداً من كان هذا اعتقاده ﴿فَلْيَنْتَهِزِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلْيَذِيقْنَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي فلنخبرن هؤلاء يوم القيامة بما عملوا من المعاصي، ولنجازينهم بعذاب شديد كثير لا يمكنهم التخلص منه وهو عذاب جهنم.

ثم أكد الله تعالى تردد الإنسان فعلاً كتردده قولاً في آية ﴿لَا يَسْمُ﴾ فقال: ﴿وَإِذَا أَتَمَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضْنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي وإذا رزقنا الإنسان - من حيث هو إنسان - رزقاً حسناً، وأممدناه بنعمة من النعم كالصحة والولد والمال؛ أعرض عن الشكر والطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل، وإذا تبدل الحال وأصيب بشر، أي بلاء وجهد أو فقر أو مرض، أطال السؤال والدعاء، والتضرع إلى الله والاستغاثة به أن يكشف ما به من شدة.

وهذا دليل الانتهازية وحب المصلحة او المنفعة، إذ يتعرف الإنسان على الله وقت الشدة، وينسأه حال الرخاء، ويستغيث به عند النعمة، ويتركه عند النعمة، وهذا يشبه تماماً حال المشركين، وهو صنيع الكافرين والمترددين في الإسلام.

ونظير الآية قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَائِبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢/١٠] وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: ٤٩/٣٩] .

فقه الحياة أو الاحكام:

لقد وصف الله الإنسان بأوصاف تبين حقيقته وطبعه، وهي:

أ - الطمع واليأس: فلا يعمل الإنسان من طلب الخير والزيادة، والخير هنا: المال والصحة والسلطان والعز، وهذا دليل على حبه المال والدنيا والمادة، وإذا أصيب بشر كال فقر والمرض، يئس من رَوْح الله، وقنط من رحمته، وهذا برهان على عدم الإيمان بالله والكفر به، فاليأس والإيمان لا يجتمعان في قلب واحد.

ب - فساد الاعتقاد والقول: إذا عادت النعمة والعزة لليأس القنوط، أتى بالأباطيل الموقعة في الكفر والبعد عن الله، وهي ثلاثة أنواع:

الأول - ادعاؤه أحقية النعمة، وأنها آتته بمجهده وعمله، لا بفضل الله وإحسانه.

الثاني - إنكاره الساعة أي يوم القيامة والبعث والنشور.

الثالث - تمنى الأماني بلا عمل، فيحسب أن له الجنة والكرامة مع سوء وضعه.

٣ - استحقاق العذاب: أقسم الله قسماً غليظاً لاحت فيه أنه سيجزي الكافرين بما عملوا من المعاصي، وأنه سيذيقهم العذاب الشديد.

٤ - سوء الأفعال: ترى الإنسان حال النعمة يترفع عن الانقياد إلى الحق، ويتكبر على أنبياء الله، وإذا أصيب بمكروه، أكثر في الدعاء، وهذا يدل على أن الكافر يعرف ربه في البلاء، ولا يعرفه في الرخاء.

ضرورة التأمل في الآيات والأنفس

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ ﴿٥٤﴾﴾

الإعراب:

﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ : استفهامية في موضع رفع بالابتداء، و﴿أَضَلُّ﴾ : الخبر، والجملة منهما سدت مسد مفعولي ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾. وقرئ «أرئتم» بحذف الهمزة الثانية للتخفيف

﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ : في موضع رفع فاعل ﴿يَبَيِّنُ﴾. وهاء ﴿أَنَّهُ﴾ إما لله تعالى، أو للقرآن، أو للنبي ﷺ. والظاهر الثاني.

﴿أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ﴾ الباء زائدة ولا تتراد في الفاعل إلا مع كفى،

ومفعول «يَكْفُفُ» محذوف تقديره: أولم يكفك ربُّك. و«أَنَّهُ» إما في موضع جر على البدل من «بِرَبِّكَ» على اللفظ، أو في موضع رفع على البدل من «بِرَبِّكَ» على الموضع، أو في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، أي لأنه على كل شيء شهيد.

البلاغة:

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ» فيها مجازان: مجاز استعمال رأى بمعنى أبصر في الإخبار؛ لأن الرؤية طريق للعلم بالشيء، والعلم به طريق إلى الإخبار عنه، فاستعملت صيغة طلب الرؤية في طلب الإخبار بجامع مطلق الطلب، ومجاز استعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار.

الفردات اللغوية:

«أَرَأَيْتُمْ» أخبروني «إِنْ كَانَ» القرآن «ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ» من غير نظر واتباع دليل «مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» أي لا أحد أضل منكم أي أكثر ضلالاً ممن هو في خلاف كبير بعيد عن الحق. وقد أوقع هذه الجملة: «مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ» موقع (منكم) لبيان حالهم، وتوضيح مزيد ضلالهم. والمعنى: إذا كفرتم بالقرآن فليس هناك في الدنيا أكثر ضلالاً منكم يا قريش بسبب مخالفتكم الشديدة المغرقة في البعد عن الحق.

«سَرَّيْنَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ» سنطلعهم على عظمة آياتنا وصدقها في أقطار السماء والأرض، وسيبين لهم في المستقبل واقع ما أخبرناهم به من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية، وما يحققه المسلمون من فتوحات في أرجاء الدنيا على وجه خارق للعادة. و«الْأَفَاقِ» نواحي الأرض والسموات «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» من إبداع الصنع وعظمة التركيب وما حل بأهل مكة «حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» حق يظهر لهم أن القرآن هو الحق

الثابت المنزل من الله المشتمل على نظام الدنيا الأصلح، ومعرفة حقائق الآخرة من البعث والحساب والعقاب ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي أو لم تحصل الكفاية ببربك، أو أو لم يكفهم في أنه حق وفي صدقك أن ربك على كل شيء شهيد، أي لا يغيب عنه شيء ما. والمعنى: إن هذا الموعود به من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل من المطلع المهيم على كل شيء، حاضره وغائبه، فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عند الله. وقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ أي شاهد على كل ما يفعله الخلق.

﴿مَرِيئٌ﴾ شك ﴿مَنْ لَقَاءَ رَبِّهِمْ﴾ أي من البعث بعد الموت ﴿أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي إنه تعالى عالم بكل الأشياء مجملها وتفصيلها، وعالم بمقدارها، فيجازيهم بكفرهم.

الخاصية:

بعد بيان وعيد المشركين على الشرك، ورجوعهم عنه في يوم القيامة، وإظهار تبدل أحوال الإنسان، بالتعاضد عند القوة، والتضاغر والذل عند الضعف، أوجب الله تعالى التأمل والتفكر في آيات الله وفي الأنفس، ليعلموا أن القرآن حق منزل من عند الله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: أخبروني عن حالكم ماذا أنتم فاعلمون، إن كان هذا القرآن من عند الله حقاً، ثم كذبتم به ولم تقبلوه ولا عملتم بما فيه، أفلا تكونون أعداء للحق والصواب؟ بل لا أحد أضلّ منكم لشدة عداوتكم، وإمعانكم في الكفر والعناد ومجانبة الحق ومخالفته.

ثم دعاهم إلى التأمل والتفكر في الآيات والأنفس، فقال:

﴿سَتُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي سنظهر لهم دلالات صدق القرآن، وعلامات كونه من عند الله في أقطار السماوات والأرض المشتملة على خلق الشمس والقمر والنجوم، وتعاقب الليل والنهار، وأحداث الكون الرهيبة من الأعاصير والبراكين والصواعق، وعظمة الجبال والبحار، وإبداع صنع النباتات والأشجار، وما يحدث في الأرض من فتوحات كبرى على أيدي المسلمين في أرجاء الأرض المحيطة بمكة والجزيرة العربية. وهذا الإخبار عن الغيب معجزة.

وسنظهر صدق القرآن وأنه منزل من عند الله أيضاً في خلق أنفس البشر، وما فيها من إبداع الصنعة، وعظمة التركيب: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١/٥١] ، وفي مصائر الناس وتبدل أحوال أهل مكة العتاة من سادة متكبرين إلى أدلة صاغرين.

كل ذلك ليعرفوا من هذه الوقائع والأحداث والخلائق ويتبينوا بجلاء أن القرآن ومنزله ومن أنزل عليه حق وصدق لاشك فيه.

وإذا لم ينظروا ويتأملوا، فتكفي شهادة الله بأن القرآن حق، فقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟﴾ أي كفى بالله شاهداً على أفعال عباده وأقوالهم، من الكفار وغيرهم، وكفى به شاهداً على أن القرآن منزل من عنده.

ثم أوضح الله تعالى سبب عنادهم وإصرارهم على كفرهم، فقال:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيقٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ؕ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾ ألا أيها المخاطب، إن كفار قريش وأمثالهم في شك من البعث والحساب والثواب والعقاب، ألا أيها الإنسان، إن الله قد أحاط علمه بجميع المعلومات،

وأحاطت قدرته بجميع المقدورات، فهو محيط بكل شيء علماً وقدره، والمخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته، وفي مرصد علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمة، وسيجازي الكفار وغيرهم على أعمالهم، فما لهم يشكون في البعث والنشور، وقد علموا أن الله خلقهم أول مرة ؟ !

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - بما أن القرآن نزل بلغة العرب، وهم أدري الناس به وبصحته، فلا أحد أضل منهم في الإعراض عنه، لفرط الشقاق والعداوة.

٢ - أقام الله تعالى أدلة وعلامات كثيرة على وحدانيته وقدرته، منها آيات الآفاق والأنفس، وآيات الآفاق: هي الآيات الفلكية والكوكبية، وآيات الليل والنهار، وآيات الأضواء والظلمات، وآيات عالم العناصر الأربعة (الماء والتراب والهواء والنار) وكذا فتح البلاد المحيطة بمكة.

وآيات الأنفس: كيفية تكون الأجنة في ظلمات الأرحام، وتخلق الأعضاء العجيبة، والتركيبات والخواص الغريبة، وكذا فتح مقر الشرك مكة.

فإبداع الكون سمائه وأرضه، وإبداع خلق الإنسان وما يطرأ على البلاد من تغيرات الفتوح والممالك والسلطين، وعلى الناس من تبدل من عزة إلى ذلة وبالعكس، دليل على وجود الله المتصرف في مخلوقاته، المهيمن على عباده، المدبر لكل شيء يحدث في الوجود.

٣ - كفى بالله شاهداً على أنه خلق الدلائل على الأشياء، وعلى أفعال وأقوال عباده، وكفى به شاهداً على أن القرآن من عند الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩/٦] وقال سبحانه: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦/٤].

والمقصود: ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة وغيرها من سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة؟!

٤ - إن مشركي مكة وأمثالهم في شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة، ولكن الله تعالى عالم بكل شيء، فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والخلاصة: إن سبب الكفر والشرك هو إنكار يوم القيامة، وحجب الأنظار عن التأمل في آيات الكون والأنفس، ولكن الزمن كفيل ببيان صدق الآيات، وأن الكفار مخطئون فيما اعتقدوا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشُّرَى

مكية، وهي ثلاث وخمسون آية

تسميتها:

سميت (سورة الشورى) لوصف المؤمنين فيها بالتشاور في أمورهم: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [٣٨] ولأن الشورى في الإسلام قاعدة النظام السياسي والاجتماعي بل والخاص في الحياة لما لها من مكانة وأهمية بالغة في تحقيق المصلحة والغاية الناجحة، ولأن الاستبداد يؤدي دائماً إلى أoxم العواقب: رأي الجماعة لا تشقى البلاد به على الدوام ورأي الفرد يشقيها^(١).

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها فيما يلي:

أ - وصف الكتاب العزيز، وتأكيذ نزول الوحي به على قلب النبي ﷺ، وإثبات الساعة (يوم القيامة).

أ - مناقشة عقائد الكفار وتهديدهم ووعيدهم، وإثبات وجود الله ووحدانيته وحكمته وقدرته بالأدلة الكونية المشاهدة، وبالمخلوقات الأرضية الصناعية وغيرها.

(١) للشاعر المرحوم حافظ إبراهيم.

٣ - ترغيب المؤمنين بالاستقامة المؤدية إلى الجنة ونعيمها، وتحذير الكافرين من الانحراف أو الإعراض عن هداية الله المؤدي إلى النار وأهوالها.

٤ - تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من أذى قومه ومطاعنهم.

ما اشتملت عليه للسورة:

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية مختص بالعقيدة القائمة على الإيمان بوحداية الله، وصحة الرسالة النبوية، والتصديق بالبعث والجزاء، ومحورها الأساسي الكلام عن ظاهرة الوحي.

لذا ابتدأت بالحديث عن الوحي الذي أنزله الله على جميع الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته إلى الناس.

ثم عرضت لما لله من هبة وجلال تكاد السماوات تنفطر منهما، وأن الملائكة تستغرق في تسبيحه وتمجيده، وأنه الرقيب على أعمال المشركين، ثم انتقلت إلى بيان كون القرآن عربياً، وأن الإيمان بالله اختياري لا قسري.

ثم أبانت أسباب الاختلاف في الأمة المسلمة وطريق علاجها بتحكيم كتاب الله، وأوضحت ضرورة اختلاف الشرائع الإلهية الموحى بها في الجزئيات حسبما يتفق مع مصلحة البشر، مع اتفاقها في الأصول الاعتقادية والإصلاحية والعبادات، ثم نددت بالمختلفين في الأديان وجعلت خلافهم بغياً وعدواناً وظلماً، فالدين واحد في أصله، ورسالات الأنبياء تكمل بعضها بعضاً، وبينها قدر مشترك هو الإسلام، أي الانقياد والخضوع لله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ الآية [١٣].

ثم فنّدت حجة المنكرين لرسالة النبي محمد ﷺ بعد أن تبين صدقها وصحتها، وهددت باقتراب الساعة التي يستعجل بها المشركون ويشفق منها المؤمنون، وقرنت التفنيد والتهديد بتهويل العذاب الشديد المنتظر يوم القيامة، وبوصف نعيم الجنان وروضاتها لتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

وتحدثت عن مبدأين ضروريي المعرفة لكل إنسان في الدنيا : وهما أن الرزق بيد الله ينزله بحسب المصلحة، وأن العامل للدنيا وحدها يحرم خير الآخرة والعامل للآخرة يمنح خير الدنيا معها.

ثم أقامت الأدلة على وجود الله من خلق السماوات والأرض وما فيهما والتصرف بهما والقدرة عليهما، وإجراء السفن في البحار، فكل ذلك أثر صنع الله.

وأعقبت ذلك بالإشارة بمن يعمل للآخرة، ويحْتَنِبُ الفواحش، ويعفو عند المقدرة، ويستجيب لربه، وقيم الصلاة، ويستشير أهل الخبرة والمعرفة، ويتنصر من أهل البغي والعدوان، ويؤثر العفو والصفح والصلح، ويقتصر على الجزاء بالمثل، ويصبر في المحنة.

وأردفت ذلك ببيان أهوال النار وخسارة أهلها، وفقدانهم النصر، وتغنيهم العودة إلى الدنيا حين رؤية العذاب، وهم أذلة صاغرون. وناسب هذا دعوة الناس جميعاً إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد لحكمه وشرعه قبل المفاجأة بيوم القيامة الذي لاشك فيه ولا مرد له: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ [٤٧].

والاستجابة تكون تلقائية اختيارية لاقهر فيها، وما على الرسول إلا البلاغ.

ثم ختمت السورة أولاً بتأكيد كون ملك السماوات والأرض لله، يهب الأولاد أو لا يهب بحسب المشيئة، وثانياً ببيان أقسام الوحي، وعظمة القرآن خاتم الكتب السماوية، والذي هو نور الله الهادي إلى صراط مستقيم، ليتناسق الختام مع مطلع السورة بالحديث عن هذا الكتاب العزيز: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [٥٢].

إنزال الوحي وعظمة الله ورقابته أحوال المشركين

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ۝ لَمْ يَأْمُرْ بِالْإِسْلاَمِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ
السَّمَوَاتُ بِتَفَطُّرَتٍ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ
فِي الْأَرْضِ أَلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝﴾

القراءات:

﴿يُوحَى﴾:

وقرأ ابن كثير (يوحى).

﴿تَكَادُ﴾:

وقرأ نافع، والكسائي (يكاد).

﴿يَتَفَطَّرُ﴾:

وقرأ أبو عمرو (ينفطرن).

الإعراب:

﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ : الكاف بمعنى
المثل، و﴿كَذَٰلِكَ﴾ مفعول مطلق ل﴿يُوحَى﴾ و﴿اللَّهُ﴾ : فاعل ﴿يُوحَى﴾. ومن
قرأ «يُوحَى» كان لفظ الجلالة «اللَّهُ» إما مرفوع بفعل مقدر دل عليه «يُوحَى»
كرفع كلمة «رِجَالٌ» في قراءة من يقرأ «يُسَبِّحُ لَمْ فِيهَا بِالْفُؤْدِ وَالْأَصَالِ»،
رِجَالٌ [النور: ٣٦-٣٧/٢٤] بفعل مقدر، أي يسبحه رجال، وإما مرفوع

بالبتداء، ويكون ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ خبرين عن الله تعالى، ويجوز جعلهما وصفين، و﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الخبر، وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هو الله.

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ توالي المؤكدات وهي ألا، وإن، وضمير الفصل.

البلاغة:

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ توالي المؤكدات وهي: ألا، وإن، وضمير الفصل.

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿يُكَلِّمُ﴾ صيغ مبالغة، وسجع لطيف.

﴿كَذَلِكَ يُوحَى﴾ استعمل الفعل المضارع في حقيقته بالنسبة لما ينزل من القرآن، وفي مجازة بالنسبة لما أنزل من الكتب السابقة وما أنزل من القرآن. وهذا تشبيه للمشبه، والمشبه به في هذه السورة.

المفردات اللغوية:

﴿حَدَّ ۝ عَسَى ۝﴾ تقرأ هكذا بأسمائها: حا، ميم، عين، سين، قاف يادغام السين في القاف، وقد انفردت هذه السورة بآيتين من الحروف، لعلهما اسمان للسورة. وهذه الحروف المقطعة كما تقدم للتشبيه على إعجاز القرآن، ولفت النظر إلى ما تشتمل عليه السورة من عظام الأمور ﴿كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ أي مثل هذا الإيحاء يوحى الله إليك أيها الرسول، كما أوحى إلى من قبلك من الأنبياء. وإنما ذكر الإيحاء بلفظ المضارع: ﴿يُوحَى﴾ لحكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي، وكون إيحاء مثله عادة الله. ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي القوي الغالب في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه، وهما صفتان.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ المتعالى فوق خلقه ﴿الْعَظِيمُ﴾ المتفرد بالكبرياء والعظمة ﴿يَنْفَطِرُنَ﴾ يتشققن والفتور: الشقوق، وقرئ «ينفطرن» وقرئ «ينفطرن». ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي تكاد السماوات يتشققن من هبة وعظمة الله وجلاله، الذي هو فوقهن بالالوهية والقدرة، أو يبتدىئ الانفطار من جهتهن الفوقانية بسبب وجود العرش والكرسي وصفوف الملائكة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي والملائكة يلزمون ويدأومون خضوعاً لعظمة الله على عبادته وتزنيه عما لا يليق به، وتحميده وشكره على نعمه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي للمؤمنين فهي عموم يراد به الخصوص، بدليل آية أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧/٤٠] وحكايتهم عنهم ﴿فَأَغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٤٠/٧] ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لأوليائه المؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ شركاء وأنداداً وهم الأصنام ﴿حَفِظْتُ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم، محص لها، فيجازيهم عليها ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بموكل بهم تحصل المطلوب منهم وهو هدايتهم، فما عليك إلا البلاغ فقط.

التفسير والبيان:

﴿حَمَّ ① عَسَى ②﴾ هذه الحروف الهجائية السبعة المفصولة بمقطعين أو آيتين مما اختصت به هذه السورة، والمعروف ألا يفصل بين هذه الحروف، مثل ﴿كَهَيْعَصَ ③﴾ أول مريم و﴿الْتَمَّ ④﴾ أول الرعد، بدئ بها للدلالة على تكوين القرآن من أجزاء أمثال هذه الحروف التي تتركب منها لغة العرب بقصد الإعجاز والتنبيه إلى خطورة ما فيها من أمور.

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑤﴾ أي مثل ذلك الإيحاء الذي أوحى إلى سائر الأنبياء من كتب الله المنزلة، يوحى إليك

أيها الرسول في هذه السورة، من الدعوة إلى التوحيد وإثبات النبوة، والإيمان بالبعث أو اليوم الآخر والثواب والعقاب، والعمل بفضائل الأخلاق، والبعد عن رذائلها، وإسعاد الفرد والمجتمع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَنَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٨﴾ صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾ [الأعلى: ١٨/١٩-١٩] وهو إشارة إلى ما تضمنته السورة من إقرار مبدأ التوحيد، والنبوة، والمعاد، فليس الهدف من إنزال جميع الكتب الإلهية إلا الإيمان بهذه الأمور الثلاثة.

والذي يوحى إليك هو الله، العزيز في ملكه، الغالب بقهره، الحكيم في صنعته، يضع الأمور في موضعها الصحيح.

والمقصود بالآية تقرير المماثلة في دعوات الأنبياء إلى التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، والتحذير من الاغترار بالدنيا، والترغيب في التوجه إلى الآخرة.

ومن أوصاف الموحى أيضاً ما قاله تعالى:

﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٤١﴾ أي له جميع ما في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً، فهي مملوكة له، مخلوقة منه، متصرف فيها كما يشاء إيجاداً وإعداماً، وهو المتعالي فوق خلقه، صاحب الكبرياء والعظمة، ليس كمثله شيء، فليس المراد العلو في الجهة والمكان، ولا عظمة الجثة وكبر الجسم؛ لأن ذلك يقتضي كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعض، وذلك ينافي قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١/١١٢].

والمقصود بالآية الدلالة على كمال قدرة الله، ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَّرَبْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي تقارب السماوات يتشفقن من عظمة وجلال وهيبه من هو فوقها بالآلوهية والقهر والقدرة، وهذا هو الظاهر، والأدق أن يقال: من الجهة فوقانية التي هن فيها.

ويحتمل أن المراد: يتفطرون لكثرة ما عليهن من الملائكة، كما في حديث أحمد والترمذي: «أُطَّت السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَتَطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ قَدَمٌ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ». وقيل: إن المراد: كدن يتفطرون من قول المشركين: اتخذ الله ولداً، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ تَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ وَغَرُّ الْجِبَالِ هَذَا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ﴾ ^(١) [مریم: ٨٨-٩١].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي والملائكة يداومون على تنزيه الله عما لا يليق به ولا يجوز عليه، قارنين التسبيح بالتحميد وشكر النعم التي لا تحصى، كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ أَكْثَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَفْترُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠/٢١].

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي ويطلبون المغفرة لعباد الله المؤمنين، ثم أورد الله تعالى ما يكون طمعاً في إيمان الكافر وتوبة الفاسق، فذكر أنه سبحانه كثير المغفرة والرحمة، وفيه إيماء إلى قبول استغفار الملائكة، لضم الرحمة إلى المغفرة، وإشارة إلى أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة لله تعالى. قال بعض العلماء: هيَّب وعظم جل وعز في الابتداء، وألطف وبشَّر في الانتهاء ^(٢)

ونظير الآية: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ وَهُمْ حَوْلُ ۚ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧/٤٠].

ثم حذر الله تعالى من الشرك قائلاً:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ أي إن المشركين الذين اتخذوا الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله، الله

(١) إذا: أي منكراً فظيهاً.

(٢) تفسير القرطبي: ٥/١٦

هو الرقيب على أحوالهم وأعمالهم، يحفظها ويحصى عليها ليجازيهم بها، وما أنت أيها الرسول بموكل إليك هدايتهم ومؤاخذتهم بذنوبهم، ولست مكلفاً بحملهم وقسرهم على الإيمان، وإنما عليك البلاغ فحسب.

فقه الحياة لو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - هناك مماثلة تامة في أصول العقيدة والأخلاق والفضائل بين رسالات الأنبياء، فالوحي به إليهم واحد يدور حول إثبات التوحيد والنبوة والمعاد.

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة تبيان أنواع الوحي، أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً.

٢ - لله ملك السماوات والأرض ومن فيهما، فهو كامل القدرة، نافذ التصرف في جميع مخلوقاته، وقد اشتملت الآيات على ثمان صفات لله تعالى وهي:

العزیز، الحکیم، مالک السماوات والأرض ومن فيهما، العلي، العظيم، الغفور، الرحيم، الحفيظ.

٣ - تكاد السماوات يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن.

٤ - تلازم الملائكة التسبيح (أي تنزيه الله عما لا يجوز في وصفه وما لا يليق بجلاله) والتحميد، خضوعاً لما يرون من عظمة الله، ويستغفرون للمؤمنين من الذنوب والخطايا، والله سبحانه له المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة.

٥ - الله هو الذي يحفظ أعمال المشركين الذين اتخذوا أصناماً من غير الله يعبدونها، ليجازيهم بها، وليس النبي ﷺ بموكل على أحد في هدايته وقسره على الإيمان، وإنما الإيمان أمر اختياري، والرسول مجرد مُبلِّغ ناصح، وليس في قدرته أن يحملهم على الإيمان.

مقاصد الوحي الإلهي

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨
أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩
وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١
لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٢﴾

القراءات:

﴿قُرْآنًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمة وفقاً (قُرْآنًا).

الإعراب:

﴿وَكَذَلِكَ أَوحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الكاف في ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مفعول به، و﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: حال منه.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: في موضع رفع مبتدأ، و﴿اللَّهُ﴾: عطف بيان، و﴿رَبِّي﴾: صفة لله، وخبر المبتدأ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

و﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ﴾ مرفوع إما خبر بعد خبر، أو صفة، أو بدل، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هو فاطر السماوات والأرض، أي مبدعهما.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الكاف: إما زائدة، أي ليس مثله شيء، أو غير زائدة والمراد بالمثل الذات، يقال: مثلي لا يفعل هذا، أي أنا لا أفعل هذا.

البلاغة:

﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ مجاز مرسل، أي لتنذر أهل مكة. وكما حذف كلمة «أهل» حذف المنذر به وهو العذاب، أي لتنذر أهل مكة العذاب، وهذا يقال له (احتباك) وهو حذف من كل نظير ما أثبتته في الآخر.

﴿الْجَنَّةِ﴾ و﴿السَّعِيرِ﴾، ﴿يَسُطُّ﴾ و﴿يَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيماء، فالإشارة إلى مصدر يُوحى أو إلى معنى الآية المتقدمة ﴿لِنُنْذِرَ﴾ تخوف به ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ أي أهل أم القرى وهي مكة، كأنها أصل للقرى التي حولها. وقد ثبت علمياً أنها فعلاً في مركز قطب الدائرة الأرضية ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب وسائر الناس ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم القيامة الذي تجتمع فيه الخلائق ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لاشك فيه وهو جملة اعتراضية

﴿فَرِيقٌ﴾ منهم أي جماعة ﴿فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي النار المستعرة، أي بعد جمعهم في الموقف يفرقون فريقين.

﴿أُمَّةٌ وَجِدَّةٌ﴾ على دين واحد إما مهتدين أو ضالين ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي﴾ أي بالهداية والتوفيق إلى الطاعة ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي لا يدعمهم ولي يتولى أمورهم، ولا نصير يدفع عنهم العذاب. وتغيير الجملة من فعلية إلى اسمية، للمبالغة في الوعيد.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذوا، أي إن ﴿أَمْ﴾ منقطعة بمعنى «بل» للانتقال من كلام إلى كلام أو من معنى إلى معنى، والهمزة: استفهامية يراد بها الإنكار، أي ليس المتخذون أولياء ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي الأصنام ونحوها و﴿أَوْلِيَائِهِ﴾ نصراء أعوان ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي المعين الناصر للمؤمنين، وهذا جواب شرط محذوف مثل: إن أرادوا ولياً بحق، فالله هو الولي بالحق، لا ولي سواه ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية.

﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما اختلفتم أنتم والكفار في أمر من أمور الدين أو الدنيا ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي حكمه مردود إلى الله يوم القيامة، يفصل بينكم بالإثابة والمعاقبة، أو مفوض إلى الله يميز الحق من المبطل بالنصر في الدنيا ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوضت في مجامع الأمور، ورد كيد أعداء الدين ﴿وَالِلَّهِ أُنُبُ﴾ أرجع في المشكلات وفي كفاية شرهم.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما لا على مثال سبق ﴿مَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساء ﴿وَمَنْ الْأُنثَىٰ أَزْوَاجًا﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً، واقتصر على الأنعام للتغليب على سائر الحيوانات ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ يكثركم، يقال: ذرأ الله الخلق: كثرهم، و﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير وهو جعل الأزواج للناس والأنعام، وضمير ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ راجع إلى المخاطبين والأنعام، مغلباً فيه العقلاء.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الكاف زائدة، أي ليس مثله شيء في ذاته وصفاته
﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لكل ما يُسْمَعُ وَيُبْصَرُ، أو يُقال وَيُفْعَلُ.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مفاتيح خزائنها من المطر والنبات
وغيرهما ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ يوسع لمن يريد امتحاناً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه
لمن يريد ابتلاء.

المناسبة:

بعد بيان كون الله هو الرقيب على أحوال المشركين وأعمالهم، ذكر الله
تعالى توجيهات لنبيه والمؤمنين، وهي إنزال القرآن بلغة العرب ليفهمه أهل
مكة ومن حولها، وقسمة الناس في الآخرة فريقين: فريق في الجنة وفريق في
السعير، وجعل الإيمان اختيارياً غير قسري ولا جبري، ورد المختلف فيه إلى
الله، والاستدلال على قدرته بخلق السماوات والأرض، وتصرفه فيهما
وانفراده بملك خزائنها، وخلق الأزواج ذكوراً وإناثاً من الناس والأنعام
وغيرها.

التفسير والبيان:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي ومثل
ذلك الإيحاء إلى الأنبياء السابقين بلغات أقوامهم، أوحينا إليك قرآناً عربياً،
لتخوف به من عذاب الله وشؤون الدنيا والآخرة أهل مكة (أم القرى) ومن
حولها من العرب وسائر الناس؛ لأن رسالتك عامة للبشرية قاطبة، كما قال
تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَكَلِمَةٍ لِلنَّاسِ بِشِيرًا وَكَذِيبًا﴾ [سبا: ٢٨/٣٤].
وإنما خص أهل مكة ومن حولها؛ فلأنهم المخاطبون بالرسالة أولاً ليكونوا
مُحَلَّتًا إلى الناس جميعاً.

وأما تأييد الآية في تنوع الرسائل على وفق لغات الأقوام والأمم، فهو

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤] .

﴿وَلَنُذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي وتذير به أيضاً يوم القيامة الذي تجتمع الخلائق فيه، وتفترن الأرواح بالأجساد، والذي لاشك في وقوعه، ثم إنهم بعد الجمع والحساب يُفَرَّقُونَ فريقين: فريق يدخل الجنة لإيمانه بالله ورسوله وكتابه، وإحسان عمله في الدنيا، وفريق آخر يَرْجُحُ به في نار جهنم المسعرة على أهلها؛ لكفرهم بالله ورسوله وقرآنه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَافِي﴾ [التغابن: ١٩/٦٤] أي يغيب في الكافر بتركه الإيمان، والمؤمن بتقصيره في الإحسان وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٣٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٣٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٣٥﴾﴾ [هود: ١١/١٠٣-١٠٥] .

ثم أبان الله تعالى مبدأ حرية الإيمان لتسلية رسوله عما يقاسي من كفر قومه، فقال:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ أي لو أراد الله لجعل الناس جميعاً أهل دين واحد، إما على هدى، وإما على ضلالة، ولكن اختلفوا على أديان مختلفة بالمشيئة الأزلية، وبمقتضى العلم الأزلي بما يختاره الإنسان، فيكون إما مؤمناً وإما كافراً، والله تعالى حكيم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى والدين الحق وهو الإسلام، هداه ووقفه إليه، فدخله بذلك في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال والكفر، أضله، فدخله بذلك في السعير، وهؤلاء هم الظالمون الكافرون المشركون الذين ليس لهم ولي يدفع عنهم العذاب، ولا نصير ينصرهم يوم الحساب والعقاب.

وهذه الآية تقرير للآية السابقة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ أي ليس في قدرته حملهم على الإيمان، وإنما القادر على ذلك هو الله تعالى.

والآية أيضاً تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يكابده ويعانيه من كفر قومه وإعراضهم عن دعوته، وكأنه تعالى يقول له: لا تأس ولا تحزن على عدم إيمانهم، فالهداية والضلالة تابعتان للمشيمة الإلهية، فمن سبقت له السعادة فهو السعيد، ومن سبقت له الشقاوة فهو الشقي. ويكون موضوع الآية مثل آية: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦/١٨].

لهذا أمر الله نبيه بعدم الاهتمام بهم بسبب وثنيهم وشركهم، فقال:

﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَالَ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بل اتخذ هؤلاء الكافرون آلهة يعبدونها من دون الله، من الأصنام والأوثان، زاعمين أنهم أعوان لهم ونصراء، فإن أرادوا ولياً ناصراً بحق، فالله هو الولي الحقيقي بأن يتخذوه معيناً وناصراً، لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه الخالق الرازق الضار النافع الناصر لمن أراد، وهو القادر على إحياء الموتى، وهو قدير بالغ القدرة على كل شيء مقدور.

أما الأصنام وكل ما عدا الله فلا تملك في الحقيقة نفعاً ولا ضرراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٢٢/٧٣].

ثم بعد هذا النبذ للكفار، نهى الله تعالى عن منازعتهم في الدين، فقال:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي مهما اختلفتم في شيء من

جميع أمور الدين والدنيا، فإن حكمه ومرجعه إلى الله، فهو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ في الدنيا، وسوف يفصل فيه يوم القيامة بحكمه، فيظهر المحق من المبطل. والمقصود أن المؤمنين ممنوعون من الشروع مع الكفار في الخصومات والمنازعات، كما منع الرسول ﷺ أن يحمل الكفار على الإيمان قهراً

والآية مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:

٥٩/٤].

ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم:

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَّبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي ذلكم الحاكم بهذا الحكم هو الله ربي، عليه وحده اعتمدت في جميع أموري، لا على غيره، وفوضته في كل شؤني، وأرجع إليه تائباً من الذنوب، لا إلى غيره.

وهذا تعريف لهم بمصدر الخير الحقيقي ودفع الضرر، لا أصنامهم الجمادات. وأسباب ذلك قدرته الخارقة، فقال تعالى:

أ - ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما من العدم، لا على مثال سبق، فهو الجدير بالعبادة.

٢ - ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُم فِيهِ﴾ أي أوجد وخلق لكم من جنسكم نساء لتسكنوا إليها، ويحدث التكاثر والتوالد، ويستمر بقاء النوع الإنساني، وخلق أيضاً للأنعام من جنسها إناثاً، حتى تتكاثر موارد المعيشة لبني الإنسان، أو خلق من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث، لذا قال: ﴿يَذَرُوكُم فِيهِ﴾ أي يشكم ويكثركم به أي يجعل الأزواج سبيلاً للتكاثر. وقوله: ﴿فِيهِ﴾ أي في هذا التدبير، وهو جعل الأزواج من الناس والأنعام، فكان هذا الجعل منبع التكاثر ومصدره.

٣ - ٤ - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي ليس مثل الله

شيء في ذاته وصفاته وحكمته وقدرته وعلمه، ومن حكمته التكاثر بالتزاوج، وهو السميع لكل الأصوات، البصير بالأمور، يسمع ويبصر الأشياء كلها صغيرها وكبيرها، ظاهرها وخفيها. وهذه الآية حجة في نفي كونه تعالى جسماً مركباً من الأعضاء والأجزاء، وحاصلاً في المكان والجهة، إذ لو كان جسماً لكان ممثلاً لسائر الأجسام.

والآية أيضاً حجة في نفي المثل لله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧/٣٠]، فلا يعني إثبات المثل؛ لأن المراد بالمثل: هو الذي يكون مساوياً للشيء في تمام الحقيقة والماهية، والمثل: هو الذي يكون مساوياً للشيء في بعض الصفات الخارجة عن الماهية، وإن كان مخالفاً في الماهية^(١)

هـ - ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٢) أي له سبحانه خزائن السماوات والأرض أو مفاتيحهما، يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه، ويضيقه على من يشاء، وإنه تعالى عليم بكل شيء يحدث في الوجود، من إغناء وإفقار، وأثار ذلك على النفس والمجتمع، لا يريد بذلك إلا إجراء الحكمة والمصلحة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الحقائق التالية:

- ١ - القرآن الكريم كما هو واضح عربي مبين، أوحى الله به إلى نبيه ﷺ.
- ٢ - غاية القرآن الإنذار والتبشير، إنذار الكفار بالنار، وتبشير المؤمنين بالجنة، ويشمل الإنذار أيضاً مخاوف وأحوال يوم القيامة الذي لا شك في

(١) تفسير الرازي: ١٥٣/٢٧

وقوعه، فهو كائن لا محالة، ولكن بعلم الله، وما أقرب حدوث القيامة إن نسبت حرب ذرية عالمية، فالذرة كفيلة بالقضاء على الأخضر واليابس.

٣ - الناس يوم القيامة فريقان: فريق الجنة، وفريق النار، ولا ثالث لهما.

٤ - إن مكة المكرمة هي أم القرى وعاصمة المدن وأشرف سائر البلاد، وهي كما أثبت العلماء الحديثون في مركز قطب الدائرة للكرة الأرضية، وكانت أحب البلاد إلى قلب النبي ﷺ. أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن الحمرء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - وهو واقف بالحزورة في سوق مكة - : « والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولو لا أني أخرجت منك ما خرجت ».

٥ - الله قادر على جعل الناس على دين واحد وملة واحدة، أهل ضلالة أو أهل هدى، ولكن يدعهم وشأنهم في اختيار أي المنهجين شأوا، فأهل الهداية في الجنة، وأهل الضلالة في النار، وليس لهم ناصر ولا معين يدفع عنهم العذاب.

٦ - لقد استحبّ المشركون الكفر على الهدى، واتخذوا الأصنام معبودات وآلهة لهم من دون الله، ولكنهم خابوا وخسروا وأخطؤوا، فالله هو المعبود بحق؛ لأنه الناصر الولي الذي لا ولي سواه، وهو القادر على البعث، والقادر على كل شيء، وغيره عاجز لا يقدر على شيء، وليس محمد ﷺ عليهم رقيباً ولا حافظاً ولا مكلفاً بأن يحملهم على الإيمان شأوا أم أبوا.

٧ - لاداعي للاختلاف والتنازع بين أهل الأديان؛ لأن ذلك يورث العداوة، ويزرع الأحقاد، ويجعل الحكم إلى السلاح، وما على المؤمنين إلا أن يقولوا لمن خالفهم من أهل الكتاب والمشركين: الحكم إلى الله لا إليكم، وقد حكم أن الدين هو الإسلام لا غيره، والشرائع إنما تُتلقى من بيان الله، ومرجع الحكم وإزالة الخلاف: القرآن والسنة.

وقد أمر النبي ﷺ أن يقول لقومه: ذلكم الله الذي يحيي الموتى، ويحكم بين المختلفين هو ربِّي، عليه اعتمدت، وإليه أرجع، لا إلى غيره من المعبودات الأخرى.

٨- احتج نفاة القياس بالآية: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى النص من قرآن أو سنة. والجواب: المراد من الآية: الرد إلى بيان الله، سواء كان البيان بالنص أو بالقياس، والقياس في معنى المنصوص عليه.

٩ - استدلل الله تعالى على قدرته الفائقة بأنه خالق السماوات والأرض من العدم، وخالق الزوجين الذكر والأنثى من الناس والأنعام، وأنه ليس مثله شيء في ذاته وصفاته من عظمته وكبريائه وقدرته وملكوته، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يشبه به، وهو الذي يملك مفاتيح السماوات والأرض ويملك الخزائن، وهو الرّازق الذي يرزق من يشاء بغير حساب، وهو بكلّ شيء عليم. وفي الجملة: هو الموصوف بكل كمال، المتّزه عن كل نقصان، الخالق لكل المخلوقات، المتصرّف في هذا الكون كله.

والمقصود من إيراد هذه الصفات بيان أن الأصنام لا تتصف بشيء منها، فلا تكون أهلاً للعبادة.

وحدة الأديان في أصولها

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (٣٠) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٣١﴾

الإعراب:

﴿أَنْ أَقِيمُوا الَّذِينَ﴾ منصوب على البدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ أو مرفوع على الاستئناف، كأنه جواب سؤال تقديره: وما ذلك المشروع؟ أو مجرور على البدل من هاء ﴿يَهُ﴾.

للفردات اللغوية:

﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ أوضح وبَيَّنَّ سنَّ الشريعة. ﴿مَا وَصَّي بِهِ نُوحًا﴾ أي ما أمر به نوحاً، ونوح: أول أنبياء الشريعة، واستعمل ﴿وَصَّى﴾ بمعنى (أمر) للاعتناء بشأن الأمور به وتأكيده، أي شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما عليهم السلام من أرباب الشرع، وهو الأصل المشترك فيما بينهم، المفتر بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الَّذِينَ﴾ أي حافظوا عليه، والدين: هو التوحيد والإيمان بما يجب تصديقه، والطاعة في أحكام الله أي توحيد الله وطاعته، وهو الإسلام بالمعنى العام. ﴿وَلَا تَنفَرُقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل، أما فروع الشرع فيمكن أن تختلف، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨/٥].

﴿كَبَّرَ﴾ عَظَّمَ وشَقَّ عليهم. ﴿مَا نَدَّعَوْهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿يَجْتَنِي إِلَيْهِ﴾ بصطفي ويختار، وضمير إليه عائد على ما تدعوهم إليه، أو على الدين. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والتوفيق. ﴿مَنْ يُنْسِبُ﴾ يقبل ويرجع إلى طاعته.

﴿وَمَا نَفَرَقُوا﴾ أي أهل الأديان في الدين، بأن وخذ بعض، وكفر بعض. ﴿الْعِلْمُ﴾ اليقين بالتوحيد أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما فلم يلتفتوا إليها. ﴿بَعِيًا﴾ أي ظلماً وتجاوزاً للحد من الكافرين. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإمهال وتأخير الجزاء. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة. ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بتعذيب الكافرين المبطلين في الدنيا، حين افترقوا. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي أهل الكتاب (اليهود والنصارى)

الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ. ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ لفي حيرة من أمرهم وكتابهم الذي لم يؤمنوا بحقيقته. ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق موقع في الرؤية، شديد الريب والشك.

المناسبة:

بعد أن عظم الله تعالى وحيه إلى نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ وبعد أن عدّد تعالى نعمه على الناس، فضّل أمر الوحي، وذكر نعمته العامة وهو ما شرع لهم من العقيدة المتفق عليها من توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وبكتبه وباليوم الآخر والجزاء فيه، وذكر أن المشركين يشقّ عليهم دعوتهم إلى التوحيد وترك الأوثان، وأنهم ما اختلفوا إلا بعد قيام الحجة عليهم، وهم متأثرون ببواعث البغي والعدوان والحسد، وأنه لولا القضاء الإلهي السابق بإمھالهم وتأخير عذابهم، لعجلت لهم العقوبة في الدنيا.

التفسير والبيان:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ أي بيّن وأوضح لكم من الدّين أيها المسلمون ما أمر به وشرع لنوح أول الرّسل بعد آدم عليهما السلام من التوحيد وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرّسل وتوافقت عليها الكتب، وما أوحى به إلى النبي محمد ﷺ خاتم النبيين من القرآن وشرائع الإسلام ونبذ الشرك، وما أمر به إبراهيم وموسى وعيسى مما تطابقت عليه الشرائع، أن حافظوا على الدّين (وهو توحيد الله والإيمان به، وطاعة رسله وقبول شرائعه) ولا تختلفوا في هذه الأصول التشريعية، فإن هذه الأصول لا ينبغي ولا يصح الخلاف في مثلها.

والخلاصة: شرعنا لكم في هذه الشريعة ما اتفقت عليه الشرائع والأديان

كلها في أصول العقيدة من الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر والملائكة، وأصول العبادة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله، قال مجاهد: «لم يبعث الله نبياً قط إلا وصّاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم». وكذا أصول الأخلاق وأسس الفضائل كالصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم، وتحريم الزنى والسرقة والاعتداء على الأموال والنفوس، ووَصَّى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم السلام بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وأساس الدين الذي جاءت به الرُّسل كلهم: هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوْحِيْٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) [الأنبياء: ٢٥/٢١]. وجاء في الحديث الثابت الذي أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود عن أبي هريرة: «الأنبياء أولادُ عَلَاتٍ^(١) أمهاتهم شتى ودينهم واحد» أي إن القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له. أما اختلاف الأديان في الشعائر الفرعية وأنواع العبادات وتفاصيلها ومناهجها المختلفة من شريعة إلى أخرى، فهذا لاشيء فيه، وإنما اقتضاه التطور ومراعاة الحاجات والمصالح، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨/٥].

وهذه الآية انتظمت ذكر الرُّسل الخمسة أولي العزم: وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وإنما خصَّهم بالذكر؛ لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عظم وشقٌّ على المشركين دعوتهم إلى توحيد الإله ورفض الأصنام والأوثان، وأنكروا واشتدَّ عليهم: أن لا إله إلا الله وحده، وأبى الله إلا أن ينصرها.

(١) بنو العلات: هم الإخوة والأخوات لأب.

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي إن الله يختار لتوحيده والدخول في دينه من يشاء من عباده، ويوفق لدينه وعبادته من يرجع إلى طاعته ويقبل إلى عبادته. وهذا يبين فضل الله على عباده المؤمنين أنه هداهم لدينه، بعد أن أمرهم بالتمسك بالدين القديم الذي أجمع عليه الرسل.

وسبب التفرق في الدين بالرغم من وحدته، هو ما قال تعالى:

﴿نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي ما تفرق أتباع الأديان في اتباع الحق إلا بعد قيام الحجة عليهم، وبعدما علموا أن الفرقة ضلالة، وما حملهم على ذلك إلا العناد والمشاقة والبغي بينهم بطلب الرياسة، وشدة الحمية، والحفاظ على مراكز التفوذ والمكاسب المادية.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيَّ لَأَجَلَ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولولا القضاء السابق من ربك بتأخير العقوبة والحساب إلى يوم المعاد، لتعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً، بسبب ما اقترفوا من آثام عظام.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرُوا أَلْكِتَبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن الجيل المتأخر من أهل الكتاب الذين توارثوا التوراة والإنجيل عن سبقهم لفي شك من كتابهم ودينهم وإيمانهم؛ وهو شك مقلق موقع في الرّيب بشدة؛ لأنهم لم يتبعوا الحق، وإنما قلّدوا رؤساء الدين المتأخرين الذين صوّروا لهم الدين بصورة مغايرة لحقيقته الأولى، واتبّعوا الآباء والأسلاف بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، ولذلك لم يؤمنوا برسالة خاتم الأنبياء، وأصبحوا مكذّبين القرآن ومحمداً ﷺ الذي صدّق كتابهم في أصله الأول

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - إن الرّسالات السماوية متحدة في أصولها، وإن اختلفت في فروعها.

٢ - شرع الله لأمة الإسلام ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، من توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه وباليوم الآخر، وغيرها من أصول العقيدة والعبادة والأخلاق.

أما أحكام الشرائع التي هي متبدلة متغيرة بحسب أحوال الأمم ومصالح الأقوام، فهي مختلفة متفاوتة؛ وهذا أمر حسن يتناسب مع الأحوال والبيئات والظروف، فالشرع كامل العلم والحكمة، والإسلام دين قديم أجمع عليه الرُّسل، والشرائع قسمان: منها ما لا نسخ فيه، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان، كحسن الصدق والعدل والإحسان، وقبح الكذب والظلم والإيذاء، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان. والشرع حريص على القسم الأول باعتباره الجوهر أكثر من حرصه على القسم الثاني.

٣ - إن الأديان قائمة على توحيد الله، فلا تلتقي مع الشرك والمشركون، وإنما ترفض الشرك والوثنية، وتقبح عقائد المشركون، لذا كان يشقُّ على المشركون سماع كلمة التوحيد - شهادة أن لا إله إلا الله.

٤ - يستخلص الله لدينه من رجع إليه، ويهدي إليه من وجد فيه الخير.

٥ - لم تفرق الأمم في أديانها إلا بعد علمهم بالحق والحقيقة، وآثروا الفرقة والاختلاف على الوحدة والجماعة للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا، فما على المسلمين إلا أن يحذروا الفرقة والتشتت ويحرصوا على الجماعة والوحدة، وينبذوا الخلافات والعصبيات المذهبية الضارة.

٦ - اقتضت الحكمة الإلهية تأخير العذاب إلى يوم القيامة، وتأخير الفصل بين المختلفين إلى يوم المعاد والحساب.

٧ - إن الذين توارثوا التوراة والإنجيل لفي شك من كتبهم ومما أوصى به الأنبياء.

الأمر بالدعوة والاستقامة على المتفق عليه ودحض حجة المجادلين فيه

﴿فَلِذَلِكَ فَادِّعْ وَأَسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تُلْبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا
 وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾
 وَالَّذِينَ يُحَاجُّوكَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جُمُوعٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
 وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ
 وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي
 السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
 الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

الإعراب:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّوكَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جُمُوعٌ دَاحِضَةٌ﴾
 ﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ، و﴿جُمُوعٌ﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿دَاحِضَةٌ﴾: خبره، والجملة
 منهما خبر المبتدأ الأول.

﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْزَلَ﴾.

﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ذكر ﴿قَرِيبٌ﴾ من أربعة وجوه: ذكره على النسب،
 أي ذات قرب، مثل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦/٧] أي ذات
 قرب، أو لأن التقدير: لعل وقت الساعة قريب، أو حلاً على المعنى؛ لأن
 الساعة بمعنى البعث، أو للفرق بينه وبين قرابة النسب. وقال الكسائي:
 ﴿قَرِيبٌ﴾ نعت ينعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنى ولفظ واحد.

و﴿لَعَلَّ﴾ علق فعل ﴿يُذْرِيكَ﴾ عن العمل، وسد ما بعده مسد المفعولين.

البلاغة:

﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ بينهما طباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَيْدَ لِكَ فَانَغُ وَأَسْتَقِمُ﴾ اللام في موضع إلى، أي فلذلك الائتلاف والاتقان على الملة الحنيفة ادع الناس يا محمد، واستقم عليه وداوم واثبت. ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في تركه. ﴿ءَامَنْتُ﴾ صدقت. ﴿لَأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم والقضاء دون حيف ولا ميل لجانب. ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ فيجازي كلّا بعمله. ﴿لَا حُجَّةَ﴾ لا احتجاج ولا خصومة؛ إذ الحق قد ظهر. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة لفصل القضاء. ﴿وَالْيَدِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع.

﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه. ﴿أَسْتُجِيبُ لَكُمْ﴾ استجاب الناس لدينه، ودخلوا فيه لظهور حجته ومعجزاته، ﴿دَاحِضَةً﴾ زائفة باطلة. ﴿وَعَلَيْهِمْ عَصَبٌ﴾ بمعاندتهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن أو جنس الكتاب. ﴿وَالْيَزَانَ﴾ العدل والمساواة بين الناس. ﴿وَمَا يُذْرِيكَ﴾ يعلمك. ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ لعل إتيانها قريب. ﴿يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ يتساءلون استهزاء: متى تأتي؟ وظناً منهم أنها غير آتية. ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون منها مع العناية والاهتمام، والفعل (أشفق) إذا عُدِّي بمن كما هنا فالخوف أظهر، وإذا عُدِّي بعل، مثل: أشفقت على اليتيم، فالعناية أظهر. ﴿الْحَقُّ﴾ الأمر المحقق الكائن حتماً. ﴿يُمَارُونَ﴾ يجادلون. ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق؛ فإن البعث أشبه الغيبات إلى المحسوس، فمن لم يهتد إليه لتوافر الدواعي على الاعتقاد به، فهو أبعد عن الاهتداء إلى غيره.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ يتلطف بهم جميعاً، سواء البر منهم والفاجر، حيث رزقهم ولم يهلكهم بمعاصيهم. ﴿بَرَزُوا مِنْ يَشَاءُ﴾ من يريد، كما يشاء ويريد. ﴿الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة. ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب.

سبب النزول:

نزول الآية (١٦):

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾: أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أظهرنا، فعلام تقيمون بين أظهرنا؟ فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمُ﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية قال: هم اليهود والنصارى قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم.

المغاسبة:

بعد أن أبان الله تعالى وحدة الدين في أصوله الأولى، أمر نبيه بالدعوة إلى الاتفاق على الملة الحنيفية، والاستقامة عليها والثبات على أحكامها، وأنهى الحاجة والخصومة بين المؤمنين والمشركين لوضوح الحجّة، ثم ذكر أن الذين يخاصمون في الدين بعد الاستجابة إليه، حجتهم زائفة باطلة، وأردفه استعجال المشركين استهزاء وإنكاراً بيوم القيامة، وإيمان المؤمنين به حتماً واستعدادهم له وأن المماراة والشك فيه ضلال واضح، لكثرة الأدلة على وقوعه.

التفسير والبيان:

اشتملت الآية الأولى ﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعِ﴾ على عشرة أوامر ونواهٍ، كل منها

مستقل بذاته، ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة موضوعات. والأمر بهذه الأوامر والنهي عن هذه النواهي، وإن وجه إلى النبي ﷺ، فهي له ولأمته.

أ - ٢ - ﴿فَلِذَلِكَ فَادِّعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ﴾ أي ادع أيها الرسول إلى ذلك الأمر المتفق عليه، واثبت وداوم واستمر على عبادة الله وتبليغ الرسالة، كما أمرت من ربك، فيكون قوله: ﴿فَلِذَلِكَ﴾ أي إلى ذلك، وتكون اللام بمعنى إلى كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا ۝﴾ [الزّلزلة: ٥/٩٩].

ويصح أن يكون المراد باللام التعليل، أي فلأجل ذلك التفرق والشك المذكورين، ولأجل تلك الاختلافات المتشعبة في الدين، ادع إلى الاتفاق والاتلاف على الملة الحنيفية القديمة، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله، فتكون اللام على بابها للتعليل، والمعنى: فمن أجل ذلك المتقدّم ذكره فادع واستقم.

أو فلأجل ما شرعه الله من الدين الواحد، فادع إلى الله وإلى توحيده، واستقم على مадعوت إليه، واستمر على تبليغ الرسالة كما أمرت بذلك.

٣ - ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ولا تتبع أيها الرسول أهواء المشركين فيما اختلقوه وافتروه من عبادة الأوثان، ولا تتبع أيضاً أهواء الذين أورثوا الكتاب فيما وقعوا فيه من شكوك وحيرة وتحريف وتبديل.

٤ - ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي وقل أيها الرسول: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله، من التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، لانفراق بين أحد منهم، فلست من الذين آمنوا ببعض الكتب، وكفروا ببعض، وهذا تعريض بأهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين حصل منهم ذلك.

٥- ﴿وَأْمُرْتَ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي وأمرني الله بأن أعدل بينكم في الحكم والقضاء إذا ترافعتم إلي، ولا أحيف عليكم بزيادة أو نقص.

٦- ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي الله هو المعبود بحق، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختياراً، فهو إلهنا وإلهكم، وخالفنا وخالفكم.

٧- ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي إن ثواب أعمالنا وعقابها خاص بنا، ولكم ثواب أعمالكم وعقابها، فهو خاص بكم، ونحن برآء منكم ومن أعمالكم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبا: ٢٥/٣٤] ، وقال سبحانه: ﴿وَأِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٤١/١٠] .

٨- ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا خصومة بيننا وبينكم ولا احتجاج؛ لأن الحق قد ظهر ووضح كالشمس.

٩- ١٠- ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا في المحشر يوم القيامة، فيقضي بيننا بالحق في خلافتنا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾﴾ [سبا: ٢٦/٣٤] . وإليه وحده سبحانه المرجع والمآب يوم الحساب والقيامة، فيجازي كل نفس بما كسبت. قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة، وقد سالا رسول الله ﷺ أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش، على أن يعطيه الوليد نصف ماله، ويزوجه شيبة بابنته.

ثم بين الله تعالى بطلان حجة المجادلين في دين الله، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يُخَاجِرُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَنَّاتٌ دَاخِلَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غُصْبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٣٢﴾﴾ أي والذين يخاصمون في دين الله من

بعد ما استجاب الناس له، ودخلوا فيه، حجتهم باطلة عند ربهم، أي لاثبات لها، كالشيء الذي يزل عن موضعه، وعليهم غضب عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل، ولهم عذاب شديد يوم القيامة. وسميت دعاويهم الزائفة وأباطيلهم حجةً ودليلاً، مجارة لهم على زعمهم.

قال مجاهد: وهؤلاء قوم توقموا أن الجاهلية تعود، فجادلوا الذين استجابوا للإسلام، لعلهم يردونهم إلى الجاهلية.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، ومحاجتهم قولهم: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم. والظاهر هذا الرأي، روي أن اليهود قالوا للمؤمنين: ألسنتم تقولون: إن الأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف؟ فنبوة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق، ونبوة محمد ليست متفقاً عليها، فوجب أن يكون الأخذ باليهودية أولى، فدحض تعالى هذه الحجة؛ لأن الإيمان بموسى عليه السلام إنما وجب لظهور المعجزات على يديه، للدلالة على صدقه، وقد ظهرت المعجزات على يدي محمد ﷺ، فوجب الإقرار بنبوته.

ثم رد تعالى عليهم بقوله:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ أي لقد أنزل الله جميع الكتب المنزلة على الرسل إنزالاً مشتملاً على الحق مقترناً به، وعلى أنواع الدلائل والبيّنات، وأنزل الميزان في كتبه المنزلة، أي العدل والتسوية والإنصاف، ليحكم به بين البشر، وسمي العدل ميزاناً؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الناس في بيعهم وشرائهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٥].

وبعد تقرير هذه الدلائل خوفاً الله تعالى المنكرين بعذاب القيامة، فقال:

﴿وَمَا يَذُرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي وما يعلمك أيها الرسول والمخاطب

أن مجيء الساعة عسى أن يكون قريباً حصوله. وفي هذا ترغيب باتباع شرع الله، وترهيب من القيامة، وطلب الاستعداد لها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي يتعجل بقدم الساعة الذين لا يصدقون بها، قائلين استهزاء وإنكاراً وعناداً: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي والمؤمنون خائفون وجلون من وقوعها، ويعلمون أنها كائنة لا محالة، فهم عاملون من أجلها، مستعدون لها، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦٠].

ثبت في حديث متواتر أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه، فقال: يا محمد، فقال له نحواً من صوته: «هاؤم»، فقال له: متى الساعة؟ فقال له: «ويحك إنها كائنة، فما أعددت لها؟» فقال: حُبَّ الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت» أو «المرء مع من أحب».

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارَوْنَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ألا أيها السامع، إن الذين يجادلون في وجود القيامة، ويخاصمون فيها وخاصة شك وريبة، لفي جهل بين، وانحراف شديد عن الحق، ولو تفكروا لعلموا أن الذي خلقهم ابتداءً قادر على الإعادة، ومن خلق السماوات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/٢٧].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ أي إن الله تعالى كثير اللطف بعباده، بالغ الرأفة بهم، فيوصل إليهم أعظم المنافع ومنها إنزال الكتاب المقترن بالحق، ويدفع عنهم أعظم المضار والبلايا ومنها تأخير العذاب عن الخلق، كما في الآيات المتقدمة، ومن الطافه ومنافعه أنه يرزق

جميع عباده، البرّ منهم والفاجر، يرزق من يشاء منهم كيف يشاء، فيوسع على هذا، ويضيق على هذا، وهو العظيم القوة، الباهر القدرة، الذي يغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء، فلا يعجزه شيء.

ونحو الآية في الإمداد بالأرزاق قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ١٦/١١]، ونظائر أخرى كثيرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات مايلي:

أ- النبي ﷺ ومن بعده كل مؤمن مأمور بالدعوة إلى ذلك الدين الذي شرعه الله للأنبياء ووضاهم به، وإلى القرآن المتضمن تلك الشرائع، وهو مأمور أيضاً بالاستقامة والثبات على تبليغ الرسالة والعمل بها، ومنهي عن اتّباع الأهواء والحظوظ النفسية وعدم الاهتمام بخلاف من خالف.

وهو مأمور كذلك بالعدل في الأحكام كما أمر الله، وإعلان أن الله ربّ الناس جميعاً، لأربّ المسلمين وحدهم، ولا ربّ فئات أخرى وحدها، وأن كل واحد مخصوص بعمل نفسه، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله، فلنا ديننا ولكم دينكم، ولا خصومة بيننا وبينكم؛ لأن البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، ويعد العناد لاحجة ولا جدال.

والله سيجمع جميع الخلائق إليه يوم القيامة، وإليه المرجع، فهو يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ويجازي كلّ بما كان عليه.

٢- إن المشركين واليهود والنصارى الذين يجادلون في دين الله، بعد انتشاره في الآفاق أو المشارق والمغارب، حجتهم باطلة زائفة لاثبات لها، وعليهم غضب من الله في الدنيا، ولهم عذاب شديد دائم في الآخرة.

٣- إن الله تعالى هو منزل القرآن وسائر الكتب المنزلة مقترنةً بالحق والصدق، ومُنْزَل في كتبه العدل، وسمي العدل ميزاناً؛ لأن الميزان -كما تقدم- آلة الإنصاف والعدل.

٤- وردت في القرآن آيات كثيرة للترغيب والترهيب تدلّ على قرب يوم القيامة وتحقق وقوعها حتماً لا محالة.

٥- إن شأن الكفار دائماً ومعهم الملاحدة والماديون والطبيعيون ينكرون وقوع القيامة استهزاء وكفراً وعناداً وتكذيباً بها، ظناً منهم أنها غير آتية، أو إيهاماً للضعفة أنها لا تكون.

وعقيدة المؤمن: الإيمان الجازم بمجيء القيامة، فهي الحق الذي لا شك فيه، وهم دائماً يعملون لها ويستعدون من أجلها، خوفاً من أهوالها، وحساب الله الشديد فيها.

وإن الذين يشكون ويخاصمون في قيام الساعة لفي ضلال بعيد عن الحق والفكر الصحيح؛ إذ لو تفكروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب، ثم من نطفة، إلى أن صاروا رجالاً، قادر على أن يبعثهم.

٦- إن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده، ينعم عليهم جميعاً، ويرزق المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر كيف يشاء، ويحرّم من يشاء، وهو البالغ القوة، القاهر الذي لا يغلب.

حتمية الجزاء للمؤمنين والظالمين وقبول التوبة

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۝٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢١ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ ۖ وَالدِّينَ أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتٍ أَلْحَنَّا لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٢٢ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٢٣ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَبَشِّرِ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّقِ الْبَاطِلَ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٢٤ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٢٥ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝٢٦﴾

القراءات:

﴿نُؤْتِهِ﴾: قرئ:

- ١- (نُؤْتِهِ) وهي قراءة أبي عمرو، وحمزة.
- ٢- (نُؤْتِهِ) قرأ قالون بكسر الهاء من غير صلة.
- ٣- (نُؤْتِهِ) قرأ الباقون بكسر الهاء مع الصلة.

﴿يُبَشِّرُ﴾: قرئ:

١- (يُبَشِّرُ) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحزة، والكسائي.

٢- (يُشِّرُ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿تَفْعَلُونَ﴾ : قرئ:

١- (تفعلون) وهي قراءة حفص، وحزة، والكسائي، وخلف.

٢- (يفعلون) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «وَإِنَّ» بالكسر: على الابتداء، ويقرأ بالفتح بالعطف على كلمة «الْفَصْلِ» وتقديره: ولولا كلمة الفصل وأن الظالمين.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ «مُشْفِقِينَ» حال من الظالمين؛ لأن «تَرَى» من رؤية العين، لا من رؤية القلب.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ بحذف الباء والهاء، أي: ذلك الذي يبشر الله به عباده، ثم حذف الباء والهاء تخفيفاً. و«ذَلِكَ» بمبتدأ، وخبره اسم موصول، والعائد عليه محذوف، أي يبشر الله به عباده كما ذكر.

﴿قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ «الْمَوَدَّةَ»: منصوب على الاستثناء من غير الجنس.

﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ «وَيَمْنَحُ»: ليس معطوفاً على «يَحْتِمُ» المحزوم، وإنما هو مستأنف مرفوع، وإنما حذفت الواو منه، كما حذفت في «سَدْعُ الرَّبَّايَةِ» [٨] [العلق: ١٨/٩٦]، و«وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ» [الإسراء: ١٧/١١]، وإن كان في موضع رفع؛ لأن محو الله الباطل واجب، وليس معلقاً بشرط.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿الَّذِينَ﴾: منصوب على أنه مفعول به، أي ويحيب الله الذين آمنوا، أو على تقدير حذف حرف الجر، أي ويستجيب للذين آمنوا، فحذفت اللام، فاتصل الفعل به. وقال أبو حيان: والظاهر أن ﴿الَّذِينَ﴾ فاعل يستجيب الذي هو بمعنى يحيب.

البلاغة:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ استعارة تمثيلية، شبه العمل للآخرة بالزراع يزرع الزرع ليحني منه الثمرة، وبين الآخرة والدنيا طباق. ﴿وَسَمِعَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ بينهما مقابلة.

للفردات اللغوية:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله. ﴿حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي ثوابها، والأصل في الحرث: إلقاء البذر في الأرض، وقد يطلق على الثمر، شبه ثمرة العمل ونتيجته بثمرة المزرع، وهذا يتضمن تشبيه الأعمال بالبذور. ﴿نَزَدَ لَكُمْ فِي حَرْثِهِ﴾ نضاعف له الحسنة إلى عشر أمثالها وأكثر. ﴿حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ لذاتها وطيباتها. ﴿نُؤَيِّدُ مِنْهَا﴾ بلا مضاعفة ما قسم له، أي نعطف شيئاً منها على ما قسمنا له. ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ من حظ.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي بل لكفار مكة وأمثالهم شركاء في الكفر، وهم الشياطين، وأم: أي بل ألهم شركاء؟ والهمزة للتقرير والتفريع، فهو استفهام تقرير وتوبيخ. ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ شرع الشركاء بالتزوين للكفار. ﴿مَنْ الَّذِينَ مَا لَمْ يَأْدَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي من النظام الفاسد كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فقط. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء ليوم القيامة. ﴿لَفُصِّي بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين بتعذيب الأوائل في الدنيا. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ في يوم القيامة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ في الدنيا من السيئات أن يجازوا عليها. ﴿وَهُوَ وَاَقْعُ بِهِمْ﴾ أي والجزاء واقع بهم يوم القيامة، لا محالة. ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ في أطيب بقاعها وأنزهها. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي إن ما يشتهونه ثابت عند ربهم. ﴿ذَلِكَ﴾ جزاء المؤمنين. ﴿الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ هو الفضل الإلهي العظيم الذي يصغر أمامه أي فضل في الدنيا.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ﴾ ذلك الثواب الذي يبشرهم الله به، فحذف الجار، ثم العائد، والبشارة: الإخبار بمحصل ما يشر في المستقبل. ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لا أطلب على التبليغ أو البشارة نفعاً منكم وخصصه العرف بالنفع المالي. ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ استثناء منقطع، أي لكن أسألكم أن تودّوا قرابتي منكم، فإن له في كل بطن من قریش قرابة، أو لكن أسألكم المودة حال كونها في القربى، أي إلا المودة ثابتة في ذوي القربى أو في حق القرابة، روي بسند ضعيف أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء؟ قال: علي وفاطمة وابناهما. فالقربى هنا: قرابة الرحم، كأنه قال: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة.

﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً﴾ يكتسب طاعة، سيما حب آل الرسول. ﴿تَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ نضاعف له الثواب في الحسنة. ﴿عَفْوًا﴾ للذنوب. ﴿شُكْرًا﴾ كثير الشكر للقليل ولمن أطاع بإيفاء الثواب والتفضل عليه بالزيادة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي بل يقولون. ﴿أُفْتَرَى﴾ ادعى محمد النبوة أو القرآن. ﴿يَجْتَمِعُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ يطبع عليه بالخاتم حتى تجترئ على الافتراء، والمراد استبعاد الافتراء على مثله، فإنما الذي يجترئ عليه ما كان محتوماً على قلبه جاهلاً بربه، أو المراد: يربط عليه بالصبر، فلا يشق عليك أذاهم بهذا القول وغيره. ﴿وَمَنْعَ اللَّهِ الْبَطْلَ﴾ يزيله، وهو استئناف لنفي الافتراء عما يقوله النبي.

﴿وَيُحْيِ الْمَوْتُ وَيُخَيِّطُ﴾ يثبته. ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ هي حججه وبراهينه. ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب.

﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ يثيب عليها وهو تعريض لهم بالتوبة. ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُفْعَلُونَ﴾ فيجازي عن يقين وحكمة.

سبب النزول:

نزل الآية (٢٣):

﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ﴾: قال قتادة: قال المشركون: لعلَّ محمداً فيما يتعاطاه يطلب أجراً؛ فنزلت هذه الآية؛ ليحثهم على مودته ومودة أقرائه. قال الثعلبي: وهذا أشبه بالآية؛ لأن السورة مكية.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى كونه لطيفاً لعباده، كثير الإحسان إليهم، رغب في فعل الخير، والاحتراز عن القبائح بالعمل للآخرة، وأوضح قانون العمل للآخرة والدنيا، ثم أردفه ببيان سبب الضلالة عند المشركين، واستحقاقهم العذاب العاجل على الشرك بالله وإنكار البعث، لولا تأخيرهم في الحكم الأزلي السابق إلى الآخرة، وإخبارهم بوقوع عذاب الآخرة، وحصول الثواب في رياض الجنة للمؤمنين.

ثم عظم تعالى حال الثواب، وأمر رسوله بأن يخبر قومه بأنه لا يطلب منهم على تبليغ الرسالة نفعاً عاجلاً، وإنما يطلب منهم صلة الرحم والقراءة التي هي شأن قریش، وهذا دليل النبوة. ثم رد عليهم قولهم بأن القرآن مفترى: بأنه لا يفترى الكذب على الله إلا من كان مختوماً على قلبه، فلو كان محمد مفترياً لكشف الله باطله. ثم رغبهم في التوبة، ووعد تعالى بإجابة دعاء المؤمنين الصالحين، وأوعد الكافرين بشديد العقاب.

التفسير والبيان:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الآخرة، نقويه ونغنيه، ونجزيه بالحسنة عشرة أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى ما شاء الله.

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي ومن كان سعيه للحصول على شيء من شؤون الدنيا، وطلب لذائذها وطيباتها، وإهمال شؤون الآخرة، نعطه ما قضت به مشيئتنا، وقسمناه له في قضائنا، ولكن ليس له في الآخرة حظ؛ لأنه لم يعمل للآخرة، فلا نصيب له فيها.

وهذه الآية بإطلاقها مقيدة بآية الإسراء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ [الإسراء: ١٧/١٨-١٩].

أخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه وغيرهما عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بُشِّرْ هذه الأمة بالسَّاءِ والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب».

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ الآية، ثم قال: يقول الله: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك».

ولما ذكر تعالى ما شرع للناس، وهو ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ الآية، أخذ ينكر ما شرع غيره وهو سبب ضلال المشركين، فقال:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي بل إن

المشركين لهم أعوان من الشياطين شرعوا ما لم يشرعه الله، فلم يتبعوا ما شرع الله لك يا محمد من الدين القيم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، كتحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار ونحو ذلك من الضلالات والجهالات الباطلة التي اخترعوها في الجاهلية، من التحليل والتحريم والعبادات والأموال. فالشركاء: هم شياطين الجن والإنس، وضمير ﴿شَرَعُوا﴾ عائد على الشركاء، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ عائد على الكفار المعاصرين للرسول.

ثبت في الصحيح لدى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لُحَيٍّ بن قَمْعَةَ يَجُرُّ قُضْبَهُ -أي أمعاءه- في النار» لأنه أول من سيب السوائب، وسنّ للعرب عبادة الأصنام، وكان أحد ملوك خُزَاعَةَ، لذا قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولولا الحكم والقضاء السابق من الله تعالى بتأخير العذاب في هذه الأمة إلى يوم القيامة، لقضي بين المؤمنين والمشركين، وعجلت العقوبة في الدنيا لأئمة الشرك، وإن للظالمين العذاب المؤلم الشديد الموجه في جهنم، وبئس المصير.

وتأخير العذاب بموجب قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ [القمر: ٤٦/٥٤].

ثم ذكر تعالى أحوال الجزاء الأخروي لكل من الظالمين والمؤمنين، فقال:

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ﴾ أي ترى رأي العين أو تبصر الكفار (للقابله بالمؤمنين) خائفين وجلين يوم القيامة مما عملوا من السيئات في الدنيا، وجزاء ما كسبوا واقع بهم نازل عليهم لا محالة، سواء خافوا أو لم يخافوا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي والذين صدقوا بالله ورسوله، وأطاعوا ربهم فيما أمر به ونهى عنه، هم في رياض الجنة وأطيبها وأنزهها، ولهم ما يشتهون عند ربهم من أصناف النعم وأنواع الملذات، ذلك الجزاء الممنوح لهم الذي لا يوصف ولا تعرف حقيقته هو الفضل الذي يفوق كل فضل في الدنيا، وهو النعمة التامة الشاملة. وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ العندية عندية المكانة والتشريف، لا عندية المكان.

ثم أخبر تعالى عن حتمية وقوع هذا الجزاء، فقال:

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي إن هذا الجزاء في روضات الجنات والنعيم الشامل حاصل لهم، كائن لاحالة ببشارة الله تعالى لهم به، وتلك البشارة لهؤلاء الجامعين بين الإيمان والعمل بما أمر الله به، وترك ما نهى عنه. فقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما أعد لهم من الكرامة.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يظهر ترفعه وسموه عن أعراض الدنيا ومنافعها، فقال:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جُغلاً ولا مكافأة ولا نفعاً مادياً، ولكن أطلب تقدير صلة الرحم والقربة التي بيني وبينكم، وإكرام آل بيتي وقرايتي، فتكفؤوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي. فقوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾ استثناء منقطع؛ لأن المودة ليست أجراً.

أخرج أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرايتي منكم، وتحفظوا القربة بيني وبينكم».

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أيضاً أن النبي ﷺ قال: «لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى، وأن تقرّبوا إليه بطاعته». وهذا قول للحسن البصري، وهو تفسير ثانٍ للمودة في القربى، أي إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقرّبكم عند الله زلفى. والظاهر لدي هو التفسير الأول، وأن مودة قرابته داخلة في الآية، والتقدير: إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها، قال أبو حيان: وهو حسن، وفيه تكثير.

قال عكرمة: وكانت قريش تصل أرحامها، فلما بُعث النبي ﷺ قطعته، فقال: «صلوني كما كنتم تفعلون».

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض» وفسرت العترة في رواية الترمذي عن جابر فقال ﷺ: «عترتي أهل بيتي».

ثم رغبهم الله تعالى في الإحسان والإيمان، فقال:

﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً زَدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي ومن يعمل حسنة، نزد له فيها حسناً، أي أجراً وثواباً، إن الله يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، ويضاعف ويشكر المحسن. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠/٤].

ثم ونجهم على افتراءهم على الرسول، فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي بل يقولون: افترى محمد على الله كذباً بدعوى النبوة ونزول القرآن عليه، وهذا أقبح من الشرك الذي جعلوه شرعاً لهم، أي إنه تعالى أضرب عن الكلام المتقدم من غير إبطال، ثم استفهم استفهام إنكار وتوبيخ على هذه المقالة، فمثله لا ينسب إليه الكذب على الله، مع اعترافكم له قبل ذلك بالصدق والأمانة.

ثم أكد ذلك فرد الله عليهم مستبعداً الافتراء من مثل محمد الرسول، فقال:

﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمَنَّهُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي لو افتريت على الله كذباً، لطبع على قلبك إن شاء، وسلبك ما أتاك من القرآن، فلا يجرؤ على مثل هذا إلا من كان مثلهم قد ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم، فأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا يجرؤ على ذلك، وهذا هو الرسول ﷺ، فإنه لم يفر على الله كذباً، فأيده الله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥﴾ ثم لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ ۝٤٧﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧/٤٦].

وقال أبو السعود: والآية استشهاد على بطلان ما قالوا ببيان أنه ﷺ لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً، بالخنم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرف من حروفه^(١).

ثم أكد الله تعالى ذلك بإبطال الباطل وإحقاق الحق، فالله سبحانه وتعالى لا يدع الباطل يستمر، فلو كان ما أتى به النبي ﷺ باطلاً لحاه، كما جرت به عادته في المفتريين، وإنما يثبت الحق، أي الإسلام، فيبينه بما أنزل من القرآن، وبما أيد به نبيه من المعجزات والحجج والبراهين، إنه تعالى واسع العلم بما في قلوب العباد.

ثم فتح تعالى أمامهم باب الأمل والتوبة، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٢٥﴾ أي إن الله عز وجل يقبل في المستقبل من عباده المذنبين توبتهم عما

عملوا من المعاصي، ويعفو عن السيئات في الماضي، ويعلم الذي تفعلونه من خير أو شر، فيجازي كلاً بما يستحق من الثواب والعقاب.

ونحو الآية: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحْدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠/٤] وثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله تعالى أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأقى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح».

وأكد قبول التوبة بقبول الدعاء، فقال تعالى:

﴿وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي ويستجيب الله للذين آمنوا، وأطاعوا ربهم، ويعطيهم ما طلبوه منه، ويزيدهم على ما طلبوه منه، أو على ما يستحقونه من الثواب، تفضلاً منه ونعمة.

أو يجيب الله الذين آمنوا إذا دعوه، أو يجيب الذين آمنوا لربهم، مثل ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤/٨]، فيكون المراد بقوله: ﴿وَسَتَجِيبُ﴾ أي يجيب، قال الزجاج: استجاب وأجاب بمعنى واحد^(١).

وبعد أن وعد المؤمنين بالثواب أوعد الكافرين بالعذاب، فقال:

﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وللكافرين الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله يوم القيامة عذاب مؤلم موجه.

(١) تبين بهذا أن قوله تعالى: ﴿وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ﴾ «الَّذِينَ» إما فاعل مرفوع تقديره: ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم إليه، وإما مفعول محله النصب، والفاعل مضر وهو الله، وتقديره: ويستجيب الله للمؤمنين، إلا أنه حذف اللام، كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَأُولِهِمُ﴾ [المطففين: ٢٣/٨٢] والثاني أولى كما ذكر الرازي.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات الكريمات ما يأتي:

١- إن مبدأ الإسلام هو العمل للدنيا والآخرة معاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْكُنْ نَفْسِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [الفصل: ٢٨/٧٧]. وقال عبد الله بن عمر: «واحرث للدنيا كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». والحرث: العمل والكسب.

٢- فضل الله تعالى من أراد الآخرة على من أراد الدنيا في الآية من وجوه ستة هي:

الأول: أنه قدم تعالى مريد حرث الآخرة في الذِّكْر على مريد حرث الدنيا.

الثاني: أنه قال في مريد حرث الآخرة: ﴿نَزِدْ لَمْ فِي حَرْثِهِ﴾ وقال في مريد حرث الدنيا: ﴿تُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ وكلمة «من» للتبويض، أي نعطيه بعض ما يطلبه، ولا نُؤْتِيهِ كله.

الثالث: أنه تعالى سكت عن طالب حرث الآخرة، ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا، أما طالب حرث الدنيا، فإنه تعالى بيّن أنه لا يعطيه شيئاً من نصيب الآخرة على التنصيص، وهذا يعني أن الآخرة أصل والدنيا تبع، وواجد الأصل يكون واجداً للتبع بقدر الحاجة.

الرابع: أنه تعالى بيّن أن طالب الآخرة يزاد في مطلوبه، وأما طالب الدنيا فيعطى بعض مطلوبه من الدنيا، ويحرم من نصيب الآخرة.

الخامس: إن الآخرة نسيئة، والدنيا نقد، والنسيئة مرجوحة بالنسبة إلى النقد؛ لأن الناس يقولون: النقد خير من النسيئة، فبين تعالى أن هذه القضية انعكست بالنسبة إلى أحوال الآخرة والدنيا، فالأولى متجهة للزيادة والنمو والثانية آيلة إلى النقصان.

السادس: الآية دالة على أن منافع الآخرة والدنيا تحتاج إلى حرث وعمل وتعب، وصرف المتاعب إلى ما يؤدي إلى التزايد والبقاء أولى من صرفها إلى ما يؤدي إلى النقصان والانقضاء والفناء^(١).

٣- استنبط ابن العربي من هذه الآية: «مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ» أن الوضوء تبرداً الذي هو من حرث الدنيا، لا يجزئ عن فريضة الوضوء الذي هو من حرث الآخرة، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله تعالى^(٢).

٤- إن شرع الله الدائم هو ما أنزله على أولى العزم من الرسل، والله لم يشرع الشرك، فمن أين يدين المشركون به؟

٥- من رحمة الله بالمشركين تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة، ليعطوا فرصة كاملة في أيام العمر كله للإقلاع عن الشرك والكفر، والدخول في ساحة الإيمان والرضا الإلهي. فإن ماتوا مشركين فلهم في الآخرة عذاب مؤلم موجه.

٦- يبصر الناس الكافرين الظالمين خائفين في يوم القيامة من جراء ماكسبوا، والجزاء حتماً نازل بهم. والمراد بالظالمين ههنا الكافرون، بدليل التقسيم بين المؤمنين والكافرين.

أما المؤمنون الطائعون لرهبهم فهم في روضات الجنان، ولهم ما يشتهون من النعيم والثواب الجزيل، وذلك هو الفضل الذي لا يوصف ولا تهتدي العقول إلى حقيقته؛ لأن الله إذا وصف الفضل بأنه «الْكَبِيرُ» فمن ذا الذي يقدر قدره. قال الرازي: وفي الآية تنبيه على أن الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة، إلا أنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات، وهي البقاع الشريفة من الجنة.

(١) تفسير الرازي: ١٦٢/٢٧

(٢) أحكام القرآن: ١٦٥٥/٤

٥- يبشر الله عباده المؤمنين بالثواب العظيم حثاً لهم على الطاعة، وليتبعجّلوا السرور، ويزدادوا منه. ولكن هذا الجزاء والبشارة، إنما هو على الإيمان والأعمال الصالحات.

٦- عظم الله تعالى ثواب المؤمنين من وجوه أربعة هي:

الأول: أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات، وترتيب هذا الجزاء من الله صاحب السلطان الأعظم دليل على أن ذلك الجزاء قد بلغ النهاية التي لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يدخل في باب غير المتناهي.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وإذا كان هذا من الله الأكبر كان في غاية الكبر.

الرابع: أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم، فقال: ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل على غاية العظمة.

٩- إن النبي ﷺ لم يطلب من قومه أي منفعة مادية على تبليغ الرسالة، وهذا دليل على صدقه وإخلاصه، والحد الأدنى الذي طالب به هو مراعاة قرابته من قريش. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ أوسط الناس في قريش، فليس بطن من بطونهم إلا وقد ولدته، فقال الله له: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي لكن أذكركم قرابتي منكم.

وقد صرح أكثر الأنبياء بنفي طلب الأجر على تبليغ الرسالة، فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩/٢٦] ، وكذا قال هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام^(١).

١٠ - إن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يشمل قرابة النبي ﷺ من قریش، وآل بيته الأقارب، وهم كما جاء في بعض الأحاديث: علي وفاطمة والحسن والحسين، فمراعاة قرابته وحبهم واحترامهم واجب بالنص القرآني المذكور، لذا شرع الدعاء لهم في خاتمة التشهد في الصلاة، وهو منصب عظيم، وهو قوله ﷺ: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل محمد» وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير آل، مما يدل على أن حب آل محمد واجب.

ذكر الزمخشري حديثاً طويلاً في حب آل البيت جاء فيه: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد، مات مؤمناً مستكمل الإيمان.. ألا ومن مات على بغض آل محمد، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله»^(٢).

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

ياراكباً قف بالتحصّب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحبيب إلى منى فيضاً كملتظم الفرات الفاض
إن كان رُقُضاً حبُّ آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

١١ - من يكتسب حسنة أو خصلة من خصال الخير، ومنها مودة القربى تأكيداً للآية السابقة، ضاعف الله له الحسنة بعشر فصاعداً، ومن فضله ورحمته

(١) الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠

(٢) الكشف: ٨٢/٣

تعالى أنه غفور للذنوب، شكور للحسنات. والشكور في حق الله مجاز، والمعنى: أنه تعالى يحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب إليهم وفي زيادة الأفضال عليهم.

١٢- أنكر القرآن الكريم على المشركين قولهم: إن هذا ليس وحياً من الله تعالى، وكان قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ متعلقاً بالمدكور أول السورة: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾. وكان إنكاره في هذه الآية متكرراً، فوجههم أولاً بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ وثانياً بقوله: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال قتادة: يطبع على قلبك فينسيك القرآن؛ فأخبرهم الله أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وثالثاً بقوله: ﴿وَمَعَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي بما أنزله من القرآن، ورابعاً بقوله: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهو نص عام، أي بما في قلوب العباد.

١٣- فتح الله تعالى باب الأمل والرجاء والتوبة لعباده جميعاً ليتداركوا أمرهم، فيؤمنوا ويطيعوا ربهم، فذكر أنه يقبل التوبة في المستقبل عن عباده، ويعفو عن سيئات الماضي، ويعلم ما يفعل الناس من الخير والشر، فيثيب على الحسنات، ويعاقب على السيئات.

روى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ، وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك. وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، فتوبتك تحتاج إلى توبة، فقال: يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟ فقال:

اسم يقع على ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندم، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما رببتها في

المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

١٤- أكد الله تعالى قبول التوبة بأنه يقبل عبادة من أخلص له بقلبه وأطاع بيده، ويزيدهم من فضله على ما طلبوه أو استحقوه.

١٥- جرت عادته تعالى على إقران الوعد بالوعيد، لذا ذكر بعد وعد المؤمنين بالثواب، وعيد الكافرين بالعذاب الشديد.

من مظاهر حكمة الله في خلقه وآياته على قدرته

﴿ وَلَوْ سَـَٔطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ٧٧ ﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ٧٨ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَاكِئَةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ٧٩ وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُّصِيفَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ٨٠ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨١ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٨٢ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٨٣ أَوْ يُوقِفُهُنَّ يَمَآ كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ٨٤ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُخْدِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ٨٥ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَّ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٨٦ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٨٧ ﴾

للقراءات:

﴿ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يُنْزِل).

﴿يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾: قرئ:

١- (يُنْزِلُ الْغَيْثَ) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وعاصم.

٢- (يُنْزِلُ الْغَيْثَ) وهي قراءة الباقيين.

﴿فِيمَا كَسَبَتْ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (بما كسبت).

﴿الرَّيْحَ﴾:

وقرأ نافع (الرياح).

﴿وَيَعْلَمُ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (ويعلم).

الإعراب:

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ ﴿فِيهِمَا﴾: أي في أحدهما، فحذف المضاف، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ ۖ﴾ [الرحمن: ٢٢/٥٥] أي من أحدهما، فحذف المضاف.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿فِيمَا﴾: الفاء في جواب الشرط، وقرئ بغير فاء، وحذفت إما لأن (مَا) بمعنى الذي، فحذفت كما تحذف مع الذي، أو أن (مَا) الشرطية لاتعمل في الفعل شيئاً؛ لأنه فعل ماضٍ، فحذفت الفاء، وهذا أولى من الأول؛ لأنها أعم في كل مصيبة، فكان المعنى أقوى.

﴿أَوْ يُوقِنُ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿وَيَعْلَمُ﴾ ﴿يُوقِنُ﴾: مجزوم بالعطف على قوله تعالى: ﴿فَيُظِلِّلْنَ﴾ المعطوف على جواب الشرط.

و﴿وَيَعْلَمُ﴾: بتقدير «أن» بعد الفاء، ونصب الفعل بها؛ لأنه غير معطوف على ما قبله، ويقرأ بالرفع: «ويعلم» على الاستئناف. وجملة «مَا لَهُمْ مِّنْ نَّجِيسٍ» سدت مسد مفعولي «وَيَعْلَمُ» لأن النفي يعلق الفعل عن العمل.

﴿فَأَ أَوْتَيْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَلَنُحْمَ﴾ «فَمَا»: موصولة تضمنت معنى الشرط؛ لأن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا، فجازت الفاء في جوابها.

البلاغة:

﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾: عطف عام على خاص، فالغيث خاص، والرحمة عام.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْخَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٢): تشبيه مرسل مجمل؛ حذف منه وجه الشبه، أي كالجبال في الضخامة والعظم.

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ﴾ جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿بَسَطَ﴾ وسع ﴿لِعِبَادِهِ﴾ لجميعهم ﴿لَبِغُوا﴾ جميعهم أي طغوا وتجاوزوا الحد، والبغي: الظلم ومجاوزة الحد ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير معين ﴿مَا يَشَاءُ﴾ ما اقتضته مشيئته ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي إنه يعلم خفايا أمرهم وجلالها حالهم.

﴿الْغَيْثَ﴾ المطر الذي يغيث من الجذب ﴿قَنَطُوا﴾ يشسوا من نزوله ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ يعم رحته كل شيء من السهل والجبل والنبات والإنسان والحيوان ﴿الْوَلِيُّ﴾ المتولي عبادته بالإحسان ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد على نعمه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فهي بذاتها وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ نشر وفرَّق، وهو معطوف على السماوات أو على كلمة ﴿خَلَقَ﴾ أي وخلق ما بَثَّ ﴿دَابَّةً﴾ كل ما يدب على الأرض من الناس وغيرهم ﴿جَمْعَهُمْ﴾ للحشر والحساب، وفي الضمير: تغليب العاقل على غيره ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ في أي وقت يشاء ﴿فَدِيرٌ﴾ متمكن منه. وإذا: تدخل على الماضي وعلى المضارع.

﴿مُصِيبَةٌ﴾ بلية وشدة ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فيسبب معاصيكم، وعبر بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تزاوَل بها ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب، فلا يعاقب عليه، وهو تعالى أكرم من أن يثني الجزاء في الآخرة. أما ما يصيب غير المذنبين فلرفع درجاتهم وتعريضهم للأجر العظيم في الآخرة.

﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ أيها البشر ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ فأتين الله هرباً في الأرض، أي بجاعلين الله تعالى عاجزاً بالهرب منه ﴿مَنْ دُوبِ اللَّهُ﴾ غيره ﴿وَلِيَّ﴾ يجرسكم ﴿نَصِيرٍ﴾ يدفع عذاب الله عنكم ﴿الْجَوَارِ﴾ السفن الجارية، جمع جارية: وهي السفينة التي تجري على الماء: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ٦٩/١١] ﴿كَالْأَعْلَمِ﴾ كالجبال في العظم، جمع عَلم: وهو الجبل.

﴿يُسْكِنُ الرِّيحَ﴾ يجعلها ساكنة لا تتحرك، وقرئ «الرياح». ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت سواكن ﴿صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر ﴿شَكُورٍ﴾ كثير الشكر، وهما صفتان للمؤمن الكامل؛ لأن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر، والمؤمن يصبر في الشدة، ويشكر في الرخاء ﴿يُؤْتِيَهُنَّ﴾ يهلكهن أو يغرقهن بإرسال الرياح العاصفة المغرقة والمراد: إهلاك أهلها، لقوله: ﴿يَمَّا كَسَبُوا﴾ اقترفوا من الذنوب ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي يتجاوز عن الكثيرين وينجيهم من الهلاك بالعفو عنهم.

﴿وَيَعْلَمَ﴾ عطف على علة مقدرة، مثل ليغرقهم وينتقم منهم ويعلم

﴿مَحْصِرٍ﴾ مهرب من العذاب، وجملة النفي ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّحْصِرٍ﴾ سدت مسد مفعولي ﴿وَيَعْلَمُ﴾ والنفي يعلّق الفعل عن العمل، كما تقدم.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ﴾ أيها الناس المؤمنون وغيرهم، وآتاه الشيء: أعطاه إياه ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمتعة الدنيا ﴿فَمَنْعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فهو مجرد متاع مؤقت تتمتعون به فيها، ثم يزول. والمتاع: ما ينتفع به ويتمتع من أثاث وغيره ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب الأخروي ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ لخلوص نفعه ودوامه ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم بعد اتخاذ الأسباب.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿وَلَوْ بَسَطَ﴾: أخرج الحاكم وصححه عن علي قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا والغنى. وقال خباب بن الارت: فينا نزلت هذه الآية - أي في أهل الصفة - وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع، فتمنيناها.

نزول الآية (٣٦):

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: عن علي رضي الله عنه: تصدّق أبو بكر رضي الله عنه بماله كله، فلامه جمع، فنزلت. جاء في الحديث: أنه أنفق ثمانين ألفاً.

المناسبة:

بعد أن قال الله تعالى في الآية السابقة: إنه يجيب دعاء المؤمنين، ذكر هنا أنه لا يعطيهم من الأرزاق إلا بقدر وحكمة، حسبما يعلم من مصلحتهم، وإلا فإنهم ييغون ويقدمون على المعاصي. ولو احتاجوا أمدهم بالرزق؛ لأنه المتولي أمورهم بإحسانه، المستحق الحمد على نعمه.

ثم أقام الله تعالى الأدلة على ألوهيته بخلق السماوات والأرض وما فيهما، ثم جمعهم للحساب في الآخرة. ثم أوضح أن المصائب والأحوال المكروهة كالألام والأسقام والقحط والغرق والصواعق والفقر ونحوها تكون عقوبات على الذنوب لمن يرتكبها، أو من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة كما في حق الأنبياء والأولياء.

ثم ذكر تعالى دليلاً آخر على ألوهيته وهو إجراء السفن العظيمة على وجه البحر، وتأثير الرياح فيها إما بالتسيير وإما بالإغراق.

والخلاصة: بعد أن ذكر الله تعالى أنواعاً من دلائل وحدانيته، ذكر بعدها العالم الأكبر وهو السماوات والأرض، ثم العالم الأصغر، وهو الحيوان، ثم أتبعه بذكر المعاد وذكر السفن الجارية في البحر؛ لما فيها من عظيم دلائل القدرة.

التفسير والبيان:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَثُوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُزِيلُ يَقْدِرُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٧) أي لو وسع الله على عباده رزقهم، وأعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان، وعصوا في الأرض، ويطروا النعمة، وتكبروا، وطلبوا ما ليس لهم طلبه مثل قارون وفرعون، ولكنه تعالى ينزل من الرزق لعباده بتقدير معين، على حسب مشيئته، وما تقتضيه حكمته البالغة، ويختار لهم مما فيه صلاحهم، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، إنه بعباده خبير بأحوالهم، بصير بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه، كما جاء في الحديث القدسي عن أنس: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».

قال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يُلْهيك ولا يُطْغيك.

ثم ذكر الله تعالى أنه لو احتاج الناس إلى الخير أمدهم به، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي وهو سبحانه الذي ينزل المطر من بعد إياس الناس في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، والمطر أنفع أنواع الرزق، وأكثرها فائدة ونفعاً، ويعم الوجود كله برحمته، ويفيض على أهل ذلك القطر أو الناحية فيضه، وهو المتولي لأمر عبادته بالإحسان إليهم، وجلب النفع لهم، ودفع الشر عنهم، وهو المستحق للحمد منهم على إنعامه.

ونظير الآية في إنزال المطر بعد اليأس قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ﴾ [الروم: ٤٩/٣٠].

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، قحط المطر، وقنط الناس، فقال عمر: مُطَرِّمٌ، ثم قرأ الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

ثم ذكر تعالى الأدلة على ألوهيته، فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي ومن دلائل عظمته وقدرته وسلطانه: خلق السماوات والأرض على هذا النحو البديع، وخلق ما نشر وفرق فيهما، أي في السماوات والأرض مما يدب ويتحرك، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وطباعهم. وربما يكون في الكواكب الأخرى أحياء، فتدل الآية عليهم.

وقيل: أراد ما بث في الأرض دون السماء؛ لأن المراد من ﴿فِيهِمَا﴾ في أحدهما، كما جاء في آية أخرى: ﴿خَلَقَ السَّمَكِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [لقمان: ١٠/٣١].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ وهو على جمع سائر الخلائق من السماوات والأرض في صعيد واحد، وحشرهم يوم القيامة، إذا أراد، قادر كل القدرة، ثم يحكم بينهم بحكمه العدل الحق.

والمقصود بالآية أنه تعالى خلق الكائنات الحية متفرقة، لا لعجز، ولكن لمصلحة، فلهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾^(١) يعني الجمع للحشر والمحاسبة، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ولم يقل: على جمعها؛ لأن المقصود من هذا الجمع المحاسبة، فكأنه تعالى قال: وهو على جمع العقلاء إذا يشاء قدير.

ثم ذكر تعالى أسباب الذنوب والآثام، فقال:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٢) أي ما أصابكم أيها الناس من المصائب (وهي الأحوال المكروهة) كالآلام والأسقام والقحط والغرق والصواعق والزلازل ونحوها، فإنما هي بسبب سيئات اقترفتموها، ومعاصي اقترحتموها، فهي عقوبات الذنوب وكفاراتها، ويعفو الله عن كثير من معاصي العباد، فلا يعاقب عليها، وقد يكون المصاب لغير ذنب وإنما لزيادة الأجر ورفع الدرجة.

ونظير مقدمة الآية قوله تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَّا الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طُبْنَتِ أُحْلَتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠/٤] وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣/٤]. ونظير آخر الآية: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥/٣٥]. وورد في الحديث الصحيح عن الشيخين والموطأ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: «والذي نفسي بيده،

(١) إذا كما بينا تدخل على المضارع، كما تدخل على الماضي، قال تعالى: ﴿وَأَتَىٰ إِذَا يَتَقَنَّ﴾

[الليل: ١/٩٢] ومنه ﴿إِذَا يَنشَأُ قَدِيرٌ﴾.

ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ إلا كَفَّرَ اللهُ عنه بها من خطاياها، حتى الشوكة يُشَاكُّها» وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يَكْفُرُهَا، ابْتَلَاهُ اللهُ تَعَالَى بِالْحَزَنِ لِيَكْفُرَهَا» .

ولما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما من خَذَشٍ عود، ولا اختلاجٍ عِرْقٍ، ولا عَثْرَةٍ قَدَمٍ إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر» . وفي حديث آخر: «ما ينزل العقاب إلا بذنب، ولا يرتفع إلا بتوبة» . وروى الواحدي في البسيط: «ما عفا الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة، وما عاقب عليه في الدنيا، فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه في الآخرة» .

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٢١)
أي ما أنتم أيها المذنبون الكافرون بمعجزين الله حيثما كنتم، ولا بفائتين عليه هرباً في الأرض، بل ما قضاة عليهم من المصائب، واقع عليهم، نازل بهم، وليس لكم من غير الله ولي يتولى أموركم، فيمنع عنكم ما قضاة الله، ولا نصير ينصركم من عذاب الله.

ثم ذكر الله تعالى آيات أخرى دالة على قدرته وعظمته فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْخَوَارِجُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٢) أي ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه أجزاء السفن السائرة في البحر كالجبال.

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي إن يرد الله إيقاف السفن التي تجري، يجعل الرياح ساكنة، فتصبح السفن ثوابت سواكن على ظهر البحر، واقفة على وجه الماء لا تتحرك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في أمر السفن المذكور وجريها

في البحر لدلالة عظمة على قدرته تعالى، لكثير الصبر على الشدائد والبلايا وعلى طاعة الله، كثير الشكر على النعماء، وهذه جملة معترضة.

﴿أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٢٤) أي وإن يشأ يهلكهم بالغرق بما كسبوا من الذنوب، ويعف عن كثير من ذنوبهم، أو عن كثير منهم، فينجيهم من الغرق، ولو أخذهم بجميع ذنوبهم، لأهلك كل من ركب البحر. ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ (٢٥) أي ليستقم منهم ويعلم حينئذ الذين ينازعون في آيات الله مكذبين بها أنه لا مفر ولا مهرب ولا ملجأ من عذاب الله، فإنهم مقهورون بقدرة الله وسلطانه.

وبعد بيان أدلة التوحيد حذر الله تعالى من الاغترار بالدنيا، فقال:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إن كل ما أعطيتكم من الغنى والسعة في الرزق والجاه والسلطان، فإنما هو متاع قليل في الدنيا يتمتع به في زمن قصير، ثم سرعان ما يتقضي ويذهب؛ لأن الدنيا فانية زائلة لا محالة، ويلاحظ أن الذي يمنع من قبول دلائل التوحيد إنما هو الرغبة في الدنيا ومطامعها بسبب الرياسة وطلب الجاه، لذا حذر تعالى من الاغترار بالدنيا، ورغب في الآخرة، فقال:

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي وما عند الله من ثواب الطاعات وجزاء الجنات خير من متاع الدنيا، وأبقى وأدوم؛ لأنه لا ينقطع، ومتاع الدنيا ينقطع بسرعة، فلا تقدموا الفاني على الباقي. وهو خير وأبقى للذين صدقوا بالله ورسوله، وعلى ربهم يعتمدون في كل شؤونهم، ويفوضون إليه أمورهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن الإمداد بالرزق يخضع لحكمة الله ومشيئته، فيعطي بقدر الحاجة، وعلى وفق المصلحة، فلو بسط الله الرزق لعباده، لوقعوا في المعاصي، وبغى بعضهم على بعض؛ لأن الغنى مبطرة مأسرة، وكفى بقارون وفرعون عبرة، ولذا قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ﴾ ﴿١﴾ ﴿أَن رَّمَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿٢﴾ [العلق: ٩٦/٧-٦] وقال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها».

٢ - قال المالكية: أفعال الرب سبحانه لا تخلو من مصالح، وإن لم يجب على الله الاستصلاح، فقد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه، قاده ذلك إلى الفساد، فيزوي عنه الدنيا، مصلحة له. فليس ضيق الرزق هواناً، ولا سعة الرزق فضيلة، وقد أعطى أقواماً مع علمه أنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلاف ما فعل، لكانوا أقرب إلى الصلاح، والأمر على الجملة مفوّض إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى.

٣ - يتولى الله أمور عباده بالإحسان والإنعام، فلو احتاجوا أغناهم بقدر الحاجة، وأنزل عليهم المطر الذي يكون سبباً لوفرة الخيرات والغلال والثمار وعمهم بالرحمة، وهو سبحانه الولي المتولي شؤون عباده وناصر أوليائه المؤمنين، والمحمود على كل لسان.

٤ - من دلائل وجود الله ووحدانيته وقدرته: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات التي لا يعلم حصرها إلا الله تعالى، وأنه قادر على جمعهم للحشر والحساب يوم القيامة.

ويرى بعض العلماء استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُنْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أنه لا يستبعد وجود مخلوقات في الكواكب والعوالم العلوية غير الملائكة، كما تدل الدلائل الفلكية - وربما اكتشاف سفن الفضاء الحديثة - على وجود حياة في كوكب المريخ. وليس في هذا دلالة قطعية؛ لأن في تفسير الآية وجهاً آخر كما تقدم.

٤ - المصائب في الغالب تكون بسبب الذنوب والمعاصي، فهي عقوبات على السيئات، وقد تكون للابتلاء كما قال ﷺ فيما رواه أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه عن سعد: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل» والقصد من الابتلاء رفع الدرجات؛ لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب والآثام، ويكون حصول المصيبة من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبة، كما في حق الأنبياء والأولياء.

والعقوبة عن الذنب في الدنيا كفارة له في الآخرة، وهذا في حق المؤمنين فأما الكافر فعقوبته مؤخرة إلى الآخرة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن آية: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ﴾: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله عز وجل. وإذا كان يكفر عني بالمصائب، ويعفو عن كثير، فما يبقى بعد كفارته وعفوه؟

٦ - إن قدرة الله عامة شاملة لكل شيء، ومهيمنة على كل شيء، فلن يستطيع الكفار والمشركون أن يعجزوه أو يفوتوه هرباً من سلطانه، ولن يجدوا لهم في الآخرة ولياً يتولى أمورهم، ويتعهد مصالحهم، ولا نصيراً يدفع عنهم عذاب الله وانتقامه، فهم في الدنيا والآخرة في قبضة القدرة الإلهية.

٧ - من آيات الله تعالى أيضاً على قدرته، ونعمته على العباد: هذه السفن السائرة في عرض البحر على سطح الماء عند هبوب الرياح، أو ما حل محلها من الطاقة الدافعة لحركاتها، مما صنعه الإنسان بإلهام الله وتعليمه والتمكن من اكتشافه، وشأن الأجسام الثقيلة الكثيفة الغرق في الماء، لكنه تعالى جعل للماء قوة لحمل السفن ومنع الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها، فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح.

والله قادر على جعل الرياح ساكنة هادئة، فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر، وقادر على تعطيل آلاتها وإيقاف محركاتها بأيسر الأشياء، وهو

قادراً أيضاً على جعل الرياح عواصف فيوبق السفن، أي يغرق ركايبها بذنوبهم، ويعفو عن كثير من أهلها فلا يغرقهم معها، وحيثما يعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أو بقيت السفن رواكد أنه لا ملجأ لهم سوى الله تعالى، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة.

إن في أمر السفن دلالات وعلامات لكل صبار على البلوى، شكور على النعماء، قال قُطْرُب: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلى صبر. وقال عَوْن بن عبد الله: فكم من مُنعم عليه غير شاكر، وكم من مبتلى غير صابر.

٨ - لا ينبغي التفاخر بمظاهر الدنيا، فإن كل ما فيها من ثروات وقصور ومبان وآلات، هو متاع يستمتع به في أيام قليلة تنقضي وتذهب. وما عند الله من الثواب على الطاعة خير وأدوم للذين صدّقوا بالله ووحدوه، وتوكلوا على ربهم وفوضوا إليه أمورهم.

صفات المؤمنين الكَمَل أهل الجنة

﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ٢٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٢٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ٢٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ٤٣﴾

القراءات:

﴿كَثِيرَ الْإِثْمِ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (كبير الإثم).

الإعراب:

﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ﴾ «وَالَّذِينَ» معطوف مجرور على «لِلَّذِينَ» في قوله تعالى: ﴿حَبْرٌ وَابَقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ في موضع جرّ أيضاً بالعطف عليه.

﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ «هُمْ»: إما تأكيد لضمير «عَصَبُوا» و«يَغْفِرُونَ»: جواب إذا، وإما مبتدأ، خبره: «يَغْفِرُونَ» والتقدير: فهم يغفرون، فحذف الفاء في جواب الشرط. وكذلك قوله تعالى: ﴿هُمْ يَنْصَرُونَ﴾.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ «وَلَمَنْ»: اسم موصول مبتدأ، و«إِنَّ ذَلِكَ» في حكم المبتدأ الثاني، والعائد محذوف تقديره: إن ذلك الصبر منه، وحذف للعلم به، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره: في موضع رفع؛ لأنه خبر المبتدأ الأول.

البلاغة:

﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ عطف البعض على الكل.

﴿وَحَزْرًا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ من قبيل المشاكلة، سمي جزاء السيئة سيئة للتشابه بينهما في الصورة.

المفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ﴾ معطوف مع ما بعده على «لِلَّذِينَ ءَامَنُوا». «كَبِيرَ الْإِثْمِ» مارتب عليه وعيد شديد، كشهادة الزور وعقوق الوالدين، أو كل ما يوجب حداً، كالقتل العمد والقذف والسرقة والزنى ونحوها «وَالْفَوَاحِشِ» ما فحش وعظم قبحه كالزنى والقتل ونحوهما، جمع فاحشة، وهو من عطف البعض على الكل «يَغْفِرُونَ» يغفون ويتجاوزون.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أجابوا إلى ما دعاهم إليه ربهم من التوحيد والعبادة، وأداء الفرائض وترك النواهي ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ داوموا على إقامتها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ الشورى: مصدر كالتفتيا بمعنى التشاور، أي أمرهم ذو شورى، يتشاورون، ولا ينفردون برأي حتى يتشاوروا وذلك من فرط تيقظهم في الأمور، وإحكام الخطط، والظفر بالمطلوب، والشورى: تبادل الآراء لمعرفة الصواب منها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في طاعة الله.

﴿الْبَغَى﴾ الظلم ﴿يَنْصُرُونَ﴾ ينتقمون ممن ظلمهم، وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بأكمل الفضائل؛ لأن الحلم على العاجز محمود، وعلى الظالم مذموم، منعاً من الإغراء على البغي ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ هي الفعللة التي تسيء مرتكبها وهي الفعل القبيح ﴿سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ سميت الثانية (وهي الجزاء) سيئة لمشابتها للأولى (الجرعة) في الصورة. وهذه المماثلة في العقوبة ظاهرة في الجراحات، فإنما يقتص فيها بمثلها. ﴿عَفَا﴾ عن ظالمه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالود ما بينه وبينه من عداوة ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فتوابه على الله حتماً، وهذا وعد يدل على عظم الموعد ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الظَّالِمِينَ﴾ البادئين بالظلم، فيعاقبهم.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ قابل الظالم بمثل فعله بعد أن ظلمه ﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ مؤاخذه أو عتاب ومعاقة ﴿يَطْلُبُونَ النَّاسَ﴾ يبتدؤونهم بالإضرار ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم على ظلمهم وبغيهم ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ﴾ على الأذى، فلم ينتصر ﴿وَعَفَرَ﴾ تجاوز ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الصبر والتجاوز ﴿لَيْنَ عَزِيزٍ أَلِيمٍ﴾ معزومات الأمور، بمعنى المطلوبات شرعاً أو المشكورة المندوب إليها.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٧):

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ أو قيل: نزلت في عمر حين شتم بمكة، وقيل: في أبي بكر حين لامه الناس على إنفاق ماله، وحين شتم فحلّم.

نزل الآية (٣٨):

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ : نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان، فاستجابوا وأقاموا الصلاة.

نزل الآيات (٤١ - ٤٣):

ذكر الكلبي والفرء أنها نزلت أيضاً في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد شتمه بعض الأنصار، فرد عليه، ثم أمسك.

للناسية:

بعد بيان دلائل التوحيد والقدرة الإلهية، والتنفير من الدنيا، رغب تعالى في الآخرة، فإنها خير وأبقى، ثم بين أن الخيرية تحصل لمن اتصف بصفات معينة، ذكر أولاً منها صفتين وهما الإيمان بالله والتوكل عليه، وتابع هنا إيراد الصفات الأخرى للمؤمنين وهي: اجتناب كبائر الذنوب والفواحش، وإطاعة الله تعالى وترك نواهيه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والتشاور في الأمور العامة والخاصة، والشجاعة والبأس لاسترداد الحقوق المغتصبة.

التفسير والبيان:

وصف الله تعالى أهل الجنة بالإيمان بالله والتوكل عليه، وبالصفات التالية:

١- اجتناب الكبائر: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَائرَ الذَّنْبِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ أي الذين يتجنبون الوقوع في كبائر الذنوب التي أوعده الله عليها وعيداً شديداً، كالشرك والقتل العمد وعقوق الوالدين، والفواحش وهي كل ما استقبحه الشرع والعقل والطبع السليم من قول أو فعل، كالغيبة والكذب، والزنى، والسرقة والحراية (الإفساد في الأرض).

٢- العفو عند المقدرة: ﴿وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يتجاوزون عن

الذنب الذي أغضبهم، ويكظمون الغيظ، ويحلمون عمن ظلمهم؛ لأن سجيّتهم العفو والصفح وليس الانتقام من الناس. وهذا من محاسن الأخلاق يُشفقون على ظالمهم، ويصفحون عمن جهل عليهم، يطلبون بذلك ثواب الله وعفوه. جاء في الحديث الصحيح: «ما انتقم النبي ﷺ لنفسه قط، إلا أن تُتَهَكَّ حرّمات الله».

٣ - تمام الانقياد والطاعة لله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي والذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه، من توحيده والتبرؤ من الشرك، وأطاعوا الرسل فيما أمر الله به وزجر عنه.

٤ - إقام الصلاة: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة كاملة بإتمام أركانها وشروطها وخشوعها في مواقيتها المفروضة، وخصت الصلاة هنا بالذكر مع أمهات الفضائل؛ لأنها أعظم العبادات لله عز وجل، فهي معراج الوصول إلى الله، أو صلة بين العبد وربّه.

٥ - الأخذ بنظام الشورى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي يتشاورون فيما بينهم في الأمور الخاصة والعامة، ولا ينفردون برأي في كل أمر من القضايا العامة، كتولي الحكم (أو الخلافة) وشؤون تدبير الدولة والتخطيط لمصالحها، وإعلان الحرب، وتولية الولاة والحكام والقضاة وغيرهم. وكان النبي ﷺ أكثر الناس مشاوراً لأصحابه، وسلك الصحابة طريقه ومنهجه في عظام الأمور كتولية الخلافة وحروب الردة واستنباط الأحكام الشرعية للقضايا والحوادث المستجدة، وشاور عمر رضي الله عنه الهُرْمران حين وفد عليه مسلماً^(١)، ولما طعن عمر جعل الأمر بعد شورى في ستة نفر، وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فاتفقوا على تقديم عثمان رضي الله عنه للخلافة الثالثة.

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ١٦٥٦/٤

وإذا كانت الآية هنا تقرر وصفاً ثابتاً للمؤمنين، فقد أمر الله تعالى بالشورى في آية أخرى، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩/٣] وقال الحسن البصري رحمه الله: «ما تشاور قوم إلا هُتدوا لأرشد أمورهم» وقال ابن العربي^(١): الشورى أُلْفَةٌ للجماعة، ومسبارٌ للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هُتدوا، وقد قال حكيم:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي لبيب أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غصاصة فريش الخوافي قوة للقوادم

٦ - الإنفاق: ﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾ أي وينفقون في سبيل الله وطاعته بعض ما رزقناهم من أموال وخيرات؛ فالإنفاق من الأغنياء قوة للأمة، وعلاج لضعفها، وسبيل للحفاظ على هبة الدولة ورفع شأن أفرادها وعزها، وذلك بالإحسان إلى الأقرب فالأقرب ثم للمصالح العامة، كإغناء المحاويج، وإعداد القوى الحربية لمجابهة الأعداء.

٧ - الشجاعة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي إذا تعرضوا للظلم والاعتداء انتصروا ممن ظلمهم؛ لأن الانتصار عند البغي واجب وفضيلة ولأن التذلل لمن بغى يتنافى مع عزة المؤمنين، إذ العجز والاستضعاف يؤدي إلى إغراء العدو على إلحاق صنوف أخرى من العدوان، فالمؤمنون أعزة كرام يحافظون على الحقوق والحرمان والكرامة، وليسوا بالعاجزين ولا الأذليين، بل يقدرّون على الانتقام ممن بغى عليهم، فإذا قَدَرُوا عَفَوْا.

ولا تعارض بين هذه الآية وبين ما سبقها وهي: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فإن كل آية لها مجال وموضع، فالسابقة في موضع، واللاحقة في موضع، وذلك لأن العفو قسمان^(٢):

(١) أحكام القرآن ٤/١٦٥٦

(٢) تفسير الرازي: ٢٧/١٧٧

الأول - أن يكون سبباً لتسكين الفتنة، وتهدة النفوس، ورجوع الجاني عن جنايته، وهذا محمود، تحمل عليه آيات العفو، مثل: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢/٢٣٧]. وهذا مرغّب فيه في داخل الأمة الواحدة.

الثاني - أن يكون سبباً لتجرؤ الظالم وتماديّه في غيه واستضعافه الأمة، وهذا مذموم، تحمل عليه آيات الحث على الانتقام، وهذا واجب في مقاومة العدو الخارجي، وعند اغتصاب الحقوق، ويتوقف على توافر القوة المكافئة أو القدرة المطلوبة في نظام الإسلام بإلزام المؤمن الصمود أمام اثنين من العدو.

والأمثلة الموضحة كثيرة، منها: عفا يوسف عليه السلام عن إخوته وقال كما حكى القرآن: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ١٢/٩٢] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه. وعفا رسول الله ﷺ عن أهل مكة بعد فتحها، وعفا عن أولئك نفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم منّ عليهم مع قدرته على الانتقام، وعفا عن غَوْرَث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه - سيف النبي ﷺ - وهو نائم، فاستقيظ ﷺ، وهو في يده مصلتاً، فأنهزته، فوقع من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخبيري الذي قتله محمد بن مَسْلَمَة، التي سَمَت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت، فقال ﷺ: «ما حملك على هذا؟ قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرّك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها ﷺ، ولكن لما مات منه - من السم - بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به.

وروي أن زينب أقبلت على عائشة، فشتمتها، فنهاها النبي ﷺ عنها، فلم

تنته، فقال النبي ﷺ: «دونك فانتصري»^(١) وهذا تطبيق لقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨/٤]. أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المُسْتَبَانُ مَا قَالَا مِنْ شَيْءٍ، فَعَلَى الْبَادِي حَتَّى يَعْتَدِيَ الْمَظْلُومَ» ثم قرأ: ﴿وَحَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا﴾

ثم إن الله تعالى لم يرغب دائماً في الانتصار، بل بيّن أنه مشروع فقط، ثم بيّن بعده أن مشروعيته مشروطة برعاية المماثلة، ثم أبان أن العفو أولى بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾

وشرط الله تعالى المماثلة بين الجناية والعقوبة في قوله تعالى:

﴿وَحَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا﴾ أي إن عقاب السيئة عقاب مماثل للجُرم، وإن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة، فإذا قال المسيء: أخزأك الله، يقول: أخزأك الله، من غير أن يعتدي، وسمى جزاء السيئة سيئة؛ لأنها تسوء من تنزل به.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤/٢] وقوله سبحانه: ﴿وَلِنْ عَاقِبَتُمْ فَعَاقِبُوا يَمِثِلْ مَا عُوِقِبْتُمْ بِهِ﴾ [التحل: ١٢٦/١٦]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠/٦].

وهكذا فإن جميع العقوبات المدنية والجنائية في الإسلام تجب فيها المماثلة فالقصاص مثلاً من القاتل عمداً أو في الجروح واجب بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي

(١) أخرجه مسلم وأخرجه بلفظ آخر النسائي وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة، وجاء فيه «

فقال لي: سيها، فسببتها حتى جفّ ريقها في فمها».

أَلْفَصَاصٍ حَيَّةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَبَ» [البقرة: ١٧٩/٢] وقوله عز وجل: ﴿وَالْحُومُتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤/٢] وقوله سبحانه: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥/٥] لكن رغب تعالى بالعفو في آخر الآية الأخيرة، فقال: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ﴾ وهنا قال:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي من عفا عن الظالم المسيء، وأصلح بالود والعفو ما بينه وبين معاديه، فثوابه على الله، يعطيه جزاء أعظم، كما قال ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً».

ووصف الله المتقين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ وَالْفَظِيطِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤/٣].

﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إنه تعالى لا يحب المبتدئين بالظلم، ولا يحب من يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحد فيه؛ لأن المجاوزة ظلم. والمراد أنه تعالى يعاقب المتجاوز حده. وهذا تأكيد لمطلع الآية في اشتراط المماثلة نوعاً ومقداراً.

ثم أكد الله تعالى مشروعية دفع الظلم والبغي، فقال:

﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي والله إن المنتصر من الظالم بعد ظلمه له، لا سبيل عليه بمؤاخذه أو عقوبة؛ لأن الانتصار بحق، فيشرع القصاص في الجنايات العمدية، والضمان في جنایات الخطأ والإتلافات ويجوز الشتم والسب بالمثل دون اعتداء ولا تجاوز.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي إنما المؤاخذه والعقوبة على الذين يبدؤون الناس بالظلم، أو يتعدون مبدأ المماثلة، ويتجاوزون الحد في الانتقام، ويحسبون على النفوس والأموال بغير الحق، ويتكبرون ويتجبرون بظلم الناس، وسلب الحقوق.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أولئك البادئون بالظلم أو المتجاوزون الحدود لهم عذاب مؤلم شديد بسبب اعتدائهم.

ثم أكد الله تعالى الترغيب في العفو والصفح عند المقدرة، فقال:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي بعد أن ذم تعالى الظلم وأهله وشرع القصاص، ندب إلى العفو والصفح، فقال: إن من صبر على الأذى، وستر السيئة، وغفر خطأ من ظلمه، فإن ذلك الصبر والمغفرة لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة، التي يثاب عليها بالثواب الجزيل والثناء الجميل؛ لأن الإنسان الغاضب يثبت فيها ويرسخ، ولا ينطلق وراء شهوة الانتقام.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يأتي:

١ - ترغيب المؤمنين بالاتصاف بأمهات الفضائل التي ذكرت في الآيات ليكونوا وراث الجنة وأهلها، وتلك الصفات سبع هي: اجتناب كبائر الإثم والفواحش، وهي كل ما توعد الله عليه بالعذاب أو أوجب فيه حداً من الحدود المقدرة شرعاً، والتجاوز والحلم عن ظلمهم، والانقياد والطاعة لأوامر الله تعالى، وإقام الصلاة، والتشاور فيما بينهم، والبذل والإنفاق في طاعة الله، والجرأة والشجاعة في دفع البغي والظلم.

٢ - قال ابن العربي: مدح الله المشاورة في الأمور، ومدح القوم الذين يمثلون ذلك، وقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الأمور المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك في الآثار كثير، ولم يشاورهم في الأحكام؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام: من الفرض، والندب والمكروه، والمباح، والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله به علينا، فكانوا يتشاورون في الأحكام،

ويستنبطونها من الكتاب والسنة، وإن أول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة؛ فإن النبي ﷺ لم ينصّ عليها، حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما هو معروف، وقال عمر: نَرْضَى لَدِينَانَا مِنْ رَضِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَدِينَنَا، وتشاوروا في أمر الردّة، فاستقر رأي أبي بكر على القتال، وتشاوروا في الجدّ وميراثه، وفي حدّ الخمر وعَدَدِهِ، وتشاوروا بعد رسول الله ﷺ في الحروب، حتى شاور عمر الهرمزان حين وفد عليه مسلماً في المغازي قائلاً: فمرّ المسلمين فلينفروا إلى كسرى^(١)

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمعاءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

٢ - إن آية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٣٩) هي غالباً في العلاقات الخارجية بين المسلمين وغيرهم، فقد أصابهم بغى المشركين في الماضي، قال ابن عباس: وذلك أن المشركين بَغَوْا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، وأذوهم وأخرجوهم من مكة، فأذن الله لهم بالخروج ومكّن لهم في الأرض، ونصرهم على من بغى عليهم؛ وذلك قوله في سورة الحج: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ الآيات [٣٩ - ٤١].

وليست الآية مقصورة على الماضي، وإنما هي عامة في بغى كل باغ من كافر وغيره، أي إذا نالهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه. وهذا إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود^(٢) وإشارة إلى أن من صفات المؤمنين العزة والكرامة وإباء الذل والشمم، والاعتزاز بقوة الله والثقة بنصره.

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٥٦

(٢) تفسير القرطبي: ٣٨/ ١٦ - ٣٩

٤ - أما إذا كان الظلم بين المسلمين فقط أو بين المسلمين وغيرهم، فإذا كان الباغي معلناً الفجور، وَقَحاً يُوْذِي الصغير والكبير، فيكون الانتقام منه أفضل، قال إبراهيم النَّخَعِي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم، فتجترأ عليهم الفساق. أي إنه في حال وقوع الأذى أو الضرر العام يكون الانتقام.

وإذا وقعت الجناية خطأ أو فلتة أو تعمدها صاحبها ثم طلب المغفرة فالعفو ههنا أفضل، وفي مثله نزلت: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢/٢٣٧] وقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥/٥] وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٤/٢٢] .

٥ - إِنَّ آيَةَ: ﴿وَحَزَّوْا سَيِّئَةً سَبَيْتُمْ مَتْلُهَا﴾ أصل كبير في علم الفقه وهو مقابلة الجناية بمثلها، سواء في العقوبات البدنية أو المالية. وتأول الشافعي في هذه الآية: أن للإنسان أن يأخذ من مال من خاذه مثل ما خاذه من غير علمه، واستشهد في ذلك بقول النبي ﷺ لهند زوج أبي سفيان في الحديث المتفق عليه عن عائشة: «خذي من ماله ما يكفيك ولذلك» فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه.

٦ - اختلف اجتهاد المجتهدين فيما إذا لم يكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة، بسبب التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجاني، وبين منع المجني عليه من استيفاء حقه، فأيهما أولى؟ وذكر الرازي أمثلة عشرة لهذا الخلاف^(١) أشير إليها بإيجاز:

المثال الأول - احتج الشافعي رضي الله عنه على أن المسلم لا يقتل بالذمي وأن الحر لا يقتل بالعبد: بأن قال: المماثلة شرط لجريان القصاص، وهي مفقودة في هاتين المسألتين، فوجب ألا يجري القصاص بينهما.

المثال الثاني - احتج الشافعي رضي الله عنه في أن الأيدي تقطع باليد

(١) تفسير الرازي: ٢٧/١٧٩ - ١٨٠

الواحدة، فقال: لا شك أنه إذا صدر كان القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم، فوجب أن يشرع في حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص.

المثال الثالث - شريك الأب يشرع في حقه القصاص؛ لأنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله، لقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥/٥].

المثال الرابع - قال الشافعي رضي الله عنه: من حرق حرقناه، ومن غرق غرقناه، والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شيء بمثاله.

المثال الخامس - شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا: نعمدنا الكذب، يلزمهم القصاص؛ لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه، فوجب أن يصير دمهم مهدراً لقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾.

المثال السادس - قال الشافعي رضي الله عنه: المكره يجب عليه القود (القصاص) لأنه صدر عنه القتل، فوجب أن يجب عليه مثله، أي كالمكره.

المثال السابع - قال الشافعي رضي الله عنه: القتل بالمثل كالخشب والحطب يوجب القود، لهذه الآية: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾.

المثال الثامن - الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً، كما تقدم؛ ولأن القاتل أتلف على مالك العبد شيئاً، فيجب ضمانه، وإذا وجب الضمان، وجب ألا يجب القصاص؛ إذ لا فرق.

المثال التاسع - منافع الغصب مضمونة عند الشافعي رضي الله عنه؛ لأن الغاصب فوّت على المالك منافع تقابل في العرف بمال، فوجب أن يفوت على الغاصب مثلهم المال، لهذه الآية: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾.

المثال العاشر - الحر لا يقتل بالعبد قصاصاً لعله ثالثة وهي أنه لو قُتل

بالعبد لكان هو مساوياً للعبد في المعاني الموجبة للقصاص، لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠/٤٠].

والخلاصة: إن قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ يقتضي وجوب رعاية المماثلة مطلقاً في كل الأحوال إلا ما استثنى وخص بدليل.

٧ - لمن عفا وأصلح النزاع بينه وبين الظالم بالعمو: أجر كبير عند الله تعالى. والمقصود من قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الظَّالِمِينَ﴾ التنبيه على أن المجني عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم؛ لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم، والانتصار قد يؤدي إلى تجاوز المساواة، والتعدي، خصوصاً في حال الحرب والتهاب الحمية، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالماً.

٨ - للمظلوم الانتصار من الظالم دون مؤاخذه ولا عقوبة ولا حرج وهل له أن يستوفي ذلك بنفسه؟ هناك ثلاثة أقسام^(١)

الأول - القصاص بالنفس إذا ثبت الحق فيه عند الحكام يجوز استيفاؤه من ولي الدم، لكن يزجره الإمام لجرأته على سفك الدم. أما إذا لم يثبت حقه عند الحاكم، فيجوز له استيفاؤه ديانة بينه وبين الله، لكن يؤخذ قضاء ويعاقب على فعله.

الثاني - الحد الخالص لله تعالى الذي لا حق فيه للأدعي كحد الزنى وقطع السرقة: إن لم يثبت عند حاكم عوقب به، وإن ثبت عند حاكم فإن كان قطع يد أو رجل سقط به الحد، ويعزر وإن كان جلداً لم يسقط به الحد، لتعديبه، فيؤخذ بحكمه.

الثالث - الحقوق المالية: يجوز أخذها مغالبة ممن هو عالم بها، أما غير

(١) تفسير القرطبي: ٤١/١٦

العالم بها، فإن أمكن أخذها منه بالمطالبة القضائية وجبت، ويجوز أخذها سراً، وإن لم يكن أخذها منه بالمطالبة القضائية، لحدود من هي عنده، ولا بينه تشهد بالحق، فيجوز أخذها سراً عند مالك والشافعي، ولا يجوز ذلك عند أبي حنيفة.

٩ - يؤخذ الظلمة بعدوانهم، فيعاقبون في الدنيا، ولهم عذاب أليم في الآخرة، وذلك سواء أكان الظلم في النفوس أم في الأموال. والحاكم هو الذي يؤخذ.

١٠ - قال ابن العربي في آية ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾: هذه الآية في مقابلة الآية المتقدمة في براءة، وهي قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [٩٢] فكما نفى الله السبيل عمن أحسن، فكذلك أثبتتها على من ظلم^(١).

١١ - اختلف العلماء في فرض الحاكم الرسوم والضرائب والأموال على الناس، هل يجوز الخلاص منها لمن قدر على ذلك، مع أنه يستوفى جميع المطلوب من الآخرين؟ قال سحنون من المالكية: لا، وقال أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المالكي: نعم له ذلك إن قدر على الخلاص؛ لأن الظلم لا أسوة فيه، ولا يلزم أحد بظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾

١٢ - اختلف العلماء في التحليل^(٢) والمساعدة عن العرض والمال، فأجازه على العرض والمال سليمان بن يسار ومحمد بن سيرين من التابعين، ورأى مالك التحليل من المال دون العرض. ورأى سعيد بن المسيب: ألا يحلله بحال.

(١) أحكام القرآن: ٤/١٦٥٨

(٢) التحليل هنا: أن يجعل من ظلمه في حل.

وجه الرأي الأول: أنه حقه، فله أن يسقطه كما يسقط دمه وعرضه. ووجه الرأي الثاني: أن التحليل في المال رفق، وفي العرض يتجرأ الظلمه ويغتروا ويسترسلون في أفعالهم القبيحة.

ووجه الرأي الثالث: أنه تحليل ما حرّم الله، فيكون كالتبديل لحكم الله. والصحيح الجواز بدليل قصة أبي ضَمُضَم الذي كان قد استحل عرضه، أي سامح من يؤذيه ويشتمه، فقال النبي ﷺ فيما روى مسلم في صحيحه: «أيعجز أحدكم أن يكون كابي ضَمُضَم؟».

١٣ - إن ثواب المال المأخوذ ظلماً لصاحبه طوال حياته وإلى موته، ثم يرجع الثواب إلى ورثته؛ لأن المال يصير لهم بالإرث.

١٤ - من صبر على الأذى، وغفر بأن ترك الانتصار لوجه الله إذا كان الظالم مسلماً، كان صبره من عزائم الله التي أمر بها، ومن عزائم الصواب التي وفق لها.

أحوال الكفار أمام النار

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوتَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرَاتِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ٤٥ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ٤٦﴾

الإعراب:

﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ «مِنْ»: ابتدائية، أو بمعنى الباء.

﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ «الْخَاسِرِينَ»: اسم إن، و﴿الَّذِينَ»: خبرها.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ ومن يخذل الله، فلا يوفقه إلى الإيمان ويضله بسبب رضاه بالكفر ﴿فَمَا لَكُمْ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فليس له أحد يلي هدايته ﴿مَرَكْرَ﴾ رجوع إلى الدنيا ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ طريق.

﴿يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار ﴿خَاسِرِينَ﴾ خائفين ذليلين ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إليها ﴿مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ ضعيف النظر مسارقة، والطرف: العين، أو مصدر معناه إطباق أحد جفني العين على الآخر، والمرة منه: طرفه، و﴿مِنْ﴾ ابتدائية، أي يتبدئ نظرهم إلى النار من تحريك ضعيف لأجفانهم ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ﴾ بالتعرض لعذاب الخلد ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم. وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ تمام كلام المؤمنين، أو تصديق من الله لهم.

﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي غيره ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ نصراء وأعوان يدفع عذابه عنهم ﴿فَمَا لَكُمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ طريق إلى الهدى والنجاة والجنة في الآخرة.

المناسبة:

بعد بيان أن الذين يظلمون الناس ويفسدون في الأرض لهم عذاب أليم على بغيهم وعدوانهم، ذكر الله تعالى أحوال الكفار عند رؤية عذاب النار، فهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا، ويقفون أمام النار ذليلين خائفين، وتبين خسارتهم الفادحة بخلودهم في العذاب، دون أن يجدوا أنصاراً يخلصونهم من العذاب. وقد بدت الآيات وختمت ببيان أن الإضلال من الله تعالى، وأن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من يخذله الله بإضلاله إياه، لعلمه بسوء استعداده للخير والإيمان، واقترافه المعاصي والآثام، فما له من أحد يتولى هدايته ونصره، والأخذ بيده إلى طريق الهدى والرشاد والفوز، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧/١٨] وهذا تحقير لأمر الكفرة وبيان أنه لا يقع شيء في الكون من الهدى والضلال وغيرهما إلا بإرادة الله ومشيئته، حتى لا يوصف بالعجز، وكشف لأحوال الذين أعرضوا عن دعوة النبي ﷺ إلى الإيمان بالله تعالى، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ثم أخبر الله تعالى عن أحوال الظالمين في الآخرة، وهم المشركون بالله، فقال:

١ - ﴿وَرَأَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَّةٍ مِّنْ سَبِيلٍ؟﴾ أي وتبصر المشركين الكافرين بالله المكذبين بالبعث، حين نظروا إلى النار، وعانوا العذاب، يتمنون الرجوع إلى الدنيا من أي طريق، قائلين: هل من سبيل إلى الرجعة؟

ونظير الآية قوله: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَٰ نَارُكَ تَرْدُ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧) بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٧٨) [الأنعام: ٢٧/٦-٢٨].

٢ - ﴿وَرَأَوْهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشَعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي وتبصرهم أيضاً يعرضون على النار، وهم خائفون أذلاء، يسارقون النظر إليها من شدة الخوف. وهذا شأن الرهبة من العقاب.

٣ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَبِيرَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ

الْقَيْمَةِ» أي ويقول المؤمنون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة: إن الخاسرين الخسار الأكبر، هم الذين خسروا أنفسهم وأهلهم، بدخول النار والخلود فيها، وعلى هذا التأويل يكون «يَوْمَ الْقَيْمَةِ» متعلقاً بـ «وَقَالَ» ويصح أن يتعلق بـ «خَسِرُوا» ويكون قول المؤمنين واقعاً في الدنيا والظاهر: الأول.

أما خسراهم لأنفسهم، فلكونهم صاروا معذبين في النار، دون أمل في النجاة، وأما خسراهم لأهلهم، فإن كانوا معهم في النار، فلا يتفجعون بهم، ولأنهم كانوا هم السبب في تعذيبهم، وإن كانوا في الجنة فقد فرق بينهم وبينهم.

٤ - «أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ» أي ألا إن الكافرين في عذاب دائم لا ينتهي، ولا يخرجون منه، ولا يحيد لهم عنه، وهذا تنمة كلام المؤمنين أو تصديق من الله لهم فهو من كلامه.

٥ - «وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أي وليس لهم أعوان وأنصار من غير الله، ينقذونهم مما هم فيه من العذاب.

٦ - «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ» أي ومن يحجب الله عنه توفيقه إلى الإيمان بسبب علم الله السابق بما سيختاره ويقترفه من الآثام، فلا طريق له إلى النجاة والجنة. أي فلا غرابة في وقوع تلك الظواهر؛ لأنهم ضالون منحرفون عن سبيل الإيمان والحق.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

أ - لا هادي ولا منقذ ولا ناصر لمن خذله الله، بسبب إعراضه عن الإيمان بالله، والمودة في القربى، والتكذيب بالبعث، وعدم إدراكه أن متاع الدنيا قليل.

٢ - يرى المؤمنون الظالمين الكافرين عند عرض النار عليهم، حال كونهم حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الدَّلِّ، يرونهم قائلين طالبين أن يردّوا إلى الدنيا، ليعملوا بطاعة الله، فلا يجابون إلى ذلك.

٣ - ويرونهم أيضاً حين يعرضون على النار أذلة صاغرين لا يرفعون أبصارهم للنظر رفعا تامّاً؛ لأنهم ناكسو الرؤوس، والعرب تصف الدَّلَّيل بغضّ الظرف.

٤ - يقول المؤمنون في الجنة، لما عاينوا ما حلّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء الكفار؛ فإنهم خسروا أنفسهم؛ لأنهم في العذاب المخلّد، وخسروا أهلهم؛ لأن الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم، وإن كانوا في الجنة، فقد حدثت القطيعة الدائمة بينهم وبينهم؛ ألا إن الظالمين في عذاب دائم لا ينقطع.

٥ - ليس لأولئك الكافرين الظالمين أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله، وليس للأصنام التي كانوا يعبدونها بقصد الشفاعة لهم عند الله أي مجال في الشفاعة: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨/٤٠]، ومن أضلّه الله وخذله، فلا طريق له يصل به إلى الحق في الدنيا والجنة في الآخرة؛ لانسداد طريق التّجاة عليه.

الاستجابة لنداء الله مالك السماوات والأرض

﴿اسْتَجِبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاءُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

الإعراب:

﴿لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾: ﴿لَا﴾: نافية للجنس، و﴿مَرَدَّ﴾: اسمها المبني على الفتح، والجارّ والمجرور الأول: صفة له، والآخر: خبره.

﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾: ﴿وَيَجْعَلُ﴾: بدل من ﴿يَخْلُقُ﴾ بدل البعض من الكل.

البلاغة:

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾، أو يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ فيها ما يسمى بالتقسيم.

للفردات اللغوية:

﴿اسْتَجِبُوا لِرَبِّكُمْ﴾: أجيبوا نداء ربكم إلى ما فيه نجاتكم بالتوحيد والعبادة الخالصة لله. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾: هو يوم القيامة. ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾: لا يرده الله بعد ما حكم به، فيكون ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ صلة ﴿لَا مَرَدَّ﴾ ويصح كونه صلة لـ: ﴿يَأْتِيَ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده.

﴿مَلَجًا﴾ مَأْمَنَ أَوْ مَنَجَى أَوْ مَلَاحَ تَلَجُّوْنَ إِلَيْهِ. ﴿تَكْكِيرٌ﴾ إنكار لذنوبكم يومئذ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإجابة ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رَقِيبًا أَوْ مُحَاسِبًا لأَعْمَالِهِمْ. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ مَا عَلَيْكَ إِلَّا تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ، وَقَدْ بَلَغْتَ. ﴿رَحْمَةً﴾ نِعْمَةٌ كَالصَّحَّةِ وَالغِنَى. ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ لَجَنَسِ الْإِنْسَانِ. ﴿سَيِّئَةٌ﴾ بَلَاءٌ مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ خَوْفٍ أَوْ مَوْتٍ عَزِيزٍ مِثْلًا. ﴿بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَهُمْ﴾ بِمَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ ذُنُوبٍ وَأَثَامٍ، وَعَبَّرَ بِالْأَيْدِي؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تَزَاوُلُ بِهَا. ﴿كَفُورٌ﴾ جُحُودٌ لِلنِّعْمَةِ، نِسَاءً لَهَا، ذَكَارٌ لِلْبَلِيَّةِ، يَذْكُرُ الْبَلِيَّةَ وَيُعْظِمُهَا وَلَا يَتَأَمَّلُ سَبَبَهَا. وَهَذَا وَإِنْ اخْتَصَّ بِالْمُجْرِمِينَ مِنَ النَّاسِ، جَازَ إِسْنَادُهُ إِلَى الْجَنَسِ لِعُلْبَتِهِمْ وَانْدِرَاجِهِمْ فِيهِ.

﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثًا وَنَهْبٌ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿اللَّهُ الْمَالِكُ يَهْبُ وَيَمْنَحُ بَعْضُ النَّاسِ إِنِثًا فَقَطْ أَوْ ذُكْرًا فَقَطْ، أَوْ يَجْعَلُ لَهُمُ الذَّكَورَ وَالْإِنِثَةَ، أَوْ يَجْعَلُ مِنْ يَشَاءٍ عَقِيمًا، فَلَا يُلِدُ وَلَا يُولَدُ لَهُ. وَالْمَعْنَى: يَجْعَلُ أَحْوَالَ الْعِبَادِ فِي الْأَوْلَادِ أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ مُخْتَلِفَةٍ عَلَى مَقْتَضَى الْمَشِيئَةِ، وَلَعَلَّ تَقْدِيمَ الْإِنِثَةِ؛ لِتَكْثِيرِ النَّسْلِ وَتَطْيِيبِ قُلُوبِ الْآبَاءِ، وَالتَّكْرِيمِ وَالْإِهْتِمَامِ رَدًّا عَلَى الْعَرَبِ الَّذِي يَعْتَوْنَهُنَّ بِلَاءً. وَعَرَفَ ﴿الذَّكَورَ﴾ لِلْمَحَافِظَةِ عَلَى فَوَاصِلِ الْآيَاتِ عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ: ﴿تَكْكِيرٌ﴾، ﴿كَفُورٌ﴾، ﴿الذَّكَورَ﴾. ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِ قَدِيرٌ﴾ إِنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ بِحِكْمَةٍ وَاخْتِيَارٍ، عَلِيمٌ بِمَا يَخْلُقُ، قَدِيرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ.

المناسبة:

بعد الإفاضة في وعد المؤمنين ووعد الكافرين وبيان أحوال الكفار أمام النار، ذكر الله تعالى الهدف والغاية، وهو الاستجابة لدعوة الله إلى التوحيد والعبادة الخالصة، محذراً من أهوال القيامة، ومبيناً أنهم إن أعرضوا عن

دعوته، فلا يؤبه بهم، وأن من شأن الإنسان حجود النعمة، لبيان سبب إعراضهم وإصرارهم على مذاهبهم الباطلة، ثم ذكر تعالى مثلاً من تقسيم هبات الأولاد ليكون دليلاً على تصرف الله في العالم.

التفسير والبيان:

يَحْذَرُ تعالى من أهوال يوم القيامة، ويأمر بالاستعداد له؛ فيقول:

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي أجيبوا دعوة ربكم إلى الإيمان به وبكتبه ورسله، واتَّبِعُوا ما جاءكم به رسول الله ﷺ، من قبل مجيء يوم يكون كلمح البصر، ليس له دافع ولا مانع، فلا يردّه أحد، أو لا يردّه الله بعد أن حكم به، وهو يوم القيامة. واستجاب وأجاب بمعنى واحد.

﴿مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكَيرٍ﴾ أي ليس لكم فيه حصن أو ملجأ تتحصنون أو تلجؤون إليه، ولا تجدون يومئذٍ من يُنْكِرُ ما ينزل بكم من العذاب، ولا تقدرون إنكار شيء مما اقترتموه من السيئات؛ لرصده في صحفكم، وشهادة ألسنتكم وجلودكم به، فلا ملجأ من الله إلا إليه، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنِّي لَفَرٌّ ۚ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۚ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۚ ۝﴾ [القيامة: ١٠-١٢].

والنكير بمعنى المنكر، كالأليم بمعنى المؤلم، أو بمعنى الإنكار، أي إنكار ما ينزل بهم من العذاب، والنكير والإنكار: تغيير المنكر.

﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي فإن أعرض المشركون عن إجابة دعوة الله ورسوله، فما أرسلناك أيها الرسول موثقاً بهم، رقيباً عليهم، تحفظ أعمالهم وتحصيها، حتى تحاسبهم عليها، فما عليك إلا تبليغ ما أرسلناك به، وليس عليك غيره.

ونظائر الآية كثير، مثل: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢/٢٢]، ومثل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٢]، ومثل: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠/١٣] .

وهذا كله تسليية من الله تعالى لرسوله، ثم بين الله تعالى سبب إصرارهم على مذاهبهم الباطلة وهو طبع الإنسان، فقال:

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا وَإِنْ نُصِيبُهُمْ سَيْئَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي وإننا إذا أعطينا الإنسان منا نعمة، وغمرناه بالرخاء كالصحة والأمن وسعة الرزق، فرح بذلك، وإن أصيب الناس بسيئة، كجذب ونقمة، وبلاء وشدة، ومرض أو فقر، بسبب ما اقترف من المعاصي والذنوب، فإن الإنسان جحود ما تقدم من النعم، ينساها ولا يذكرها بسبب الضر الواقع عليه، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة بطر وأشر، وإن أصابته محنة يش وقنط. والكفور: المبالغ في كفران النعم.

ويظهر أثر هذا في الواقع المتكرر من أكثر النساء، كما قال رسول الله ﷺ للنساء فيما أخرجه مسلم وابن ماجه عن ابن عمر: «يا معشر النساء، تصدقن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار، فقالت امرأة: ولم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: لأنكن تكثرن الشكاية، وتكفرن العشير - الزوج -، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم تركت يوماً قالت: ما رأيت منك خيراً قط» .

أما المؤمن الصالح فشأنه كما قال ﷺ فيما أخرجه أحمد ومسلم عن صهيب: «إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» .

ثم حذر تعالى من الاغترار بالدنيا، وما ملكه الإنسان من المال والجاه، فقال مبيناً أن الكل ملك الله ونعم الله:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إنه تعالى خالق السماوات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما بما يريد، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ قَدِيرٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي إنه تعالى يخلق ما يشاء من الخلق والأولاد، فيرزق من يشاء البنات فقط، ويرزق من يشاء البنين فقط، ويعطي من يشاء من الناس الصنفين معاً الذكر والأنثى، فالترجيح هنا: الجمع بين البنين والبنات، ويجعل من يشاء عقيماً لا يولد له؛ لأن الملك ملكه، ويمنع على وفق الحكمة والمصلحة، فإنه سبحانه عليم بمن يستحق كل صنف أو قسمًا من هذه الأقسام، بليغ عظيم القدرة على ما يريد من تفاوت الناس في ذلك، على حسب الحكمة والعلم. يقال: رجل عقيم، وامرأة عقيم.

وإنما قدم الله تعالى أولاً الإناث اهتماماً وعناية من الله بهن بسبب ضعفهن، ورداً على العرب في التفوق من الأنثى، والفرح بالذكر. وعبر عن الإناث بالتذكير وعن الذكور بالتعريف، للتنبيه على كون الذكر أفضل من الأنثى، وقال في إعطاء الإناث وحدثن، وفي إعطاء الذكور بلفظ الهبة: ﴿يَهَبُ﴾ وقال في إعطاء الصنفين معاً: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ للدلالة على الاقتران، أي إنه تعالى يقرن الإناث والذكور في جعلهم أزواجاً، وكل شيتين يقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان.

وأما التعبير بالعقم فللدلالة على قدرة الله في منع الولد مع توافر الأسباب الظاهرة.

وأكثر المفسرين على أن هذا الحكم عام في حق كل الناس؛ إذ لا معنى للتخصيص؛ ولأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء كيف شاء

وأراد، لكنهم ذكروا أمثلة لكل حالة، لتكون سلوة المكروب والمحزون، فمثال الحالة الأولى: لوط وشعيب عليهما السلام لم يكن لهما إلا البنات فكان للوط بنتان، ومثال الحالة الثانية: إبراهيم عليه السلام لم يكن له إلا الذكور وهم ثمانية، ومثال الحالة الثالثة: محمد ﷺ كان له من البنين ثلاثة: القاسم، وعبد الله ويلقب بالطيب والظاهر، وإبراهيم، ومن البنات أربع: زينب ورُقَيَّة وأم كلثوم وفاطمة، وكلهم من خديجة رضي الله عنها ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، ومثال الحالة الرابعة: عيسى ويحيى عليهما السلام. قال واثلة بن الأسقع: إن من يُؤمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ فبدأ بالإناث.

فقه الحياة أو الاحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - على البشر كافة إجابة ما دعاهم الله إليه من الإيمان به والطاعة، قبل مفاجأتهم بيوم القيامة الذي لا يردّه أحد بعدما حكم الله به، وجعله أجلاً ووقتاً معلوماً لديه، ولا منجى ينجي أحداً من العذاب، ولا ناصر ينصر.

٢ - إن أعرض الناس عن الإيمان، فليس الرسول ﷺ موثقاً بهم يستطيع إكراههم على الإيمان، ولا حافظاً لأعمالهم حتى يحاسبهم عليها، إنما عليه التبليغ فقط.

٣ - طبع الإنسان الكافر عجيب غريب، يفرح ويبتر عند الرحمة والرخاء والصحة والمتعة، ويحصد النعمة عند البلاء والشدة بسبب ما اقترف من الذنوب، فيعدد المصائب وينسى النعم.

٤ - إن الله تعالى مالك السماوات والأرض وما فيهما، يفعل ويتصرف في ملكه ما يشاء بمقتضى علم تام دقيق، وحكمة بالغة، فيهب الإناث فقط لمن

يُريد، والذكور فقط لمن يريد، والذكور والإناث معاً لمن يريد، ويجعل من يشاء عقيماً لا يولد له.

جاء في الحديث الصحيح «إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أذكرا، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل أنثا» وفي لفظ آخر: «إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله» .

أما الخنثى ففيه الذكورة والأنوثة، ويغلب إحداهما بعمل جراحي، وفي الماضي من حيث يبول، روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه سئل عن مولود له قُبُلٌ وذَكَرٌ، من أين يورث؟ قال: «من حيث يبول» واقتصر النص القرآني على الغالب في الموجودات، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأول عن غير العقيم.

أنواع الوحي

﴿ وَمَا كَانَ لَشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مَنْ أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ ﴿٥٣﴾

القرارات:

﴿يُرْسِلَ﴾، ﴿فَيُوحِيَ﴾ :

وَقْرَأْ نَافِعَ (يَرْسَلُ، فَيُوحِي).

﴿ صِرَاط ﴾ :

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ «أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ»: اسم كان، و﴿لِبَشَرٍ﴾: خبرها، و﴿إِلَّا وَحْيًا﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال من اسمه تعالى: «اللَّهُ»، و﴿مِنْ﴾ متعلقة بمقدر، أي إلا موحياً أو مكلماً من وراء حجاب. «أَوْ يُرْسِلَ﴾ معطوف بالنصب على معنى قوله: «إِلَّا وَحْيًا» تقديره: أو أن يرسل رسولاً؛ لأن «أَنْ» مع الفعل في تأويل المصدر، فيكون عطف مصدر على مصدر، وقرأ بالرفع: (أَوْ يُرْسِلُ) على الاستئناف تقديره: أو هو يرسل رسولاً.

﴿مَا كُنْتُ نَذِيرٌ مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلِيمُنُ﴾ التقي علق الفعل «نَذِيرٌ» عن العمل، وكان مابعد ساذماً مسدّ المفعولين.

﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ بدل من الأول.

البلاغة:

﴿حَكِيمٌ﴾ «مُسْتَقِيمٌ» وغير ذلك من مقاطع السورة: فيها ما يسمى توافق الفواصل.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صح وما استقام له. «إِلَّا وَحْيًا﴾ الوحي: كلام خفي يدرك بسرعة، أو إلقاء شيء في القلب بإلهام في اليقظة أو في المنام. وهو يشمل المشافهة به كما في حديث المعراج، وما وعد به في حديث الرؤية، والمهتوف به كما حدث لموسى عليه السلام في الطور وطوى «أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ بأن يسمعه كلامه ولا يراه كما وقع لموسى عليه السلام، فالآية دليل

على جواز رؤية الله في الآخرة، لا على امتناعها. «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا» أي إلا أن يرسل رسولاً ملكاً كجبريل عليه السلام. «فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» يوحى الرسول إلى المرسل إليه بأن يكلمه بإذن الله، ما يشاء الله. «إِنَّمَا عَلَيَّ» عن صفات المخلوقين. «حَكِيمٌ» يفعل ما تقتضيه حكمته، فيكلم تارة بوسيط وتارة بغير وسيط، إما عياناً، وإما من وراء حجاب.

«وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا» أي مثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل: «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» يا محمد. «رُوحًا» ما أوحى به، وهو القرآن كالروح، وسمي الوحي روحاً؛ لأن القلوب تحيا به. «مِنْ أَمْرِنَا» أي من بعض أمرنا الذي نوحيه إليك. «مَا كُنْتَ تَدْرِي» تعرف قبل الوحي إليك. «مَا أَلَكْتُبُ» القرآن. «وَلَا إِلَايْمُنْ» ولا حقيقة الإيمان الصحيح المشتمل على الشرائع والأحكام الموحى بها. «وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ» الروح أو الكتاب أو الإيمان. «لِتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» تدعو بالوحي إليك إلى الإسلام. «لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» ملكاً وخلقاً وعبيداً. «أَلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» ترجع الأمور، من غير وسائط، وفيه وعد ووعد للمطيعين والمجرمين.

سبب النزول:

نزول الآية (٥١):

«وَمَا كَانَ لِشَرِّ» سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبي ﷺ ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً، كما كلمه موسى؟ فنزلت، وقال: لم ينظر موسى إلى الله تعالى.

للناسبة:

بعد أن بين الله تعالى دلائل كمال قدرته وعلمه وحكمته ونعمته مما هو محسوس، أتبعه ببيان أنواع وحيه وكلامه إلى أنبيائه من النعم الروحية، التي

اختص بها الأنبياء والرسل من سائر الناس. وأوضح أن الوحي إلى النبي ﷺ بالقرآن المشتمل على الشرائع التي تصلح البشر وتهديهم إلى الحق هو مثل الوحي إلى الأنبياء السابقين. وهذا الختام للسورة مشابه لما بدئت به، لينسجم البدء والختام.

التفسير والبيان:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ ﴾ (٥١) أي ما صَحَّ لبشر تكليم الله إلا بوحى يوحى، أو بسماع كلام من وراء ستار، أو بواسطة ملك. وقد نفى الله تعالى تكليم أحد من البشر إلا بأحد ثلاثة أوجه تحدث في الدنيا:

الأول - الوحي: وهو الإلهام والقذف بمعانٍ تلقى في القلب بقظة في الغالب، أو في المنام، كرويا إبراهيم الخليل عليه السلام ذبح ولده. وقد يطلق الوحي على الإلهام المجرد، كما أوحى إلى أم موسى.

الثاني - سماع كلام من وراء حجاب: بأن يسمعه النبي من غير واسطة متيقناً أنه كلام الله من حيث لا يرى، كما كلم موسى عليه السلام ربه، وسمّاه الله وحياً بقوله: ﴿ فَاسْتَجِبْ لِمَا يُوْحَىٰ ﴾ [طه: ١٣/٢٠]. وكان موسى قد سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها.

الثالث - إرسال رسول: وهو إرسال رسول من الملائكة إما جبريل أو غيره فيوحي ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحى إليه، كما كان جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة ينزلون على الأنبياء عليهم السلام.

إن الله عليٌّ عن صفات المخلوقين وصفات النقص، يفعل ما تقتضيه حكمته حكيم في كل أحكامه، فيجعل الوحي معتمداً على وسيط، أو بغير وسيط.

وهذه الأنواع الثلاثة يتيقن النبي في كل منها أن الله تبارك وتعالى هو مصدر الوحي، دون أي شك، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي^(١) أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب».

وقد جاء في السنة بيان أنواع الوحي إلى النبي ﷺ، روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها - كما تقدم - «أن الحارث بن هشام رضي الله عنه، سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً، أي يسيل عرقاً.

ثم ذكر تعالى تشابه الوحي بين النبي ﷺ وبين الأنبياء السابقين، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي مثلما أوحينا إلى سائر الأنبياء، أوحينا إليك هذا القرآن، الذي هو من أمر الله، وهو روح؛ لأنه يهتدي به، ففيه حياة سعيدة بعد موت الكفر، وكان نزوله حدّاً فاصلاً بين عهدين، استيقظ به العرب والمسلمون من رقدهم، وصنعوا حضارة سامقة ومجداً.

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي ما كنت أيها النبي قبل إنزال الوحي عليك تعرف ما القرآن، ولا معنى الإيمان، ولا تفاصيل الشرائع، ولا تهتدي إلى معالمها الصحيحة، وخصّ الإيمان؛ لأنه رأس الشريعة.

ولكن جعلنا هذا القرآن الذي أوحيناه إليك ضياءً ونوراً يهدي به من نشاء

(١) الروح - بالضم: القلب والعقل والروح - بالفتح: الفرع.

هدايته، ونخرجه من ظلمات الجهالة والضلال إلى الهداية والمعرفة، ونرشده إلى الدين الحق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤/٤١] ، وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢/١٧] ، وقال عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧/١٠] .

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صَرِّطَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَأْمُرْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وإنك يا محمد لتهدي بذلك النوع إلى المنهج السليم، والحق القويم، الذي هو شرع الله الذي أمر به، وطريق الله الذي له ملك السماوات والأرض، وربهما المتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه. وفي إضافة الصراط إلى اسم الجلالة تعظيم له وتفخيم لشأنه.

﴿آلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي ألا أيها الخلائق ترجع الأمور كلها يوم القيامة إلى الله تعالى، لا إلى غيره، فيحكم فيها بقضائه العدل. وهذا وعد للمتقين المهتدين، ووعد للظالمين الكافرين.

فقه الحياة لو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

أ - إن مظاهر الوحي إلى الأنبياء والرسل منحصرة في ثلاثة أنواع هي:

الأول - الإلهام المباشر والإلقاء في القلب معاني ذات دلالة عامة وصيغة تشريعية، تستقر في النفس.

الثاني - إسماع الله كلامه للنبي من غير واسطة.

الثالث - إرسال رسول من الملائكة لتبليغ الرسالة، كإرسال جبريل عليه السلام.

٢ - فَهَمَّ الْمُعْتَزَلَةُ مِنْ حَصْرِ الْوَحْيِ بِهَذِهِ الْأَنْوَاعِ أَنْ رَوَى اللَّهُ غَيْرَ جَائِزَةٍ فِي الْآخِرَةِ، إِذْ لَوْ صَحَّتْ رَوَى اللَّهُ تَعَالَى، لَصَحَّ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَتَكَلَّمَ مَعَ الْعَبْدِ حَالَمَا يَرَاهُ الْعَبْدُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ قِسْمًا رَابِعًا زَائِدًا، وَقَدْ نَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْأَوْجِهَةِ الثَّلَاثَةِ.

وَالْجَوَابُ أَنَّ فِي الْآيَةِ قِيدًا: هُوَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، وَزِيَادَةُ هَذَا الْقَيْدِ مَفْهُومَةٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَيَجِبُ الْمَصِيرُ إِلَيْهَا لِلتَّوْفِيقِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى حُصُولِ الرُّؤْيَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٢٣﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِقَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الْقِيَامَةِ: ٢٣-٢٤/٧٥].

٣ - احْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ الْإِمَامُ مَالِكٌ وَالتَّخَمِي عَلَى أَنَّ مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَكَلِّمَ رَجُلًا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولًا، أَنَّهُ حَانَتْ؛ لِأَنَّ الْمُرْسَلَ قَدْ تُنَمِّي مَكَلِّمًا لِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنَّ يَنْوِي الْخَالْفَ الْمَوَاجَهَةَ بِالْخُطَابِ. قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَمَنْ حَلَفَ أَلَّا يَكَلِّمَ رَجُلًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَامِدًا أَوْ سَاهِيًا، أَوْ سَلَّمَ عَلَى جَمَاعَةٍ هُوَ فِيهِمْ، فَقَدْ حَنَثَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عِنْدَ مَالِكٍ. وَإِنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولًا أَوْ سَلَّمَ عَلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ، لَمْ يَحْنَثْ.

٤ - الصَّحِيحُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ الْمَلَكَ عِنْدَمَا يَبْلُغُ الْوَحْيَ إِلَى الرَّسُولِ، لَا يَقْدِرُ الشَّيْطَانُ عَلَى إِقَاءِ الْبَاطِلِ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْوَحْيِ.

وَالْمَلَائِكَةُ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَظْهَرُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَلَا يُسَمَّى كَلَامُ اللَّهِ مَعَ ابْلِيسَ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَحِيًّا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِ.

٥ - حَقِيقَةُ الْوَحْيِ وَاحِدَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمُظَاهَرُهَا وَأَنْوَاعُهَا مُتَعَدِّدَةٌ، ذَكَرَتْ الْآيَةُ مِنْهَا هُنَا ثَلَاثَةً فَقَطْ.

٦ - ظَاهِرُ الْآيَةِ: ﴿مَا كُنْتُ بَدْرِي﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ قَبْلَ الْإِبْحَاءِ

متّصفاً بالإيمان، والصّواب أن الأنبياء معصومون قبل النّبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار عن الأنبياء بتنزيهم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان. وإنما المراد بالإيمان هنا: الشرائع والأحكام المعتمدة على الوحي الإلهي، فقد أطلق الإيمان على الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣].

والآية دليل على أن النبي ﷺ لم يكن قبل النّبوة متعبداً بشرع ما.

وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دين، ولكن عين الدّين غير معلومة عندنا. وهذا إن كان جائزاً عقلاً، لكن ليس عليه دليل قاطع.

قال القرطبي: والذي يُقطع به أنه ﷺ لم يكن منسوباً إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحداً من أمته، ومخاطباً بكلّ شريعته؛ بل شريعته مستقلة بنفسها، مفتوحة من عند الله الحاكم جلّ وعزّ. وأنه ﷺ كان مؤمناً بالله عزّ وجلّ، ولا سجد لصنم، ولا أشرك بالله، ولا زنى، ولا شرب الخمر، ولا شهد السامر^(١) ولا حضر حلف المطّيين^(٢) بل نزهه الله وصانه عن ذلك^(٣).

ولكنه ﷺ حضر حلف الفضول، فقال: «شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت».

٧ - لم يكن النبي ﷺ قبل البعثة عالماً بالقرآن، فهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب،

(١) السامر: الموضع الذي يجتمعون فيه للشمر.

(٢) حلف المطّيين: حدث حينما اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تميم في دار ابن جدعان في الجاهلية، وجعلوا طيباً في جفة وغمسوا أيديهم فيه، وتحالفوا على التناصر والأخذ من المظلوم للظالم، فسموا المطّيين.

(٣) تفسير القرطبي: ٥٩/١٦.

ولا بالإيمان، أي شرائع الإيمان ومعامله، لا أصل الإيمان فإنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه، كما تقدّم.

٨ - إن القرآن العظيم الذي أوحى الله به إلى النبي ﷺ هو نور وهداية، يدعو ويرشد إلى دين قويم لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام. والمقصود بالهداية: الدعوة إلى الدين الحق وإيضاح الأدلة.

والله الذي أنزله له جميع ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وعبداً وخلقاً وإليه مصير الخلائق جميعهم. وهذا وعيد بالبعث والجزاء، ووعد بالثواب للمؤمنين الصالحين، وتنبيه إلى أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السماوات والأرض، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله، والإفادة بأنه تعالى يجازي كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

٩ - دلّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على أنه كما أن القرآن يهدي، فكذلك الرسول يهدي، أي يرشد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

مكية، وهي تسع وثمانون آية

تسميتها:

سميت (سورة الزخرف) لاشتغالها على وصف بعض مظاهر الحياة الدنيا ومتاعها الفاني وهو الزخرف، أي الذهب أو الزينة المزوقة ومقارنته بنعيم الآخرة الخالد في قوله تعالى: ﴿وَلْيُسَوِّوْهُمْ أَنْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَخَفُونَ ۖ﴾ (٣٤) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ [٣٥ - ٣٤].

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من آل حم من وجهين:

الأول - تشابه مطلع هذه السورة مع مطلع وخاتمة السورة المتقدمة في وصف القرآن الكريم، وبيان مصدره: وهو الوحي الإلهي.

الثاني - التشابه في إيراد الأدلة القاطعة على وجود الله عز وجل ووحدانيته، ووصف أحوال الآخرة ومخاوفها وأحوال النار التي يتعرض لها الكفار، ومقارنته بنعيم الجنة وإعداده للمؤمنين المتقين.

مشمولاتها:

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية يتعلق بغرس أصول العقيدة الإسلامية في النفوس، وهي: الإيمان بالله عز وجل وحده لا شريك له، والرسالة والنبوة والوحي، والبعث والجزاء.

بدأت السورة ببيان مصدر القرآن العظيم وهو الوحي الإلهي وتأكيد عربيته ومصادقته، وجعله معجزة الإسلام والنبي ﷺ الخالدة إلى يوم القيامة، وكونه أداة إنذار قريش وقبائل العرب الذين أسرفوا في متع الدنيا، وكذبوا رسولهم كتكذيب من سبقهم من الأمم.

ثم أبانت بنحو قاطع أدلة وجود الله عز وجل وقدرته ووحدانيته من خلق السماوات، والأرض وتذليلها وتمهيدها وإيجاد طرقها، وإنزال الغيث النافع عليها، وخلق أصناف (أزواج) الأشياء والفلك (السفن) والأنعام لأهلها، واعتراف المشركين صراحة بأن الخالق هو الله عز وجل.

ولكنهم لوثوا ذلك الاعتراف بالوثنية والخرافة، فعبدوا الأصنام والأوثان، وزعموا أن الملائكة بنات الله، ولم يجدوا مسوغاً لتدينهم الفاسد إلا تقليد الآباء والأجداد، فصححت لهم أي القرآن انحرافهم، ونعت جهلهم وسفهمهم بتلك العبادة الباطلة، والزعم الذي لا دليل عليه، وحذرتهم من إنزال مثل العقاب الذي أهلك به الله أمثالهم من الأمم الغابرة.

وأوردت قصص بعض الأنبياء من أولي العزم كإبراهيم الخليل وموسى وعيسى عليهم السلام ليعتبروا بها ويتعظوا بأحداثها ونتائجها. وأردفت قصة إبراهيم بتفنيد شبهة المشركين حول رسالة النبي ﷺ، حيث اقترحوا إنزالها على أحد رجلين عظيمين من أهل الجاه والثراء في مكة والطائف، لا على يتيم فقير، فرد الله عليهم بأن ميزان الاصطفاء للنبوة هو مقومات أدبية خلقية إنسانية، لا مادية رخيصة، فالدنيا لا تساوي شيئاً عند الله تعالى، وأنه خشية

أن يكون الناس أمة واحدة على ملة الكفر، لمنحها بجميع زخارفها وأمتعتها الكفار، ومنعها المؤمنين.

وحذرهم عقب ذلك من الإعراض عن ذكر الله، ورغبتهم في النعيم الأبدي في الآخرة، وامتنّت عليهم بأن القرآن شرف لنبي الله ﷺ ولهم على السواء: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [٤٤].

ثم ختمت السورة ببيان وصف نعيم الجنة الذي لا مثيل له، والمخصص للمؤمنين بآيات الله المسلمين المتقادين لربهم، وإيضاح أهوال القيامة وشدائد الأشقياء أهل النار حيث يتقلبون في عذاب جهنم، وإفلاسهم من شفاعة الأصنام والآلهة المزعومة، وإعلان اليأس من إيمان هؤلاء المشركين والإعراض عنهم، فسوف يعلمون ما يلقونه من العذاب.

القرآن كلام الله بلغة العرب

وعقاب المستهزئين بالأنبياء

﴿حَمِّ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۚ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۚ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبَاءِ لَدِينًا لِّعَلَىٰ حَكِيمٍ ۚ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۚ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۚ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۚ فَاهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْ مِثْلُ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾ [٨]

القرءات:

﴿قُرْآنًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمة وقفاً (قراناً).

﴿أَنْ كُتِبَ﴾:

وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وخلف (إن كتبت).

﴿تَنِي﴾:

وقرأ نافع (نبيء).

الإعراب:

﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا﴾ بمعنى صيرناه معدي إلى مفعولين، أو بمعنى خلقناه معدي إلى واحد، و﴿قُرْءَانًا﴾ حال.

﴿وَلَئِنْ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾: خبران لـ ﴿وَلَئِنْ﴾ و﴿فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ﴾ متعلق بـ ﴿لَعَلِّي﴾ أو حال منه، و﴿لَدَيْنَا﴾ بدل من ﴿أَوَّلِ الْكِتَابِ﴾ أو حال من ﴿الْكِتَابِ﴾

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُتِبَ﴾ ﴿صَفْحًا﴾: منصوب على المصدر؛ لأن معنى ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ أفنصفح. و﴿أَنْ كُتِبَ﴾ بالفتح بتقدير لأن كتبت، وقرئ بالكسر «إن» على أنها شرطية. وفاء ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ للعطف على محذوف، أي أنهم لم يضربوا عنكم الذكر صفحاً.

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ ﴿أَشَدَّ﴾: مفعول به، أو حال، و﴿بَطْشًا﴾: تمييز.

البلاغة:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ، يعني أنا لا نترك هذا التذكير والإنذار بسبب كونكم مسرفين.

المفردات اللغوية:

﴿حَمَّ﴾ ﴿٤٤﴾ هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وعلى خطورة

الأحكام المبينة في السورة ﴿وَالْكِتَابِ﴾ أي أقسم بالقرآن على أنه معمول قرآنًا عربيًّا ﴿الْمُيِّنِ﴾ الموضح لطريق الهدى والشرائع والأحكام ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أوجدنا القرآن - ﴿وَالْكِتَابِ﴾ - ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه أيها العرب.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ مثبت، معطوف على ﴿إِنَّا﴾ ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ، فإنه أصل الكتب السماوية ﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا ﴿لَعَلَّيْ﴾ رفيع الشأن لكونه معجزاً من بينها، مهيمناً على الكتب قبله ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، أو محكم لا ينسخه غيره.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي أنهلكم ونترككم فنمسك عنكم القرآن إمساكاً، فلا تؤمرون ولا تنهون لأجل ما. أو أنتحي عنكم القرآن، وتنحيته عنهم إعراض؛ يقال: ضربت وأضربت عنه: تركته، و﴿الذِّكْرَ﴾: القرآن، و﴿صَفْحًا﴾: إعراضاً. والمراد إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب بلغتهم ليفهموه.

﴿أَن كُنْتُمْ﴾ أي لأن كنتم ﴿قَوْمًا مُّشْرِكِينَ﴾ متجاوزين الحد في الإسراف، مشركين بالله، وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض عنهم، أي لا تترككم لكونكم مشركين ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي ما أتاهم نبي إلا استهزؤوا به، وهذا تسلية للنبي ﷺ عن استهزاء قومه.

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أشد من قومك قوة ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سبق وسلف في آيات الله بيان قصتهم العجيبة وإهلاكهم، فكذلك يكون قومك مثلهم، والآية وعد للرسول ووعد لهم بمثل ما جرى على الأولين.

الغاية والهدف من الآيات:

يريد الله تعالى أن يؤكد كون القرآن بلغة العرب، مما يقتضي إيمان العرب قاطبة به، فهم أقدر الناس على فهمه وإدراك معانيه، ويؤكد أيضاً أن القرآن كلام الله ومن عنده، فهو محفوظ مصون في اللوح المحفوظ، وليس من عند محمد ﷺ كما تزعمون، وأن الإعراض عنه لا يكون سبباً لترك تذكيرهم به، فضلاً من الله ونعمة ورحمة، وليعتبروا بمصائر أمثالهم من الأمم التي أهلكها الله.

التفسير والبيان:

﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾ تقدم بيان المراد من ﴿حَمَّ ١﴾. ثم يقسم الله بالقرآن نفسه البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ، المبين طريق الهدى وكل ما يحتاج إليه الناس في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ أي إنا أنزلنا هذا القرآن بلسان العرب أو اللغة العربية التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس، وقد جعلناه بلغة العرب فصيحاً واضحاً، لتفهموه أيها العرب، وتندبروا معانيه، كما جاء في آية أخرى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥/٢٦].

والآية جواب القسم، وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد. ولعل: للتمني والترجي وهو لا يليق بمن كان عالماً بعواقب الأمور، فكان المراد ههنا كما ذكر الرازي وغيره، أنزلناه قرآنًا عربيًّا لكي تعقلوا معناه، وتحيطوا بفحواه.

هذا في الأرض، وأما في السماء فقال تعالى:

﴿وَإِنَّهُمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ٤﴾ أي وإن هذا القرآن في اللوح المحفوظ عندنا رفيع القدر، عالي الشأن في البلاغة والإرشاد وغير

ذلك^(١) عظيم الشرف والمكانة، ذو حكمة بالغة، ومحكم النظم لا يوجد فيه لبس واختلاف ولا تناقض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠] وقال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرٌ ﴿١١﴾ فَن شَاءَ ذَكْرُهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١١-١٦/٨٠]^(٢).

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾؟ أي أترككم دون إنذار، ونطوي عنكم القرآن طياً دون تذكير، ولا وعظ ولا أمر ولا نهي، لأنكم قوم منهمكون في الإسراف، مصرون على الشرك؟ لا نفعل ذلك لطفاً ورحمة منا بكم، فلا نترك دعوتكم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن، وإن كنتم مسرفين معرضين عنه، بل نأمر به ليهتدي المهتدون في قدر الله وعلمه، وتقوم الحجة على الأشقياء^(٣).

ثم سلى الله رسوله عما يلقاه من صدود قومه، فقال:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾ ﴿وَكَمْ﴾: هنا خبرية، أي ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة، فكذبوهم، كما قال تعالى:

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾ أي وما أتاهم من نبي ولا رسول إلا كانوا به يكذبون ويسخرون، كتكذيب قومك واستهزائهم بك.

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ أي فدمرنا وأهلكنا قوماً أشد قوة من هؤلاء القوم المكذبين لك يا محمد، وقد سلف في القرآن

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري: ٤٣/٢٥.

(٢) وقد استنبط العلماء من هاتين الآيتين أن المحدث لا يحس المصحف، تشبهاً بالملائكة الأطهار لتعظيمه.

(٣) تفسير ابن كثير: ١٢٢/٤.

ذكرهم أكثر من مرة وعرفت سنة الله فيهم، وإذا علمتم ما آل إليه أمرهم بسبب تكذيب الرسل، فاحذروا الوقوع في مثل مصائرهم.

فالمثل: سستهم أو عقوبتهم كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢/٤٠].

أو المثل: عبرتهم، أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٦/٤٣] وقوله سبحانه ﴿سُئِلَ اللَّهُ أَلَمْ يَأْتِ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥/٤٠].

فقه الحياة لو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الأحكام والمبادئ التالية:

١ - القرآن الكريم أنزله الله بلسان العرب؛ لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه، وجميع ما في القرآن عربي مادة ومعنى، لفظاً ونظماً، فقد أقسم الله سبحانه بالقرآن أنه جعله عربياً، وأنه جعله مبيّناً، فهو المبيّن للذين أنزل إليهم؛ لأنه بلغتهم ولسانهم، ولأنه الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة، وأبان فيه أحكامه وفرائضه.

٢ - ليس إنزال القرآن باللغة العربية دليلاً على أنه خاص بالعرب دون العجم؛ لأن نصوصه قاطعة الدلالة على عالمية الإسلام للناس كافة، كما هو معروف في مواضع متقدمة، لذا كان تفسير ابن زيد لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلمكم تفكرون هو الأولى؛ لأنه على هذا التأويل يكون خطاباً عاماً للعرب والعجم. أما على تفسير ابن عيسى: لعلمكم تفهمون أحكامه ومعانيه، فيكون خاصاً للعرب دون العجم^(١)

(١) تفسير القرطبي: ٦١/١٦

والظاهر إرادة كلا المعنيين ولا يلزم التخصيص بالعرب، لأن عموم الرسالة الإسلامية من المبادئ الكبرى المعروفة.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يدل - كما ذكر الرازي - على أن القرآن كله معلوم، وليس فيه شيء مبهم مجهول، خلافاً لمن يقول: بعضه معلوم، وبعضه مجهول^(١).

٣ - وصف الله تعالى القرآن في السماء بأنه في اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، ثم وصف اللوح المحفوظ بأربع صفات هي:

الأولى - أنه ﴿أَمْرٌ أَلَكِتَابِ﴾ وأصل كل شيء: أمه، أي أن القرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ.

الثانية - وأنه لدى الله بقوله: ﴿لَدَيْنَا﴾. وإنما خصه الله بهذا التشريف لكونه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته.

الثالثة - كونه علياً، أي كونه عالياً عن وجوه الفساد والبطلان.

الرابعة - كونه حكيماً، أي محكماً في وجوه البلاغة والفصاحة، وذو حكمة بالغة، ويرى مفسرون آخرون أن هذه الصفات كلها صفات القرآن.

وهذا على تفسير أم الكتاب باللوح المحفوظ، وفي تفسير آخر أنه الآيات المحكمات لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧/٣] والمعنى: أن سورة ﴿حَمِّ﴾ واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم.

٤ - إن اختيار المشركين دين الشرك لا يمنع من تذكيرهم، ووعظهم،

وأمرهم، ونبيهم، لطفاً من الله ورحمة بهم، وقطعاً لحجتهم بعدم البيان والتكليف.

٥ - إن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التّكذيب والاستهزاء، فلا داعي أيها الرسول وأتباعه للتأذي من أقوام، بسب إقدامهم على التّكذيب والاستهزاء؛ لأن المصيبة إذا عمّت خفّت.

٦ - إن عدد الأنبياء في البشر كثير، فما أكثر ما أرسل الله من الأنبياء، ولكن الله تعالى أهلك أقوامهم الذين كذبوه واستهزؤوا بهم، بالرغم من أنهم كانوا أقوى من هؤلاء المشركين في أبدانهم وأتباعهم. ومضى مثلهم في الأمم الغابرة. والمثل: العقوبة أو السّنة أو الوصف والخبر، أي سلفت عقوبتهم، أو صفة الأولين بأنهم أهلكوا على كفرهم، أو مضت سنة الله فيهم.

فإذا سلك كفار مكة وغيرهم في الكفر والتّكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم من الحزني مثل ما نزل بهم، فقد ضرب الله لهم مثلهم، كما قال: ﴿وَكُلًّا صَبَرْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الفرقان: ٣٩/٢٥]. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥/١٤].

من مصنوعات الله تعالى وصفاته

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ
 ① الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
 ② وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ
 ③ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ④
 لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي
 سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لِمُفْرِنٍ ⑤ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ⑥﴾

القراءات:

﴿مَهْدًا﴾: قرئ:

١- (مَهْدًا) وهي قراءة عاصم، وحمة، والكسائي، وخلف.

٢- (مِهَادًا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿تُخْرِجُونَ﴾: قرئ:

١- (تُخْرِجُونَ) وهي قراءة ابن ذكوان، وحمة، والكسائي.

٢- (تُخْرِجُونَ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمُ﴾ اللام: لام القسم و﴿لَيَقُولَنَّ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات: وواو الضمير لالتقاء الساكنين.

﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ حذف العائد اختصاراً، أي تركبونه، وإنما قال ﴿تَرْكَبُونَ﴾ مع أنه يقال: ركبوا الأنعام، وركبوا في الفلك، لأنه غلب المتعدي بغير واسطة، لقوته على المتعدي بواسطة، فقليل: تركبونه.

﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ جمع الظهر مراعاة المعنى ﴿مَا﴾ وذكر الضمير نظراً للفظ ﴿مَا﴾.

البلاغة:

﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ تشبيه بليغ، أي كالمهد وهو الفراش، حذفت منه الأداة ووجه الشبه.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ استعارة تبعية، شبه الأرض قبل نزول المطر بالميت، ثم أنشَرها الله، أي أحياها بالمطر.

﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿تَرْكَبُونَ﴾ ﴿لَمُنْقَلِبُونَ﴾ سجع غير متكلف.

للفردات اللغوية:

﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ هذا مقول المشركين، أي خلقهن ذو العزة والعلم ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ استئناف من الله تعالى، المهدي: الفراش، كالمهد للصبي، فتستقرون فيها ﴿سُبُلًا﴾: طرقاً، جمع سبيل، أي طريق ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك.

﴿يَقْدَرُ﴾ بمقدار أو تقدير ينفع ولا يضر، بحسب الحاجة، ولم يجعله طوفاناً ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾ أحيينا ﴿بَلَدَةً مَّيِّتًا﴾ خالية من النبات، وتذكير كلمة "ميت" لأن البلدة بمعنى البلد والمكان ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإنشاء (الإحياء) ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أصناف المخلوقات ﴿الْفَلَاحِ﴾ السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ لتستقروا على ظهور ما تركبون ﴿سَحَرًا﴾ ذلل ﴿مُفْرِنِينَ﴾ مطيقين، مأخوذ من أقرن الشيء: إذا أطاقه، وأصله: وجده قريته ﴿لَمُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون، فالنقلة العظمى هي الانقلاب إلى الله تعالى، لتجازي كل نفس بما كسبت.

للناسية:

هذه الآيات تذكير للمشاركين المسرفين في أعمالهم وإعراضهم عن القرآن بأنهم يقرون بوجود الخالق، وتذكير لهم أيضاً بنعم الله ومصنوعاته وصفاته التي عدّد منها هنا ثمان صفات، ثم أردفها بتعليم عباده ذكر الله في قلوبهم وعلى ألسنتهم، فعنه ﷺ: أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ - إلى قوله - ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات كما أشرت ثمانى صفات له وهي:

٣- أ - كونه خالقاً للسموات والأرض، العزيز، العليم: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٤١﴾ أي تالله لئن سألت أيها النبي هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره من قومك: من الذي خلق السموات والأرض ؟ لأجابوا واعترفوا بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهو العزيز أي الغالب القوي، إشارة إلى كمال القدرة، العليم، أي الواسع العلم، إشارة إلى كمال العلم.

وكمال القدرة والعلم دليل على أن الموصوف به قادر على خلق جميع الممكنات. ومع هذا فهم يعبدون مع الله إلهاً آخر من الأصنام والأنداد.

٤ - الذي جعل الأرض ممهدة كالفراش: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي إنه تعالى الذي جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش والبساط، صالحة للإقامة والاستقرار عليها، فمع أنها تدور وتحرك، فهي ثابتة أرساها الله بالجبال، لثلا تميد وتضطرب.

٥ - وخلق فيها الطرق: ﴿وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي وأوجد فيها الطرق والمسالك بين الجبال والأودية، لتهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم ومنافعكم، وتنتقلوا إلى أرجاء البلاد، للمتاجرة وطلب الرزق والسياحة وغير ذلك.

٦ - منزل الغيث النافع وباعث الناس: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ۝١١﴾ أي والله هو الذي أنزل المطر من السماء بقدر الحاجة وحسبما تقتضيه المصلحة للزروع والثمار والشرب، ولم ينزل عليكم منه فوق حاجتكم، لثلا يحدث الطوفان والغرق

وهدم المنازل وتلف المزارع، ولا دون الحاجة، حتى لا يكفي النبات والزرع والناس.

فأحيينا بذلك الماء البلاد الميتة المقفرة التي لا نبات فيها، فلما جاءها الماء، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وكما أحيينا الأرض بعد موتها نحبي الأجساد يوم المعاد بعد موتها، وتبعثون من قبوركم أحياء.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝﴾ [فاطر: ٢٥/٩].

وظاهر الآية هنا يقتضي أن الماء ينزل من السماء، والواقع أنه ينزل من السحاب، وسمي نازلاً من السماء؛ لأن كل ما سَمَاكَ أو علاك فهو سماء. وقوله: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ كما يدل على قدرة الله وحكمته، فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة، ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإماتة، كهذه الأرض التي أحييت بالنبات الأخضر والثمر اليانع بعدما كانت ميتة.

٧ - كونه خالقاً أصناف الأشياء: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي والله هو الذي خلق الأصناف كلها من نبات وزرع وشجر وثمر، وإنسان وحيوان وغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه.

٨ - خالق وسيلة الركوب من الفلك والأنعام: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي والله الذي خلق لكم بالإلهام والتعليم وسيلة الركوب في البحر وهي السفن، وأوجد واسطة الركوب في البر من الأنعام وهي الإبل، إذ المعهود أنه لا يركب من الأنعام إلا هي، والله هو الذي ذلّلها لكم وسخّرها ويسرّها لركوب ظهورها، وكذا لأكل لحومها وشرب ألبانها والانتفاع بأوبارها، قال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي

هريرة: «بينما رجل راكب بقرة إذ قالت له: لم أخلق لهذا، إنما خلقت للحرث، فقال النبي ﷺ: آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر»^(١).

ولا تقتصر وسائل الركوب على السفن والإبل، فهناك آية أخرى تشمل الدواب والسيارات والقطارات والطائرات ونحوها من وسائل المواصلات الحديثة، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِكْبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨/١٦].

﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمَّ مُقَرَّنِينَ﴾ أي لتستقروا ولتستعلوا متمكنين مرتفقين على ظهور هذا الجنس من المخلوقات وهو ما تركبونه من الفلك والأنعام، ثم تذكروا مع التعظيم في قلوبكم وألستكم نعمة الله التي أنعم بها عليكم من تسخير المراكب في البحر والبر، فتعرفوا أن الله تعالى خلق وجه البحر صالحاً للإبحار والرياح قوة دافعة، وعلم الإنسان كيفية صنع السفينة على نحو يتمكن فيها من الإبحار عليها إلى أي مكان شاء وأراد.

وتقولوا إذا استويتم وركبتم على المركوب. ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمَّ مُقَرَّنِينَ﴾ أي تزيهاً لله عن كل عجز ونقص لا يليق، الذي ذلل لنا هذا المركب، وما كنا مطيقين لتسخيره لولا أن سخره الله لنا.

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي وإنا لصائرون راجعون إليه بعد مماتنا، فيجازي كل نفس بما عملت من خير أو شر. ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن ركوب الفلك والأنعام عرضة لخطر الهلاك، فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت وأن يعتقد أنه هالك لا محالة، وأنه راجع إلى الله تعالى.

أخرج مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله

(١) ولم يكونا حاضرين حينئذ.

عنهما قال: «إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته، كَبَّرَ ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُؤْمِرِينَ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾» ثم يقول: اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هَوِّنْ علينا السفر، واطْوِ لَنَا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا». وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيئون تائبون إن شاء الله عابدون، لربنا حامدون».

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يلي:

١ - إذا سئل المشركون عن خلق السماوات والأرض لأجابوا بأن الخالق هو الله القوي الغالب الكامل العلم، فأقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم.

٢ - الله تعالى كامل القدرة فهو سبحانه الذي مهد لنا الأرض وجعلها صالحة للعيش عليها بسلام واستقرار، وأوجد فيها المعاش والطرق لنسلكها إلى حيث أردنا، ولنهتدي بها في الأسفار، ونستدل بمقدوراته على قدرته.

٣ - الله تعالى لطيف بعباده رحيم بهم، فهو جل وعز ينزل المطر النافع بقدر الحاجة ومقتضى الحكمة، فلا يجعله طوفاناً مغرقاً، ولا قليلاً قاصراً عن الحاجة، حتى يكون معاشاً صالحاً للأنفس والأنعام، فينبت به الزرع والشجر، ويخرج به الغلال والثمار.

ومن قدر على إحياء الأرض بعد جديها، قدر على بعث المخلوقات من القبور.

٤ - الله تعالى جميل يحب الجمال، فهو الذي نوع الأشياء كلها، وأوجد

فيها الأصناف المختلفة، وأبدع مباحج الحياة، وجعل فيها الحيوية والحركة بالانتقال في أرجاء الأرض بوسائط الركوب المتنوعة براً وبحراً وجواً.

٥ - قال القرطبي: علّمنا الله سبحانه ما نقول إذا ركبنا الدواب، وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن: وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١/١١] فكم من راكب دابة عثرت به أو شمسّت أو تفحّمت^(١) أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا^(٢).

والخلاصة: هناك أذكار ثلاثة ما ينبغي لعبد أن يدع قولها، وليس بواجب ذكرها في اللسان، وهي دعاء السفر في البحر: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ودعاء السفر في البر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ودعاء دخول المنازل: ﴿رَبِّ أَرْزُقْنِي مَزَلًا مَبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَزِلِّينَ﴾^(٣).

(١) تفحم الفرس براكبه: ألقاه على وجهه.

(٢) تفسير القرطبي: ٦٧/١٦

(٣) تفسير الرازي: ١٩٨/٢٧ وما بعدها.

عبادة المشركين الملائكة

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ⑩﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ⑪ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ⑫ أَوْ مَن يُنَشِّئُوا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ⑬ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَّتًا آسْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ ⑭ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ⑮ أَمْ أَنَيْنَافُ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُتَسِّكُونَ ⑯ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ⑰ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ⑱ قُلْ أُولَئِكَ جَحْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ⑲ فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ فَاظْطَرَّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ⑳﴾

القراءات:

﴿يُنَشِّئُوا﴾ : قرئ:

١- (يُنَشِّئَا) وهي قراءة حفص، وحمة، والكسائي، وخلف.

٢- (يُنَشِّئَا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿عِندَ الرَّحْمَنِ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (عند الرحمن) - ظرفاً-

﴿آسْهَدُوا﴾ :

وقرأ نافع (أشهدوا).

﴿قُلْ أُولَئِكَ﴾ : قرئ:

١- (قال أولو) وهي قراءة ابن عامر، وحفص.

٢- (قل أولو) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿جِئْتُكُمْ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيتكم).

الإعراب:

﴿مَنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي من رجال عباده، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ : ﴿وَجْهَهُ﴾ : إما اسم ﴿ظَلَّ﴾ أو بدل من ضمير مقدر فيها مرفوع؛ لأنه اسمها. و﴿مُسْوَدًّا﴾ : خبرها، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ : جملة اسمية في موضع نصب على الحال.

﴿أَمْ أَلَمَّا أَتَيْنَا﴾ : ﴿أَمْ﴾ : بمعنى بل والهمزة وتقديره: بل أأخذ مما يخلق بنات، ولا يجوز أن يكون بمعنى «بل» بغير همزة، لأنه يؤدي التقدير إلى الكفر، وهو: بل اتخذ بنات.

﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْغَلِيَةِ﴾ (مَنْ): إما في موضع نصب بتقدير فعل، أي أجعلتم من ينشأ، أو في موضع رفع؛ لأنه مبتدأ، وخبره محذوف أي كائن، وهو قول الفراء.

البلاغة:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ تأكيد بإن واللام وصيغة المبالغة على وزن

فَعُول وفعيل

﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ أسلوب تهكمي يراد به التوبيخ والتفريع، وبين لفظ «البنات» و «البنين» طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي جعل المشركون بعد ذلك الاعتراف بأن الله هو الخالق، من عباده ولداً، حيث قالوا: ١ ملائكة بنات الله، باعتبار أن الولد جزء من أبيه، والملائكة من عباد الله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ قائل ما تقدم ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ بالغ الكفر وظاهر الكفر.

﴿أَمْ اتَّخَذَ﴾ بل اتَّخَذَ، والهمزة في ﴿أَمْ﴾ همزة الإنكار والتعجب، أو القول مقدر أي أتقولون: اتَّخَذَ ﴿وَأَصْفَنَكُمْ﴾ خصكم واختاركم، وهذا لازم من قولكم السابق ﴿ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي جعل له شبيهاً بنسبة البنات إليه؛ لأن الولد يشبه الوالد ﴿ظَلَّلَ﴾ صار ﴿مُسَوِّدًا﴾ متغيراً لما يعتريه من الكآبة، وقرئ: (مسوداً) و(مسوداً)، على أن في ﴿ظَلَّلَ﴾ ضمير المبشر و﴿وَجْهَهُ مُسَوِّدًا﴾: جملة واقعة موقع الخبر ﴿كَبِيرٌ﴾ ممتلئ غماً وغيظاً.

﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَيَاةِ﴾ أي أو يجعلون الله من يترى في الزينة ؟ والهمزة همزة الإنكار، وواو العطف يعطف جملة: يجعلون الله.. إلخ ﴿الْحَصَامِ﴾ الجدل والنقاش ﴿عَبْرٌ مُبِينٌ﴾ غير مظهر الحجة لضعفه عنها وعجزه عن الجدل بالأنوثة. وفيه دلالة على فساد ما قالوه.

﴿أَشْهَدُوا﴾ أحضروا خلق الله إياهم، فشاهدوهم إناثاً ؟ ﴿سَتَكُنُّ شَهِيدَتُهُمْ﴾ بأنهم إناث ﴿وَسُئَلُونَ﴾ عنها في الآخرة، فيعاقبون على شهادة الزور، وهو وعيد ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ ما عبدنا الملائكة، فعبادتنا إياهم بمشيئته، فهو راضٍ بها، أي إنهم استدلوا بنفي مشيئته عدم العبادة على امتناع النهي عنها أو على حسننها، وذلك باطل؛ لأن المشيئة ترجح بعض الممكنات على بعض، مأموراً كان أو منهياً، حسناً كان أو غيره،

ولذلك حكم عليهم بالجهل بقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ليس لمقوله من الرضا بعبادتهم أدنى علم بمراد الله ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبون فيه ويخدسون، فيعاقبون عليه.

﴿أَمْ أَلَيْسَتْ لَهُمْ كُتُبًا مِّنْ قَبْلِهِ﴾ أي هل أعطيناهم كتاباً من قبل القرآن ينطق بصحة ما قالوه، ويقرر عبادة غير الله؟ ﴿مُسْتَسْكُونَ﴾ متمسكون بذلك الكتاب، والمعنى: لم يقع ذلك.

﴿مَرْفُوعًا﴾ منعموها وأهل الترف فيها ﴿عَلَى أُمَّةٍ﴾ ملة أو طريقة ومذهب ﴿مُفْتَدُونَ﴾ متبعون، قال البيضاوي: هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ؟﴾ أي قال لهم النذير نبيهم: أتتبعون ذلك ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ وهذا حكاية أمر ماض أوحى إلى النذير ﴿قَالُوا إِنَّا يَمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كُفْرُونَ﴾ أي قال الأقوام للنذير: إنا كافرون بما أرسلت به أنت ومن قبلك. ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال الله: فانتقمنا من المكذبين للرسول قبلك ﴿عَقِبَهُ﴾ مصير ونهاية، فلا تكثر بتكذيبهم.

سبب النزول:

نزول الآية (١٩):

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ﴾: أخرج ابن المنذر عن قتادة قال: قال ناس من المنافقين: إن الله صاهر الجن، فخرجت من بينهم الملائكة، فزل فيهم: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ أَنْثَىٰ﴾

نزول الآية (٢٢):

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ حكى مقاتل أن هذه الآية نزلت في الوليد ابن المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش؛ أي وكما قال هؤلاء فقد قال من قبلهم أيضاً، يعزّي نبيه ﷺ.

للناسبة:

بعد بيان اعتراف المشركين بأن الله خالق السماوات والأرض، ذكر الله تعالى ما يناقض ذلك وهو ادعاؤهم أن الملائكة بنات الله، فلم يقتصرُوا أن جعلوا لله ولداً، وإنما جعلوه من الإناث ومن الملائكة، فرد تعالى عليهم بأجوبة ثلاثة: نفرتهم من الإناث، وضعف الإناث، وجهلهم بحقيقة الملائكة.

ثم ذكر تعالى شبهة أخرى للمشركين: وهي أن عبادة الملائكة بمشيئة الله، ورد عليهم بأن المشيئة ترجح بعض الأشياء على بعض، ولا دلالة فيها على الرضا والغضب أو الحسن والقبح، فهم جهلة كاذبون، وليس لهم دليل نقلي صحيح يعتمدون عليه إلا محض التقليد للآباء والأجداد، دون برهان معقول، وشأنهم في الكفر شأن من سبقهم من الأمم التي كذبت الرسل، فانتقم الله منهم وأهلكهم.

التفسير والبيان:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) أي إن المشركين بالرغم من اعترافهم بالوهمية الله وكونه خالق السماوات والأرض، أثبتوا له ولداً، إذ قالوا: الملائكة بنات الله، باعتبار أن الولد جزء من أبيه، قال ﷺ فيما رواه أحمد والحاكم عن المسور: «فاطمة بضعة مني» إن الإنسان جحود نعم ربه جحوداً بيّناً، يقابل وضوح النعمة، فيكون الجحود من أبين الكذب. والآية متصلة بقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ﴾.

وهذا من جهلهم بالله وصفاته، واستخفافهم بالملائكة حيث نسبوا إليهم الأنوثة، ونسبوههم إلى الله نسبة تقتضي نسبة الأضعف من نوعي الإنسان، فالله ليس كمثله شيء، فلا يشبهه أحد من خلقه، ونسبة الولد له تقتضي جعله مشابهاً للحوادث، فلا يصلح إلهاً، ولأن هذا الادعاء للجزء يجعل الله مركباً من أجزاء فهو حادث.

ثم أنكر تعالى عليهم أشد الإنكار، فقال:

﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَ كُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (٢٢) ؟ أي وإذا نسبتم الولد إلى الله، لزم منه أن الله اتخذ ولدًا له من أضعف الجنسين، واختار لكم الأفضل، وهذا يعني أنه جعل لنفسه المفضل من الصنفين، ولكم الفاضل منهما، فكيف يصح هذا مع أنه تعالى هو الخالق؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿الْكُفُّ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) [النجم: ٥٣/٢١-٢٢] أي جائرة.

ومعنى قوله: ﴿أَمْ اتَّخَذَ﴾ بل اتَّخَذَ؟ الهمزة للإنكار تجهيلاً لهم وتعجبياً من شأنهم حيث جعلوا ذلك الجزء أضعف الجزأين، وهو الإناث دون الذكور.

ثم ذكر الله تعالى تمة الإنكار والتوبيخ والتعجب، فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٢٣) أي وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين بما جعل الله مشابهاً، وهو الأنثى، أنف من ذلك واغتم، وعلته الكآبة من سوء ما بُشِّرَ به، فصار وجهه متغيراً، وأضحى ممثلاً غيظاً، شديد الحزن، كثير الكرب، فكيف تأنفون أنتم من البنت، وتسبونها إلى الله عز وجل؟ !

وللآية شبه تام هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٢٣) بِنُورِيٍّ مِنَ الْقَوَارِ مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ (٢٤) [النحل: ٥٨/١٦-٥٩].

ثم أكد الله تعالى الإنكار، فقال:

﴿أَوْ مِنْ يُنْسَوْنَ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (٢٥) أي أو يجعل للرحمن من الولد من صفته أنه يترى في الزينة والنعمة، وإذا احتاج إلى مخاصمة غيره لا يقدر على الجدال وإقامة الحجة؟ فلا بيان عنده، ولا يأتي ببرهان يدفع ما يجادل به خصمه، لنقصان عقله وضعف رأيه.

والآية دليل على رقة المرأة وغلبة عاطفتها عليها، وميلها إلى التزين والنعومة، وعلى أن التحلي بالذهب والحرير مباح للنساء، وأنه حرام على الرجال؛ لأنه تعالى جعل ذلك عنواناً على الضعف والنقصان، وإنما زينة الرجل: الصبر على طاعة الله، والتزين بزينة التقوى، كما قال الرازي.

ومن مفتريات المشركين عدا ما ذكر من نسبة الإناث إلى الله: زعمهم أن الملائكة إناث، كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ أي حكموا بأن الملائكة إناث، وهذا مترتب على قولهم السابق: الملائكة بنات الله.

فأنكر الله عليهم ورد مقالمهم بقوله:

﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ؟﴾ «سَتَكُنُّ شَهِدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ» أي هل حضروا وشاهدوا خلق الله إياهم حتى يشهدوا بأنهم إناث، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٥٠] ستكتب شهادتهم بذلك في ديوان أعمالهم، لنجازيمهم على ذلك، ويسألون عنها يوم القيامة، فهي شهادة زور. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد بالعذاب، ودليل على أن الادعاء من غير برهان وإثبات جريمة.

واستدل بهذه الآية: ﴿هُم عِبْدُ الرَّحْمَنِ﴾ من قال بتفضيل الملائكة على البشر.

ثم أورد الله تعالى شبهة أخرى للمشركين، ولونا آخر من ألوان افتراءاتهم، فقال:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي قال الكفار: لو أراد الله ما عبدنا هذه الملائكة، فإنه قادر على أن يحول بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، ويريدون بذلك القول إن الله راضٍ عن

عبادتهم للأصنام. وهو احتجاج بالقدر، وكلمة حق يراد بها باطل؛ لأن المشيئة لا تستلزم الأمر؛ إذ هي ترجيح بعض الممكنات على بعض بحسب علمه، والله يأمر بالخير والإيمان، ونحن لا نعلم مشيئته أو إرادته إلا بعد وقوع الفعل منا.

وقد جمعوا في هذا القول بين أنواع كثيرة من الخطأ والكفر كما ذكر ابن كثير:

١ - جعلهم لله تعالى ولداً، تقدس وتنزه عن ذلك.

٢ - دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين؛ إذ زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى.

٣ - عبادتهم لهم بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الأهواء وتقليد الأسلاف، وتحبُّط الجاهلية.

٤ - احتجاجهم بتقدير الله ذلك، وتقديرهم على طريقتهم قدراً، وهذا جهل شديد، فإن الله منذ أن بعث الرُّسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة سواه^(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦/١٦] ، وقال عز وجل: ﴿وَسَلِّ مِّنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٤٥] .

ونحو الآية: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ، ﴿أَطْعِمُ مَن لَّوِ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧/٣٦] .

(١) تفسير ابن كثير: ١٢٥/٤

فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ليس لهم أي علم أو دليل بصحة ما قالوه واحتجوا به، وما هم إلا يكذبون فيما قالوا، ويقولون، فإن الله يأمر بالحق والإيمان والخير، ولا يرضى لعباده الكفر والفحشاء. والآية دليل على جهلهم الفاضح، وكذبهم وافترائهم الباطل.

ثم أبطل الله تعالى قولهم بالدليل القلي قائلاً:

﴿أَمْ أَلَيْسَتْ لَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي أعطيناهم كتاباً من قبل هذا القرآن ينطق بما يدعون، مكتوباً فيه: اعبدوا غير الله؟ فهم يتمسكون بذلك الكتاب، ويحتجون به، أي ليس الأمر كذلك، كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/٣٥] أي لم يكن ذلك أصلاً.

ثم ذكر الله تعالى أنه لا حجة لهم إلا التقليد، فقال:

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ بل إنهم قالوا: لقد وجدنا آباءنا على طريقة ساروا عليها في عبادتهم الأصنام، وإنا سائرون على منهجهم مهتدون بهديهم. وهذا اعتراف صريح منهم بأنه ليس لهم مستند ولا حجة عقلية ولا نقلية على الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد واتباعهم في الضلالة. وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ - أي وراءهم - ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ مجرد دعوى منهم بلا دليل.

ثم أبان الله تعالى تشابه الأمم في الكفر والتقليد والمقالة، فقال:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ أي إن مقال هؤلاء قد سبقهم إليه أشباههم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، فمثل تلك المقالة قال المترفون

المنعمون - وهم الرؤساء والزعماء والجبابة - من كل أمة لرسولهم المرسل إليهم للإنذار من عذاب الله: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِلَّةٍ وَدِينٍ، وَإِنَّا عَلَى طَرِيقَتِهِمْ سَائِرُونَ متبعون.

وخصص المترفين تنبيهاً على أن التمتع هو سبب المعارضة وإهمال النظر وترك التفكير في مضمون الرسالة الإلهية.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ ﴿٥١﴾ أَنْوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٢-٥٣].
وإنما قال أولاً: ﴿مُتَعَدِّونَ﴾ لادعاء الهداية كآبائهم، ثم قال ثانياً: ﴿مُتَقَدِّمُونَ﴾ حكاية عن قوم تابعوا آباءهم في فعلهم، دون ادعاء الهداية، والمعنى تقريباً واحداً.

وهذا تسلياً لرسول الله ﷺ، وتنبيه على أن التقليد في الاعتقاد والعبادة ضلال قديم.

ثم ذكر تعالى جواب الرُّسل لأقوامهم عن التقليد، قائلاً:

﴿قُلْ أُولَئِكَ جَحَّتْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاؤُكُمْ﴾ أي قال لهم رسولهم: أتتبعون آباءكم، ولو جحَّتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟!.

فأجابوه معلنين كفرهم صراحة، في قوله تعالى:

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي قالوا: لا نعمل برسالتك، ولا سمع لك ولا طاعة، وإنا كافرون جاحدون بما أرسلتم به، ومستمرون ثابتون على دين الآباء والأسلاف. والمراد أنهم لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتكم به أيها الرسول، لما انتقادوا لذلك؛ لسوء قصدهم، ومكابرتهم للحق وأهله. وقوله: ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ يعني بكل ما أرسل به الرُّسل، فالخطاب للنبي ﷺ، ولفظه لفظ الجمع؛ لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه.

وما بعد الإصرار على الكفر إلا النّعمة والإهلاك، فقال تعالى:

﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي فانتقمنا من الأمم المكذبة للرّسل بأنواع من العذاب، كعذاب قوم نوح وعاد وثمود، فانظر أيها المخاطب كيف كان مصير أمر المكذبين من تلك الأمم كيف بادوا وهلكوا، وإن آثارهم موجودة، عبرة للنّاظر المعبر. وهذا وعيد وتهديد لأهل مكة، وسلوة للرّسول، وإرشاد له إلى عدم الاكتراث بشأن قومه من رسالته.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي:

١ - للمشرّكين افتراءات كثيرة، منها هنا: نسبة البنات إلى الله تعالى، فقالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءاً له. وقد عَجَبَ الله المؤمنين من جهلهم، إذ أقروا بأن خالق السماوات والأرض هو الله، ثم جعلوا له شريكاً أو ولداً، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السماوات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به؛ لأن هذا من صفات النقص كما أبان القرطبي.

ومن افتراءاتهم المذكورة في سورة أخرى: جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم (الأوثان) وبعضها لله تعالى، كما حكى تعالى عنهم قائلاً: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

٢ - ومن افتراءاتهم أنهم جعلوا له من الأولاد الأقل والأضعف وهو البنات.

٣ - ونَجَّههم الله تعالى على افتراءهم ذاكراً انه كيف يتخذ البنات - كما زعموا أن الملائكة بنات الله - واختصهم وأخلصهم بالبنين؟!

٤ - لم يعقل المشركون ما افتروه على الله في نسبتهم البنات له، فإنهم لا يرضونه لأنفسهم، فإنه إذا بُشِّرَ الواحد منهم بولادة بنت له، اسودَّ وجهه غمًّا وكدرًا، وأنف من نسبة البنت له، وأضحى حزيناً مكروباً، فكيف ينسب إلى الله ما هو نافر منه؟!

ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله، فقد جعل الملائكة شِبْهاً لله؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه، ومن اسودَّ وجهه مما ينسب إليه مما لا يرضى، أولى من أن يسودَّ وجهه بنسبة ذلك إلى من هو أجلُّ منه، فكيف إلى الله عزَّ وجلَّ؟!

٥ - وكيف يصح أن يجعل الله له من لا همَّ له إلا الحلي والزينة، وإذا خوصم لا يقدر على الدِّفاع عن نفسه؟

وفي هذه الآية دلالة - كما تقدّم - على إباحة الحلي للنساء، وتحريمه على الرجال، وهو حكم مجمع عليه ثابت بأخبار كثيرة.

٦ - أوضح الله تعالى كذب المشركين وجهلهم في نسبة الأولاد إلى الله سبحانه، ثم في تحكّمهم بأن الملائكة إناث، وهم بنات الله، وحكمهم من غير دليل بأنهم إناث، فكيف تجرّؤوا حتى حكموا بأنهم إناث، ولم يحضروا حالة خلقهم؟!

إن شهادتهم الباطلة هذه مكتوبة عليهم في ديوان أعمالهم، ويسألون عنها في الآخرة.

٧ - ومن شُبَّه المشركين المقترأة احتجاجهم بالقدر الإلهي، فقالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية: لو شاء الرَّحْمَنُ على زعمكم أيها المؤمنون ما عبدنا هذه الملائكة، والله أمرنا بهذا أو رضي لنا ذلك، ولهذا لم يعاجلنا بالعقوبة. وهذه كلمة حقُّ أريد بها باطل، فإن كل شيء بإرادة الله، وعلمه نافذ لا محالة؛ لكن

الإرادة أو المشيئة لا تقتضي الأمر والرضا وليس الأمر والإرادة متطابقين، ولا نعلم مراد الله، فكان علينا العمل بأمره ونهيه، وليس لقولهم: الملائكة بنات الله أي دليل علمي، وما هم إلا يُحَدِّسون ويكذبون، فلا عذر لهم في عبادة غير الله عز وجل. وقوله: «هُم عِبَادُ الرَّحْمَنِ» يفيد حصر العبودية في الملائكة وذلك يدل على الفضل والشرف، مما يوجب كونهم أفضل من غيرهم.

٨ - كذلك ليس لهم دليل نقلي على زعمهم، ولا كتاب لديهم بما ادَّعوه قبل هذا القرآن.

٩ - لا دليل للمشركين على شركهم إلا التقليد الأعمى لأبائهم وأسلافهم، وهم لما عجزوا عن الدليل لم يجدوا بداً من الاعتماد على تقليد الآباء، قائلين بأنهم وجدوهم على تلك الملة أو الطريقة والمذهب، فقلدوهم واهتدوا بهديهم.

وهذا دليل على إبطال التقليد في العقائد والأصول؛ لأن الله ذمهم على تقليد آبائهم، وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ.

١٠ - إن مقالاتهم تلك تشبه مقالة من سبقهم من الأمم المكذبة لرسولها، فإن أهل الترف والرؤساء فيهم اقتدوا بالآباء والأجداد دون دليل.

١١ - إنهم مصرّون على الشرك والتقليد الأعمى، حتى ولو جاءهم رسول الله من عند الله بأهدى وأرشد من ذلك الدين الباطل.

١٢ - إن المنتظر أمام هذا الإصرار على الكفر ما ذكره تعالى وهو الانتقام الشديد من الكافرين، وتدميرهم وإهلاكهم، وآثارهم ظاهرة للعيان، عبرة للمعتبر، فيا أهل مكة وأمثالكم انظروا في مصيركم المرتقب.

الزّد على تقليد الآباء، واختيار الأنبياء، وبيان حال الدنيا

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِثَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَنَّهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِيُثْبِتَنَّهُمْ أَنْوَاعًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُنَّا لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿الْقُرْآنُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحزرة وفقاً (القرآن).

﴿رَحِمَتْ رَبِّكَ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.
ووقف الباقون بالتاء.

﴿لِيُثْبِتَنَّهُمْ﴾: قرئ:

١- (لِيُثْبِتَنَّهُمْ) وهي قراءة أبي عمرو، وورش، وحفص.

٢- (لِيُوتَهُمْ) وهي قراءة الباقيين.

﴿سُقْفًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (سُقْفًا).

﴿لَمَّا مَتَّعُ﴾: قرئ:

١- (لَمَّا مَتَّاع) وهي قراءة عاصم، وحمة.

٢- (لَمَّا مَتَّاع) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿مِنَ الْقَرِيْبَيْنِ﴾ أي من إحدى القرينتين، فحذف المضاف، وأراد بـ ﴿الْقَرِيْبَيْنِ﴾: مكة والطائف.

﴿لِيُوتَهُمْ سُقْفًا﴾ ﴿لِيُوتَهُمْ﴾: بدل من ﴿لَمِنَ﴾ بإعادة الجار، بدل الاشتمال، وقرئ «سُقْفًا» و «سُقْفًا» فسُقِف: جمع سَقَف، نحو رَهْن ورُهْن. وسُقِف: واحد ناب مناب الجمع.

﴿وَزُخْرَفًا﴾ إما منصوب بفعل مقدر، أي وجعلنا لهم زخرفاً، أو معطوف على موضع قوله تعالى: ﴿مِنَ فِضَّةٍ﴾ ﴿وَإِنْ كُنْ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَّعُ﴾ ﴿وَإِنْ﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها: إما ﴿كُنْ﴾ إلا أنه لما خففت نقصت عن شبه الفعل، فلم تعمل وارتفع ما بعدها بالابتداء على الأصل، وإما بتقدير الهاء أي إنه كل ذلك، فحذف اسمها وهو الهاء وخففت، فارتفع ﴿كُنْ﴾ بالابتداء، وجملة ﴿وَإِنْ كُنْ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَّعُ﴾. من المبتدأ والخبر في موضع رفع خبر (إن). وهذا التقدير ضعيف لتأخير اللام في الخبر. و﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا، ويصح أن تكون (إن) نافية بمعنى (ما). وقرأ «لَمَّا» بالتخفيف، فتكون ما: زائدة أو موصولة وصدر الصلة محذوف.

البلاغَةُ:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ «كَلِمَةً»: مجاز مرسل، والمراد بالكلمة: الجملة التي قالها، وهي: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكر يا محمد وقت قول إبراهيم هذا. ليروا كيف تبرأ من التقليد، وتمسك بالدليل. ﴿لِأَيِّهِ﴾ آزر. ﴿بَرَاءٌ﴾ بريء من عبادتكم أو معبوديكم، وهو مصدر نعت به، فيستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث، وقرئ «بريء» و «برآء» ككريم وكرماء. ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقتني، وهو استثناء منقطع، أي لكن الذي فطرني، أو متصل على أن «ما» تعم ما كانوا يعبدون وهو الله والأوثان، كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يرشدني إليه، وهو مقرر لما قال مرة أخرى: ﴿يَهْدِينِ﴾ كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد وهو قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ «كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع من أشرك منهم بدعاء من وُحِدَ، فيرجع عما كان عليه إلى دين إبراهيم أبي الأنبياء والمسلمين، وهو يشمل أهل مكة وغيرهم.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي هؤلاء المعاصرين للرسول من قريش وآباءهم، فاعثروا بذلك وانهمكوا في الشهوات، ولم أعاجلهم بالعقوبة. وقرئ «متعت» بالفتح على أنه تعالى اعترض به على ذاته: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾ مبالغة في تعييرهم ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن ودعوة التوحيد. ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾

ظاهر الرسالة بما له من المعجزات، أو مبین للتوحيد بالحجج والآيات المتضمنة الأحكام الشرعية، وهو محمد ﷺ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن. ﴿لَوْلَا﴾ هلا. ﴿مِنَ الْقَرَبَيْنِ﴾ من إحدى القريتين: مكة والطائف. والرجلان هما: الوليد بن المغيرة من مكة، وكان يسمى رجحانة قريش، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف. ﴿عَظِيمٍ﴾ زعيم ذي جاه ومال، فإن الرسالة منصب خطير لا يليق إلا بعظيم، ولم يعلموا أن معيار اختيار الأنبياء هو التحلي بالفضائل والكمالات الأدبية، لا بالاعتبارات الدنيوية.

﴿أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم، والرحمة: النبوة. ﴿قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جعلنا معيشتهم مقسومة فيما بينهم، فبعضهم غني، وبعضهم فقير، ويتفاوتون في مرتبتي الغنى والفقر. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ جعلنا بينهم تفاوتاً في الرزق وغيره. ﴿لِيَسْخَرُوا بَعْضُهُمْ﴾ وهو الغني. ﴿بَعْضًا﴾ وهو الفقير. ﴿سُخْرَاءً﴾ مسخرأ في العمل بالأجرة، أي يستعمل بعضهم بعضاً في حوائجهم، والياء: للنسب، وقرئ بكسر السين «سُخْرِيًّا». ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ﴾ أي النبوة وما يتبعها، أو الجنة. ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي خشية أن يكون جميع الناس على ملة واحدة وهي الكفر. ﴿سُقْفًا﴾ جمع سقف، وقرئ: «سُقْفًا». ﴿وَمَعَارِجَ﴾ ومصاعد جمع معراج كمنبر، وقرئ: «معاريج» جمع معراج. ﴿عَلَيْهَا يَطْهَرُونَ﴾ يصعدون ويعلون إلى السطوح. ﴿وَلِيُثَبِّتَهُمُ الْبُيُوتَ﴾ من فضة. ﴿وَسُرًّا﴾ من فضة، جمع سرير. ﴿يَكُونُونَ﴾ يستندون. ﴿وَرُحْفًا﴾ ذهباً أو زينة مزوقة، والمراد به الزينة كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤/١٠]، ومعنى الآية: لولا خوف الكفر على المؤمنين من إعطاء الكافر ما ذكر، لأعطيناه ذلك لاحتقار الدنيا عندنا.

﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا^(١) و(إن) نافية، وعلى قراءة التخفيف «لَمَّا» تكون ما زائدة. ﴿مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ما يتمتع به فيها ثم يزول. ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي نعيم الآخرة وهو الجنة عند الله - عندية مكانة وتشريف لا عندية مكان - لمن اتقى الكفر والمعاصي.

سبب النزول:

نزول الآيتين (٣١ - ٣٢).

تقدم في سورة يونس في الآية (٢) سبب نزول الآية ﴿لَوْلَا نُزِّلَ﴾ وفيه: أخرج ابن جرير عن ابن عباس «أن العرب قالوا: وإذا كان النبي بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾» يكون أشرف من محمد، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، عروة ابن مسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله ردّاً عليهم: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

وروى ابن المنذر عن قتادة «أن الوليد بن المغيرة - وكان يسمى ربحانة قريش - كان يقول: لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل علي أو علي أبي مسعود؛ فقال الله تعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة. فيضعونها حيث شاؤوا».

المناسبة:

بعد أن بين الله تعالى فساد اعتماد المشركين على التقليد في العقائد والأصول، بين فساده بأسلوب المشركين أنفسهم، وهو أن إبراهيم الخليل عليه السلام أبو العرب وأشرف آبائهم تبرأ من دين آبائه بالدليل، وحكم بأن

(١) حكى سيويه: نشدتك الله لَمَّا فعلت كذا، أي إلا فعلت كذا.

وإما منقطع؛ أي لكن الذي فطرني فهو يهديني، قال ذلك ثقة بالله، وتنبهياً لقومه أن الهداية من ربه.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) أي وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، جعلها دأمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداة الله تعالى منهم، فلا يزال فيهم - ولله الحمد - من يوحد الله سبحانه، رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم كأهل مكة، فإنهم إذا ذكروه، تبعوه في ملته الخفيفة، وتأثروا بأبوتهم إن كانوا يدعون تقليد الآباء. قال قتادة: «لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة».

ثم ندد الله تعالى بموقف أهل مكة ووئجهم على اغتزارهم بالنعمة وطول العمر واستمرار السلطة والتفوذ، فقال:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (١٩) أي بل متعت هؤلاء المشركين من أهل مكة وآباءهم من ذرية إبراهيم بطول العمر والسعة في الرزق، وأنعمت عليهم في كفرهم، فاغتروا بالمهلة، وأكبوا على الشهوات وطاعة الشيطان، وشغلوا بالتنعم عن كلمة التوحيد، إلى أن جاءهم الحق وهو القرآن العظيم، والرسول المبين الذي أوضح مبدأ التوحيد بالبراهين الساطعة، وشرع الله وأحكامه القاطعة، وهو محمد ﷺ.

وزاد في توبيخهم بإعراضهم عن رسالة الحق - رسالة محمد ﷺ - فقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢٠) أي حينما جاءهم القرآن والرسول المؤيد بالمعجزات دليلاً على صدقه، وصفوا ما جاء به بأنه سحر وأباطيل، وليس بوحي من عند الله، وقالوا: إنا بما أرسل به جاحدون مكابرة وعناداً وحسداً وبغياً، فضموا إلى شركهم وضلالهم تكذيب الحق ورفضه، والاستهزاء به، والتصريح بالكفر برسالته وإنكار نبوته.

ثم ذكر الله تعالى نوعاً آخر من الكفر وهو النوع الرابع من كفرياتهم المذكورة في هذه السورة^(١) فقال:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي وقال كفار قريش وأمثالهم: هلا أنزل القرآن على أحد رجلين عظيمين من مكة أو الطائف، وهما الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمرو الثقفي، فكل منهما عظيم المال والجاه، وسيُبد في قومه. المعنى: أنه لو كان قرآنًا لنزل على رجل عظيم من عظماء القرينتين. وهذا اعتراض منهم على الله الذي أنزل القرآن على رسوله.

فأبطل الله تعالى هذه التّشبهة من ثلاثة وجوه:

الأول- ﴿أَمْهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾^(٢) ؟ ﴿نَحْنُ فَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي إن هؤلاء المشركين تجاوزوا حدودهم وأقدارهم، فأرادوا أن يجعلوا ما لله لأنفسهم، وليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أذكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم وأطهرهم أصلاً. أيجوز لهم أن يقسموا رحمة ربك وهي النبوة، فيختاروا لها من يريدون؟ نحن الذين نقسم الأرزاق والحظوظ بين العباد، ونفضل بعضهم على بعض درجات في القوة والضعف، والعلم والجهل، والشهرة والخبول، والغنى والفقر؛ لأننا لو سَوَّينا بينهم في هذه الأحوال لم يتعاونوا فيما بينهم، ولم يتمكنوا من استخدام بعضهم بعضاً، فيكون بعضهم سبيلاً لمعاش بعض، وإلا فسد نظام العالم. وليس المعنى في الاستخدام أو الاستئجار أو الاستعمال على عمل شيء من الذلّ والمهانة؛ لأن حقوق العامل مصونة في الإسلام،

(١) الثلاثة المقدمة: هي جعلهم الملائكة بنات الله، وجعل الملائكة إناثاً، وقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ

الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾

(٢) الاستفهام هنا للإنكار والتعجب..

وعلى صاحب العمل واجبات خلقية ومادية كثيرة توجب عليه الترفع عن الغبن والظلم والأذى والإساءة، فإن عجزوا عن تغيير نظام الدنيا، فكيف يعترضون على حكمنا بتخصيص النبوة والرسالة في بعض العباد؟ والمعنى: إنكار أن الرزق منهم، فكيف تكون الثبوة منهم؟!

الوجه الثاني- «وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» أي إن ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة خير مما يجمعون من الأموال وسائر متاع الدنيا، وإذا خصّ الله بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدّين، فهذه الرحمة خير من أموال الدنيا كلها؛ لأن عَرَض الدنيا زائل، ورحمة الله وفضله باقٍ دائم.

ثم أبان الله تعالى حقارة الدنيا، فقال:

الوجه الثالث - «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُونَ ﴿٢٧﴾ وَزُخْرُفًا ﴿٢٨﴾» أي ولولا الخوف وكراهة أن يكون الناس كلهم على ملّة الكفر، ميلاً إلى الدنيا وزخرفها، فلا يبقى في الأرض مؤمن، لأعطينا الكفار ثروات طائلة، وجعلنا سقّف بيوتهم، وسلاسلهم ومصاعدهم التي يرتقون ويصعدون عليها، وأبواب البيوت والشرر التي يتكئون عليها من فضة خالصة، وذهب وزينة ونقوش فائقة، لهُوان الدنيا عند الله تعالى.

«وَإِنْ كُنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ» أي ليس كل ذلك إلا شيئاً يتمتع به تمتعاً قليلاً في الدنيا؛ لأنها زائلة قصيرة الأجل، والآخرة بما فيها من أنواع النعيم والجنان هي لمن اتقى الشرك والمعاصي، وآمن بالله وحده، وعمل بطاعته؛ فإنها الباقية التي لا تفتنى، ونعيمها الدائم الذي لا يزول، وهي لهم خاصة، لا يشاركون فيها أحد غيرهم.

أخرج الترمذي وابن ماجه والبخاري والطبراني عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»، وفي رواية: «لو كانت الدنيا..»، وفي رواية الطبراني «أنه لما ألى النبي ﷺ من نسائه، جاءه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرآه على رمال حصير، قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر، هما فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله ﷺ متكئاً، فجلس وقال: أو في شك أنت يا بن الخطاب؟ ثم قال ﷺ: أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»^(١).

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - لقد تبرأ إبراهيم عليه السلام من عبادة الأصنام، وخرج على المألوف الفاسد بالحجة والدليل.

٢ - إن ترك التقليد في العقيدة والرجوع إلى متابعة الدليل واجب متعين على كل إنسان في أمر الدين، وكذلك ترك التقليد، واتباع الدليل هو الأولى في شؤون الدنيا أيضاً، ليكون المرء على بينة من أمره، إلا فيما تتطلبه ظروف القيادة الحرة ونحوها للحفاظ على الأسرار، فيجب تنفيذ أمر القائد وطاعته، وإن لم يعرف الدليل.

٣ - جعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد ومقالته السابقة: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ باقية في عقبه، وهم ذريته، ولده وولد ولده، أي إنهم توارثوا البراءة من عبادة غير الله، وأوصى بعضهم بعضاً في ذلك. والعقب: من يأتي بعده.

(١) تفسير ابن كثير: ١٢٧/٤.

٤- قال ابن العربي: كان لإبراهيم في الأعقاب دعوتان مجابتان:

إحداها - في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤/٢] ، فقد قال له: نعم، إلا من ظلم منهم فلا عهد له.

ثانيهما - قوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥/١٤] .

وقيل: بدل الأولى: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/١٨٤] ، فكل أمة تعظمه، بنوه وغيرهم ممن يجتمع معه في سام أو في نوح^(١)

٥ - وقال ابن العربي أيضاً: جرى ذكر العقب ههنا موصولاً في المعنى بالحَقْب، أي متصلاً مستمراً على ممر السنين، وذلك مما يدخل في الأحكام وترتب عليه عقود العُمري^(٢) أو التحسيس، قال النبي ﷺ فيما أخرجه أبو داود والنسائي عن جابر: «أئماً رجل أعمار عمرى له ولعقبه، فإنها للذي أُعطيها، لا ترجع إلى الذي أعطاها؛ لأنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث»^(٣) أي إن الهبات والأوقاف تشمل الدرجة الأولى من الأولاد ذكوراً وإناثاً، وولد الذكور دون الإناث لغةً وشرعاً في الدرجة الثانية وما يليها، وهذا مذهب المالكية. وقال جماعة كابن عبد البر وغيره: إن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس (الأوقاف الذرية أو الأهلية).

٦ - عجباً لقريش وأمثالها متّعهم الله وآبأهم بوافر النعم في الدنيا، ولما جاء الحق وهو القرآن المشتمل على التوحيد والإسلام الذي هو أصل دين إبراهيم، وكلمته الباقية في عقبه، وجاءهم الرسول محمد ﷺ، كفروا به وقالوا: إنه سحر لا وحي.

(١) أحكام القرآن: ١٦٦٦/٤

(٢) العمري: تمليك الشيء مدة العمر.

(٣) أحكام القرآن: المرجع والمكان السابق.

٧ - وقالوا أيضاً: هلا نزل هذا القرآن على رجل عظيم من إحدى القريتين: مكة والطائف، إما الوليد بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم عم أبي جهل من مكة، وإما أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، ظانين أن النبوة لصاحب المنصب العالي والرجل الشريف وهو كثير المال، رفيع الجاه.

وفاتهم أن معيار الاصطفاء للنبوة إنما هو القيم الروحية والأدبية والنفسية. وفاتهم أيضاً أنهم يتدخلون في ولاية الله وسلطانته ومشيتته، فيضعون النبوة حيث شاؤوا، وهذا افتئات على سلطان الله، فإن مرسل الرسل هو الذي يختارهم، وفاتهم كذلك أن رحمة الله وفضله ونعمته في الآخرة وهي الجنة، ونعمته في الدنيا وهي النبوة أفضل مما يجمعون من الدنيا.

٨ - إن الله سبحانه هو لا غيره الذي يقسم الأرزاق والخطوظ بين عبادته، بمقتضى حكمته ومشيتته، فيفقر قوماً ويغني آخرين، فإذا لم يكن أمر الدنيا لأحد من العباد، فكيف يفوض أمر النبوة إليهم؟!

٩ - وإن الله تعالى هو الذي يفاضل بين عبادته ويفاوت بينهم في مقومات الحياة وقيمها من القوة والضعف، والعلم والجهل، والحذاقة والبلادة، والشهرة والخلمول، لأن تحقيق المساواة في هذه الأمور يؤدي إلى الإخلال بنظام العالم، ويفسد المصالح، ويعطل المكاسب، فيعجز الواحد من تسخير غيره لخدمة أو عمل، مقابل أجر عادل.

١٠ - ليس التفوق المادي في الدنيا دليلاً على صلاح أصحابه؛ إذ لا قيمة للدنيا وثرواتها في ميزان الله، ولولا كراهة أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطاهم الله ما وصف من زخارف الدنيا؛ لهُوانها عند الله عز وجل.

والخلاصة: ردّ الله تعالى على اقتراح العرب كون الرسالة لأحد رجلين

بوجه ثلاثة: أولها - قوله على سبيل الإنكار: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي التوبة فيضعونها حيث شاؤوا، وثانيها - قوله: ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَعُونَ﴾ لأن الدنيا فانية، ودين الله باقٍ لا يزول. وثالثها - قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كما تقدم تفسيرها^(١).

١١ - استدلل ابن العربي بقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الْسُفُلَ أُولَئِكَ ذُو الْأَلْبَابِ﴾ أن السقف لصاحب السفلى، ولا حق فيه لصاحب العلو؛ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت، كما جعل الأبواب لها، وهذا مذهب مالك رحمه الله تعالى.

أما السفلى فاختلفوا فيه، فمنهم من قال: هو له، ومنهم من قال: ليس له في باطن الأرض شيء، والراجح ما بينه حديث الإسرائيل الصحيح: أن رجلاً باع من رجل داراً، فبناها فوجد فيها جرة من ذهب، فجاء بها إلى البائع، فقال: إنما اشتريت الدار دون الجرة، وقال البائع: إنما بعثت الدار بما فيها، وكلاهما تدافعها، ففرض النبي ﷺ أن يزوجه أحدهما ولده من بنت الآخر، ويكون المال بينهما.

قال ابن العربي وتبعه القرطبي: والصحيح أن العلو والسفل له، إلا أن يخرج عنهما بالبيع، فإذا باع أحدهما أحد الموضعين، فله منه ما ينتفع به، وباقية للمبتاع منه^(٢).

ثم استطرده القرطبي في بيان بعض أحكام العلو والسفل، نجتزئ منها ما يلي^(٣):

أ - ليس لصاحب السفلى أن يهدم إلا لضرورة، ويكون هدمه أرفق لصاحب العلو، لئلا ينهدم بانهدامه العلو.

(١) غرائب القرآن للتيسابوري: ٤٩/٢٥

(٢) أحكام القرآن: ٤/١٦٧٠، تفسير القرطبي: ١٦/٨٥-٨٦

(٣) تفسير القرطبي: ١٦/٨٦

ب - وليس لربّ العلو أن يبني على علوه شيئاً لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذي لا يضرّ بصاحب السفّل.

ج - ولو انكسرت خشبة من سقف العلو أدخل مكانها خشبة ليست أثقل منها، منعاً من ضرر صاحب السفّل.

د - وباب الدار على صاحب السفّل.

هـ - ولو انهدم السفّل أجبر صاحبه على بنائه، وليس على صاحب العلو أن يبني السفّل، فإن أبي صاحب السفّل من البناء قيل له: بع ممن يبني.

و - إن إصلاح السفّل على صاحبه.

ز - ليس لصاحب السفّل أن يحدث ما يضرّ بصاحب العلو، فإن أحدث عليه ضرراً لزمه إصلاحه دون صاحب السفّل، ولصاحب العلو منعه من الضرر، لحديث السفينة الذي أخرجه البخاري والترمذي وغيرهما عن النعمان بن بشير: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا - اقترعوا - على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا من الماء، مروا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجَّوْا ونجَّوْا جميعاً». والعبارة الأخيرة تدلّ على جواز منع الضرر، وفي الحديث دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه دليل على جواز القرعة واستعمالها.

٢٢- إن التمتع بالدنيا قليل وعمرها قصير، والآخرة أي الجنة لمن اتقى وخاف. أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر». وقد تقدّم حديث الترمذي عن سهل بن سعد: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

حال المعرض عن ذكر الله، وتثبيت النبي ﷺ على دعوته

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ۝﴾ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَنَلَيْتَ بَنِيَّ وَبَنِيكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقَرِينُ ۝ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝﴾ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ (٤٠) فَإِنَّمَا نَذِيرُكَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ۝ (٤١) أَوْ تُرْسِكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلِيمٌ مُّقْتَدِرُونَ ۝ (٤٢) فَاسْتَسْكِنُكَ إِلَٰهِي إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ (٤٣) وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝ (٤٤) وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ۝﴾ (٤٥)

القراءات:

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ : قرئ:

١- (ويحسبون) وهي قراءة: ابن عامر، وعاصم، وحمة.

٢- (ويحسبون) وهي قراءة الباقيين.

﴿جَاءَنَا﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (جاءانا).

﴿فَيَلْسَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمة وقفاً (فيس).

﴿صِرَاطٌ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

﴿وَسَلٌّ﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي (وسل).

﴿رُسُلَنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسُلنا).

الإعراب:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ﴾ ﴿وَمَنْ﴾: شرطية، وما بعدها فعل الشرط وجوابه.

﴿وَلَا يَهُدَى لِبَصْدُوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ﴾ جمع الضميرين مراعاة لمعنى (مَنْ) إذ المراد جنس العاشي والشيطان المقيض له. وأما ضمير ﴿لَهُ﴾ فروعي فيه لفظ ﴿وَمَنْ﴾ وهكذا أعاد الضمير أولاً على اللفظ، ثم على المعنى. وضمير ﴿لِيَصْدُوهُمْ﴾ عائد على جنس الشيطان وبما أن لكل عاشٍ شيطاناً قريباً، فجاز أن يعود الضمير مجموعاً. وقال ابن عطية: ضمير ﴿وَلَا يَهُدَى﴾ عائد على الشيطان، وضمير ﴿لِيَصْدُوهُمْ﴾ عائد على الكفار، قال أبو حيان: والأولى ما ذكر أولاً لتناسق الضمائر في ﴿وَلَا يَهُدَى﴾ وفي ﴿لِيَصْدُوهُمْ﴾ وفي ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ للدلول واحد كأن الكلام: وإن العشاء ليصدونهم الشياطين عن سبيل الهدى والفوز. ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي الكفار.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذٌ﴾ ﴿إِذٌ﴾ بدل من اليوم.

﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون «إن» الشرطية في «ما» الزائدة المؤكدة بمنزلة لام القسم في طلب النون المؤكدة.

البلاغة:

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ استعارة تمثيلية، شبه الكفار بالصم والعمي. والهمزة: إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم بعد استغراقهم في الضلال.

﴿أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ جناس الاشتقاق، لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما.

المفردات اللغوية:

﴿يَعِشْ﴾ يتغافل ويتعام ويعرض، لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات، وقرئ «يعش» بالفتح، وقرئ «يعشو» على أن «وَمَنْ» موصولة يقال: عشي يعشي كرضي يرضى وعرج يعرج: إذا كان في بصره آفة ﴿ذَكَرَ الرَّحْمَنِ﴾ القرآن. ﴿نُقِصَ﴾ نهى ونسب ونضم إليه شيطانا. ﴿فَرِيقٌ﴾ رفيق ملازم لا يفارقه، يوسوسه ويغويه دائما.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي الشياطين. ﴿لَيُصْذَبُوا﴾ أي العاشين. ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ طريق الهدى. ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي الكفار. ﴿جَاءَنَا﴾ العاشي، بقرينه يوم القيامة. ﴿يَنبَلِّتُ﴾ (يا) للتنبيه ﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب، مغلبا المشرق على المغرب. ﴿فَيَلْسَ الْقَرَيْنُ﴾ أنت، و﴿الْقَرَيْنُ﴾ الصاحب والصديق.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ﴾ أي العاشين تمنيكم وندمكم في القيامة. ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تبين لكم ظلمكم بالإشراك. ﴿أَنْتُمْ﴾ أي لأنكم مع قرنائكم، بتقدير لام العلة، وقرئ «إنكم» بالكسر ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تشتركون مع شياطينكم في العذاب، كما كنتم مشتركين في سببه.

﴿الْضَّرَّ﴾ جمع أصم وهو الذي في أذنه صمم. ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في خطأ بين، فهم لا يؤمنون، وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عطف على العمي، وفيه إشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم في ضلال لا يخفى.

﴿نَذَهَبَ بِكَ﴾ أي فإن قبضناك وأمتناك قبل تعذيبهم. ﴿مُنْفِقُونَ﴾ بعدك في الدنيا أو الآخرة. ﴿أَوْ نُزَيِّنَكَ أَلَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أي نبصرناك ما وعدناهم به من العذاب. ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ قادرون على عذابهم.

﴿فَاسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي تمسك بالقرآن وقرئ «أوحى» أي الله تعالى. ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾ طريق. ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج له. ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف عظيم به تذكر ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ لنزوله بلغتهم. ﴿وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ﴾ عنه يوم القيامة عن القيام بحقه، بأداء التكليف فيه من أمر ونهي. ﴿وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي واسأل سلالتهم وعلماء دينهم. ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ غيره. ﴿إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ هل حكمنا بعبادة الأوثان، وهل جاءت ملة من الملل به؟ والمراد الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والدلالة على أن الأمر به قديم غير جديد.

سبب الخزول:

نزول الآية (٣٦):

﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان الخزومي: أن قريشاً قالت: فيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه، فقيضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد الله، فأتاه، وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلام تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: ربنا، قال: وما العزى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أهمهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه، فقال طلحة لأصحابه: أجيئوا الرجل، فسكت القوم، فقال

طلحة: قم يا أبا بكر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله،
فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ الآية.

سبب نزول الآية (٤١):

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾: كان رسول الله ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه،
وهم لا يزيدون إلا غيًّا، فنزلت الآية: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى أن المال متاع الدنيا، وهو زائل، نبّه إلى آفات المال؛
لأن من فاز بالمال وأجاء صار كالأعشى عن ذكر الله، وصار من جلساء
الشياطين الضالين المضلين الذين يصدون الناس عن طريق الهداية في الدنيا،
أما في الآخرة فيتبرأ الكافر من قرينه الشيطان. وهما في العذاب مشتركان،
والاشتراك في العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيد في الدنيا.

ويعد أن وصف الله تعالى المعرضين عن ذكره بالعشاء، وصفهم أيضاً
بالصمم والعمى، بسبب كونهم في ضلال مبين، ولما بيّن تعالى أن دعوة
الرسول ﷺ لا تؤثر في قلوب هؤلاء، تسلياً للرسول ﷺ، بيّن أنه لا بد وأن
يتنقم لأجله منهم، إما حال حياته أو بعد وفاته، ثم أمره زيه أن يتمسك بما
أمره به، فإنه على صراط مستقيم نافع، هو منهج القرآن الذي فيه شرف عظيم
له ولقومه، وسوف يسألون عن القيام بحقه.

ثم أبان تعالى أن إنكار عبادة الأصنام في رسالة محمد ﷺ ليس خاصاً به،
بل كل الأنبياء والرسل كانوا مجمعين على إنكاره.

التفسير والبيان:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي ومن

يتعام ويتغافل ويعرض عن النظر في القرآن والعمل به، نهى له شيطاناً يوسوس له ويغويه، فهو له ملازم لا يفارقه، بل يتبعه في جميع أموره، ويطيعه في كل ما يزين له به. والعشا في العين: ضعف البصر، والمراد هنا عشا البصيرة.

والمراد بالآية: إن من يعرف كون القرآن حقاً ولكنه يتجاهل ذلك فهو في ضلال، ومادة كل آفة وبلية الركون إلى الدنيا وأهلها، فإن ذلك بمنزلة الرمد للبصر، ثم يصير بالتدريج كالعشا، ثم كالعمى.

والآية مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَّيْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥/٤١]. وجاء في صحيح مسلم وغيره أن مع كل مسلم قريناً من الجن، وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٧) أي وإن الشياطين الذين يقضضهم الله لكل من يعشو عن ذكر الرحمن، ليمنعونهم بالوسواس عن سبيل الحق والرشاد، وبحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم مهتدون إلى الحق والصواب.

ثم يتبرأ الكافر في الآخرة من قرينه الشيطان، فقال تعالى:

﴿حَقًّا إِذَا جَاءَنَا قَالَ بَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسُ الْقُرَيْنَ﴾ (٣٨) أي حتى إذا وافانا الكافر يوم القيامة، يتبرم بالشيطان الذي وكل به، ويتبرأ منه، ويتمنى الكافر أن بينه وبين الشيطان المقارن له من البعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس الصاحب الملازم للإنسان شيطانه.

وقرأ بعضهم: «حتى إذا جآنا» أي القرين والمقارن.

ويقال لهم يوم القيامة توبيخاً كما حكى تعالى:

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩) أي ويقال لهم في الآخرة توبيخاً وتأنيباً وتوبيساً: لن ينفعكم في هذا إذ تبين أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا اشتراككم في العذاب، فلا يخفف عن كل منكما شيء منه، بخلاف حال الدنيا، فإن المصيبة فيها إذا عمت هانت. وهذا يدل على أن حصول الشركة في العذاب لا يفيد التخفيف، كما كان يفيد في الدنيا؛ لأن اشتغال كل واحد بنفسه في شدة العذاب، يذهله عن حال الآخر، فلا تفيد الشركة الخفة، ولا يتمكن كل واحد من مواساة الآخر في كربه وحزنه وألمه، فلكل قدر مشترك من العذاب.

ثم بين الله تعالى لرسوله أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم تسلياً له، فقال:

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٠) أي أتستطيع يا محمد إسماع أهل الصم أو هداية أهل العمى أو إرشاد من كان مستغرقاً في ضلال واضح بَيِّن. وهذا بعد أن وصفهم تعالى بالعشا، وصفهم بأوصاف ثلاثة هي: الصمم والعمى والضلال البَيِّن، فهؤلاء الكفار ضعاف البصيرة، بمنزلة الصم الذين لا يسمعون ما جئت به أيها الرسول، وبمنزلة العمى الذين لا يبصرونه، وهم مفرطون في الضلالة والكفر والجهالة.

وكان التناسب بينهم وبين الرسول ﷺ عكسياً، فهو ﷺ يبالغ في دعوتهم إلى الإيمان الحق، وهم لا يزدادون إلا غياً وتعامياً عن بَيِّنات القرآن ودلائل النبوة، إمعاناً في الكفر، وعناداً في الباطل.

ثم أعلم الله رسوله بانتقامه منهم، فقال:

﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٤١) أَوْ تُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢) أي إنهم لا يفلتون من العقاب في العاجل أو الآجل، فإن قبضنا روحك وأمتناك أيها الرسول قبل نزول العذاب بهم، فنحن منتقمون منهم إما في الدنيا أو في الآخرة، وإن أبصرناك الذي وعدناهم به من

العذاب قبل موتك، فنحن قادرون أيضاً عليه، ومتى شئنا عذبناهم. وقد أقر الله عينه في حال حياته، فقهرهم يوم بدر، وأصبح المتحكم فيهم، المالك لخصونهم وقلاعهم.

والتعبير بالوعد دليل على وقوعه حتماً؛ لأن الله لا يخلف الميعاد.

وبعد هذا الوعد بالنصر، أمره الله بشدة التمسك بالقرآن وهديه، فقال:

﴿فَاسْتَمِيعْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤٣﴾ أي تمسك أيها الرسول بالقرآن الموحى به إليك من ربك، فإنك على طريق قويم ومنهج سليم، مؤد إلى السعادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، وإن كذَّب به من كذَّب، فذاك لا يضيرك.

ثم أبان تعالى منزلة القرآن، فقال:

﴿وَإِنَّكُمْ لَذَكَّرٌ لَّكُمْ وَلِقَوْمِكُمْ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ٤٤﴾ أي وإن القرآن لشرف عظيم لك ولقريش والعرب عامة، إذ نزل بلغتهم، وسوف تسألون عن هذا القرآن وكيف عملتم به واستجبت له وما يلزمهم من القيام بحقه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠/٢١] أي شرفكم، أخرج البخاري والترمذي عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين» يعني الخلافة فإنها في قريش لا تكون في غيرهم؛ قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم عن جابر: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم».

وهذا التنويه بمنزلة العرب يجعلهم أولى الناس باتباع القرآن والعمل بأحكامه وشرائعه، وإن كانت الرسالة الإسلامية عامة للناس قاطبة.

ثم نبّه الله تعالى إلى أن الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشرك قديمة، فقال: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٤٥) أي وأسأل سلاطات الأمم التي أرسلنا فيها الأنبياء وعلماءهم: هل أذن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل؟ والمعنى: جميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كما قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦/١٦].

والمراد بهذا التنبيه على إجماع المرسلين على التوحيد، وعلى أن محمداً ﷺ ليس ببدع من بين الرسل في الأمر به، وهذا يدل على وحدة الدين الحق في أصوله، ووحدة مهمة الأنبياء عليهم السلام.

وسبب هذا الأمر أن اليهود والمشركين قالوا للنبي ﷺ: إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير والتأكيد، لا لأنه كان في شك منه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يلي:

أ- إن الإضلال من الله تعالى لا يكون إلا بعد إعراض الناس عن أوامر الله، فمن يتعام ويتغافل عن آيات القرآن وشرائع وأحكامه، ويعرض عنها إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم، نهى له شيطاناً يغويه، جزاء على كفره، فهو له قرين وصاحب ملازم في الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية، وقرين له في الآخرة في العذاب المشترك بينهما. قال أبو سعيد الخدري: «إذا بُعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار».

٢ - إن مهمة الشياطين خطيرة تستوجب الحذر من وساوسهم وإغواءاتهم، فهم يصدون الناس عن سبيل الهدى، حتى يخيل للكفار ويعملهم يظنون أنهم مهتدون. وقيل: ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون، فيطيعونهم.

٣ - تتجلى الحقيقة المرة في الآخرة، حين يتبرأ الكافر من الشيطان، ويتمنى البعد عنه كالبعد بين المشرق والمغرب، ويقول له: فبئس القرين أنت؛ لأنه يورده النار. قال الفراء: أراد المشرق والمغرب، فعَلَبَ اسم أحدهما، كما يقال: القمران للشمس والقمر، والعُمران لأبي بكر وعمر، والبصرتان للكوفة والبصرة، والعصران للغداة (الظهر) والعصر.

٤ - يقول الله للكافر يوم القيامة توبيخاً: لن ينفعكم اليوم إذا أشركتم في الدنيا هذا الكلام؛ وهو قول الكافر: «يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ» أي لا تنفع الندامة، فإنكم في العذاب مشتركون. أو لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه، ولا ينفع أهل النار التأسى كما يتأسى أهل المصائب في الدنيا، فيقول أحدهم: لي في البلاء والمصيبة أسوة؛ فيسكن ذلك من حزنه، فإذا كان في الآخرة لم ينفعهم التأسى شيئاً لشغلهم بالعذاب.

٥ - سأل الله نبيه عن حزنه وأسفه لإعراض قومه عن قبول رسالته، وقال له: ليس لك من الأمر شيء، فلا تستطيع هداية الغثي الصمّ العمي الضالين، فلا يضق صدرك إن كفروا.

قال القرطبي في قوله تعالى: «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ»: فيه رد على القدرية وغيرهم، وأن الهدى والرشد والخذلان في القلب خلق الله تعالى، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

٦ - إن تعذيب المشركين آتٍ عاجلاً أم آجلاً، سواء في حال حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته، فالله قادر على كل شيء.

٧ - رفع الله تعالى من معنويات نبيه إلى القمّة بأمرين:

الأول - إعلانه بأنه على صراط مستقيم يوصله إلى الله ورضاه وثوابه.

الثاني - إعلاء مجده وشرفه بالقرآن الذي هو شرف له ولقومه من قريش والعرب قاطبة؛ إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم، وسوف تسألون عن الشكر عليه، وعن العمل بتكاليفه. قال المحققون: في الآية دلالة على أن الذكر الجميل أمر مرغوب فيه لعموم أثره وشموله كل مكان وكل زمان.

وقال القرطبي: والصحيح أنه شرف لمن عمل به، كان من قريش أو من غيرهم.

أخرج الطبري عن ابن عباس قال: أقبل نبي الله ﷺ من سرية أو غزاة، فدعا فاطمة، فقال: «يا فاطمة اشترى نفسك من الله، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً» وقال مثل ذلك لِسُوتِه، ولِعُثْرَتِه، ثم قال ﷺ: «ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا قريش بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الأنصار بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الموالي بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون. إنما أنتم من رجل وامرأة كَجَمَامٍ»^(١) الصاع، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى.

وأخرج الطبري أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليستين أقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم، أو يكونون شراً عند الله من الجحفلان التي تدفع الثَّنَّ بأنفها، كلکم بنو آدم، وآدم من تراب، إن الله أذهب عنکم غيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس مؤمن تقي وفاجر شقي»^(٢)

(١) الجمام: ما علا رأس المكيال من الطفاف.

(٢) تفسير القرطبي: ٦٤/١٦

٨ - إن دين التوحيد قديم، ونبذ الشرك قديم، فإذا سئلت أمم الرسل عليهم السلام قبل الرسول ﷺ: هل أذن الله بعباده الأوثان، وهل أمر بعبادة غير الله؟ أجابوا عن السؤالين بالنفي. والسبب الأقوى في بغض الكفار وعداوتهم للنبي ﷺ إنكاره لأصنامهم، فبين تعالى أنه غير مخصوص بهذا الإنكار، ولكنه دين كل الأنبياء ودعوتهم.

العبرة من قصة موسى عليه السلام وفرعون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ أَدْعَىٰ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفُورِ الْإِنسَ إِلَىٰ مَلِكٍ وَمَضَىٰ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَفْلَا تَبْصُرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْفِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

القراءات:

﴿تَحْتِ أَفْلَا﴾:

وقرأ نافع، والبيزي، وأبو عمرو (تَحْتِ أَفْلَا).

﴿أَسُورَةٌ﴾:

١ - قرأ حفص (أَسُورَة).

٢- وقرأ الباقون (أسورة).

﴿سَلَفًا﴾:

وقرأ حمزة والكسائي (سُلُفًا).

الإعراب:

﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ الواو: إما عاطفة على ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾ و﴿تَجْرَى﴾ حال منها، أو واو الحال، و﴿وَهَذِهِ﴾ مبتدأ و﴿الْأَنْهَارُ﴾ صفتها، و﴿تَجْرَى﴾ خبرها.

﴿أَمْرًا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا﴾ ﴿أَمْرٌ﴾ هنا: منقطعة؛ لأنه لو أراد أم المعادلة لقال: أم تبصرون، لكنه أضرب عن الأول بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ﴾ وكأنه قال: أنا خير منه، فلما كان فيه هذا المعنى، لم تكن ﴿أَمْرٌ﴾ للمعادلة للهمزة.

البلاغة:

﴿الَّذِينَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ الاستفهام للتقرير، لا للإنكار، أي أقروا بما تعلمون من أني ملك مصر.

المفردات اللغوية:

﴿بَيِّنَاتٍ﴾ الآيات هي المعجزات. ﴿وَمَلَائِهِ﴾ أشراف قومه ورعاياهم القبط، والمراد بإيراد القصة هنا الاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، وتسلية الرسول ومناقضة قول قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتٍ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْحَكُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ حين جاءهم بآياتنا الدالة على رسالته، فاجؤوه بضحكهم منها واستهزؤوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها.

﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ من آيات العذاب كالطوفان والجراد. ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا﴾ إلا وهي أعظم في الإعجاز بحيث يظن أنها أكبر من الآيات الأخرى، و﴿أُخْتَيْهَا﴾ قريبتها التي قبلها، والمراد وصف الكل بالكبر، كقولك: رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض، أو إلا وهي مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار. ﴿وَأَخَذْتَهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي أخذ قهر بعذاب كالسنين (الجدب) والطوفان والجراد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ليرجعوا عن الكفر أو على نحو يرجي رجوعهم.

﴿وَقَالُوا﴾ لموسى لما رأوا العذاب. ﴿السَّاحِرُ﴾ العالم الماهر؛ لأن السحر عندهم علم عظيم. ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ بعهده إليك أنا إن آمنا كشف العذاب عنا، أو بعهده عندك من النبوة. ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ مؤمنون بشرط أن تدعو لنا، فيكشف عنا العذاب. ﴿يَنْكُثُونَ﴾ ينقضون العهد الذي عاهدوا به موسى، ويصرون على الكفر.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ افتخاراً، إما بنفسه أو بواسطة مناديه، في جمعهم أو فيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمن بعضهم. ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ فروع النيل، وأهمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تيس، والمشهور الآن فرع دمياط وفرع الرشيد المكونان لدلتا النيل فيما بينهما. ﴿مِنْ تَحْتِي﴾ تحت قصري وفي جناحي. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمي.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة أي بل أنا مع هذا الملك والسعة أفضل من موسى، أو متصلة بمعنى: أم تبصرون فتعلمون أني خير منه. ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير ليس أهلاً للرياسة، مأخوذ من المهانة: وهي القلة. ﴿يُبَيِّنُ﴾ يفصح عن مراده بكلامه، بسبب لُغْتِهِ في لسانه بالجمرة التي تناوَلها في صغره.

﴿فَلَوْلَا﴾ هلا. ﴿أَلْقَى عَلَيْهِ﴾ إن كان صادقاً. ﴿أَسْوَرَةً مِّنْ ذَهَبٍ﴾ جمع سوار كأخمرة وخمار، وقرئ «أساور» جمع الجمع، أي جمع أسورة، وهذا تأثر منه بعادة الملوك، فإنهم كانوا إذا سؤدوه وتوجوه ألبسوه أسورة ذهب وطوق ذهب. ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين به يعينونه على مخالفه، أو متتابعين يشهدون بصدقه.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمُ﴾ استخف واستصغر عقولهم، فدعاهم إلى الضلال، فأجابوه. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما يريد من تكذيب موسى. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيقِينَ﴾ هذا تعليل للطاعة. ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا بالإفراط في العصيان والعناد، والأسف: الحزن والغضب معاً، وقد يطلق على أحدهما. ﴿فَأَعْرِفْنَهُمْ﴾ في اليوم. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار، جمع سالف، كخدم وخادم، وقرئ «سلفاً» جمع سليف كرغف. ﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ عظة وعبرة لمن يأتي بعدهم.

المفاسدة:

بعد بيان طعن قريش بنبوة محمد ﷺ لكونه فقيراً عديم المال والجاه، ذكر الله تعالى شبيهاً لذلك في قصة فرعون حيث قال: إني غني كثير المال والجاه. ولما أمر الله نبيه بسؤال أمم المرسلين، ذكر هنا قصة موسى، وبعده عيسى عليهما السلام، للاستدال بما جاء به من التوحيد، وإبطال عبادة الأصنام. ثم ذكر شبهة لفرعون وهي أن الملك يلزم النبوة، فطلب من موسى بما جرت العادة لديهم أنهم إذا جعلوا منهم رئيساً لهم سؤروه بسوار من ذهب، وطوقوه بطوق من ذهب، أو طلب أن تصاحبه الملائكة لدعم موقفه أمام المخالفين.

وأعقب هذا توضيحاً لأثر السلطة والحكم، فإن فرعون استخف عقول قومه، حينما دعاهم إلى تكذيب موسى، فأطاعوه لضلالهم، فانتقم الله منهم أشد الانتقام.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٦) أي لقد بعثنا موسى مؤيداً بالمعجزات الدالة على صدقه وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الإسراء [الآية ١٠١] إلى فرعون وأشراف قومه وأتباعهم من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وقال لهم: إني مرسل إليكم من الله رب العالمين: الإنس والجن. ومعجزاته: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين: أي نقص الزروع والأنفس والثمرات، واليد، والعصا، فاستكبروا عن الإيمان بها وكذبوها وسخروا منها، كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (٤٧) أي فلما أتاهم بتلك الآيات والأدلة على صدقه، إذا فرعون وقومه يضحكون ويسخرون ممن جاءهم بها. وقوله: ﴿إِذَا هُمْ﴾ معناه أنهم فاجؤوا المجيء بها بالضحك عليها والسخرية منها.

وهذا تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من صدود قومه عن دعوته.

﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤٨) أي وما نري فرعون وملاؤه من كل حجة دالة على صدق موسى في دعواه الرسالة إلا كانت أعظم من سابقتها في الحجية عليهم، والدلالة على صحة دعوته إلى التوحيد، مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها، لقوله: ﴿أُخْتِهَا﴾ أي مثيلتها وقريبتها في الدلالة على صدق نبوة موسى.

ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، فأخذناهم أخذ قهر بانزال العذاب عليهم بسبب تكذيبهم بتلك الآيات، لكي يرجعوا عن كفرهم، ويؤمنوا بالله وحده لا شريك له، ويطيعوه فيما أمر ونهى.

وكانوا كلما جاءتهم آية يصفونها بالسحر ويأن موسى ساحر، كما قال تعالى:

﴿وَقَالُوا بِآيَةِ السَّاحِرِ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾
أي وقالوا يا أيها الساحر العالم - وكانوا يسمون العلماء سحرة تعظيماً لهم -
ادع لنا ربك لكشف العذاب عنا بما أخبرتنا به من عهده إليك أنا إذا آمنا
كشف عنا العذاب، فإننا بعدئذ لمؤمنون بما جئت به.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي فدعا موسى ربه،
فكشف عنهم العذاب، فلما كشف عنهم العذاب، نقضوا عهدهم، وعادوا
إلى كفرهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ
وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْنِ مَفْصَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ وَلَمَّا وَقَعَ
عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَكُونُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا
الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٤﴾﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣/٧-١٣٥].

ثم أخبر الله تعالى عن تمرد فرعون وعُتُوّه وكفره وعناده، فقال:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفَوْرَ إِلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ
تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾؟ أي لما خاف فرعون ميل القوم إلى موسى،
فجمعهم ونادى بصوته فيهم مفتخراً، أو أمر منادياً ينادي بقوله: أليس لي
ملك مصر العظيم، فلا ينازعني فيه أحد، والسلطة المطلقة لي، وأنهار النيل
تجري من تحت قصري وبين يدي في جناحي، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة
والملك، وتستدلون به على أحقيتي بالسلطة وفرض النظام، وتنتظروا إلى فقر
موسى وضعفه هو وأتباعه عن مقاومتي؟.

ونحو الآية: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ
الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النازعات: ٢٣/٧٩-٢٥].

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٦) أي بل أنا خير وأفضل بما لي من الملك والسلطة والسعة والجاه من هذا، أي موسى الذي هو ضعيف حقير ممتهن في نفسه، لا عز له، ولا يكاد يبين الكلام، لما في لسانه من العقدة، وهذا حكم عليه بما يعلم عنه في الماضي، دون أن يدري أن الله الكريم أزال عقده، فقال تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾ (٥٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٥٨﴾ إلى أن قال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (٥٩) [طه: ٢٧/٢٠-٢٨ و ٣٦] فقد كان أصاب لسانه في حال صغره شيء من اللكنة بسبب الجمرة التي تناولها، فسأل الله عز وجل أن يحل عقدة لسانه، ليفقهوا قوله، فاستجاب الله ذلك. والتعيب بالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد خسة ونقيصة في صاحبه الذي يعيب، فذلك لا يعاب به ولا يذم عليه. وفرعون، وإن كان يدرك هذا، لكنه أراد الترويج على رعيته الجهلة الأغبياء.

ثم استعلى فرعون على موسى بمظاهر الترف والملوك، ظناً منه أن الرئاسة تلازم النبوة، فقال تعالى:

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَّعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾ (٥٩) أي فهلاً حُلِّيَ بأساور الذهب إن كان عظيماً، أو هلاً أُلْقِيَ عليه ربه أساور الذهب إن كان صادقاً في نبوته، وهذا يشبه قول كفار قريش عن استحقاق عظيم القريتين النبوة.

أو جاء معه الملائكة متتابعين متقاربين إن كان صادقاً، يعينونه على مهمته، ويشهدون له بالنبوة، فأوهم قومه أن الرسل لابد أن يكونوا على هيئة الجبابرة أو محفوفين بالملائكة، ونظر إلى الشكل الظاهر، ولم يدرك الجوهر المعنوي لحقيقة الرسل.

﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٦٠) أي فاستهان بعقول قومه ورعيته، ودعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له، وأطاعوه فيما أمرهم به، وكذبوا موسى، إنهم كانوا خارجين عن طاعة الله تعالى.

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٥) أي فلما أسخطونا وأغضبونا، انتقمنا منهم أشد الانتقام، فأغرقناهم جميعاً في البحر، وإنما أهلكوا بالغرق ليناسب ما تفاخروا وتباهوا به وهو قوله: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا﴾.

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي وابن أبي حاتم عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ لَهُ، ثُمَّ تَلَا ﷺ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٥) «.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ (٥٦) أي فجعلنا فرعون وقومه قدوة لمن عمل بعملهم من الكفار في استحقاق العذاب، وعبرة وعظة لمن يأتي بعدهم من الكافرين، أو قصة عجيبة تجري مجرى الأمثال.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من القصة ما يأتي:

أ - إن هذه القصة تمثل صراع الجبارة الطغاة أصحاب الثروة والمال مع أهل القيم الإنسانية والدينية الرشيدة ذوي الدخل المتوسط أو الفقراء، تشابهت حالة فرعون مع موسى، مع حالة النبي ﷺ مع كفار قريش أصحاب النفوذ والثراء.

اتفق الأنبياء كلهم على توحيد الإله، فكذب فرعون وقومه موسى عليه السلام، بالرغم من تدعيمه بالمعجزات وهي التسع آيات، فكانت عاقبتهم الإغراق بسبب التكذيب، ونجَّى الله موسى وقومه بني إسرائيل، وجعلت العاقبة الحميدة له. وكذلك حصل الأمر مع النبي ﷺ كذَّبه قومه فأهلكهم الله، ونصر رسوله والمؤمنين بدعوته.

٢ - كانت حيثيات الحكم ومسوغاته على فرعون وقومه هي الضحك والسخرية والاستهزاء من معجزات موسى عليه السلام، كالسنين (نقص الأنفس والزرع) ونقص الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع، وكانت هذه الآيات عذاباً لهم وآيات لموسى. وكانت المعجزات قوية التأثير، فما من آية إلا وهي أعظم من أختها - سابقتها - ومع ذلك لم يؤمنوا بها، فأخذهم الله بالعذاب على تكذيبهم بتلك الآيات.

ووصفوا موسى بأنه ساحر لما عاينوا العذاب، وتعظيماً له على حسب عاداتهم في احترام السحرة، وكانوا يسمون العلماء سحرة، ويحتمل أنهم أرادوا به الساحر على الحقيقة على الاستفهام، فلم يَلْمُهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا، وطلبوا منه كشف العذاب عنهم بما أخبرهم عن عهد الله إليه أنهم إن آمنوا كشف عنهم، فقالوا: إنا لمهندون فيما يستقبل.

فلما دعا فكشف الله عنهم الكرب والغم، عادوا إلى كفرهم، ونقضوا العهد والميثاق الذي جعلوه على أنفسهم، فلم يؤمنوا.

٣ - وبعد أن حكى الله معاملة فرعون مع موسى، حكى أيضاً معاملة فرعون مع ربه، فلما رأى آيات موسى خاف ميل القوم إليه؛ فجمع قومه، فقال، ونادى بمعنى قال، فرفع صوته بينهم: يا قوم، أليس لي ملك مصر، لا ينازعني فيه أحد، وأنهار النيل تجري من تحت قصري، أفلا تبصرون عظمي وقوتي وضعف موسى؟.

ثم صرح بحاله فقال: بل أنا خير من موسى المهين الحقير الضعيف، والذي لا يكاد يفصح كلامه بسبب العقدة التي كانت في لسانه بحسب علمهم السابق عنه، ومن لا بيان له ولا لسان كيف يكون نبياً؟! والرجل الفقير كيف يكون رسولاً من عند الله إلى الملك الكبير الغني؟!

ثم تعاظم فرعون وتغطرس واعتز بالثروة والملك والمال، فقال: هلا ألقى

عليه أساور من ذهب، جرياً على عادة الوقت وزيّ أهل الشرف، أو تأيد
بجماعة من الملائكة يمشون معاً متتابعين مقترنين إن كان صادقاً يعاونونه على
من خالفه؟ والمعنى: هلا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه، حتى يتعزّز
بهم ويستعملهم في أمره ونهيه، فيكون ذلك أهيب في القلوب.

فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في المظاهر، ولم
يعلم أن رسل الله إنما أئدوا بالجنود السماوية، وكل إنسان عاقل يعلم أن
حفظ الله موسى مع تفرده من فرعون مع كثرة أتباعه، وإمداد موسى بالعصا
واليد البيضاء، كان أبلغ في التأيد من أن يكون له أسورة ذهب أو ملائكة
أعوان وأدلة على صدقه.

٤ - ثم حكى الله علاقة فرعون بقومه، فإنه استخف عقولهم واستجهلهم
فأطاعوه لحفة أحلامهم وقلة عقولهم، إنهم كانوا فسقة خارجين عن طاعة الله
تعالى.

٥ - لما تجاوز فرعون وقومه الحدود القصوى، وأسخطوا الله وأغضبوه،
عاجلهم بالانتقام الشديد، وأغرقهم الله في اليم.

والفرق بين السخط والغضب: أن السخط إظهار الكراهة، والغضب
إرادة الانتقام، ولما كان ذكر الأسف والانتقام في حق الله محالاً، أوّل
المفسرون ذلك فجعلوا الغضب في حق الله إرادة العقاب، والانتقام إرادة
العقاب لجرم سابق.

٦ - جعل الله قوم فرعون قدوة لمن عمل عملهم من الكفار، وعبرة وعظة
لهم ولمن يأتي بعدهم من الكافرين.

والخلاصة: إن المقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين:

أحدهما- أن الكفار والجهال ينجون دائماً على الأنبياء بشبهة الفقر
والضعف، وهذا هو سر النبوة والقوة، فلا يلتفت لما يقولون.

الثاني - أن فرعون في أعز حالاته في الدنيا صار مقهوراً، فيكون الأمر في حق أعداء رسول الله هكذا إلى يوم القيامة^(١).

العبرة من قصة عيسى عليه السلام

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٥٧) وَقَالُوا
ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ
إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ
مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَإِنَّهُمْ لَوَالِدٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُكُ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا بَصُدَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ
عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤)
فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمِ الْيَوْمِ (٦٥) هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) ﴾

القراءات:

﴿ يَصِدُّونَ ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي (يَصُدُّونَ).

﴿ صِرَاطٌ ﴾:

وقرأ قبل (سراط).

﴿ جِئْتُكُمْ ﴾:

(١) تفسير الرازي: ٢٧/٢١٧

وقرأ قبل، وحمزة وقفاً (جيتكم).

الإعراب:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ «مَرْيَمَ»: ممنوع من الصرف للتعريف (العلمية) والعُجْمَة، أو للتعريف والتأنيث.

﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ «أَمْ» هنا متصلة؛ لأنها معادلة لهمزة الاستفهام بمعنى «أي» وتقديره: أيهما خير؟ كقولك: أزيد عندك أم عمرو؟ أي أيهما عندك.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً﴾ من: إما بمعنى البدل، أي لو نشاء لجعلنا بدلاً منكم، أو زائدة، أي لجعلناكم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ «أَنْ تَأْتِيَهُمْ»: بدل من الساعة، والمعنى: هل ينظرون إلا إتيان الساعة؟

المفردات اللغوية:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ جعل مثلاً، أي حجة وبرهاناً، حين نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨/٢١] فقال المشركون- على لسان ابن الزبيري أو غيره-: رضينا أن تكون آلهتنا مع عيسى؛ لأنه عبد من دون الله ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي إذا المشركون في قريش من المثل يضحكون ويضحون وفرحاً بما سمعوا.

﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي قال المشركون: هل آلهتنا الأصنام خير عندك أم عيسى فإن كان في النار فلتكن آلهتنا معه، أو هل آلهتنا الملائكة خير أم عيسى؟ فإذا جاز أن يعبد، ويكون ابن الله، كانت آلهتنا الملائكة أولى بذلك ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ المثل ﴿إِلَّا جَدَلًا﴾ ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل

والخصومة بالباطل، لعلمهم أن ﴿مَا﴾ لغير العاقل، فلا يتناول عيسى عليه السلام ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شديدو الخصومة معتادو اللجاج.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي ما عيسى إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي جعلناه بإيجاده من غير أب كالمثل السائر في الغرابة، يستدل به على قدرة الله تعالى على ما يشاء ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ بدلکم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ بأن نهلككم ونخلقكم بالملائكة في الأرض. والمعنى: أن حال عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبة، فالله تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك، وأن الملائكة مثلكم ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً، ويحتمل خلقها إبداعاً، فمن أين لكم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله تعالى؟

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي وإن عيسى أو نزوله للدليل تعلم الساعة بنزوله ﴿فَلَا تَمُوتُ بِهَا﴾ لا تشكن فيها، حذف منها نون الرفع للحزم، وواو الضمير لالتقاء الساكنين ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ يصرفكم عن دين الله ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا شرعي وهداي القائم على التوحيد ﴿هَذَا﴾ الذي أمركم به ﴿صِرَاطٌ﴾ طريق ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ قويم ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ﴾ يمنعكم عن المتابعة ويصرفكم ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة ثابت عليها.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات أو بآيات الإنجيل ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل أو بالشرعة ﴿وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْلُقُونَ فِيهِ﴾ من أمر الدين لا من أمر الدنيا، فإن الأنبياء لم تبعث لبيانه، ولذلك قال ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أنس وعائشة: «أنتم أعلم بأمور دنياكم». ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أبلغكم عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة لمجموع الأمرين، وهو تنمة كلام عيسى عليه السلام، أو استئناف من الله يدل على مقتضي الطاعة في ذلك.

﴿الْأَخْرَابُ﴾ الفرق المتحزبة ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى أو اليهود والنصارى من بين قومه المبعوث هو إليهم في عيسى: أهو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة ﴿فَوَيْلٌ﴾ كلمة عذاب أو وادٍ في جهنم ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا بما قالوه في عيسى من المتحزبين ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضمير لقريش أو للذين ظلموا ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ أي هل ينظرون إلا إتيان الساعة ﴿بَفْئَةٍ﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئها لاشتغالهم بأمور الدنيا.

سبب النزول:

نزل الآية (٥٧):

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾: أخرج أحمد بسند صحيح والطبراني عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله، وفيه خير، فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبدًا صالحاً، وقد عبد من دون الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ الآية».

وقد تقدم في آخر سورة الأنبياء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أن عبد الله بن الزبير السهمي قال: خصمتُ ربَّ هذه البنية، يعني الكعبة، ألست - الخطاب للنبي ﷺ - تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام، وهذه اليهود يعبدون عزيزاً؟ قال: فصاح أهل مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ - الملائكة وعزير وعيسى عليهم السلام - ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

التفسير والبيان:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) ﴿هذا لون

آخر من تعنت قريش في كفرهم وعنادهم وجدلهم بالباطل ونوع خامس من كفرياتهم المذكورة في هذه السورة^(١) والمعنى: ولما جعل ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً في مجادلتهم مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٨] إذا قومك قريش منه يضجون ويصبحون فرحاً بذلك المثل المضروب. أو لم يدروا أن ﴿وَمَا﴾ في قوله ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لغير العاقل، وأن المقصود الأصنام والأوثان، ولا تتناول الآية عيسى والعزير والملائكة، فهؤلاء كلهم عباد الله موحدون، قال عيسى في وصية قومه: الربُّ إلهنا إله واحد.

﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمْ خَيْرٌ مِمَّا صَرَّيْتُمْ لَكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٥٨) أي وقال كفار قريش مجادلين بالباطل: آهتنا ليست خيراً من عيسى، فإن كان كل من عبد من غير الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آهتنا مع عيسى وعزير والملائكة. وما ضربوا لك هذا المثل في عيسى إلا ليجادلوك، فهم قوم شديدو الخصومة، كثيرو اللدِّ والجدل. أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن جرير عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا صَرَّيْتُمْ لَكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾».

ثم أبان الله تعالى أن عيسى عبد من عبيد الله، فقال:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٩) أي ما عيسى ابن مريم إلا عبد من عبيدنا أكرمناه وأنعمنا عليه بالنبوة والرسالة، وجعلناه آية وعبرة لبني إسرائيل، وبرهاناً وحجة على قدرتنا على من نشاء،

(١) الأربعة السابقة: هي (١) أنهم جعلوا لله من عباده جزءاً (٢) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ

الرَّحْمَنِ إِنشَاءً﴾ (٣) قولهم: لو شاء الرحمن ما عبدنا الأصنام (٤) قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ

عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ﴾

فإننا خلقناه من غير أب، وكان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص وكل مريض بإذن الله، وخلقه أسهل من خلق آدم من غير أب ولا أم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩/٣]. والله قادر على كل شيء، ومن مظاهر قدرته:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ [٦٠] أي ولونشاء أهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يعمرونها يخلفونكم فيها. قال بعض النحويين: مِنْ: تكون للبدل، أي لجعلنا بدلکم ملائكة، مثل قوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨/٩] أي بدل الآخرة. والمراد بالآية التهديد والتخويف وبيان عجائب قدرة الله تعالى.

﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلَّامٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [٦١] أي وإن نزول المسيح وخروجه أمانة ودليل على وقوع الساعة، لكونه من أشراتها - علاماتها - لأن الله سبحانه ينزله من السماء قبيل الساعة، كما أن خروج الدجال قبله من أمارات الساعة، فلا تشكوا في وقوعها ولا تكذبوا بها فإنها كائنة لا محالة، واتبعوا هداي فيما أمركم به من التوحيد وبطلان الشرك، وهذا المأمور به المدعو إليه طريق قويم موصل إلى النجاة والسعادة.

قال ابن كثير: وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً^(١).

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٦٢] أي ولا يصرفكم الشيطان عن اتباع الحق بوساوسه التي يلقيها في نفوسكم، إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة من عهد أبيكم آدم عليه السلام.

(١) تفسير ابن كثير: ١٣٢/٤

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٦٣﴾ أي لما جاء عيسى بالمعجزات والآيات الدالة على صدقه، وبالشرائع في الإنجيل قال لبني إسرائيل: قد جئتكم بالشرائع الصالحة التي ترغب في الجميل وتكف عن القبيح، وبأصول الدين العامة، من توحيد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر، وجئتكم أيضاً لأوضح لكم بعض ما تختلفون فيه من أحكام التوراة، فاتقوا المعاصي، وأطيعوني فيما أمركم به من توحيد الله وشرائعه وتكاليفه.

ورأس الأمر: التوحيد والعبادة، فقال مبيناً ما أمرهم أن يطيعوه فيه:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ١٦٤﴾ أي إن الله عز وجل هو ربي وربكم وإلهي وإلهكم، فأخلصوا العبادة له، وعبادة الله وحده، فإن العمل بشرائعه هو الطريق القويم والمنهج الصحيح السليم.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلْيَاسَ ١٦٥﴾ أي فاختلعت الفرق المتحيزة من اليهود والنصارى الذين بعث إليهم عيسى، في شأنه أهو الله أم ابن الله أم ثالث ثلاثة؟ وصاروا فرقا وأحزاباً، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله، وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله، وقد استقر أمر طوائف النصارى الكاثوليك والأرثوذكس على أنه هو الرب والإله، وكتبوا على الصفحة الأولى من الإنجيل: «هذا كتاب ربنا وإلهنا يسوع المسيح».

فالويل ثم الويل والعذاب الشديد للذين ظلموا من هؤلاء المختلفين في طبيعة المسيح، أهى بشرية أم ناسوتية إلهية؟ وهم الذين أشركوا بالله، ولم يعملوا بشرائعه، إنه عذاب مؤلم شديد دائم في يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٦٦﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول إلا مجيء القيامة فجأة، وهم لا يشعرون أو لا يعلمون بمجيئها لانشغالهم بشؤون الدنيا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - ذكر الله تعالى أنواعاً خمسة من كفریات المشركين في هذه السورة:

أولها - قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾.

ثانيها - قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾.

ثالثها - قوله: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَهُمْ﴾.

رابعها - قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.



خامسها - قوله هنا: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ

يَصِيدُونَ﴾.

٢ - يتعلق المشركون عادة بشبه واهية، فتراهم يسلكون مسلك الغوغائية، فيضجون ويصيحون إذا وجدوا شبهة يمكن التعلق بها في الظاهر، فلو تأمل ابن الزبير الآية ما اعترض عليها؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لم يقل: ومن تعبدون، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل، ولم يرد المسيح ولا الملائكة، وإن كانوا معبودين.

٣ - يعتمد المشركون على الجدل السوفسطائي الذي يفقد الموضوعية والهدف، فهو جدل بالباطل، لذا قالوا: آهتنا خير أم عيسى؟ وما ضربوا هذا المثل للنبي ﷺ إلا بقصد إرادة الجدل غير الهادف، الذي أريد به الغلبة في الكلام، لا طلب الفرق بين الحق والباطل.

٤ - تمسك القائلون بدم الجدل بهذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ والحق التفرقة بين نوعين من الجدل: الجدل لتقرير الحق، وهذا محمود،

والجدل لتقرير الباطل، وهذا مذموم، قال تعالى: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤/٤٠].

٥ - إن جميع الأنبياء والرسل صرحوا لأقوامهم أنهم بشر عبيد لله تعالى، فلا يصح رفع أحد عن المنزلة البشرية كسائر الناس، وعلى هذا فإن عيسى عليه السلام ذو طبيعة بشرية، وليست إلهية كما يزعم النصارى، وما هو إلا عبد كسائر عبيد الله أنعم الله عليه بالنبوة، وجعل خلقه من غير أب آية، وعبرة لبني إسرائيل والنصارى، يُستدل بها على قدرة الله تعالى، وكان يحبي الموت ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام كلها بإذن الله، ولم يجعل هذا لغيره في زمانه، وكان بنو إسرائيل يومئذ أحبَّ الخلق إلى الله عز وجل، لإيمانهم بالله وتوحيدهم إياه، فلما كفروا هانوا وغضب الله عليهم.

٦ - الله تعالى قادر على كل شيء، فهو قادر على أن يجعل بدل الإنس ملائكة يكونون خلفاء عنهم في الأرض، يعمرونها ويشيدون حضارتها، ويتعاقبون بعضهم إثر بعض في تولي شؤونها كلها.

٧ - إن خروج عيسى عليه السلام ونزوله من السماء آخر الزمان من أعلام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة. ورد في صحيح مسلم: «فإنما هو - يعني المسيح الدجال - إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهْرودَتَيْنِ^(١) واضعاً كفيّه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قَطَرٌ، وإذا رفعه تحدر منه جُحَانٌ كاللؤلؤ، فلا يحِلُّ لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه، حتى يدركه بباب لُدٍّ^(٢) فيقتله...».

(١) أي شقتين أو حلتين.

(٢) اللُد: بلد معروف قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين.

وثبت في صحيح مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَزِلَّنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا، فليَكْسِرَنَّ الصليب، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخَنزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْحِزْبَةَ، وَلَيَتْرَكَنَّ الْقِلَاصَ»^(١) فلا يُسعى عليها، وَلَتَذْهَبَنَّ الشُّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَذْعُوْنَ إِلَى الْمَالِ، فلا يقبله أحد».

٨ - لَمَّا جَاءَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحِكْمَةِ وَهِيَ أَصُولُ الدِّينِ كَمَعْرِفَةِ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَبَعْضُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَهُوَ فُرُوعُ الدِّينِ، أَمَرَ قَوْمَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَتَّقُوا الشَّرْكَ وَلَا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَأَنْ يَطِيعُوهُ فِيمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَأَعْلَنَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَرَبِّهِمْ، وَأَمَرَهُمْ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ، وَمَا سِوَاهُ مَعْوَجٍّ لَا يُوْدِي إِلَى الْحَقِّ.

وَإِذَا كَانَ هَذَا قَوْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا أَوْ ابْنَ إِلَهٍ؟

٩ - اِخْتَلَفَتْ أَحْزَابُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْ الْفِرْقِ الْمُتَحِزَّةِ بَعْدَ عِيسَى مِنَ النَّصَارَى وَهُمْ الْمَلِكِيَّةُ وَالْيَعْقُوبِيَّةُ وَالنَّسْطُورِيَّةُ، اِخْتَلَفُوا فِي عِيسَى، فَقَالَتِ النَّسْطُورِيَّةُ: هُوَ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ الْيَعْقُوبِيَّةُ: هُوَ اللَّهُ، وَقَالَتِ الْمَلِكِيَّةُ: ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ أَحَدُهُمُ اللَّهُ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَأَشْرَكُوا عَذَابُ يَوْمٍ مُؤَلَّمٍ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

١٠ - لَا يَنْتَظِرُ الْأَحْزَابُ إِلَّا مَجِيءَ الْقِيَامَةِ فَجَاءَتْ، وَهُمْ لَا يَفْطَنُونَ بِمَجِيئِهَا، وَلَا يَشْعُرُونَ بِمَجْدُوثِهَا. وَفَائِدَةُ قَوْلِهِ: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» بَعْدَ قَوْلِهِ: «بَغْتَةً» بَيَانُ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ وَجُودَهَا بِسَبَبِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَشَاهِدُونَهَا.

(١) القِلَاصُ: جَمْعُ الْقُلُصِّ، وَالْقُلُصُّ جَمْعُ قُلُوصٍ: وَهِيَ النَّاقَةُ الشَّابَّةُ مِنَ الْإِبِلِ.

ألوان نعيم المتقين أهل الجنة

﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦٩) ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ أَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّاهِيَ الْإِنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧١) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٢) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣)

القراءات:

﴿يَعْبَادُ لَا﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر (ياعبادي لا).

﴿شَتَّاهِيَ﴾: قرئ:

١- (تشتهيه) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (تشتهي) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صفة لـ (عبادي).

﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حال من واو ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿تُحْبَرُونَ﴾

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ بعد الكلمة الأخيرة ما يسمى بحذف الإيجاز، أي أكواب من ذهب، وحذف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ عام بعد خاص هو قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ﴾

المفردات اللغوية:

﴿الْأَخِلَاءُ﴾ الأحباء في الدنيا، جمع خليل: وهو الصاحب والصديق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يتعادون يومئذ؛ لأن مودتهم في الدنيا كانت قائمة على المعصية ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ المتحابين في الله على طاعته فإنهم أصدقاء؛ لأن الصداقة إذا كانت مبنية على تقوى الله بقيت نافعة إلى الأبد.

﴿يَعْبَادٌ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ هذا ما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صفة أو نعت لكلمة ﴿يَعْبَادٌ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ القرآن ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين، وهذه العبارة أكد من سابقتها؛ لأنها عبرت عن الإخلاص ﴿وَأَزْوَاجَكُمْ﴾ نساؤكم أو زوجاتكم المؤمنات ﴿تُحِبُّونَ﴾ تسرون وتكرمون، يقال: حبره الله: سره، والحبور يدل على ظهور أثر السرور على الوجه نضارة وحسناً.

﴿بِصِحَافٍ﴾ جمع صحيفة: وهي كالقصعة: إناء يوضع فيه الأكل يكفي خمسة، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب: وهو إناء لا عروة له يشرب منه الشارب ﴿وَفِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ﴾ تلذذاً ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الخلود ينبي بمعنى الاستقرار والأمان، فإن كل نعيم زائل إلا نعيم الجنة ﴿أُورِثُوهَا﴾ شبه جزاء العمل بالميراث؛

لأنه يخلفه ويأتي بعده ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ تأكلون بعضها لكثرتها ودوام نوعها، فكل ما يؤكل يخلف بدله.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٧):

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾: حكى النقاش أن هذه الآية نزلت في أمية بن خلف الجُمَحي وعُقبه بن أبي مُعِيط، كانا خليلين؛ وكان عقبه يجالس النبي ﷺ، فقالت قريش: قد صبا عقبه بن أبي معيط، فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً، ولم تَتَّقُلْ في وجهه، ففعل عقبه ذلك، فنذر النبي ﷺ قتله، فقتله يوم بدر صَبْرًا^(١) وقتل أمية في المعركة؛ وفيهم نزلت هذه الآية.

المغاسبة:

بعد التهديد بمجيء القيامة بغتة، ذكر الله تعالى عقيقه بعض أحوال القيامة، ووصف هنا ألوان نعيم أهل الجنة، ثم أتبعه ببيان أوصاف عذاب أهل النار، فذكر هنا تعادي الأخلاء إلا المتقين، واطمئنان المؤمنين في نعيم الجنة في سرور دائم وتمتعهم بأصناف الترف جزاء عملهم الصالح في الدنيا.

التفسير والبيان:

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي الأصدقاء في الدنيا المتحابون فيها يعادي بعضهم بعضاً يوم القيامة إلا المتقين فإن صداقاتهم تستمر في الآخرة، والمعنى: أن كل صداقة وصحابة لغير الله تتقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل، فإنه دائم بدوامه، وهذا كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ

(١) الصبر: نصب الإنسان للقتل.

وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤/٢] وكما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيفٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥/٢٩] .

ثم وصف الله تعالى أنواع نعيم المتقين، فقال:

﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٢٥٥﴾﴾ أي يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله: لا تخافوا من العقاب في الآخرة، ولا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، فإن نعيم الآخرة هو الباقي، والدنيا فانية.

روى الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا في الله، أحدهما بالشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله تعالى يوم القيامة بينهما، يقول: هذا الذي أحبيته في» .

وبعد أن نفى تعالى عنهم المخاوف والأحزان، خصص ذلك بالمؤمنين المسلمين بقوله:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢٥٦﴾﴾ أي إن القول المتقدم ليس لجميع الناس، بل للمؤمنين بالقرآن، المنقادين لأحكام الله، المخلصين له العبادة والطاعة، أي آمنت قلوبهم، وانقادت جوارحهم لشرع الله، قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة، فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فرع، فينادي مناد: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٢٥٦﴾﴾ فيرجوها الناس كلهم، فيتبعها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢٥٦﴾﴾ فيأس الناس منها غير المؤمنين.

ثم بشرهم صراحة بالجنة قائلاً:

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ تُحْبَرُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ أي يقال لهم: ادخلوا

الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات تكرمون وتنعمون وتسعدون غاية الإكرام والسعادة.

وألوان النعيم هي:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مِمَّا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنسُرُ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧١) أي لكم في الجنة أنواع مختلفة من المطاعم والمشارب، يقدم فيها الطعام والشراب بأنية الذهب، والكوب: كوز لا عروة له. ولكم فيها من ألوان الأطعمة والأشربة وغيرها من الألبسة والمسموعات كل ما تطلبه النفوس وتهواه كائناً ما كان، وكل ما يمتع العين من المستلذات والمشاهد والمناظر الخلابة، وأسماها النظر إلى وجه الله الكريم من غير حصر ولا كيف، وأنتم فيها ماكثون على الدوام، لا تموتون ولا تخرجون منها، ولا تبغون عنها تحولاً.

وسبب هذا الجزاء عملهم الصالح، فقال تعالى:

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٢) أي إن تلك الجنة بما فيها من ألوان النعيم صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث، بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة، فيكون له حسرة، فيقول: لو أن الله هداني لكنت من المتقين، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار، فيقول: وما كنا لتتهندي لولا أن هدانا الله، فيكون له شكراً» ثم قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٢)». وبعد ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لإتمام النعمة، فقال تعالى:

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣) أي لكم في الجنة غير الطعام والشراب فاكهة كثيرة الأنواع والأصناف، تأكلون منها مهما اخترتم وأردتم، كلما قطفتم ثمرة جددت لكم ثمرة أخرى.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات الأحكام التالية من أحكام يوم القيامة:

أ - الأصحاب والأصدقاء في الدنيا يكونون يوم القيامة أعداء، يعادي بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً إلا المتقين، فإنهم أصدقاء متحابون في الدنيا والآخرة.

وهذا دليل على أن الخلَّة أو الصُحبة إذا كانت على المعصية والكفر، صارت عداوة يوم القيامة، أما الموحدون الذين يخاللون بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى، فإن خلقتهم لا تصير عداوة.

ب - عباد الله المؤمنون المطيعون المتقون آمنون في الآخرة من الخوف، متخلصون من الحزن، قد أزال الله عنهم الخوف والحزن كما وعدهم، وأشعرهم بالفرح من نواح أربع هي:

أ - خاطبهم تعالى بنفسه من غير واسطة، بقوله: ﴿يَنْبِئُكَ﴾

ب - وصفهم تعالى بالعبودية، وهذا تشريف عظيم، كما شرف محمداً ﷺ ليلة المعراج، فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١/١٧].

ج - أزال عنهم الخوف يوم القيامة بالكلية، وهذا من أعظم النعم.

د - نفى عنهم الحزن عما فاتهم من نعيم الدنيا الماضية^(١)

٣ - يكرم الله المؤمنين إكراماً على سبيل المبالغة، فيدخلهم الجنة هم وأزواجهم المؤمنات المسلمات في الدنيا، بعد أن آمنهم من الخوف والحزن. وهذا يعني أن حسابهم يمر على أسهل الوجوه وأحسنها.

٤ - تُقَدَّم الأطعمة والأشربة لأهل الجنة فيها بأنية الذهب. أما في الدنيا فيحرم استعمال أواني الذهب والفضة، جاء في الصحيحين عن حذيفة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تلبسوا الحرير ولا الدِّيباح، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة».

وروى الأئمة من حديث أم سلمة عن النبي ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يُحْرَجُ في بطنه نار جهنم» وهذان الحديثان يقتضيان التحريم، بلا خلاف في ذلك.

والنهي عن الأكل والشرب يدل على تحريم الاستعمال والانتفاع بمختلف الأوجه، لأنه نوع من المتاع، فلم يميز، ومن استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بجرمانه.

أما الإناء المصطب بالذهب أو الفضة أو المشتمل على حلقة منهما، كالمرآة ذات الحلقة الفضية، فلا يُشرب فيه، ولا ينظر في المرآة.

وإذا لم يميز استعمال الإناء لم يميز اقتناؤه؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناؤه كالصنم والطنبور^(١)

٥ - في الجنة كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها باقون دائمون فيها، روى الترمذي عن سليمان بن بريدة عن أبيه: «أن رجلاً سأل النبي

(١) الطنبور: من آلات الطرب، ذو عنق طويل، وستة أوتار من نحاس.

ﷺ، فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من خيل؟ قال: إن الله أدخلك الجنة، فلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوته حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت. وسأله رجل، فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من إبل؟ قال: إن يدخلك الله الجنة، يكن لك فيها ما اشتئت نفسك ولذت عينك.

٤ - إن الظفر بنعيم الجنة يكون بسبب العمل الصالح في الدنيا.

٥ - في الجنة ألوان كثيرة من الفواكه المختلفة والثمار الطيبة كلها، رطبها وبابسها، سوى الطعام والشراب، يأكل أهلها منها، دون انقطاع ولا فناء، وهذا تعويض لمن حرم منها في الدنيا، وتكميل للرجبة، وتقوية لدواعي العمل المؤدي إليها.

عذاب أهل النار وأسبابه

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۖ لَا يُفَرِّجُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۖ وَمَا ظَنَنْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ۖ﴾ (٧٤) ﴿وَنَادَوْا بِعَذَابِكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ۖ﴾ (٧٥) ﴿لَقَدْ حَسَنَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۖ﴾ (٧٦) ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ قُرْآنًا فَهُمْ يَكْفُرُونَ ۖ﴾ (٧٧) ﴿أَمْ يَعْسُوبُونَ أَنَّ لَا تَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُورُونَ ۖ﴾ (٧٨)

القراءات:

﴿حَسَنَّا﴾:

وقرأ السوسي، وحزة وفقاً (جيناكم).

﴿يَعْسُوبُونَ﴾: قرئ:

١ - (يَعْسُوبُونَ) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحزة.

٢- (يَحْسِبُونَ) وهي قراءة الباقيين.

﴿وَرُسُلَنَا﴾ :

وقرأ أبو عمرو (رُسُلَنَا).

﴿لَدَيْهِمْ﴾ :

وقرأ حمزة (لديهم).

الإعراب:

﴿عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ خبران لـ ﴿إِنَّ﴾ أو ﴿خَالِدُونَ﴾ خبر، والظرف متعلق به.

البلاغة:

﴿أَمْ أَمْرًا أَمْرًا فَإِنَّا مُتَرَمِّضُونَ﴾ (٧٦) التفات من الخطاب في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ﴾ إلى الغيبة للإشعار بأن الإبرام أسوأ من كراحتهم للحق.

﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ بين السر والنجوى طباق، أي الخفاء والعلانية.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ الْمُتَجَرِّبِينَ﴾ ذوي الجريمة الكبرى وهم الكفار الذين هم جعلوا في مقابل المؤمنين بالآيات ﴿لَا يُفَتِّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يخفف عنهم، يجعل العذاب متقطعاً على فترات ﴿مُتِلَسِّونَ﴾ آيسون من النجاة، حزينون من شدة اليأس، من الإبلاس وهو الحزن الناشئ من شدة اليأس، ويصاحبه عادة سكوت.

﴿يَمْلِكُ﴾ خازن النار ﴿لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا، أي سل ربك أن يقضي علينا، من قضى عليه إذا أماته ﴿مَنْكُوثٌ﴾ مقيمون في العذاب دائماً، لا

خلاص لكم بموت ولا غيره ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ قال تعالى: لقد جئناكم يا أهل مكة بالحق الثابت على لسان الرسول ﴿أَمْ أَرْمَوْا أَمْراً﴾ بل أحكموا تدبير أمر في كيد النبي محمد وتكذيب الحق ورده، ولم يقتصروا على كراهيته ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون كيدنا في إهلاكهم ومجازاتهم.

﴿سِرَّهُمْ﴾ حديث الخفية مع النفس أو الغير في مكان ﴿وَيَجْهَلُهُمْ﴾ تناجيهم فيما بينهم وهو ما يجهرون به بينهم ﴿بَلَى﴾ نسمع ذلك ﴿وَرُسُلَنَا﴾ والحفظة ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم، ملازمون ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

سبب النزول:

نزول الآية (٧٩):

﴿أَمْ أَرْمَوْا﴾ قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم في المكر به - بالنبي ﷺ - في دار الندوة.

نزول الآية (٨٠):

﴿أَمْ يَحْسِبُونَ﴾: أخرج ابن جرير الطبري عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها: قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال آخر: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فأنزلت: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية.

للناسبة:

لما ذكر الله تعالى أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضاً، ليبين فضل المطيع على العاصي، ولما ذكر تعالى الوعد، أردفه بالوعيد، على الترتيب المستمر في القرآن، فبعد أن ذكر ما أعد لأهل الجنة المتقين من ألوان النعيم، ذكر ما أعد لأهل النار الكفار من العذاب الأليم وأسبابه وهي الكفر

والمعاصي، مع إحباط مكائدهم ومؤامراتهم لرد الحق المنزل، وإعلامهم بأن الله عليم بذلك، والحفظة الملازمون لهم يكتبون كل ما بدر منهم من قول أو فعل، ليكون عنصر إثبات وحجة عليهم.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) أي إن الذين ارتكبوا الكفر بالله في دار الدنيا هم معذبون في عذاب النار، عذاباً دائماً، مخلّدون فيه أبداً. ﴿لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ﴾ (٧٥) لا يخفف عنهم ذلك العذاب فترة أو لحظة ليستريحوا منه، وهم آيسون من النجاة ومن كل خير، حزينون أشد الحزن.

وسببه ما اقترفوا في الدنيا كما قال تعالى:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٦) أي ما عذبناهم بغير ذنب، ولا زدناهم على ما يستحقونه، ولكنهم ظلموا أنفسهم بما ارتكبوا من الذنوب، وبما عملوا من الأعمال السيئة، حيث كفروا بالله ربهم، وكذبوا رسله وعصوا ما جاؤوا به، فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَنَادَوْا بِمَكَاتِكُمْ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَتْ إِنَّكُمْ مَقَكُوتٌ﴾ (٧٧) أي ونادى المجرمون للتخلص مما هم فيه من العذاب الشديد، يا مالك-وهو خازن النار- ليمتنا الله أو ليقض أرواحنا، فيريحنا مما نحن فيه من العذاب، فأجابهم بقوله: إنكم مقيمون في العذاب، لا خروج لكم من النار، ولا محيد لكم عنها. قال المحققون: سمي خازن النار مالكا؛ لأن الملك عُلقة، والتعلق من أسباب دخول النار، كما سمي خازن الجنة رضواناً، لأن الرضا يحكم الله سبب كل راحة وسعادة، وصلاح وفلاح.

وذلك كقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦/٣٥] وقوله سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهَا الْأَشَقَىٰ﴾ (١١) ﴿الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ (١٢) ثُمَّ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَخَيُّ (١٣) [الأعلى: ١١/٨٧-١٣]. وقد روي أن أهل النار استغاثوا بالخنزة، وسألوهم أن يخفف عنهم ربهم يوماً واحداً من العذاب، فردت الخنزة عليهم أسوأ رد: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَنْزَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ (٤٩) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتٍ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٥٠) [غافر: ٤٩/٤٠-٥٠].

ثم ذكر الله تعالى سبب عقابهم قائلاً:

﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٧٨) أي لقد بينا لكم الحق ووضحناه وفسرناه، وأرسلنا إليكم الرسل، وأنزلنا عليهم الكتب، فدعوكم إلى الصراط المستقيم، فأبيتهم وكذبتم وكفرتم وعاندتم، وكان أكثركم أي كلكم كارهين للحق وأهله لا يقبلونه.

ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ذكر بعده كيفية مكربهم وفسادهم في الدنيا، فقال بطريق الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة لبيان كون تدبيرهم أسوأ من كراحتهم للحق.

﴿أَمْ أَمْرًا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩) أي بل دبر مشركو مكة بإحكام كيداً للنبي ﷺ في دار الندوة بمكة ليقتلوه أو يجسوه أو يطردوه، والمعنى أنهم كلما أحكموا أمراً في المكر بمحمد ﷺ، فإننا نحكم أمراً في مجازاتهم، وإنا محكمون لهم كيداً، أي نبييت لهم جزاء وعقاباً شديداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) [النمل: ٢٧/٥٠] وقال سبحانه: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٩) [الطور: ٥٢/٤٩]. وكل من الكيد والمكر يراد به العقاب من الله تعالى، جزاءً على تحايلهم في رد الحق بالباطل، ورد وبال ذلك عليهم، وإحباطه، ولهذا قال تعالى:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠) أي بل أيقنون أننا لا نسمع سرهم وعلايتهم، سواء ما يضمرونه من شر وسوء وكيد، أو ما يتناجون به فيما بينهم علانية لحبك المؤامرة، والتخطيط لإنفاذها؟ بلى، نحن نسمع ذلك ونعلم به تماماً، والملائكة الحفظة أيضاً يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل، صغير أو كبير: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ٥٠-١٧-١٨).

قال يحيى بن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبدائها للذي لا يخفى عليه شيء في السماوات، فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

فقه الحياة أو الأحكام:

أبانت الآيات ما يأتي:

١ - إن جزاء الكفار الذين لم يؤمنوا بوجود الله ووجدانيته، ولم يصدقوا بالرسول والكتب الإلهية هو نار جهنم. وقد وصفهم الله تعالى بصفة المجرمين.

٢ - وصف تعالى عذاب جهنم بثلاث صفات: هي أولاً- الخلود وهو في رأي الرازي: عبارة عن طول المكث، ولا يفيد الدوم، وثانياً- عدم التخفيف من العذاب، وثالثاً- الإياس من الرحمة أو السكوت سكوت يأس.

٣- لا ظلم للكفار بالعذاب يوم القيامة، ولكنهم هم الظالمون لأنفسهم بالشرك، وإن أعظم جريمة في حق الله هي الشرك به، لذا قال سبحانه: ﴿لَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨/٤].

٤ - يطلب الكفار من مالك خازن جهنم أن يتخلصوا من العذاب بالموت الأبدي، وهم بالرغم من أنهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب، طلبوا ذلك إما على سبيل التمني أو على وجه الاستغاثة، وكلا الأمرين تعبير عن الحيرة والقلق والاضطراب ونحوها مما يفعله اليأس المتخبط في أحواله كلها، فأجيبوا بأنهم مقيمون على الدوام في نار جهنم.

ويذكر المفسرون أن بين سؤالهم هذا وبين جوابهم ثمانين سنة، أو ألف سنة، أو مئة سنة، أو أربعين سنة، الأول قول عبد الله بن المبارك، والثاني قول الأعمش، والثالث قول ابن عباس، والرابع قول عبد الله بن عمرو^(١) وكل ذلك يحتاج لدليل أوثق وأثبت، ونفوض العلم فيه إلى الله تعالى.

٥ - إن سبب عقاب الكفار أن الله تعالى جاءهم بالحق فلم يقبلوا، وكلهم نافر من محمد ﷺ ومن القرآن، شديد البغض لقبول الدين الحق، وهو الإسلام ودين الله تعالى.

٦ - أحبط الله كل مؤامرات الكفار على النبي ﷺ؛ لأن الله عاصمه من الناس، قال مقاتل - كما تقدم - : نزلت آية ﴿أَمْ أَرْمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩) في تدبيرهم بالمركر بالنبي ﷺ في دار الندوة، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل، ليشاركوا في قتله، فتضعف المطالبة بدمه؛ فنزلت الآية^(٢)

٧ - يخطئ الناس وبخاصة الكفار حين يظنون أن الله لا يسمع سرهم ونجواهم، والسر: ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال، والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم، فإن الله سميع بصير، يسمع ويعلم كل شيء، والملائكة الحفظة يكتبون عليهم تلك الأحوال، وستكون الكتابة في سجل الأعمال يوم القيامة يحاسبون بناء عليها، وحجة وبرهاناً لإثبات معاصيهم ومنكراتهم، وهذا تأكيد لعلم الله.

(١) تفسير القرطبي: ١١٧/١٦

(٢) المرجع السابق: ١١٨/١٦

تنزيه الله سبحانه عن الولد والشريك

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ (٨١) ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) ﴿وَقِيلَ: يَحْسَبُونَ أَنَّ هَتُولَاءِ قومٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

القراءات:

﴿فَأَنَا أَوَّلُ﴾:

قرأ نافع بإثبات الألف وصلًا ووقفًا.

وقرأ الباقر بجذوها وصلًا، وإثباتها وقفًا.

﴿تُرْجَعُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي (يُرْجَعُونَ).

﴿وَقِيلَ﴾: فرئ:

١- (وَقِيلَ) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (وَقِيلَ) وهي قراءة الباقرين.

﴿يَعْلَمُونَ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (تعلمون).

الإعراب:

﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ «إِنْ»: إما شرطية على سبيل الافتراض، أي إن كان للرحمن ولد فأنأ أول من عبده، على أنه لا ولد له، أو على حد قول الرجل لصاحبه: إن كنت كاتباً فأنأ حاسب، والمعنى: لست بكاتب، ولا أنا حاسب. أو أن تكون «إِنْ» بمعنى (ما) وتقديره: ما كان للرحمن من ولد.

﴿فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ كل من الجار والمجرور متعلق بما بعده.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾ اللام في «وَلَيْنَ» لام القسم.

و«لَيَقُولُنَّ» حذف منه نون الرفع وواو الضمير.

﴿وَقِيلَهُ يَكْرَبُ﴾ بالجر لكلمة «وَقِيلَهُ» عطفاً على «السَّاعَةِ» أي وعنده علم الساعة وعلم قبله؛ أو بالرفع عطفاً على «عَلِمُ» في قوله: «وَعِنْدُ عَلِمُ السَّاعَةِ» أي وعلم قبله، فحذف المضاف، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف، تقديره: وقيل: يارب، مسموع؛ أو بالنصب على المصدر، أي ويقول قبله، أو عطفاً على «سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ» في قوله: «سَمِعَ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ» أو عطفاً على معنى «وَعِنْدُ عَلِمُ السَّاعَةِ» أي ويعلم الساعة ويعلم قبله، أو عطفاً على المفعول المحذوف لـ «يَكْتُبُونَ» في قوله: «وَرُسُلَنَا لَهُمْ يَكْتُبُونَ» أي يكتبون ذلك ويكتبون قبله.

﴿وَقُلْ سَلِّمٌ﴾ «سَلِّمٌ»: خبر مبتدأ محذوف، أي أمري سلام، أي مسالمة منكم، وليس من السلام بمعنى التحية.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَادِينَ﴾ (٨١) أي إن وجد له ولد على

سبيل الفرض والتقدير، وثبت ذلك بالدليل القاطع، فأنا - أي محمد النبي ﷺ - أول العابدين أي المعظمين للولد تعظيماً للوالد، لكن ثبت ألا ولد له تعالى، فانتفت عبادته وبطلت ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ أي تنزيهاً لله عن كونه ذا ولد وعن كل نقص ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ العرش أو الكرسي: مخلوق عظيم أعظم من السماوات والأرض، الله أعلم به ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقولون كذباً بنسبة الولد إليه.

﴿فَذَرَّهُمْ﴾ اتركهم ﴿يَخُوضُوا﴾ يعيشوا في باطلهم، ويطلقوا مع المبطلين ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي يوم القيامة الذي يوعدون فيه العذاب ﴿إِلَهُ﴾ أي إنه هو معبود في السماء ومعبود في الأرض ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالحهم، وهما دليلان على استحقاق العبادة، والمعنى أن الله في السماء والأرض بالالوهية والربوبية، وليس الاستقرار.

﴿وَبَارِكْ﴾ تعالى وتعظم ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء وجميع المخلوقات ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء ﴿يَدْعُونَ﴾ يعبدون، وهم الكفار ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من غير الله ﴿الْأَسْفَعَةَ﴾ لأحد ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي قال: لا إله إلا الله. والاستثناء إما متصل؛ لأن من جملة مَنْ يدعونهم الملائكة وعيسى وعزيراً، أو منقطع، أي لكن من شهد بالتوحيد عن علم وبصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يتيقنون بقلوبهم مثلما شهدت به ألسنتهم، وهم عيسى وعزير والملائكة، فهؤلاء هم الذين يشفعون بإذن الله للمؤمنين ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن عبادة الله. ﴿وَقِيلَهُ﴾ معطوف على ﴿السَّاعَةِ﴾ أي وعنده علم الساعة وعلم قبله، أي قيل محمد النبي ﷺ، والقبل والقال والمقاله والقول بمعنى واحد، أي وقوله ﴿فَأَصْحَحْ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ سلام منارة وهجران، لاسلام تحية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يطلعون على ما أعد لهم من عذاب، وهذا تهديد وتوبيخ لهم أي للكفار.

المفاسية:

بعد بيان أحوال المجرمين الكفار في الآخرة، أردفه تعالى ببيان استحالة نسبة الولد والشرىك له، وأنه المعبود بحق في السماء والأرض وأنه الحكيم في صنعه العليم بكل شيء، وأن الله سبحانه مالك السماوات والأرض ومالك كل شيء في الكون، وأن الآلهة المعبودة من دون الله ليس لها أي نفع كالشفاعة في الآخرة، وأن المشركين متناقضون حين يقرون بأن الخالق للكون هو الله، ثم يعبدون معه غيره، وأن حسابهم آت يوم القيامة الذي لا يعلم بميقاته أحد غير الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ (٨١) أي قل يا محمد: إن ثبت ببرهان صحيح لله تعالى ولد، فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته، وأول من يعظمه كما يُعظم الرجل ولد الملك لعظم أبيه، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، ويستحيل أن يكون له ولد فهو محال في ذاته؛ لأنه يؤدي إلى العجز والحاجة لغيره والنقص، والإله كامل الصفات. والجملة شرطية لفظاً ومعنى، مركبة من شرط وجزاء، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل، بقصد المبالغة في نفى الولد، وهو أبلغ وجوه النفي وأقواها، كما تقول لمن يجادلك: إن ثبت ما تقول بالدليل فأنا أول من يعتقد به.

وهو مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الزمر: ٤/٣٩) وقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢/٢١) أي لو كان في السماوات والأرض أكثر من إله لفسدت.

ويؤكد نفى الولد قوله تعالى:

﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢) أي تنزيهاً له وتقديساً عما يقولون من الكذب بأن له ولداً، ويفترون عليه تعالى ما لا يليق بجناحه، أو تعالى وتنزهه وتقديسه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فهو مالك السماوات والأرض، ورب العرش المحيط بالكون، وهو منزّه عما يصفه به المشركون كذباً من نسبة الولد إليه.

ثم أمر الله تعالى نبيه بالإعراض عن المشركين المعاندين قائلاً:

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيَلْبَسُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ (٨٣) أي فاتركهم أيها النبي يخوضوا في جهلهم وباطلهم وضلالهم، ويلعبوا ويلهو في دنياهم، حتى يلقوا يوم القيامة الذي يوعدون به. وفي هذا تهديد ووعد.

ويزيد الله تعالى تأكيداً تنزيه نفسه عن الولد قائلاً:

١- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) أي هو الله المعبود بحق في السماء، والمعبود بحق في الأرض، فلا يستحق العبادة سواه، وهو الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم، والمعنى: كما أنه تعالى ليس له ولد، ليس له مكان يستقر فيه، بل له الألوهية والربوبية في الكون كله، وفي كل مكان، ويستحيل عليه المكان؛ لأنه يكون محدوداً محصوراً في جهة معينة، له حجم ونهاية، وتلك صفات الحوادث، والله منزّه عنها، فلا يحده زمان ومكان، والحكمة البالغة والعلم الواسع يتنافيان مع إثبات الولد لله.

ثم أبطل الله تعالى قول الكفرة: إن الأصنام تنفعهم، قال:

٢- ﴿وَبَارِكْ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدُكُمْ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥) أي تعاظم وتعالى وزادت خيراته وبركاته الله مالك السماوات ومالك الأرض، وما بينهما من الفضاء والهواء وأنواع الحيوان

والإنسان وخالق كل شيء، وهو المختص بعلم الوقت الذي تقوم فيه الساعة، وإليه مرجع ومصير الخلائق كلها، فيجازي كل إنسان بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وهذه صفات تتنافى كلها أيضاً مع إثبات ولد لله؛ لأنه تعالى غير محتاج لمعونة أحد من خلقه، كما أن له السلطان المطلق في الحساب والجزاء في عالم القيامة، ولما نفى الله تعالى الولد أتبعه بنفي الشركاء، فقال مؤكداً عدم نفع الأصنام:

٣- ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨١) (١) أي ولا تملك - ولا تقدر - الأصنام وكل معبود مدعو من دون الله - الشفاعة عند الله كما يزعم عبادها أنهم يشفعون لهم، لكن من آمن وشهد بالحق على بصيرة ويقين بأن الله واحد لا شريك له، فإن شفاعته مقبولة عند الله بإذن الله. فقولُه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ معناه: وهم على علم وبصيرة بما شهدوا به. وهذا دليل على أن إيمان المقلد وشهادته غير معتبرين.

ثم أبان الله تعالى تناقض المشركين قائلاً:

٤- ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) أي وتالله لئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره عمن خلقهم؟ لأجابوا بأنه الله، فهم يعترفون بأنه الخالق للأشياء جميعها، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً، ولا يقدر على شيء، فكيف يصرفون عن العبادة الحقّة عبادة الله إلى عبادة غيره، مع هذا الاعتراف؟ إنهم في هذا التناقض في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل، وهذا مدعاة للعجب من إشراكهم، والغرض من الآية: التعجيب من حالهم أنهم يعترفون بالصانع، ثم يجعلون له أنداداً.

(١) استثناء منقطع بمعنى لكن، ويجوز أن يكون متصلاً كما بينا.

ثم أعلن الله تعالى علمه بشكوى النبي ﷺ من إعراض قومه قائلاً:

٥ - ﴿وَقِيلَ يَرْبِّ إِنَّا هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ويعلم الله تعالى علم الساعة وقول النبي ﷺ وشكواه إلى ربه من قومه الذين كذبوه: يا رب، إن هؤلاء القوم الذين أرسلتني إليهم قوم لا يؤمنون ولا يصدقون بك ولا برسالتي إليهم، كما أخبر تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّا قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠/٢٥].

ثم أمر الله تعالى نبيه بالإعراض عنهم ونبذهم لإشراكهم قائلاً:

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي اصفح عن المشركين صفح المغاضب لا الموافق المجامل، وأعرض عما يقولون وما يرمونك به من السحر والكهانة، واصبر على دعوتهم إلى أن يأتي أمر الله، وقل: أمري معكم مسألة ومتاركة إلى حين، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم. وهذا تهديد شديد ووعد أكيد من الله لهم، ووعد ضمني بنصر الإسلام والمسلمين عليهم، وقد أنجز الله وعده، فأيد رسوله والمؤمنين، وهزم أركان الشرك والمشركين، وطهر جزيرة العرب من فلولهم وآثارهم، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام- ولله الحمد- في المشارق والمغارب.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات البيّنات إلى ما يأتي:

أ - إن إنكار وجود الولد لله تعالى ليس عناداً ولا منازعة، وإنما بدلالة الأدلة القاطعة على نفي وجود الولد، فالعبرة للدليل، وقد أثبت الدليل القاطع عدم وجود الولد لله تعالى؛ لأن صفة الألوهية تقتضي الكمال والقدرة والحكمة والعلم، واتخاذ الولد دليل العجز والنقص.

وهذا مأخوذ من معنى الآية الأولى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ أي لو كان له ولد كنت أول من عبده؛ على افتراض أن له ولداً ثابتاً بالبرهان، ولكن لا ينبغي ذلك، ولم يقم دليل عليه.

٢ - نزه الله نفسه رب السماوات والأرض عن كل ما يقتضي الحدوث، وأمر النبي ﷺ بالتنزيه عما يقوله المشركون من الكذب.

٣ - أمر الله نبيه أيضاً أن يترك المشركين يخوضون في باطلهم، ويلعبون في دنياهم، حتى يأتيهم إما العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

٤ - كذب الله المشركين بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ في أن الله شريكاً وولداً، فهو وحده المستحق للعبادة في السماء والأرض.

قال الرازي: هذه الآية من أدلّ الدلائل على أنه تعالى غير مستقرّ في السماء؛ لأنه تعالى بيّن بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالألوهية كنسبته إلى الأرض، فلما كان إلهاً للأرض، مع أنه غير مستقرّ فيها، فكذلك يجب أن يكون إلهاً للسماء، مع أنه لا يكون مستقرّاً فيها^(١).

٥ - الله تعالى مصدر الخير والبركة، وهو صاحب العظمة، مالك السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات والموجدات والعناصر، وهو العالم بوقت قيام القيامة، وإليه مصير الخلق للحساب والجزاء. وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ بعد بيان كمال قدرته: هو التنبيه على أن من كان كامل الذات والعلم والقدرة، امتنع عليه اتّخاذ ولد كعيسى موصوف بالعجز وعدم الاطلاع على أحوال العالم.

٦ - نفى الله تعالى الولد إليه، ثم نفى الشركاء بقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ أي لا يملك عيسى وعزير والملائكة وغيرهم من الأصنام الشفاعة إلا من شهد بالحقّ وآمن على علم وبصيرة، وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به.

٧ - دلّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على أمرين:

الأول- أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم، وأن التقليد لا يغني مع عدم العلم بصحة المقالة.

الثاني- أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالماً بها، كما روى البيهقي والحاكم وابن عدي عن ابن عباس- وهو ضعيف- عن النبي ﷺ: «إذا رأيت مثل الشمس فاشهد، وإلا فَدَعْ».

٨ - المشركون قوم متناقضون كما ثبت في أول السورة وآخرها، فلما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى، فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام جامدة لا تضر ولا تنفع؟ الواقع أنهم يكذبون على الله حين يقولون: إن الله أمرنا بعبادة الأصنام.

ودلّ قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ على أن إفكهم ليس منهم بل من غيرهم.

٩ - شكّا النبي ﷺ قومه إلى ربّه بأنهم لا يؤمنون بالله وحده لا شريك له، ولا برسالاته ولا بالقرآن المنزل عليه. وهذه الشكوى صدرت منه ﷺ بعد أن ضجر منهم، وعرف إصرارهم على الكفر. وهذا قريب مما حكى الله عن نوح أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّهْمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدَّهُ مَالُهُ وَلَدَةً إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١/٧١].

١٠ - أمر الله نبيّه بالصّفح عن المشركين صفح الغاضب النّاقم لا الرّاضي بفعالهم، وبالتّاركة حتّى حين، فسوف يعلمون ما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وهذا تهديد للمشرّكين، ولا حاجة كما ذكر الرّازي إلى القول بأن هذه الآية منسوخة بآية السّيف؛ لأن الأمر لا يفيد الفعل إلا مرة واحدة، فإذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ، وأما التكرار فيكون بدليل آخر، كما أن اللفظ قد يتقيّد بقرينه العرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية، وهي تسع وخمسون آية

تسميتها:

سميت (سورة الدُّخَانِ) لما فيها من تهديد المشركين في الماضي بالجدب والقحط الذي يجعل الجائع كأنه يرى في الفضاء دخاناً من شدة الجوع، وتهديد الأجيال المقبلة بظهور الدُّخَانِ في السماء مدة أربعين يوماً والذي يعدّ أمانة من أمارات الساعة.

مناسبتها لما قبلها:

تتجلى مناسبة هذه السورة لما قبلها من آل حاميم من وجوه ثلاثة:

١ - افتتاح كلتا السورتين بالقسم بالقرآن العظيم تنوياً به، في قوله تعالى: ﴿حَمِّمَ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾.

٢ - تشابه خاتمة السورة المتقدمة ومطلع هذه السورة، حيث ختمت سورة الزخرف بالتهديد والوعيد في قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضَوْنَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يَلْقَوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ۝٨٣﴾ [٨٣] فذكر يوماً غير معين ولا موصوفاً، ثم أبان وصفه في سورة الدُّخَانِ في القسم الأول منها حيث أنذر تعالى المشركين في قوله: ﴿فَارْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾ [١٠].

٣ - حكاية ما قاله النبي ﷺ لقومه وما قاله أخوه موسى عليه السلام لقوم فرعون، فقال النبي ﷺ في السورة المتقدمة: ﴿يَكْرَبُ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٨٨]، ثم قال الله له: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [٨٩]، وحكى الله عن موسى في هذه السورة: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ [٩٠]، وقال موسى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [٩١] وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ﴾ [٩٢] [٢٠-٢١]، والتشابه واضح في الموقعين.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع سورة الذُّخَان المكيّة كسائر موضوعات السُّور المكيّة وسور آل حاميم السَّبْع، وهو بيان أصول العقيدة الإسلامية: التوحيد، والتبوة والرِّسالة، والبعث.

بدئت السورة ببيان تاريخ بدء إنزال القرآن في ليلة القدر من رمضان، رحمة من الله بعباده، وأن منزله هو مالك الكون كله والمخلوقات جميعها، وأنه هو الإله الحق الواحد الذي لا شريك له، غير أن المشركين في شك وارتياب من أمر القرآن.

ثم أوعدتهم بالعذاب الشديد، وبالذُّخَان المخيف الذي ينذرهم بأسوأ العواقب، ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا.

وأردفت ما سبق بعظمتهم بقصة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام، حيث نجى الله المؤمنين، وأغرق الكافرين في البحر.

ثم وصفت مشركي مكة بأنهم قوم منكرون للبعث في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [٣٥]، وهددتهم بالإهلاك كما أهلك المجرمين الأشداء من قبلهم، مثل قوم تُبُع الحميري، مع إيراد الدليل على قدرة الله عز وجل على كل شيء.

ثم وصفت لهم أهوال يوم القيامة وما فيه من الحساب والعقاب وطعام الزقوم في نار جهنم وغير ذلك مما يرهب ويرعب، ويشير المخاوف الشديدة في النفوس.

وختمت السورة بنعت وبيان مصير الأبرار ومصير الفجار، لترغيب الفريق الأول وتبشير به بالعاقبة الحميدة، وترهيب الفريق الثاني وإنذاره بالنكال والعذاب الشديد.

فضلها:

ذكر المفسرون أحاديث في فضل سورة الدخان، لكنها لا تخلو من ضعف^(١) منها ما رواه الدرامي في مسنده عن أبي رافع قال: «من قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له، وزُوج من الحور العين» ورواه الثعلبي مرفوعاً عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من قرأ الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له» وفي لفظ آخر للترمذي: «من قرأ حم الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك»، وعن أبي أمامة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة، بئى الله له بيتاً في الجنة».

(١) وهكذا أغلب الأحاديث الواردة في فضائل السور ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها، لذا

استبعدت ذكر هذه الأحاديث، وأوردت بعضها هنا للتنبيه والبيان.

إنزال القرآن في ليلة القدر المباركة وصفات منزله

﴿حَمَّ ①﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ ⑦ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑧ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑨

القراءات:

﴿رَبِّ﴾ : قرئ:

١- (رَبِّ) وهي قراءة عاصم، وحزمة، والكسائي.

٢- (رَبِّ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ «أَمْرًا»: إما منصوب على الحال بمعنى أمرين، أو منصوب على المصدرية، أو منصوب بفعل مقدر، أي أعني أمراً، وهو قول أبي العباس المبرد.

﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ «رَحْمَةً»: إما منصوب على أنه مفعول لأجله، أي للرحمة، وحذف مفعول «مُرْسِلِينَ»، أو لأنه مفعول «مُرْسِلِينَ» والمراد بالرحمة حينئذ النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ⑦﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧]، أو منصوب على البدل من قوله: «أَمْرًا»، أو منصوب على المصدر، أو منصوب على الحال، وهو قول أبي الحسن الأخفش.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ بالجرّ: بدل من ﴿رَبِّكَ﴾، وبالرّفْع: خبر آخر، أو صفة، أو استئناف على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو رب السماوات.
البلاغة:

﴿حَكِيمٍ﴾ ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة على وزن فاعِل.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بينهما طباق.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ حثّ وتحريض على الإيمان والتفكير والتبصر.

المفردات اللغوية:

﴿حَمَّ﴾ الحروف المقطعة للدلالة على إعجاز القرآن، والتنبيه على خطورة ما يلقي من أحكام في هذه السّورة، كما تقدّم. ﴿وَالْحَكِّيبِ الْمُنِيرِ﴾ هذا قسم بالقرآن، أي والقرآن ذي البيان الواضح لكل حاجات الإنسان في الدّين والدنيا.

﴿لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ﴾ هي ليلة القدر، ابتدئ فيها إنزال القرآن، أو أنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، وبركتها لأن نزول القرآن سبب للمنافع الدّينية والدّنيوية. ﴿مُنْذِرِينَ﴾ مخوفين به، وهو استئناف يبيّن فيه المقتضى للإنزال.

﴿فِيهَا﴾ في ليلة القدر. ﴿يُفَرِّقُ﴾ يفصل ويبين. ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ محكم لا لبس فيه، من الأمور المحكّمة التشريعية، والأرزاق والآجال وغيرها على مدار السّنة إلى تلك الليلة.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو مزيد تفخيم للأمر. ﴿مُرْسِلِينَ﴾ الرّسل: محمد ﷺ ومن قبله عليهم السّلام. ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ رأفة بالمرسل إليهم. ﴿السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم وأحوالهم، وهو وما بعده بيان أنّ الرّبوبية لا تحقّ إلا لمن

هذه صفاته، مما ينفي ربوبية غيره. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقان في العلوم وفي أنه تعالى رب السماوات والأرض، أو كنتم تطلبون اليقين وتريدونه.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ كما تشاهدون. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ من البعث، وهو ردّ لكونهم موقنين. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يعشون استهزاء بالنبي ﷺ، لذلك قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف». **التفسير والبيان:**

﴿حَمِّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُنِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝﴾ أقسم الله سبحانه بالقرآن العظيم الذي هو الكتاب الموضح لكل ما يحتاجه الإنسان من أمور الدين والدنيا، على أنه أنزل القرآن في ليلة كثيرة الخيرات التي هي ليلة القدر، كما جاء مبيّناً في آية أخرى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝﴾ [القدر: ١/٩٧] ، من ليالي شهر رمضان الذي نزل فيه القرآن، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥/٢] ، أي أنه بدئ بإنزاله في ليلة القدر من ليالي رمضان، واستمرّ نزوله منجّماً ثلاثاً وعشرين سنة، أو أنزل القرآن كلّ في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا.

إِنَّا كُنَّا بهذا القرآن منذرين الناس من العذاب الأليم في الآخرة إذا اقترفوا الشّرك والمعاصي، ومعلّمين الناس ما ينفعهم ويضرّهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده.

قال ابن كثير: ومن قال: إنها ليلة النّصف من شعبان - كما روي عن عكرمة - فقد أبعد التّجعة - أي الطلب - فإن نصّ القرآن أنها في رمضان^(١). وقال القرطبي بعد حكاية قول عكرمة: إنها ليلة النّصف من شعبان:

والأول - أي الرأي القائل بأنها ليلة القدر - أصح، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١)

وسبب بدء نزوله في ليلة القدر ما قال تعالى:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي في ليلة القدر يفصل ويبين الأمر المحكم، فيكتب فيها ما يكون في السنة من الآجال والأرزاق، من خير وشر، وحياة وموت، وغير ذلك، أو ما يكون من أمور محكمة لا تبدل فيها ولا تغيير، بتشريع الأحكام الصالحة لهداية البشر في الدنيا، والسعادة في الآخرة، فالحكيم: معناه ذو الحكمة. وإنما أنزل القرآن في هذه الليلة خصوصاً؛ لأن إنزال القرآن أشرف الأمور الحكيمة، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر ذي حكمة.

والغاية من إنزال القرآن ما قال سبحانه:

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾^(٢) رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ أي أنزل الله القرآن من لده متضمناً وحيه وشرعه، وقد فعلنا ذلك الإنذار، وأرسلنا الرسول وجميع الأنبياء إلى الناس لتلاوة آيات الله اليّنات، رحمة ورأفة منا بهم؛ لبيان ما ينفعهم وما يضرهم، ولئلا يكون للناس حجة بعد إرسال الرّسل، فرسالة الرّسل هي الرّحمة المهداة الدّائمة إلى البشر، وتتمثل الآن بالثّابت القطعي الثّورول منها، وهو القرآن ورسالة النّبي ﷺ. قال أبو حيان في تفسير ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لما ذكر إنزال القرآن ذكر المرسل، أي مرسلين الأنبياء بالكتب للعباد، فالجملة المؤكّدة مستأنفة، وقيل: يجوز أن يكون بدلاً من: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ١٦/١٢٦

(٢) البحر المحيط: ٨/٣٣

وإنما فعل الله ذلك؛ لأنه السَّمِيع لأقوال البشر، العليم بأحوالهم وبما يصلحهم، فأرسل الرّحمة إليهم رعاية لحاجتهم.

والدليل على السَّمْع والعلم وإنزال القرآن ما قاله تعالى:

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٧) أي إن الله السَّمِيع العليم الذي أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وما بينهما من سائر المخلوقات، وخالقها ومالكها وما فيها، إن كنتم تريدون معرفة ذلك عن يقين تام لاشك فيه، قال أبو مسلم: معنى قوله: ﴿إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا.

ثم ذكر الله تعالى صفات أخرى هي الوحدانية والقدرة فقال:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨) أي بعد إثبات الرّبوبية لله أثبت الوحدانية، فهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، وأثبت القدرة فهو المحيي والمميت، يحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء، ثم أكد الرّبوبية على البشر بالذات، فهو ربكم أيها المخاطبون ورب آبائكم وأجدادكم الأولين، ومدير شؤونهم، فهو المستحق للعبادة، دون غيره من الآلهة المزعومة، ثم ذكر حقيقة المشركين، فقال:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (٩) أي بل هؤلاء المشركون في شك من أمر البعث والتوحيد والإقرار الذي صدر منهم بأن الله هو خالقهم، وهم في الواقع عابثون لاهون لاعبون، لا جدية عندهم في الاعتقاد الصحيح، والسلوك المطابق له.

فقه الحياة أو الاحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

أولاً - عَظَّمَ اللهُ تعالى القرآن في هذه الآيات بأمور هي:

١ - أقسم به، والله لا يقسم إلا بشيء عظيم، ولله أن يقسم بما يشاء على ما يشاء في أي وقت يشاء.

٢ - أقسم به على أنه أنزل في ليلة مباركة هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة. ذكر الطبري عن قتادة أنه قال: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، والتوارة لست ليال منه، والزبور لاثنتي عشرة مضت، والإنجيل لثماني عشرة منه، والفرقان لأربع وعشرين مضت.

٣ - وصف الله القرآن بكونه كتاباً مبيناً.

٤ - وصف الله ليلة إنزال القرآن بأنه يفرق فيها كل أمر حكيم، قال ابن عباس وغيره: يُحكم الله أمر الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق. وقال ابن عمر: إلا الشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

٥ - الغاية من القرآن إنذار البشر وتخويفهم العذاب ليصلح حالهم في الدنيا.

٦ - إن إنزال القرآن كان بأمر الله ومن عنده.

٧ - كان إنزاله رحمة من الله بعباده.

٨ - كان إنزاله محققاً لمصالح الناس وحاجاتهم؛ لأن الله هو السميع العليم، رب السماوات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، وهو الواحد القهار، يحيي الأموات ويميت الأحياء، فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شيء، ومالك الناس عند نزول القرآن ومالك من تقدم

منهم ومالك من سيوجد إلى يوم القيامة، فما على الناس إلا اتقاء تكذيب النبي محمد ﷺ لئلا ينزل بهم العذاب.

ثانياً - أظهر الله تعالى حقيقة اعتقاد المشركين مبيناً أنهم ليسوا في الواقع على يقين فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار في قلوبهم: إن الله خالقهم، وإنما يقولونه تقليداً لأبائهم من غير علم ولا حجة ولا برهان، فهم في شكٍّ بين، وإن توهموا أنهم مؤمنون، فهم يلعبون في دينهم على وفق أهوائهم من غير حُجَّة.

تهديد المشركين بالعذاب

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ١١﴾ يَعْنِي النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٢ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٣ أَفَنُكْفِرُكَ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكَ رَاسِدُونَ ١٤ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ١٥﴾

الإعراب:

﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ الجملة حالية.

﴿أَفَنُكْفِرُكَ﴾: «الذِّكْرَى»: مبتدأ، و﴿أَن لَّهُمْ﴾: خبره.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾: «يَوْمَ»: منصوب على الظرف، والعامل فيه: إما فعل مقدر، يدل عليه «مُنْتَقِمُونَ» أي ننتقم يوم نبطش، ولا يجوز تعلقه بقوله: «إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» لأن ما بعد (إِنَّ) لا يعمل فيما قبلها، أو يكون العامل فيه «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ».

المفردات اللغوية:

﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر ﴿بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ بَيِّن واضح، والمراد من الدُّخَان: يوم

الشَّدة والمجاعة في الماضي، فإن الجائع يرى ما فوقه إلى السَّماء ظلاماً من شدة الجوع، وضعف البصر، كهيئة الدُّخان، وفي المستقبل يمكن تفسير الدُّخان بالغبار الذري الذي يهدد البشرية بالموت ويعقبه ظلام. ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيط بهم من كلِّ جانب، وهو صفة للدُّخان. ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يقولون: هذا عذاب مؤلم، ويقولون: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مصدِّقون بك وبنيِّك، وهذا وعد بالإيمان إن كشف العذاب عنهم.

﴿أَنَّى لَكُمْ الذِّكْرَى؟﴾ أي من أين لهم، وكيف يتذكرون في هذه الحال؟ المعنى: لا ينفعهم الإيمان عند نزول العذاب. ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبينٌ﴾ بين الرِّسالة، بين لهم بالآيات والمعجزات ما يوجب الإيمان والتَّذكُّر. ﴿مُعَلِّمٌ﴾ أي يعلمه غيره القرآن، قالوا: يعلمه غلام رومي لبعض ثقيف.

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ نكشف العذاب بدعاء النَّبي ﷺ، فإنه دعا، فرفع القحط، ﴿قَلِيلًا﴾ كشفاً قليلاً أو زمناً قليلاً، وهو ما بقي من أعمارهم. ﴿إِنكُمْ عَايِدُونَ﴾ إلى الكفر، فعادوا إليه بعد كشف العذاب.

﴿نَبْطِشُ﴾ نأخذ بقوة وشدة، والبطش: الأخذ الشديد، والبأس. ﴿الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى﴾ يوم القيامة أو يوم بدر. ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ننتقم منهم بسبب كفرهم.

سبب النُّزول:

نزول الآية (١٠):

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾: أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: إن قريشاً لما استعصوا على النَّبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط، حتى أكلوا العظام، فجعل الرَّجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجُهد، فأنزل الله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي

السَّمَاءِ يَدْخَانُ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ فَأَتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، استسق الله لِمُضَرٍّ، فإنها قد هلكت، فاستسقى، فسقوا، فنزلت.

نزول الآيتين (١٦.١٥):

﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فانتقم الله منهم يوم بدر. أصابتهم الرِّفَاحِيَّةُ عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى المشركين بأنهم في شك من التوحيد والبعث وقدره الله، ذكر تعالى أوصاف يوم العذاب الذي سيحل بهم في الدنيا والآخرة، تهديداً لهم، وتسليّةً لرسوله، وأنه لا يؤمل اتعاضهم بالرغم من تهديدهم وإظهار المعجزات والبيّنات على يد رسول الله، ووصفهم له بأنه معلّم مجنون.

التفسير والبيان:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ يَدْخَانُ مُبِينٍ﴾ ﴿١٦﴾ هذا توعد من الله وتهديد للمشركين، يقول الله فيه لنبيه: فانتظر اليوم الذي تأتي فيه السماء بهيئة كالدُّخَانِ الواضح المنتشر في الفضاء، وهذا الدُّخَانُ بالنسبة للماضي هو ما أصاب قريشاً من الجذب والقحط مدة سبع سنين، بدعاء النبي ﷺ، حتى كان الرجل يرى من شدة الجوع ما بين السماء والأرض دخاناً، لضعف البصر وزيفانه، كما تقدّم في بيان سبب التّزول عن ابن مسعود رضي الله عنه، أو هو غبار الحرب يوم بدر.

وأما بالنسبة للمستقبل فهو أمانة وعلامة من أشراط الساعة، يمكث في الأرض أربعين يوماً، حيث يظهر في الفضاء غبار ذري أو غيره كالدُّخَانِ، يجعل الجو مظلماً، وهذا ما أكّده العلماء في نهاية العالم، حيث تضعف الطاقة الشمسية، وصفة ذلك الدُّخَانُ العموم والشمول، كما قال تعالى:

﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يشمل الناس ويحيط بهم من كل جانب، فيقولون: هذا عذاب أليم جداً، أو يقول الله لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً.

وحينئذٍ يستغيث الناس بالله قائلين:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي يقولون: يا ربنا اكشف عنا عذابك، إنا مصدقون بالله ورسوله، أو إن كشفت عنا هذا العذاب أسلمنا وآمنا، والمراد بالعذاب في الماضي الجوع الذي كان بسببه رؤية ما يشبه الدُّخان. روي أن المشركين أتوا النَّبِيَّ ﷺ وقالوا: «إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا».

وأما في المستقبل فهو عذاب أشدَّ يحدث قبيل الساعة، ويكون من أشراتها وعلاماتها.

وهذا كقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُفْعَلُو عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧/٦]، وقوله جل وعلا: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَّلَمْ نَكُونُوا أَفْسَمْتُمْ مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤/١٤].

ثم نفى الله صدقهم في الوعد بالإيمان قائلاً:

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ثم تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّكُم مَّحْنُونٌ أي من أين وكيف لهم التذكر والانتعاض والوفاء بالوعد بالإيمان بعد كشف العذاب؟ وكان قد جاءهم رسول مبین أدلة الإيمان، ظاهر الآيات والمعجزات، ثم أعرض هؤلاء الكفار عنه، وقالوا عنه: إنما يعلمه القرآن بشر، وقالوا أيضاً: إنه مجنون لا عقل له، وهذا يدل على أن الآيات نزلت في

قريش، أي كيف يتذكر هؤلاء وأنى لهم الذكرى؟ وقد سبق ما حدث منهم من الإعراض عن رسول الله وعن القرآن وهديه، وافترؤا على الرسول بأن معلمه غلام رومي وأنه مجنون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر:

. ٢٣/٨٩]

ثم أعلن الله تعالى عودتهم صراحة إلى الكفر، فقال:

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ١٥ أي إنا سنرفع عنكم العذاب زماناً قليلاً، وسنؤخره قليلاً بعد توافر أسبابه، وهذا كالحكم الصادر بالعقوبة مع وقف التنفيذ، فإنكم راجعون إلى ما كنتم عليه من الشرك والكفر والعناد، وقد رجعوا فعلاً.

وهذا كقوله تعالى في قوم يونس: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِرْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعْتَمُهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨/١٠].

وتأخير العذاب إلى يوم القيامة كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ١١ أي إنكم مؤجلون إلى عذاب شديد هو عذاب النار في يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يكون فيه البأس الأكبر والأخذ الأشد، وفيه ننتقم أشد الانتقام، أي نعاقب هؤلاء الكفار.

وقيل كما روي عن ابن مسعود: إنه يوم بدر، لما عادوا إلى التكذيب والكفر بعد رفع العذاب عنهم، انتقم الله منهم بوقعة بدر، قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر.

والظاهر كما رجح ابن جرير الطبري وابن كثير أن ذلك يوم القيامة، وبه قال الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين عنه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

أ - هدد الله المشركين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وطالب نبيه بأن ينتظر وجود العذاب بهؤلاء الكفار، أما في الدنيا فيتعرضون لظلمة في أبصارهم من شدة الجوع؛ لأن النبي ﷺ لما دعا عليهم بقوله: «اللهم اجعل سنيهم كسني يوسف» ارتفع المطر وأصاب قريشاً شدة المجاعة، حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف، فكان الرجل، لِمَا به من الجوع يرى ما بينه وبين السماء كالدُّخان، كما قال ابن عباس وغيره.

وأما في الآخرة فينتقم الله منهم يوم البطشة الكبرى - يوم القيامة - ويدخلهم النار.

ثم إن من علامات القيامة ظهور دخان في العالم، أي ظلمة بسبب ضعف الطاقة الشمسية في ذلك الوقت، وذلك يوم عسير وشديد على الكافرين، وأما المؤمنون فينجيهم من بأس ذلك اليوم، ويحميهم من شدته.

روى أبو سعيد الخدري مرفوعاً: «أنه دخان يهب بالناس يوم القيامة؛ يأخذ المؤمن منه كالزُّكْمَةِ (الزَّكَام) وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه». وعن حذيفة أن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ الآيَاتِ: الدُّخَانُ، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عَدَنَ أُبَيِّنَ، تسوق الناس إلى المحشر» وأبين: اسم رجل بنى هذه البلدة ونزل بها.

٢ - شأن الكافر وطبيعته اللجوء إلى الله وقت الشدة والحنة، ثم العودة إلى الكفر بعد الفرج وكشف الضر. وهذا ما حدث لمشركي مكة، فقد روي: أن قريشاً أتوا النبي ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا، ثم نقضوا هذا القول.

٣ - الله سبحانه عليم بما يحدث من الكفار، ولكن اقتضت رحمته أن يشمل عباده جميعاً باللطف المرة تلو المرة، لعلهم أن يصلحوا أحوالهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ لأنه يمهّل ولا يهمل.

وهذا معروف عن قریش، فمن أين لهم التذكر والاتعاظ والاعتبار عند حلول العذاب؟ وقد جاءهم رسول من أنفسهم يبين لهم الحق، ثم أعرضوا عنه، بل إنهم اتهموه زوراً وبهتاناً بأنه يعلمه بشر وهو غلام رومي لبعض ثقيف، أو تعلمه الكهنة والشياطين، ثم هو مجنون وليس برسول: ﴿كَرَّتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُوا إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥/١٨].

٤ - مع كل هذا ومع علم الله الشامل بما سيكون، وعد أن يكشف عن قریش ذلك العذاب في زمان قليل، ليَعْلَمَ أنهم لا يَقُونُ بقولهم، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه، كما قال ابن مسعود، فلما كشف عنهم باستسقاء النبي ﷺ لهم، عادوا إلى تكذيبه.

ومن قال: إن الدُّخَانُ منتظر قرب القيامة قال: أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية، من آيات قيام الساعة، ثم من أصرَّ على كفره استمرَّ عليه. ومن قال: هذا في القيامة قال: أي لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر.

٥ - إن يوم القيامة يوم رهيب، فهو يوم البطشة الإلهية الكبرى، ويوم الانتقام من الظالمين والمشرّكين والكافرين، وذلك بعذاب جهنم.

والخلاصة: تضمّنت الآيات تحليلاً دقيقاً لطبائع الكفار، ونبتت إلى أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهم في حال العجز يتضرّعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف، وأخبرت عن تهديدات متكررة، وتقرّيعات وتوبيخات متوالية بقصد الردع والزجر وتدارك الأمر قبل فوات الأوان.

ضرورة الاعتبار بقوم فرعون وإنجاء بني إسرائيل

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِيَّيَ لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّيَ أَتَيْكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّوا لِي قَدَعَا رَبِّي أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ ﴿١١﴾ فَأَسْرَبَ بَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿١٢﴾ وَاتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿١٣﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤﴾ وَزُدُّوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٥﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿١٦﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٧﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلْمَهِينِ ﴿١٩﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ وَأَعْيَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتُوا مُبِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

القراءات:

﴿ إِيَّيَ أَتَيْكُمْ ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إِيَّيَ أَتَيْكُمْ).

﴿ تُؤْمِنُوا لِي ﴾ :

وقرأ ورش (تؤمنوا).

﴿ فَأَسْرَبَ ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير (فأسر).

﴿ وَعُيُونٍ ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحمة، والكسائي (وعيون).

الإعراب:

﴿أَنْ أَدُّوْا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾: ﴿أَنْ﴾: في موضع نصب بتقدير حذف الجر، أي وجاءهم رسول بأن أدوا، و﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾: إما منصوب بـ ﴿أَدُّوْا﴾ أو منصوب على النداء المضاف، ومفعول ﴿أَدُّوْا﴾ محذوف، تقديره: أدوا إلي أمركم يا عباد الله. و﴿أَنْ﴾: مفسرة لأن ﴿وَجَاءَهُمْ﴾ تتضمن معنى القول؛ لأنه لا يجيئهم إلا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله، أو هي المخففة من الثقيلة، ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث: أدوا إلي.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلَوْا عَلَى اللَّهِ﴾: في موضع نصب بالعطف على ﴿أَنْ﴾ الأولى.

﴿أَنْ تَرْجُؤْنَ﴾: في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، أي: من أن ترجمون.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ﴾ بفتح ﴿أَنْ﴾: في موضع نصب بـ ﴿فَدَعَا﴾ ومن قرأ بالكسر فعل تقدير: (قال) أي (فقال: إن هؤلاء).

﴿وَاتَّزَكَّ الْأَبْجَرُ رَهْوًا﴾ ﴿رَهْوًا﴾: حال، أي ساكناً، حتى يدخلوا فيه من غير نفرة عنه.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ الكاف: إما في موضع رفع، خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر كذلك، وإما في موضع نصب على الوصف لمصدر محذوف، تقديره: يفعل فعلاً كذلك بمن يريد إهلاكه. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾: عطف على الفعل المقدر، أو على (تركوا).

﴿مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ، مِنْ فِرْعَوْنَ﴾: ﴿مِنْ﴾: إما بدل من ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وتقديره: من عذاب فرعون، فحذف المضاف، أو حال من ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي كائناً من فرعون، فلا يكون فيه حذف مضاف.

﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان أو حال من ضمير ﴿عَالِيَا﴾.

البلاغة:

﴿فَتَنَّا﴾ استعارة تبعية، حيث شبه الابتلاء والاختبار بالفتنة.

﴿فَأَسْرَبَ بِعَبَادِي﴾ إيجاز بحذف كلام، أي وقلنا له: فأسر.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ استعارة تمثيلية، أي لم تحزن على هلاكهم السماء والأرض، وهذا أسلوب عربي يقال للتحقير والتهكم بجاهلهم.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ رثاء وتضع
وإظهار الأسى والحسرة للعبدة والعظمة للأحياء.

المفردات اللغوية:

﴿فَتَنَّا﴾ بلونا واختبرنا وامتحنا. ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمٌ فِرْعَوْنُ﴾ امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، أو بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم، وقرئ بالتشديد للتأكيد أو لكثرة القوم. ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى، أو على المؤمنين، أو في نفسه فهو جامع لخصال الخير والأفعال الحميدة، وهو موسى عليه السلام. ﴿أَنْ أَدُؤَا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ﴾ بأن أدوا إلى حق الله من الإيمان وقبول الدعوة، أي أظهروا إيمانكم لي يا عباد الله، أو أطلقوا معي بني إسرائيل وأرسلوهم. ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مؤتمن على ما أرسلت به، غير متهم، لدلالة المعجزات على صدقه، أو لاثمان الله على وحيه ورسالته، وهو علة الأمر.

﴿وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ لا تتكبروا على الله بترك طاعته، والاستهانة بوحيه ورسوله. ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مُّبِينٌ﴾ أي ببرهان بين واضح على رسالتي، وهو علة النهي. ﴿وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجَحُونُ﴾ أي التجأت إليه وتوكلت عليه أن ترجحوني بالحجارة، أو تؤذوني ضرباً أو شتماً، أو تقتلونني. ﴿وَلَنْ لَّمْ نُؤْمِنُوا لِي﴾ تصدقوني. ﴿فَاعْتَرِلُونِ﴾ فكونوا بمعزل مني، واتركوا أذاي، ولا تتعرضوا لي بسوء، فإن ذلك ليس جزاء من دعاكم إلى الفلاح.

﴿أَنْ هَتُولَاءَ﴾ بأن هؤلاء. ﴿تُجْرِمُونَ﴾ مشركون، وهو تعريض بسبب الدعاء عليهم. ﴿فَأَسْرِ بِعِيَادِي لَيْلًا﴾ أي فقال: أسر ببني إسرائيل، أي سر بهم ليلاً، وقرئ بوصل الهمزة من (سرى). ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده. ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحَرَ رَهَوًّا﴾ ساكناً منفرجاً مفتوحاً كما هو على هيئته بعد تجاوزه، ولا تضربه بعصاك، ولا تغير منه شيئاً، حتى يدخل فيه القبط شعب فرعون. ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي لأنهم غارقون.

﴿جَنَّتْ﴾ بساتين. ﴿وَعُيُونٍ﴾ ينابيع جارية. ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ مجالس ومنازل حسنة. ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ من النعم، أي تنعم وحسن ومتعة ونضرة، والنعمة: ما ينعم به على الإنسان، من الإناعام. ﴿فَكَهَيْنَ﴾ متنعمين أصحاب فاكهة، وقرئ «فَكَهَيْنَ» أي أشرين بطرين مستهزئين.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي الأمر كذلك، أو مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي ورثنا أموالهم. ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ بني إسرائيل.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ مجاز عن عدم الاكثراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم، تقول العرب إذا مات رجل خطير في تعظيم مهلكه: بكّت عليه السماء والأرض، وبكته الريح، وأظلمت له الشمس، وفي حديث رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكّت عليه السماء والأرض» وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله: الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك، نجوم الليل والقمر أي يا نجوم الليل والقمر.

وقالت الخارجية:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
قال الزمخشري: وذلك على سبيل التمثيل والتخييل، مبالغة في وجوب

الجزع والبكاء عليه. والمراد لا أسف على فرعون وقومه، بخلاف المؤمنين يبكي عليهم بموتهم مصلاهم من الأرض، ومصعد عملهم من السماء. ﴿مُنْظَرِينَ﴾ مهلين ومؤخرين التوبة إلى وقت آخر.

﴿مِنَ الْعَذَابِ أَلْهَيْنَ﴾ من استعباد فرعون وقتله أنباءهم واستخدامه نساءهم. ﴿مِنَ فِرْعَوْنَ﴾ إما على حذف مضاف، أي عذاب فرعون أو حال من العذاب كما تقدم. ﴿عَالِيًا﴾ متكبراً جباراً. ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في الشر والفساد، وهو خبر ثان أي كان متكبراً مسرفاً، أو حال من ضمير ﴿عَالِيًا﴾ أي كان رفيع الطبقة من بينهم.

﴿اخْتَرْنَاهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيل واصطفيناهم. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بجاهلهم أي عالين باستحقاقهم ذلك. ﴿عَلَىٰ أَلْعَالِيَيْنَ﴾ اخترناهم على عالمي زمانهم. ﴿الْآيَاتِ﴾ المعجزات، كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى. ﴿مَا فِيهِ بَلَتْؤًا مُّبِينٌ﴾ اختبار ظاهر.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى إصرار مشركي مكة على كفرهم، بيّن أن كثيراً من المتقدمين كانوا أمثالهم في تكذيب الرسل، وفي طليعتهم قوم فرعون، الذين كذبوا رسولهم موسى عليه السلام، فنصره الله عليهم، وأغرقهم، وجعلهم عبرة للمعتبر.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ فُتِنَّا فَبَلَّاهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي لقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، أرسل الله إليهم رسولا كريماً جامعاً لخصال الخير والأفعال الحمودة، وهو موسى عليه السلام، وهو كريم على الله، وكريم في قومه.

﴿أَنْ أَدُؤَا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِيَّيَ لَكُمْ رَسُولُ أَمِينٌ﴾ (١٨) أي وجاءهم رسول بأن أرسلوا معي عباد الله وهم بنو إسرائيل، وأطلقوهم من العذاب، فإني رسول من الله مؤتمن على الرسالة غير متهم، وهذا كقوله عز وجل: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَآئِلَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْمَهْدَىٰ﴾ [طه: ٤٧/٢٠].

ويجوز أيضاً أن يكون قوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ نداء لهم، والتقدير: أدوا إلي يا عباد الله ما هو واجب عليكم من الإيمان، وقبول دعوتي، واتباع سبيلي، وعلل ذلك بأنه ﴿رَسُولُ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته، وهذا هو الظاهر المناسب لأصول دعوة الرسول قومه ولل كلام الآتي بعده، أما إطلاق بني إسرائيل فهو مطلب فرعي ثانوي بالنسبة لأصل الدعوة.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّيَ ءَاتِيكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ﴾ (١٩) أي لاتتجبروا ولا تكبروا عن اتباع آيات الله، والانقياد لبراهينه، ولا ترفعوا عن طاعته ومتابعة رسله، كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِيكَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَآخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠/٤٠] إني آتيكم بحجة ظاهرة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والمعجزات القاطعات كالعصا واليد وسائر الآيات التسع، فهددوه بالرجم كما قال تعالى:

﴿وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُون﴾ (٢٠) أي أستعiez بالله وألتجئ إليه وأتوكل عليه مما تتوعدوني به من القتل بالحجارة أو الإيذاء والشتم.

﴿وَإِنْ لَّوْ تَوَمَّنُوْا لِي فَاَعَزَّلُوْا﴾ (٢١) أي وإن لم تصدقوني وتقرؤا بنبوتي وبما جئتكم به من عند الله، فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بأذى إلى أن يحكم الله بيننا.

فلما يش من إيمانهم، ولس إصرارهم على الكفر وعنادهم، دعا عليهم

فقال:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ (٢٢) أي فدعا موسى ربه حين كذبوه وهُموا بقتله بأن هؤلاء قوم مكذبون رسلك مشركون بك، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْ رِيزَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (١٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا [يونس: ٨٨-٨٩].

وحينئذ أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من مصر سرّاً ليلاً:

﴿فَأَسْرِعْ بَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ (٢٣) أي أجاب الله سبحانه دعاءه، فأمره أن يسير بقومه بني إسرائيل ليلاً؛ لأن فرعون وقومه يتبعونكم إذا علموا بخروجكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ (طه: ٢٠/٧٧).

﴿وَأَتْرِكْ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ مُرْقُونَ﴾ (٢٤) أي دع يا موسى البحر ساكناً منفرجاً مفتوحاً، لا تضربه بعصاك حتى يعود كما كان، ليدخله فرعون وجنوده، فإنهم قوم مغرقون في اليم. وهذه بشارة من الله بنجاتهم وإهلاك عدوهم ليسكن قلب موسى عليه السلام، ويطمئن جأشه.

ثم ذكر تعالى ما خلفوه وراءهم من عز ومجد ونعيم وثناء، فقال:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ﴾ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ﴾ (٢٧) أي كثيراً ما تركوا في مصر وراءهم من بساتين خضراء، وحدائق غناء، وأنهار متدفقة وآبار مترعة بالماء، وزروع نضرة، ومنازل ومجالس حسنة وثيرة، وتنعم بالمال والخير الوفير، كانوا يرفلون بالنعمة ويتنعمون بعيشة هنية، ويستمتعون بأنواع اللذة، كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة، فيأكلون ويلبسون ما شاؤوا.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٢٨) أي مثل ذلك الإهلاك والسلب والتدمير فعلنا بالذين كذبوا رسلنا، ونفعل بكل من عصانا، وأورثنا تلك البلاد بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (٢٧) [الأعراف: ٧/ ١٣٧] .

ثم نهكم الله بهم وأبدى عدم الاكتراث بشأنهم قائلاً:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (٢٩) أي لا أسف ولا حزن عليهم من أحد بسبب بغيتهم وفسادهم، بل عوجلوا بالعقوبة لفرط كفرهم وشدة عنادهم، ولم يمهلوا لتوبة؛ لأنها غير منتظرة منهم.

ثم أتبع الله تعالى ما يقابل النعمة بالنعمة للعبرة، فقال:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ أي لقد خلصنا شعب بني إسرائيل بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد وقتل الأبناء واستحياء النساء وتكليفهم بالأعمال الشاقة، من عذاب فرعون الذي كان متعالياً عنيداً، متكبراً متجبراً، ومن المسرفين في الكفر بالله، وارتكاب معاصيه، ورأس الكفر: ادعاؤه الألوهية والربوبية بقوله: أنا ربكم الأعلى.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُلْبِغُ أَتْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤) [القصص: ٢٨/ ٤] وقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦/ ٢٣] .

ويلاحظ أن بيان الإحسان إلى موسى وقومه كان بعد بيان كيفية إهلاك فرعون وقومه؛ لأن دفع الضرر مقدم على جلب المصالح والمنافع.

ثم بين الله تعالى مدى تكريمه لبني إسرائيل حين ذاك قائلاً:

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ وَآيَيْنَهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلْتَأْ مُبْتَلًى ﴿٣٤﴾﴾ أي لقد اختارهم الله على عالمي زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك، لكثرة الأنبياء فيهم، ولصبرهم مع موسى، وجهادهم في سبيل الله، فلما بدلوا الإيمان بالكفر، والصالح بالفساد غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير.

وأعطيناهم على يد موسى عليه السلام المعجزات الظاهرة والبراهين الواضحة، وخوارق العادات، مما فيه اختبار ظاهر، وامتحان واضح لمن اهتدى به، ولننظر كيف يعملون. ومنها: إنجائهم من الغرق، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى لهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي:

١ - لا يغترن أحد بمال أو جاه أو سلطان أو عزٍّ أو حكم قوي، فذلك كله للاختبار والامتحان، فقد ابتلى الله قوم فرعون بالأمر بطاعة الله ورسوله موسى عليه السلام، فكذبوا وكفروا، والمقصود أنه عاملهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم، فكذبوا فأهلكوا، وهكذا يفعل بأعداء محمد ﷺ إن لم يؤمنوا.

٢ - طلب موسى عليه السلام من فرعون وقومه أن يتبعوه في رسالته، كما قال ابن عباس، أو أن يرسلوا معه بني إسرائيل ويطلقوهم من العذاب، كما قال مجاهد، وهو في الحالين أمين على الوحي، فما عليهم إلا أن يقبلوا نصحه.

٣ - اتبع موسى عليه السلام معهم أسلوباً لطيفاً، فنصحهم بالألا يتكبروا على الله ولا يترفعوا عن طاعته، وخاطبهم بما يقنع عقلاً ومنطقاً، فذكر لهم أنه يأتيهم بحجة بينة وبرهان واضح على صدقه، وصحة دعوته، وإثبات

ألوهية الله الواحد الأحد، وحرص على مسألتهم قائلاً: إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني، فدعوني واتركوني، وخلّوا سبيلي وكُفّوا عن أذاي.

٤ - لم يَدْعُ نبي على قومه إلا بعد اليأس من إيمانهم، وهكذا فعل موسى عليه السلام، فإنه لما وجد إصرار فرعون وقومه على الكفر دعا ربه بأن هؤلاء قوم مشركون، امتنعوا من الإيمان، ومن إطلاق بني إسرائيل.

٥ - أجاب الله دعاء موسى عليه السلام، فأمره بأن يسير بمن آمن بالله من بني إسرائيل ليلاً قبل الصباح، فإن فرعون وقومه سيتبعونهم حينما يعلمون بخروجهم.

وسير الليل في الغالب إنما يكون عن خوف إما من العدو، وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان.

وأمره ربه أيضاً أن يترك البحر الذي فتح لهم أثناء العبور بأمر من الله مفتوحاً ساكناً على حاله، لا يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، وذلك استدراج لقوم فرعون ليعبروا فيغرقهم الله بعد أن نَجَّى بني إسرائيل.

٦ - دلت آية ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ على أنه تعالى أغرق فرعون، ثم ذكر أنهم تركوا أشياء خمسة: هي الجنات والعيون والزرع والمقام الكريم والنَّعمة بالفتح من التَّعْليم، أي حسن العيش ونضارته، أو سعة العيش والراحة.

أما النَّعمة بالكسر من الإنعام: فهي إحسان الله وعطاؤه وإفضاله.

وورث تعالى تلك الديار بما فيها من الخيرات لبني إسرائيل، بعد أن كانوا مستعبدين فيها، فصاروا لها وارثين، كوصول الميراث إلى مستحقه.

٧ - لا أسف ولا حزن على إهلاك فرعون وجنوده؛ لأنهم لم يعملوا على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم السماء والأرض لأجله، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح، فتبكي فقد ذلك.

قال مجاهد: إن السماء والأرض يبيكان على المؤمنين أربعين صباحاً. وقال علي وابن عباس رضي الله عنهما في المؤمن: إنه يبكي عليه مُصلاًه من الأرض، ومصعد عمله من السماء. وهذا تعبير كنائي يراد به فقد الأعمال الصالحة. قال الواحدي في البسيط: روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال فيما رواه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية: «ما من عبد مسلم إلا له بابان في السماء: باب ينزل منه رزقه، وباب يدخل فيه عمله وكلامه، فإذا فقدها بكيا عليه» وتلا هذه الآية.

٨ - امتن الله تعالى بحق على بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون وقومه إذ نجاهم أولاً من بطش فرعون وظلمه واستعباده لهم، وقتله الأبناء، واستخدام النساء، وتكليفهم بالأعمال الشاقة؛ لأن فرعون كان جباراً عالياً من المشركين، وليس هذا علو مدح بل علو إسراف.

٩ - ثم ذكر ثانياً أنه تعالى اختارهم على علم منه باستحقاقهم على عالمي زمانهم، لكثرة الأنبياء منهم، وإيمانهم بموسى وصلاحهم، فلما بدّلوا تبدل الحال، وغضب الله عليهم ولعنهم، وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً.

١٠ - ثم أبان ثالثاً أنه تعالى أمدّهم بالآيات البينات في التوراة، وبمعجزات موسى التسع، كإنجائهم من فرعون، وفلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى.

١١ - لقد تبين الفارق الواضح في هذه القصة بين الكافرين وبين المؤمنين، فقد أغرق الله الكفار الأشداء، ونجّى المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين، والنصر للصادقين الصابرين المستضعفين، وهذا عدل من الله تعالى، إذ لا يعقل التسوية بين الطائعين والعصاة.

فليعتبر بهذا كفار قريش وأمثالهم، فقد أهلك الله من هم أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، وأعز سلطاناً ومجداً، وأقوى علماً وحضارة.

إنكار المشركين البعث وإثباته لهم

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَنؤُا يَا بَابِئَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ أَهَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِيْبِئَا مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

الإعراب:

﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ﴾: ﴿إِنَّ﴾: بمعنى «ما» مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ و﴿هِيَ﴾ مبتدأ، و﴿مَوْتُنَا﴾: خبره، ولا يجوز أن تعمل ﴿إِنَّ﴾ هنا في لغة من أعملها، لدخول ﴿إِلَّا﴾ لأن «إلا» إذا دخلت على «ما» بطل عملها، ومثلها «إن».

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: ﴿وَالَّذِينَ﴾: إما مرفوع على أنه مبتدأ، و﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ خبره، أو على أنه معطوف على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وإما منصوب بفعل مقدر دل عليه ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ وتقديره: وأهلكنا الذين من قبلهم أهلكتناهم. ﴿لَئِيْبِئَا﴾ حال.

البلاغة:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الإشارة هنا للتحقير.

﴿فَأَنؤُا يَا بَابِئَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أسلوب التعجيز.

﴿أَهَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ استفهام إنكار، للتحقير والاستصغار.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ كفار قريش؛ لأن الكلام فيهم، قال البيضاوي: وقصة

فرعون- السابقة- وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة، والإنذار عن مثل ما حل بهم. ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى﴾ أي ما نهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، وليس هناك حياة أخرى. ﴿بِمُنْشَرِينَ﴾ بمبعوثين أحياء بعد الموتة الأولى، يقال: نشر الله الموتى وأنشرهم: أحياهم ﴿فَأَتَوْا بِقَابَآئِنَا﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور والبعث من الرسل والأنبياء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم.

﴿أَهْمَ خَيْرٌ﴾ في القوة والمنعة. ﴿تُبْعَ﴾ كل من ملك اليمن والشَّعْر وحضر موت، وجعه التبابعة وهم ملوك اليمن، وهذا شبيه بفرعون لدى قدماء المصريين، وهو كل من ملك مصر. ومن التبابعة: ذو القرنين أو إفريتش ويسمى الصعب، وجاء بعده عمرو زوج بلقيس، ثم أبو كرب ابنه، ثم ذو نواس.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كعاد وثمود. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بكفرهم، والمراد: ليس كفار قريش أقوى منهم، وأهلكوا ﴿لَعِينٌ﴾ لاهين عابثين. ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ وما بينهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي محقين في ذلك، ليستدل به على قدرتنا على البعث وغيره وعلى وحدانيتنا وغير ذلك. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي كفار مكة لا يعلمون ذلك. لقلة نظرهم.

المفاسية:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام ليتعظ بها كفار قريش، عاد إليهم بعد أن وصفهم أولاً بأنهم في شك من البعث والقيامة، وأنهم في إصرارهم على كفرهم مثل قوم فرعون الذين أهلكهم ونجى بني إسرائيل، وذكر هنا صراحة أنهم منكرون للبعث، ثم رد عليهم بأن الله خالق السماوات والأرض وما بينهما قادر على بعثهم، ثم توعدهم بالهلاك، كما أهلك قوم تبع من قحطان ملوك اليمن، الذي هم أقوى منهم.

وبه تبين أن الله هدد كفار مكة بمصير مشؤوم، مثل مصير قوم فرعون وقوم ثبّع.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي إن كفار مكة هؤلاء يقولون: ما هي وما العاقبة إلا الموتة الأولى التي غوتها بعد هذه الحياة الدنيوية، ولا حياة بعدها، ولا بعث، وما نحن بمبعوثين.

وهذا إنكار من الله تعالى على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٩/٦].

ثم احتجوا بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا مخاطبين النبي والمؤمنين:

﴿فَأَنذَرُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي فإن كان البعث حقاً، فأرجعوا إلينا آبائنا بعد موتهم إلى الدنيا، إن كنتم صادقين فيما تدعونه من البعث.

يروى أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يعجل الله لهم إحياء الموق، فينشر كبيرهم قصي بن كلاب ليشاوروه في صحة نبوة محمد ﷺ وصحة البعث، فلم يجبههم الله إلى ذلك.

وهذه حجة واهية، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة، لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها، يعيد الله العالمين خلقاً جديداً.

ثم هددهم تعالى وتوعدهم وأنذرهم بأسه الذي لا يرد، فقال:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي

أهم كفار قريش الذين هم عرب من عدنان خير في القوة والمنعة، أم قوم تبع الحميري الذين هم عرب من قحطان، الذين كانوا أقوى جنداً وأكثر عدداً، وكان لهم دولة وحضارة عريقة ومجد، وكذلك الأمم الذين سبقوهم، كعاد وثمود ونحوهم، أهلكتناهم جميعاً لكفرهم وإجرامهم، فإهلاك من هو دونهم لجرمه وضعفه وعجزه بالأولى، فهم ليسوا بخير من قوم تبع في العدد والعز والمنعة.

وتبع: رجل صالح دار في الدنيا بجيوشه وغلب أهلها وقهرهم، وقد كانت حير وهم سبأ، كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً، كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس، و(قيصر) لمن ملك الروم، و(فرعون) لمن ملك مصر كافراً، و(النجاشي) لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من الألقاب السلطانية.

أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم». وكان يكتب إذا كتب: بسم الله الذي ملك براً وبحراً.

ثم أقام تعالى الدليل على قدرته الفارقة ليستدل بذلك على إمكان البعث، فقال:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ﴾ (٢٨) أي كيف ينكرون البعث، وقد شاهدوا أدلة قدرتنا في خلق هذا الكون، فإننا خلقنا هذه السماوات والأرضين وما بينهما من المخلوقات المنظورة وغير المنظورة، ما خلقنا ذلك عبثاً ولعباً، وباطلاً ولهوياً، وإنما يابداع لا مثيل له، ولحكمة منقطعة النظر، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾ [ص: ٢٧/٣٨] وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِئِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]

فهذا برهان على صحة البعث. وإنما جمع السماوات في قوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾ لموافقة قوله في أول السورة: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾.

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) أي ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما إلا خلقاً ملازماً للحق، ولإظهار الحق، وهو الاستدلال على وجود الخالق ووحدانيته، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك، لقلة نظرهم، فصاروا لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً.

فقه الحياة أو الاحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - لا يؤمن المشركون بالبعث، فهو قوم ماديون دهيون كما في آية أخرى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجن: ٢٤/٤٥] وقالوا هنا: ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى في عالم الذر والنطف دون الموتة الثانية.

ب - احتجوا بحجة واهية وهي الإتيان بآبائهم وأجدادهم أحياء، بعد أن ماتوا، وتلك مغالطة؛ لأن المقصود بالبعث: هو إحياء جميع الخلق بعد فناء الدنيا، ولأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف مرة أخرى.

قيل: إن قاتل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما - قُصِيَّ بن كِلَاب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عما يكون بعد الموت.

ج - إنهم بهذا القول استحقوا العذاب؛ إذ ليسوا هم خيراً من قوم تبع والأمم المهلكة، وإذا أهلكنا أولئك، فكذا هؤلاء. وكان من قبلهم أظهر نعمة وأكثر أموالاً، وأعز وأشد وأمنع جانباً، فأهلكهم الله لكفرهم وإجرامهم.

قال القرطبي: وليس المراد بتَّبِعَ رجلاً واحداً، بل المراد به ملوك اليمن؛ فكانوا يسمون ملوكهم التبابعة، فتَّبِعَ لقب للملك منهم كالخليفة للمسلمين، وكسرى للفرس، وقيصر للروم.

ثم قال: والظاهر من الآيات أن الله سبحانه إنما أراد واحداً من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشد من معرفة غيره؛ ولذلك قال ﷺ: «ولا أدري أتبع لعين أم لا؟» ثم قدر روي عنه أنه قال فيما رواه أحمد عن سهل بن سعد: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم». فهذا يدل على أنه كان رجلاً واحداً بعينه، وهو - والله أعلم - أبو كرب الذي كسا البيت بعدما أراد غزوه، وبعدهما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لما أخبر أنها مهاجرة نبي اسمه أحمد^(١)

٤ - لم يخلق الله السماوات والأرض عبثاً وهواً، وإنما خلقهما بالأمر الحق، وللحق، ولإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته، ولكن أكثر الناس وهم في الماضي مشركو مكة لا يعلمون ذلك.

٥ - لم يذكر كفار مكة في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يجاب عنها، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار، لذا اقتصر الله تعالى على الوعيد والتهديد بأن يتعرضوا للهلاك مثلما أهلك قوم فرعون وقوم نَبِّعَ.

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ١٤٤ وما بعدها.

أهوال يوم القيامة التي يتعرض لها الكفار والعصاة

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ يَبِيتُهَا أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٣﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٤﴾ طَعَامُ الْأَشِيمِ ﴿٤٥﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٦﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٧﴾ خَذُوهُ فَاَعْتَْلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٩﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٥٠﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥١﴾﴾

القراءات:

﴿شَجَرَتَ﴾:

رسمت بالناء، فوقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.
ووقف الباقر بالناء.

﴿يَغْلِي﴾: قرئ:

١- (يغلي) وهي قراءة ابن كثير، وحفص.

٢- (تغلي) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿فَاَعْتَْلُوهُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (فاعتْلوه).

﴿رَأْسِهِ﴾:

وقرأ السوسي، ووقفاً حمزة (راسه).

﴿ذُقْ إِنَّكَ﴾ :

وقرأ الكسائي (ذق أنك).

الإعراب:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤١) ﴿يَوْمَ﴾ : اسم ﴿إِنَّ﴾
و﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ : خبرها، و﴿أَجْمَعِينَ﴾ : توكيد ضمير ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾.
﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى﴾ ﴿يَوْمَ﴾ : بدل منصوب من ﴿يَوْمَ﴾ الأول.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ ﴿مَنْ﴾ : بالنصب على الاستثناء المنقطع، وبالرفع:
إما بدل من ضمير ﴿يُصْرَوْنَ﴾ أي ولا ينصر إلا من رحم الله، أو بدل من
﴿مَوْلَى﴾ الأول، أي يوم لا يغني إلا من رحم الله، أو مبتدأ، تقديره: إلا من
رحم الله فيعفى عنه.

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ (٤٢) ﴿كَالْمُهْلِ﴾ : خبر ثان، و﴿يَغْلِي﴾
بالياء: لتذكير المهل، وهو خبر ثالث، ويقرأ بالتاء: لتأنيث الجرّة، وهو حال
من المهل.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٣) ﴿إِنَّكَ﴾ بالكسر: على
الابتداء، وتقرأ بالفتح بتقدير حذف حرف الجر، أي ذق لأنك العزيز الكريم
عند نفسك.

للبلاغة:

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ (٤٢) ﴿كَالْمُهْلِ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿الرَّجِيمُ﴾ ﴿الرَّقُومُ﴾ ﴿الْأَيْمُ﴾ ﴿الْحَبِيمُ﴾ ﴿الْجَعِيمُ﴾
﴿الْكَرِيمُ﴾ سجع رصين لا تكلف فيه، فيه جمال.

المفردات اللغوية:

﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأنه يفصل فيه بين الناس، فيفصل الحق عن المبطل بالجزاء، ويفصل الحق عن الباطل ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ وقت مواعدهم للعذاب الدائم ﴿لَا يُغْنِي﴾ لا يدفع عنه ﴿مَوْتِي﴾ ناصر بقرابة أو صداقة، ويطلق المولى في الأصل على السيد والعبد وابن العم والناصر والحليف والقريب والصديق ﴿شَيْئًا﴾ من العذاب أو الإغناء ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يمنعون منه.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه، وهم المؤمنون فإنه يشفع بعضهم لبعض بإذن الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب في انتقامه من الكفار، فلا ينصر من أراد تعذيبه ﴿الرَّحِيمُ﴾ من أراد أن يرحمه، وهم المؤمنون.

﴿شَجَرَتِ الزَّقْوِمِ﴾ هي شجرة ذات ثمر مرّ، تنبت بتهامة، شبهت بها شجرة الجحيم، وهي الشجرة الملعونة التي ينبتها الله تعالى في قعر جهنم ﴿الْأَثِيمِ﴾ الكثير الإثم، والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه، مثل أبي جهل وأصحابه وأمثالهم من الملاحدة ذوي الإثم الكبير في كل عصر. ﴿كَالْمُهْلِ﴾ ما يمهل في النار حتى يذوب أو دردي الزيت الأسود، أي عكر الزيت والقطران ومذاب النحاس أو غيره من المعادن ﴿الْحَمِيمِ﴾ الماء الساخن الشديد الحرارة.

﴿خُدُّوهُ﴾ أي يقال للزبانية: خذوا الأثيم ﴿فَاعْتَلَوْهُ﴾ بكسر التاء وضمها: جُرُّوه وسوقوه بغلظة وشدة وعنف، ومنه العتل: الجافي الغليظ ﴿سَوَاءٌ الْجَحِيمِ﴾ وسط النار ﴿عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي من الحميم الذي لا يفارقه العذاب، فهو أبلغ من قوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ لأن المراد: يصب من فوق رؤوسهم عذاب هو الحميم، للمبالغة، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف، وزيدت ﴿مِنْ﴾ للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ﴾ أي يقال له: ذق العذاب، استهزاء به أو تقريباً على ما كان يزعمه ﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ بزعمك وقولك: ما بين جليلها أعز وأكرم مني ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إن هذا العذاب ﴿تَمْتَرُونَ﴾ تشكون فيه أو تمارون.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٣) وما بعدها:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ﴾: أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزُّبْد، فيقول: ترقموا، فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد، فنزلت: ﴿شَجَرَتِ الزَّقُومِ ، طَعَامُ الْأَثِيمِ ٤٤﴾.

نزول الآية (٤٩):

﴿ذُقْ إِنَّكَ﴾: أخرج الأموي في مغازيه عن عكرمه قال: «لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، فقال: إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أُولَئِكَ لَكَ فَأُولَئِكَ ٢٤﴾ ثُمَّ أُولَئِكَ لَكَ فَأُولَئِكَ ٢٥﴾ فزع يده من يده، وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أني امتنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله الله يوم بدر، وأذله وغيره بكلمته، ونزل فيه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٤٩﴾.»

وأخرج ابن جرير الطبري عن قتادة نحوه. قال أبو جهل لرسول الله ﷺ: ما بين جليلها أعز ولا أمنع مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً، فنزلت الآية.

للمناسبة:

بعد إثبات البعث والقيامة، أعقبه تعالى بذكر ما يتعرض له الكافر يوم القيامة من أهوال يفقد الأعوان والنصراء، وتجرع الزقوم، وشرب المهل عكر

الزيت والقطران، وجره بشدة وعنف إلى جهنم، وصب الماء الحميم البالغ منتهى السخونة والحرارة فوق رأسه، وتقريعه والاستهزاء به فيما زعمه من عز وإكرام، جزاء الشك بيوم البعث والقيامة.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤١) «إن يوم القيامة الذي يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين، ويثيب المؤمنين، هو ميعاد جمعهم ووقت حسابهم وجزائهم جميعاً، يجمعهم كلهم أولهم عن آخرهم، ليميز المحسن من المسيء، والحق من المبطل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا﴾ (النبا: ١٧/٧٨)

وسمي يوم القيامة (يوم الفصل) لأنه تعالى يفصل بين عباده في الحكم والقضاء، أو يفصل بين أهل الجنة وأهل النار، أو يفصل بين المؤمنين وبين ما يكرهون، وبين الكافرين وبين ما يشتهون، فيفصل بين الوالد وولده، والرجل وزوجته، والمرء وخليله.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٢) «أي يوم لا ينفع قريب قريباً، ولا يدفع عنه شيئاً من العذاب أو الإغناء، ولا هم يمنعون من عذاب الله، فلا يفيد المؤمن الكافر ولا ينصر القريب قريبه، كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ [المنحة: ٣/٦٠] وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١/٢٣) وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (٤٣) ﴿يُنصَرُونَ﴾ [المعارج: ١٠٧/١١] أي لا يسأل أخ له عن حاله، وهو يراه عياناً، وقوله جل وعلا: ﴿وَأَنْفِقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨/٢].

﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٤) «أي لكن من رحمه الله فإنه ينتصر وينجو، ولا يحتاج إلى ناصر غيره، إن الله هو الغالب الذي لا

يفلت أحد من أعدائه من عذابه، ﴿الرَّجِيمُ﴾ : ذو الرحمة الواسعة بعباده المؤمنين، وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً، ويجوز أن يكون متصلاً؛ أي لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض. وبعد إقامة الدليل على أن القيامة حق، ووصف ذلك اليوم، أردفه تعالى بوعيد الفجار الكفار الجاحدين لقاءه، قائلاً:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿١٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿١٤﴾﴾ أي إن الشجرة التي خلقها الله في جهنم وهي الشجرة الملعونة، يكون ثمرها طعام أهل النار الكثيري الإثم، قولاً وفعلًا، فإذا جاعوا أكلوا منها، ويدخل معهم أبو جهل. ﴿الْأَثِيمِ﴾ : مبالغة الإثم.

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿١٦﴾﴾ أي وذلك الطعام يشبه دردي الزيت، وعكر القطران، والنحاس المذاب، يغلي في بطون الكفار كغلي الماء الشديد الحرارة، لحرارته وردائه. شبه ما يصير في البطون منها بالمهل: وهو النحاس المذاب.

﴿خَذُوهُ فَاَعْلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾﴾ يقال للملائكة الذين هم خزنة النار: خذوا هذا الأثيم، فادفعوه وجروه إلى وسط النار بعنف وغلظة.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿١٨﴾﴾ أي ثم صبوا على رأسه الماء الشديد الحرارة المتقدم الوصف، كقوله عز وجل: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ، يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/١٩-٢٠].

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٩﴾﴾ أي: وقولوا له تهكماً وتقريعاً وتوبيخاً: ذق العذاب أيها المتعزز المتكرم في زعمك في الدنيا.

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي إن هذا العذاب هو الذي كنتم تشكون فيه، حين كنتم في الدنيا. وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ

إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾
[الطور: ١٣/٥٢-١٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن يوم القيامة هو يوم الحسم النهائي في مصير الخلائق، وهو يوم الفصل؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، فيتميز المسيء من المحسن، والمبطل من الحق، ويكون هناك فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير. وهذا غاية في التحذير والوعيد.

آ - من خصائص يوم القيامة: فقد النصراء والأعوان والأقارب، فلا ينصر المؤمن الكافر لقربته، لكن من رحمه الله فإنه ينجو وينتصر بنصر الله، ولا يحتاج إلى معونه المخلوقين، والله سبحانه في ذلك اليوم هو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٤٠/٣]. فقرن الوعد بالوعيد.

٣ - إن طعام أهل النار وهم الآثمون الفجار هو الثمر الشديد المرارة من شجرة الزقوم التي لا تقبل الاحتراق في النار، وهو لشدة حرارته وردائه يغلي في بطون الكفار، كغلي الماء الشديد السخونة، فإذا جاع أهل النار أكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي الماء الحار.

٤ - يتعرض أهل النار لأنواع كثيرة من الإهانة والذل، منها: أنهم بواسطة الزبانية يدفعون في النار على وجوههم دفعاً قوياً جداً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويلقون في وسط النار ليدوقوا عذابها الشديد.

ومنها: أنه يقال للآثيم الفاجر توبيخاً وتقريعاً وتهكماً واستهزاء: ذق هذا العذاب فإنك كنت تزعم أنك المتعزز المتكرم، والمراد: إنك أنت الذليل المهان.

ومنها: أن ملائكة العذاب زبانية جهنم تقول للكفار: إن هذا العذاب هو ما كنتم تشكون فيه في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥٠﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٥٢﴾﴾ [التكاثر: ١٠٢/٥-٧].

ما يلقاه المتقون من ألوان النعيم في الجنان

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَثَمٍ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْهٖ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

القراءات:

﴿مَقَامٍ﴾:

وقراً نافع، وابن عامر (مقام).

﴿وَعُيُوتٍ﴾:

وقراً ابن كثير، وابن ذكوان، وحزة، والكسائي (وعيون).

الإعراب:

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ ﴿٥٢﴾﴾ بدل من ﴿مَقَامٍ﴾.

﴿يَلْبَسُونَ﴾ خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّ﴾ أو حال من الضمير في الجار، أو استئناف.

﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حال من واو ﴿يَلْبَسُونَ﴾.

﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ الكاف: إما في موضع الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر كذلك، أو في موضع النصب على أنها وصف لمصدر محذوف، تقديره: يفعل بالمتقين فعلاً كذلك.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ أَمِنَتْ﴾ (٥٥) ﴿يَدْعُونَ﴾: جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ والباء: ليست للتعدي؛ لأن ﴿يَدْعُونَ﴾ متعد بنفسه، وإنما هي للحال، تقديره: متلبسين بكل فاكهة، بمنزلة الباء في قولهم: خرج زيد بسلاحه، أي متلبساً بسلاحه.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ استثناء منقطع، أي لكن قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا، والبصريون يقدرون «إلا» في الاستثناء المنقطع بـ «لكن» والكوفيون يقدرونه بـ «سوى».

﴿فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ ﴿فَضَلًا﴾: إما منصوب على المصدر المؤكد، وتقديره: ويفضل عليهم فضلاً، أو منصوب بفعل مقدر، وتقديره: أعطاهم فضلاً.

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْئِيهِ﴾ الهاء تعود على الكتاب، وقد تقدم ذكره في أول السورة في قوله تعالى: ﴿حَمِّ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ﴾ (١).

المفردات اللغوية:

﴿فِي مَقَامٍ﴾ مجلس أو مكان، والمقام والمقام بمعنى واحد ﴿أَمِينٍ﴾ يؤمن فيه من كل خوف وهم وحزن ﴿جَنَّتْ﴾ بساكنين ﴿وَعُيُوتٍ﴾ ينابيع جارية ﴿سُنْدُسٍ﴾ ما رق من الديباج أو الحرير ﴿وَإِسْتَرْقٍ﴾ ما غلظ منه وهما مُعَرَّبَانِ ﴿مُتَقَلِّبِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض، فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرة بهم.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي الأمر كذلك، أو آتيانهم مثل ذلك ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ قرناهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ بنساء بيض حسان واسعات الأعين ﴿يَدْعُونَ﴾ يطلبون ويأمرون

ياحضار ما يشتهون من الفواكه وغيرها ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ أي في الآخرة، بل يجيئون فيها دائماً ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ الاستثناء منقطع أو متصل، والمراد به المبالغة في تعميم النفي وامتناع الموت، فكأنه قال: لا يذوقون فيها الموت إلا إذا أمكن ذوق الموت الأولى في المستقبل ﴿وَوَقَّهْمُ﴾ حاشم وحفظهم، وقرئ: «ووقهم».

﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلاً منه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاص عن المكاره وفوز بالمطالب ﴿يَسَّرَتْهُ لِيَسَّكَاتِكَ﴾ سهلنا القرآن حيث أنزلناه بلغتك، لنفهمه العرب منك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يفهمونه فيتعظون به، فيؤمنون بك ﴿فَأَرْزَقْ﴾ انتظر هلاكهم إذا لم يتذكروا ولم يؤمنوا ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون هلاكك وما يحل بك.

للمناسبة:

بعد وعيد الكفار الأشقياء وبيان ما يتعرضون له من أهوال الآخرة، ذكر تعالى وعده للمتقين الأبرار السعداء وما أعد لهم من جنات النعيم ذات المآكل والمشارب والملابس والزوجات الفاتقة، وأنه نعيم أبدي. ثم أتبعه بختام للسورة يناسب مطلعها وهو الامتنان على العرب بنزول القرآن بلغتهم ليعملوا بأحكامه، فإن كذبوا انتقم الله منهم.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات خمسة أنواع لنعيم الجنان لبيان وعد الأبرار، وهي:

أ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ ﴿٥٢﴾﴾ أي إن المتقين لله في الدنيا باتقاء الشرك والمعاصي وامتنال الفرائض، لهم مساكن آمنة من جميع المخاوف، طيبة المكان والنزهة، فهي في بساتين غناء وينابيع متدفقة

بالماء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَشْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۚ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَ لَهُمْ مَسْكِ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ [المطففين: ٨٣/٢٢-٢٨].

وهذا في مقابلة ما للكفار من شجرة الزقوم وشرب الحميم.

٢ و ٣ - ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَلِبِينَ﴾ (٥٢) أي ملابسهم من الحرير الرقيق والغليظ، ذي البريق واللمعان والجمال الأخاذ، وجلوسهم على صفة التقابل بقصد الاستئناس ونظر بعضهم لبعض، كقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٤٣) عَلَى مُرُورٍ مُتَقَلِبِينَ ﴿٤٤﴾ [المصافات: ٢٧/٤٣-٤٤].

٤ - ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٥٣) أي هذا العطاء، مع تزويجهم أو قرانهم بالزوجات الحسان الحور البيض الواسعات الأعين، اللاتي ﴿لَهُنَّ يَطِيبُنَّ إِسْئُ قَبْلَهُمْ وَلَا جِأَنُ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٥٨) [الرحمن: ٥٥/٥٨، ٥٦]. أكثر المفسرين على أنه لا عقود زواج بالحور، وأن المراد: قرانهم.

٥ - ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ﴾ (٥٥) أي يطلبون في الجنة ما شاؤوا من أنواع الثمار أو الفاكهة، وهم آمنون من انقطاعها وامتناعها، بل يحضر إليهم كلما أرادوا، وآمنون من الأوجاع والأسقام، ومن الموت والتعب والشیطان.

وهذا دليل على أنه اجتمعت لهم انواع اللذة والشهوة المادية والمعنوية، بهذه الأنواع الخمسة من النعيم في المسكن والملبس والمأكل والزواج والأنس والأمان، وتلك أعلى أصناف الخيرات والراحات.

ثم بين الله تعالى أن حياتهم دائمة، فقال:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(٥١) أي لا يموتون في الآخرة أبداً، ولا يذوقون طعم الموت بعدئذ، لكن الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا قد ذاقوها وانتهى أمرها، وحماهم الله من عذاب النار، ونجّاهم منه، وزحّزهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم. قال الزرخشري: هذا من باب التعليق بالحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل، فإنهم يذوقونها. وقيل: الاستثناء منقطع، أي لكن الموتة الأولى قد ذاقوها.

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت». وأخرج مسلم وعبد الرزاق عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً».

وأخرج أبو بكر بن أبي داود السجستاني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة ينعم فيها، ولا يبأس، ويحيا فيها، فلا يموت، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

وأخرج أبو القاسم الطبراني وأبو بكر بن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال: «سئل نبي الله ﷺ: أينام أهل الجنة؟ فقال ﷺ: النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون».

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٥٢) أي تفضل الله عليهم وأعطاهم ذلك عطاءً فضلاً منه وإحساناً إليهم، أو لأجل إسباغ الفضل منه، ذلك هو الفوز الأكبر الذي لا يعلوه فوز.

ثبت في الصحيح عند مسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وبعد أن بين الله تعالى دلائل قدرته، وأوضح الوعد والوعيد، ووصف القرآن في أول السورة بكونه كتاباً مبيناً (أي كثير البيان والفائدة) ذكر تعالى في خاتمة السورة ما يؤكد ذلك، فقال:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن وأنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها، والذي هو لسانهم ولغتهم، وجعلناه ميسراً للفهم، كي يفهمه قومك يا محمد، فيتذكروا ويعتبروا ويعملوا بما فيه، والمعنى: إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما أنزلناه عربياً بلغتك ليتذكروا ويتعظوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الفر: ٥٤/٢٢].

وبالرغم من هذا الوضوح والبيان، كفر بعضهم وعاند وخالف، فسلى الله رسوله ووعدته بالنصر، وتوعد من كذبه بالهلاك، فقال:

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي انتظر أيها النبي ما وعدناك من النصر عليهم وإهلاكهم وما يحل بهم إن استمروا على الكفر، فإنهم منتظرون ما يحل وما ينزل بك من موت أو غيره، وسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٦٠﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/٢١] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥١-٥٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - يفيض الله على عباده المتقين الأبرار في الجنة أنواع النعم الحسية والمعنوية، ذكر منها هنا خمسة أنواع تشمل المساكن، والملابس، والتقابل في الجلسات واستئناس البعض ببعض، والأزواج، والمأكّل الدائمة. قال مجاهد: إنما سميت الحُور حوراً لأنهن يحار الطرف في حسنهنّ وبياضهنّ وصفاء لونهنّ.

وهل الحور العين أفضل أو نساء الآدميات؟ اختلفوا في ذلك، فقال حبان ابن أبي جبلة- فيما ذكره ابن المبارك-: إن نساء الآدميات من دخل منهن الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا. وروى ابن المبارك مرفوعاً: «إن الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف».

وقال آخرون: إن الحور العين أفضل؛ لقوله ﷺ في دعائه فيما رواه مسلم عن عوف بن مالك: «وأبدله أهلاً خيراً من أهله».

وأما مهورهن فروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مهوور الحُور العين قبضات التمر، وفلق الخبز» وعن أبي قُرْصافة: سمعت النبي ﷺ يقول: «إخراجُ القُمامة من المسجد مهوور الحور العين» وذكر الثعلبي عن أنس أن النبي ﷺ قال: «كُنس المساجد مهوور الحور العين».

٢ - إن تلك النعم في الجنان لها صفة الدوام والاستمرار، دون أن يطرأ عليها انقطاع، ولا ينشأ عنها أذى أو مكروه.

٣ - أهل الجنة وأهل النار في خلود دائم، فكل منهم خالد إما في النعيم وإما في العذاب الأليم، ولا يطرأ عليهم موت، لكن الموتة الأولى في الدنيا قد ذاقوها. قال المحققون: إن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس، وفرحها بمعرفة الله

وبمحبته؛ فالإنسان الكامل هو في الدنيا في الجنة، وفي الآخرة أيضاً في الجنة، فقد صح أنه لم يذق في الجنة إلا الموتة الأولى.

واكتفى الله تعالى هنا ببشارة أهل الجنة بالخلود مع أن أهل النار يشاركونهم فيه، للدلالة على أن دوام الحياة مقرون مع ما ذكر سابقاً من حصول الخيرات والسعادات.

٤ - أكرم الله المتقين بألوان النعيم، وحفظهم من عذاب الجحيم، تفضلاً منه عليهم، وتلك هي السعادة، والريح العظيم، والنجاة العظيمة، والفوز الأكبر الذي لا مثيل له على الإطلاق. ودل قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ على أن التفضيل أعلى درجة من الثواب المستحق، لوصفه بأنه فضل من الله، وكونه فوزاً عظيماً، أي إن المنحة الإلهية أفضل من الأجر والأجرة.

٥ - إنما أنزل الله القرآن الكريم بلغة النبي ﷺ ولغة قومه العرب، وسهله عليهم وعلى كل من يقرؤه ولو من غير العرب، ليتعظوا وينزجروا. وهذا في ختام السورة حث على اتباع القرآن، ودليل على أنه تعالى أراد من كل الناس الإيمان والمعرفة، وأنه ما أراد من أحد الكفر.

٦ - هدد الله تعالى المخالفين المكذبين للقرآن ورسول الله بالهلاك والدمار، ووعد نبيه بالنصر عليهم، وسلاه عن مكابذته المشاق معهم، وأمره بانتظار ما وعده به من النصر عليهم، فإنهم منتظرون له الموت والهلاك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

مكية، وهي سبع وثلاثون آية

تسميتها:

سميت (سورة الجاثية) أخذاً من الآية المذكورة فيها: ﴿وَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي كل أمة باركة على الركب لشدة الأهوال التي يشاهدها الناس يوم القيامة، انتظاراً للحساب، قبل قسمة الخلائق فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين:

١ - ابتدأت هذه السورة بالكلام عن تنزيل القرآن من الله تعالى، والذي هو مكمل لما ختمت به السورة المتقدمة من جعل القرآن بلغة النبي ﷺ ولغة قومه العرب، فهو عربي اللسان نصاً وفحوى، ومعنى وأسلوباً، وفي ذلك حث على اتباعه والإيمان به.

٢ - تشابه السورتين في الغايات الكبرى التي يستهدفها القرآن: وهي إثبات وحدانية الله من خلال بيان أدلة القدرة الإلهية في خلق السماوات والأرض، ومناقشة المشركين في عقائدهم الفاسدة، وضرب الأمثال من مصائر الأمم الغابرة التي أهلكها الله لتكذيبهم الرسل.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السورة المكية، وبخاصة آل حم السور السبعة، وهو تأصيل عقيدة الإسلام الأساسية وإثبات عناصرها وأركانها الثلاثة: وهي الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والاعتقاد بنزول القرآن من عند الله، ونبوة محمد ﷺ ورسالته، والتصديق باليوم الآخر والحساب والبعث والجزاء.

ابتدأت السورة ببيان مصدر القرآن الكريم وهو الله تعالى، وإثبات وجود الخالق ووحدانيته بخلق السماوات والأرض، وخلق البشر والدواب، وتعاقب الليل والنهار، وإنزال المطر سبب الحياة، وتسخير الرياح.

ثم هددت وأوعدت كل من كذب بآيات الله، واستكبر عنها، واتخذها هزواً بعذاب جهنم.

وأخبرت عن نعم الله العظمى وأولها كون القرآن هدى للناس، ثم تسخير البحر لجريان السفن فيه والاتجار بين الأقطار، وتسخير جميع ما في الكون لعباد الله تعالى.

وأردفت ذلك بمبادئ خلقية واجتماعية إنسانية سلمية هي عفو المؤمنين وترفعهم عن زلات الكافرين، فالعمل الصالح أو الفاسد يعود أثره على صاحبه، وتذكير بني إسرائيل بما امتن الله عليهم من نعم روحية ومادية هي التوراة، والحكمة والفقه وفصل الخصومات بين الناس، والنبوة، ورزق الطيبات، والتفضيل على العالمين في عصرهم، والإتيات بالبينات وهي الآيات والمعجزات، وأمر الرسول بعدم إطاعة المشركين واتباع أهوائهم، والتعجب من حالهم وتجروهم على إنكار البعث، واتخاذهم الهوى إلهاً ومعبوداً.

وفي مقابل ذلك بيان استقلال الشريعة الإسلامية وإثبات ذاتيتها، وأمر الرسول والمؤمنين باتباعها وحدها دون ما عداها، والاعتزاز والثقة بالله الذي يمد نبيه بالعون وأنه ولي المتقين، والتزام منهج الله وهدايته ورحمته وهو القرآن العظيم، ومعرفة قانون الله وعدله وحكمته في التفرقة بين المؤمنين الأبرار والمجرمين الأشرار، وبين المتبصرين بآيات الله، ومن أغلق على نفسه منافذ الهداية، فحجب السمع والبصر والقلب عن نور الله.

ثم رد الله تعالى على المشركين منكري البعث بأن الله هو المحيي والمميت وجامع الناس ليوم القيامة، فهو صاحب القدرة العجيبة ومالك السماوات والأرض، والمتفرد بالسلطان الأعظم في الآخرة ذات الأهوال الرهيبة في العرض والحساب وشهادة صحف الأعمال على أصحابها.

وختمت السورة ببيان الجزاء الحق العادل، وقسمة الناس فريقين: فريق الجنة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وفريق النار الذين كفروا بالله ورسوله، واقترفوا السيئات والمعاصي، وهزئوا بآيات الله، واغترؤا بالحياة الدنيا.

وذلك كله يستوجب الحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمين، وله وحده الكبرياء في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

سبب نزولها:

ذكر المهدوي والنحاس عن ابن عباس: أنها نزلت في عمر رضي الله عنه، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة، فأراد أن يبطش به، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [١٤] ثم نسخت بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥/٩]. فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف. وهي سبع وثلاثون آية.

مصدر القرآن وإثبات الخالق ووحدانيته

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ وَأَخْلَفَ
الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ
الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا أَحَقُّ بِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ
وَأَيْتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦﴾

القراءات:

﴿آيَاتٌ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (آيات).

﴿الرَّيْحِ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (الريح).

﴿يُؤْمِنُونَ﴾: قرئ:

١- (يؤمنون) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (تؤمنون) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾: مبتدأ، وخبره ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾.

﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: بالضم: مرفوع بالابتداء، ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾: خبره، أو بالعطف على موضع إن واسمها وخبرها، أو مرفوع بالظرف. ومن

قرأ بالكسر: جعله منصوباً بالعطف على لفظ اسم «إِنَّ»، أو بالعطف بالجر على «السَّمَوَاتِ» أو منصوب على البدل من «لَا يَنْتِ». وكذا قوله «وَأَخْلَفَ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ» يقرأ بالكسر وبالضم بالأوجه السابقة.

«تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» متعلق بـ «تتلو» و«تَتْلُوهَا»: حال، عاملها معنى الإشارة.
البلاغة:

«إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ» فيها تأكيد بـ «إِنَّ» واللام للرد على المخاطبين منكري وحدانية الله.

«وَمَا أَرْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ» أي مطر، مجاز مرسل علاقته المسيبية؛ لأن المطر النازل من السماء هو سبب الرزق والنبات، أما الرزق فلا ينزل من السماء.

المفردات اللغوية:

﴿حَمَّ﴾ هذه الحروف للتنبيه على إعجاز القرآن وعلى أهمية ما يتلى بعدها «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ» أي تنزيل القرآن من الله تعالى «الْعَزِيزُ» القوي الغالب في ملكه «الْحَكِيمُ» في صنعه، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة للعباد.

«إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي إن في خلق السماوات والأرض، بدليل قوله «وَفِي خَلْقِكُمْ» «لَآيَاتٍ» لدلائل دالة على قدرة الله ووحدانيته تعالى «لِلْمُؤْمِنِينَ» لأنهم الذين يتفكرون بهذه الدلائل «وَفِي خَلْقِكُمْ» أي في خلق كل واحد منكم من نقطة، ثم من علقه، ثم من مضغة إلى أن يصبح إنساناً «وَمَا يَبُتُّ» أي وخلق ما ينشر ويفرق في الأرض «مِنْ دَابَّةٍ» هي ما يدب على الأرض من الناس وغيرهم «يُوقِنُونَ» يصدقون عن يقين وإذعان بقدرة الله على البعث وغيره.

﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي وفي تعاقبهما ﴿مِنْ رَزْقٍ﴾ مطر يكون سبب الرزق ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ تغليبها وتحويلها جنوباً وشمالاً، حارة وباردة ﴿يَقُولُونَ﴾ يفكرون ويتدبرون الدليل، فيؤمنون ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المذكورة ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ حججه ودلائله الدالة على وحدانيته ﴿تَتْلُوهَا﴾ نقصها ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي متلازمة ملتبسة بالحق الواضح الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ﴾ أي بعد حديث الله وهو القرآن، وتقديم اسم الله للمبالغة والتعظيم، كقول الله: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣/٣٩] ﴿وَأَيُّنِي﴾ حججه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون، وهم كفار مكة، وقرئ «تؤمنون» .

قال الصاوي على الجلالين: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستة في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ والثالثة بـ ﴿يَقُولُونَ﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير: أن الإنسان إذا تأمل في السماوات والأرض، وأنه لا بد لهما من صانع آمن، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه. وهذا مأخوذ من كلام الزمخشري^(١).

وقال الفيضائي: لعل اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور.

التفسير والبيان:

﴿حَمَّ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ②﴾ ﴿حَمَّ ③﴾: تقدم شرحها إن هذا القرآن منزل من عند الله القوي الغالب الذي لا يقهر، الحكيم في كل شيء بتدبيره ووضعه في المكان المناسب له، وتحقيقه المصلحة لعباده، ويقتضي إثبات هاتين الصفتين لله عز وجل: كونه قادراً على جميع الممكنات،

(١) الكشاف: ١١٢/٣

عالمًا بجميع المعلومات، غنيًا عن كل الحاجات، فلا يصدر منه العبث والباطل.

ثم ذكر الله تعالى ما تقتضيه العزة والحكمة، فقال:

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ أي إن في خلق السماوات وخلق الأرض لدلائل قاطعة على وجوده ووحدانيته وقدرته العظيمة، وهذا دليل من الكون، ثم ذكر تعالى دليلاً من الأنفس، فقال:

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ أي وإن في خلقكم دون وجود سابق، ومروركم في أطوار مختلفة من الخلق، من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، إلى أن يصير الواحد منكم إنساناً كامل الذات والصفات البشرية، وفي خلق ما يفرق وينشر من دابة في نواحي الأرض المختلفة، وأقاليمها المتفاوتة حرارة وبرودة واعتدالاً، وأراضيها الرطبة والجافة، وأنواع حيواناتها الإنسية والوحشية، البرية والبحرية والجوية، آيات ودلائل أخرى شديدة الوضوح، تدل على قدرة الصانع العظيم وحكمته، التي يعتبر بها أهل اليقين، الذين آمنوا ثم قبلوا الحق، ثم ازدادوا إيماناً وأذعنوا ورسخ الإيمان في قلوبهم كالجبال الثابت، فأيقنوا يقيناً تاماً لا يخالطه أي شك.

﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَآخَبَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ أي وإن في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وتفاوتهما في الطول والقصر، والحرارة والبرودة، والضياء والظلمة، وفيما أنزل الله من السحاب من مطر يكون سبباً لرزق العباد وإحياء الأرض بإخراج النبات، وفي تقلب الرياح وتغيرها من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، مرة من الجنوب ومرة من الشمال، وتارة تكون حارة، وتارة تكون باردة، وأحياناً نافعة، وأحياناً ضارة، كل ذلك أيضاً لأدلة عظيمة

وحجج باهرة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته، التي ينتفع بها عادة أهل العقول الراجحة، المتأملون بها، الفاهمون لحقائقها، ولا ينتفع بها أهل الجهل والعناد.

وهكذا يترق المتأملون في تلك الآيات من إثبات أصل الإيمان في قلوبهم، إلى اليقين، إلى اكتمال العقل والنظر، وهو ترقُّ من حال إلى ما هو أعلى منها، وهذه سمة المؤمنين الكُمَّل الذين استخدموا طاقاتهم الفكرية والنظرية للوصول إلى أسْمَى الغايات وأمثل الحالات.

وهذه الآيات شبيهة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ [البقرة: ١٦٤/٢].

ثم أوجز الله تعالى العبرة من تلك الآيات بقوله:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ أي هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه وبياناته نتلوها عليك أيها النبي متضمنة الحق المبين، ونحن محقون صادقون فيما ننزله عليك من القرآن المتلو، ليستفيد منها البشر قاطبة، فإذا كانوا لا يؤمنون بها، ولا ينقادون لها، فبأي حديث أو كلام بعد حديث الله وكلامه وآياته وهو القرآن يؤمنون ويصدقون؟! وعبر بـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى علو مرتبة الآيات.

والخلاصة: من لم يؤمن بكلام الله فلن يؤمن بحديث بعده.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - كون مصدر القرآن الكريم هو الله عز وجل، وليس له أي مصدر آخر سواه.

٢ - إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته بأدلة ستة في ثلاث آيات: الدليل الأول من الكون - خلق السماوات والأرض فهو يدل على وجود الإله - كما ذكر الرازي من ستة وجوه^(١)

أولاً- أنها أجسام حادثة، وكل حادث له محدث.

ثانياً- أنها مركبة من أجزاء متماثلة في مواضع متفاوتة عمقاً وسطحاً، مما يدل على أن وقوع كل جزء في موضعه لا بد له من مرجح ومخصص.

ثالثاً - أن الأفلاك والعناصر مع تماثلها في ماهيتها الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة، واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية، وذلك لا بد له من مرجح.

رابعاً - أن أجرام الكواكب مختلفة في الألوان مثل كُمودة رُحَل، وبياض المشتري، وحمرة المريخ، والضوء الباهر للشمس، ودرية الزهرة، وصفرة عطارد، ونور القمر ومحوه، واختلافها في تلك الصفات دليل على أنه الإله القادر المختار هو الذي خصص كل واحد منها بصفته المعينة.

خامساً- أن كل فلك مختص بحركة إلى جهة معينة، ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء، وذلك دليل على تخصيص فاعل مختار وهو الله وحده.

سادساً - أن كل فلك مختص بمهمة معينة، فلا بد من تخصيص فاعل مختار.

الدليل الثاني والثالث من الأنفس- وهما خلق الإنسان والدواب بتركيب

عضوي عجيب، وخواص وطاقات مادية ومعنوية مذهلة، يدلنا ذلك على أن هناك خالقاً مبدعاً لتلك الأنفس وهو الله تعالى.

الدليل الرابع والخامس والسادس من الظواهر الكونية- وهي تعاقب الليل والنهار بنحو دائم وتفاوتهما، وإنزال الأمطار والثلوج لإحياء الأرض بالنبات وتغذية الينابيع والأنهار، وتقلب الرياح وتغيرها، كل ذلك دليل واضح على وجود الله القادر القاهر، الحكيم الصنع، البديع الخلق والإتقان.

٣ - هذه آيات الله، أي حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته، أنزلها الله في قرآنه بياناً متلواً إلى يوم القيامة، مشتملاً على الحق الذي لا ريب فيه، والصدق الذي لا باطل ولا كذب فيه، فإذا لم يؤمن الناس بها، ولم يصدقوا بالقرآن وآياته البينات، فلن يجدوا سواها طريقاً للإيمان وتصحيح العقيدة.

ولقد قال الله تعالى في هذه الآيات عبارات ثلاثاً أولها «يُؤْمِنُونَ» وثانيها «يُوقِنُونَ» وثالثها «يَقُولُونَ» والمقصود بها كما قال الرازي: إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين، فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل.

أو أن الآيات النفسية تحتاج إلى الإيقان؛ لقربها من الإنسان، وأما الآيات الخارجية الفلكية فيكفي فيها التصديق لبعدها عن الإنسان، وأما العلوية فتحتاج إلى النظر والاستدلال.

وهذا دليل قاطع على أن القرآن اشتمل على أصول العقيدة والإيمان ودلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة، كما اشتمل في مواضع أخرى على الأحكام الفقهية الجزئية في العبادات، والمعاملات، وأحكام الأسرة، والدولة، والأخلاق، والاجتماع، والسياسة، والحكم، وغير ذلك.

وعيد المكذبين بآيات الله وجزاؤهم

﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مَن زَارَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَلَٰئِذِ نَكْفُرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمَّا كَانُوا مِن رَّجَزِ آيَةٍ ﴿١١﴾﴾

القرءات:

﴿هُزُوًا﴾:

قرأ حفص (هُزُوًا) وحمزة (هُزْءًا) وقرأ الباقون (هزؤًا).

﴿مَن رَّجَزِ آيَةٍ﴾:

١- قرأ ابن كثير، وحفص (من رجز آييم).

٢- قرأ الباقون (من رجز آليم).

الإعراب:

﴿لَمَّا كَانُوا مِن رَّجَزِ آيَةٍ﴾ بالرفع: صفة ﴿عَذَابٍ﴾ وقرأ بالجر: صفة ﴿رَّجَزِ﴾.

للبلاغة:

﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ من صيغ المبالغة على وزن فَعَالٍ وفَعِيلٍ.

﴿فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوب تهكمي، لأن استعمال البشارة التي تكون عادة بالخير في الشر تهكم.

﴿يُصِرُّ مُتَكَبِّرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ تشبيه مرسل، أي كأنه لم يسمع آيات القرآن.
 ﴿هَذَا هُدًى﴾ وصف القرآن بالمصدر الذي هو هدى للمبالغة، كأنه
 لوضوح حجته عين الهدى.

المفردات اللغوية:

﴿وَبَلَّ﴾ كلمة عذاب ﴿أَفَاكٍ﴾ كذاب، أي كثير الكذب والإفك ﴿أَشِيرٌ﴾
 كثير الإثم والمعصية ﴿ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره، والإصرار على
 الشيء: ملازمته ﴿مُتَكَبِّرًا﴾ متكبراً متعظماً عن الإيمان بالآيات، و﴿ثُمَّ﴾
 لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي كأنه لم يسمعها. فخفضت وحذف ضمير الشأن،
 والجملة في موقع الحال، أي يصِرُّ مثل غير السامع ﴿فَنَشِيرُهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على
 إصراره، والبشارة للتهكم ﴿مِنَ الْآيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿أَنزَلْنَاهَا هُزُوًا﴾ أي مهزوءاً بها
 ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الأفاكون ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة، أي عذاب مخز مدل.

﴿مِنَ رَّأْيِهِمْ جَهَنَّمَ﴾ أي أمامهم وقدامهم: لأنهم متوجهون إليها، أو من
 خلفهم؛ لأنه بعد آجالهم ﴿وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ﴾ لا يدفع عنهم ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من المال
 والأولاد والفعال ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي
 الأصنام ﴿أُولَئِكَ﴾ نصراء وأعوان ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحملونه.

﴿هَذَا هُدًى﴾ أي هذا القرآن هاد من الضلالة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ لهم حظ من
 العذاب ﴿مِنَ رَّحْمَةِ الرَّجْزِ﴾ أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ موجه.

سبب النزول:

نزولة الآية (٨):

﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾: نزلت في النضر بن الحارث الذي كان يشتري

أحاديث الأعاجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن. والآية عامة في كل من صد عن الدين وتكبر عن هديه.

المناسبة:

بعد بيان الآيات للكفار، وبيان أنهم إن لم يؤمنوا بها مع ظهورها، فلا يؤمنوا بعدها بشيء، أتبعه تعالى بوعيد عظيم بالعذاب الشديد لكل من كذب بتلك الآيات، ثم أصر على كفره بها، ثم ذكر أن جزاءهم جهنم، دون أن تنفعهم أصنامهم شيئاً، وأن القرآن العظيم هو الهدى فقط من الضلالة.

التفسير والبيان:

﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي الهلاك وأشد العذاب لكل كذاب بآيات الله، كثير الإثم والمعاصي، ولهذا الأفاك حالتان:

الأولى- الإصرار والاستكبار: ﴿يَسْمَعُ أَيْدِي اللَّهِ تَنَلُّ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن هذا الأفاك إذا سمع آيات القرآن تتلى على مسامعه، وفيها الدلالة الواضحة على وحدانية الله وقدرته، ووعدته ووعيده، بقي مصراً على كفره، وأقام على ما كان عليه إقامة بقوة وشدة، ولم يتعظ بما يسمع من كلام الله، وتكبر وتعاضم عن الإيمان بالآيات، معجباً بنفسه، وكأنه لم يسمعها، مشبهاً حاله بحال غير السامع في عدم الالتفات إليها، فأخبره بأن له عند الله عذاباً شديداً بالإيلاف، جزاء إصراره واستكباره وعدم استماعه إلى الآيات.

والتعير عن هذا الخبر المحزن بالبشرى تهكم شديد واحتقار لهم.

ونظير الآية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١/٦] ..

الحال الثانية- الاستهزاء بالآيات: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٩) أي وإذا علم هذا الأفاك من آيات الله شيئاً، اتخذ ذلك الشيء هزواً، أي موضوعاً للسخرية والتندر مما حوته من المعاني، أولئك الأفاكون الذين سبقت صفاتهم لهم عذاب موصوف بالإهانة والذل والحزني بسبب إصرارهم واستكبارهم عن سماع آيات الله واتخاذها موضوع استهزاء واستهانة بالقرآن، والعذاب المهين: هو المشتمل على الإذلال والفضيحة.

روي- كما تقدم- أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقْلِمِ طَعَامُ الْآثِمِ﴾ (٤٤) دعا بتمر وزُبد وقال لأصحابه: ترقموا من هذا، ما يعدكم محمد إلا شهداً- عسلاً- وحين سمع قوله تعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (٣٠) أي على النار قال: إن كانوا تسعة عشر، فأنا ألقاهم وحدي.

ثم وصف تعالى كيفية ذلك العذاب المهين، فقال:

﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠) أي إن أمام أولئك الأفاكين جهنم يوم القيامة؛ لأنهم متوجهون إليها مثل قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَٰلِبٍ﴾ (١١) [إبراهيم: ١٦/١٤] أي من أمامه، أو لأن وراء تعززههم بالدنيا وتكبرهم عن الحق جهنم، فإنها خلفهم وستدرهم، ولا يدفع شيئاً من العذاب عنهم ما كسبوا في الدنيا من الأولاد والأموال: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١١٦/٣]، ولا ينفعهم أي نفع، ولا تنفعهم أيضاً الأصنام التي اتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله، يرجون منها النفع، ودفع الضرر، ولهم عذاب عظيم دائم مؤلم في جهنم التي هي من ورائهم، وكل ما توارى عنك فهو وراء، تقدّم أو تأخر، كما ذكر في غرائب القرآن.

وسبب التفرقة بين قوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وقوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أن

الوصف الأول يدل على حصول الإهانة مع العذاب، والوصف الثاني يدل على كونه بالغاً أقصى المراتب في كونه ضرراً.

ثم وصف الله تعالى القرآن بقوله:

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ أي هذا القرآن والآيات المتقدمة في هذه السورة هي هادية إلى الحق، ومرشدة إلى الصواب، وموجهة إلى النور من الظلمة والضلال، والذين كفروا بآيات الله القرآنية لهم أشد العذاب يوم القيامة.

فقوله ﴿هَذَا هُدًى﴾ أي كامل في كونه هدى، والرجز: أشد العذاب لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٥٩/٢] وقوله سبحانه: ﴿لَئِنْ كَشَفْنَا عَنْكَ الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤/٧].

فقه الحياة نو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - توعد الله تعالى بوعيد شديد كل من ترك الاستدلال بآيات الله بالرغم من وضوحها التام، ثم كفر بها وكذب بما جاءت به، وقمادى في كفره، متعظماً في نفسه عن الانقياد لها، وجحد بها استكباراً وعناداً.

والآية عامة في مثل هؤلاء، وإن كان سبب نزولها الخاص هو النضر بن الحارث، أو الحارث بن كلدة، أو أبو جهل وأصحابه.

٢ - يتضمن الوعيد أيضاً حال كل من استهزأ بآيات الله، وتحدى قدرة الله، فوصف الزقوم بأنه الزبد والتمر، وقال في خزنة جهنم: إن كانوا تسعة عشر، فأنا ألقاهم وحدي.

٣ - وصف الله تعالى نوع عذاب هؤلاء الأفاكين الكذابين الآثمين الكفرة

المعاندين بأوصاف أربعة هي: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ، مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

٤ - احتاط الله تعالى لحزمة كتابه القرآن، فلم يعرضه للاستهانة والاستهزاء به، ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو». .

٥ - لن يغني ولن يفيد هؤلاء الكافرين في تخليصهم من ذلك العذاب كل ما كسبوه في الدنيا من المال والولد، ولا الأصنام التي اتخذوها آلهة وعبدوها من دون الله.

٦ - القرآن الكريم هدى للبشرية من الضلالة، ثم أكد تعالى وعيده للذين جحدوا دلائله بأن لهم عذاباً هو أشد العذاب.

والخلاصة: إن الله تعالى جعل مؤيدات جزائية صارمة وشديدة لكل من كفر بالقرآن، ولم يتفكر بآيات الله ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته، وذلك إنذار دائم شديد التأثير لكل من حاد عن منهج القرآن وعقيدة الإسلام.

من نعم الله تعالى على عباده

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلْيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (١٣) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥)

القراءات:

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمة، والكسائي (النجزي قوماً).

الإعراب:

﴿مِنْهُ﴾ متعلق بحال، أي كائنه منه تعالى.

﴿يَغْفِرُوا﴾ مجزوم؛ لأن تقديره: قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا، وحقيقة جزمه بتقدير حرف شرط مقدر.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾ أي ليجزي الله، وهو فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، و﴿قَوْمًا﴾: مفعول به. وقرئ: «لِيَجْزِينَ» بفتح الياء وكسر الزاي، و«لِيُجْزَى» بضم الياء وفتح الزاي، و«لِتَجْزِيَ» بفتح التاء، ومن قرأ «لِيُجْزَى» بالبناء للمجهول، نصب «قَوْمًا» على تقدير: لِيُجْزَى الجزاء قوماً، وهذا جائز على مذهب الأخفش والكوفيين، وغير جائز على مذهب البصريين؛ لأن المصدر لا يجوز إقامته مقام الفاعل مع مفعول صحيح. وقرئ: «لنجزى» بالنون على التعظيم.

البلاغة:

﴿سَحَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ و﴿سَحَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ إطناب لإظهار الامتنان.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ بينهما طباق.

للفردات اللغوية:

﴿سَحَّرَ﴾ هبأ وذلّل ﴿الْفُلُكُ﴾ السفن ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه ﴿وَلِيَتَنَفَّوْا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتطلبوا بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وماء وغيره ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر ونبات وأنهار وغيرها، والمراد: خلق ذلك لمنافعكم ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد ﴿مِنَهُ﴾ حال، أي سخرها كائنة منه تعالى ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صناعته.

﴿يَغْفِرُوا﴾ يعفوا ويصفحوا، وقد حذف المقول للدلالة الجواب عليه، والمعنى: قل لهم: اغفروا للكفار أذا هم لكم يغفروا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يخافون وقائعه بأعدائه، يقال: أيام العرب، أي وقائعهم ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أي الله ﴿قَوْمًا﴾ هم المؤمنون ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من المغفرة للكفار أذا هم، أو الإساءة.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي لها ثواب العمل، وعليها عقابه، والمراد: فلنفسه عمل، وعليها أساء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ تصيرون، فيجازيكم على أعمالكم، يجازي المصلح والمسيء.

سبب النزول:

نزول الآية (١٤):

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا﴾: ذكر الواحدي النيسابوري والقشيري عن ابن عباس: أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب وعبد الله بن أبي وجعاتهما، وذلك أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بئر يقال لها: الرئيس، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي الماء، فأبطأ عليه، فلما أتاه قال: ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على قفت - فم - البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبي وقرب أبي بكر وملأ لمولاه، فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: تَمَنَّ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ، فبلغ عمر رضي الله عنه، فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا﴾

وذكر الواحدي والثعالبي عن ابن عباس وميمون بن مهران سيباً آخر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال يهودي بالمدينة يقال له: فنحاص بن عازوراء: احتاج رب محمد، فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه، فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، فقال: إن ربك يقول: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾. فبعث رسول الله ﷺ في طلب عمر، فلما جاء قال: يا عمر ضع سيفك، قال: صدقت يا رسول الله، أشهد أنك أرسلت بالحق، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية، فقال عمر: لا جرم - حقاً - والذي بعثك بالحق، ولا يرى الغضب في وجهي^(١).

للناسبة:

بعد إيراد أدلة وجود الله ووحدانيته، أورد الله تعالى بعض نعمه الدالة أيضاً على قدرته؛ وهي تسخير السفن في البحار لحمل التجارات والركاب، وتسخير ما في السماوات والأرض، ثم أمر المؤمنين بالعفو عن الكفار، وأبان أن جزاء العمل الصالح والسيئ يعود على نفس العامل خيراً أو شراً.

التفسير والبيان:

يذكر الله تعالى نعمه على عباده وهي:

أ - ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَسْتَفْعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي إن الله الذي ثبت لكم وجوده ووحدانيته بالأدلة السابقة هو الذي ذلل لكم البحر لجريان السفن فيه بإذنه، والاتجار بين الأقطار، والغوص للدر، وصيد الأسماك وغير ذلك، أي للمتاجر والمكاسب، ولتشكروا نعم الله الحاصلة لكم بسبب هذا التسخير، ومنافعه المحلوبة لكم من البلاد النائية.

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٢١٥، غرائب القرآن للحنن بن محمد النيسابوري: ٧٦/٢٥

وتسخير البحر بثلاثة أشياء: هي أولاً- الرياح المساعدة على مسيرة السفن في الماضي وثانياً- قدرة تحمل الماء لآلاف الأطنان بل أكثر من خمس مئة ألف طن، وثالثاً- وجعل الخشب طافياً على وجه الماء دون غوص فيه.

٢ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣) أي وذلل لكم أيضاً جميع ما في السماوات من كواكب وغيرها، وجميع ما في الأرض من جبال وبحار وأنهار ورياح وأمطار ومنافع أخرى فضلاً منه ورحمة، إن في ذلك التسخير لدلائل واضحة على قدرة الله وتوحيده، لقوم يتفكرون فيها ويستدلون بها على التوحيد.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِنَّهٗ يُخَفِّرُونَ﴾ (٥٣) [النحل: ١٦/٥٣].

وبعد بيان أدلة التوحيد والقدرة الإلهية أمر الله تعالى بمحاسن الأخلاق، فقال:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) أي قل أيها النبي للمؤمنين المصدقين بالله ورسوله: اعفوا واصفحوا وتحملوا أذى هؤلاء المشركين الذين لا يخافون وقائع الله وأنواع عذابه، ليجزي الله أولئك المؤمنين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي منها الصبر على أذى الكفار وكظم الغيظ واحتمال المكروه. وتنكير ﴿قَوْمًا﴾ لتعظيم شأن المؤمنين المذكورين في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ معناه: لا يخشون مثل عذاب الأمم الحالية.

ثم أوضح الله تعالى أن الإحسان والإساءة يعودان على المحسن والمسيء، فقال ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) أي من عمل الأعمال الصالحة التي أمر الله بها وانتهى عما نهى عنه، فلنفسه عمل، ومن اقترف السيئات والمعاصي، فعلى نفسه جنى، ثم تعودون إلى الله يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزىكم عليها خيرها وشرها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - امتن الله تعالى على عباده بما أنعم عليهم من تسخير البحر لجريان السفن فيه بإذنه ومشيئته، ولتحقيق المكاسب ومنافع المتاجر، والغوص على اللؤلؤ والمرجان، واصطياد الأسماك، لكي يشكروه على نعمه.

٢ - وكذلك امتن الله تعالى على العباد بتسخير جميع ما في السماوات وما في الأرض من شمس وقمر ونجوم وكواكب، وجبال وسهول وأنهار ومعادن وزروع وأشجار ونباتات وغيرها، ففي ذلك كله دلائل واضحة على توحيد الله وقدرته.

٣ - الأخلاق الحسنة تابعة للعقيدة الصالحة، لذا بعد أن علم تعالى عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، علمهم محاسن الأخلاق وفضائل الأفعال، فأمر بالعباد والصفح عن المشركين والمنافقين واليهود، ليكون ذلك سبباً لجزاء المؤمنين على ما كسبوا في الدنيا من الأعمال الطيبة. والآية ليست منسوخة بناء على أنها نزلت بالمدينة، أو في غزوة بني المصطلق.

٤ - إن ثواب العمل الصالح، وعقاب العمل السيئ يرجع إلى صاحبه، فينفعه أو يضره في آخرته، وإن جميع الخلائق عائدون إلى ربهم للحساب والجزاء، فالعمل الصالح يعود بالنفع على فاعله، والعمل الرديء يعود بالضرر على فاعله، وأنه تعالى أمر بهذا، ونهى عن ذلك، لحظ العبد، لا لنفع يرجع إليه.

وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح، وزجر عن العمل الباطل.

نعم الدين وإنزال الشرائع

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ يُونُسَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيَّتِهِمْ إِنَّ رَبَّكَ يَفْضِي يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾:

وقرأ نافع (والنبيوة).

الإعراب:

﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بين الفعلين الأول والثاني ما يسمى بطباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي والحكمة النظرية والعملية أو الفهم والقضاء والفصل في الخصومات بين الناس؛ لأنهم

كانوا ملوكاً وحكاماً ﴿وَالنَّبُوءَ﴾ النبوة لموسى وهارون وكثير من الأنبياء؛ إذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم ﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المباحات اللذائذ كالمن والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم البشر، حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم.

﴿يَنْتَبِ مِنْ الْأَمْرِ﴾ دلائل واضحات في أمر الدين، ومنها المعجزات ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر الديني ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيثًا يَنْتَهُمُ﴾ العلم بحقيقة الحال عداوة وحسداً ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بالمؤاخذه والمجازاة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرْعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ طريقة ومنهج من أمر الدين، وأصل الشريعة: مورد الماء، ثم استعير للدين؛ لأن الناس يردون فيه ما تحيا به نفوسهم ﴿فَاتَّبَعَهَا﴾ اتبع شريعتك الثابتة بالحجج ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراء الجهال التابعة للشهوات.

﴿لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ﴾ لن يدفعوا عنك ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي إن جنس الظلم علة موالة بعضهم بعضاً، فلا توالهم باتباع أهوائهم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نصير المؤمنين ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ﴾ معالم للذين يتبصرون بها وجه الفلاح في الأحكام والحدود ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمة من الله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقين.

لِلنَّاسِ:

بعد بيان بعض نعم الله في الدنيا على الناس جميعاً فهي نعم عامة، ذكر تعالى نعم الدين والدنيا على بني إسرائيل فهي نعم خاصة، وبما أن نعم الدين أفضل من نعم الدنيا، بدأ تعالى بتعداد نعمه الدينية عليهم، وأتبعها النعمة العظمى على الإنسانية وهي الشريعة الإسلامية التي لم يبق في الوجود دليل آخر

سواها على صحة مصدريتها من الله سبحانه، فكانت هي البصائر والهدى والرحمة.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَأَوْتَيْنَاهُمْ يَتْنَت مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي تالله لقد أعطينا بني إسرائيل نعماً خاصة، أذكر منها هنا ستاً وهي:

- ١ - إنزال التوراة على موسى عليه السلام التي فيها هدى ونور.
 - ٢ - الفهم والفقه لفصل القضاء والخصومات بين الناس؛ لأنهم جمعوا بين حكم الدين وحكم الدنيا، فجعل الملك فيهم.
 - ٣ - إرسال الرسل إليهم، كموسى وهارون عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء الكثيرين.
 - ٤ - إمدادهم بطيبات الرزق المباحة المستلذة من المأكّل والمشارب كالنّ والسلوى.
 - ٥ - تفضيلهم على عالمي زمانهم من الناس، حيث كثر فيهم الأنبياء، وجمعوا بين الملك والنّبوة، وأوتوا من المعجزات العامة المادية الباهرة، كفلق البحر وتظليل الغمام، والإنجاء من ظلم فرعون وجنوده، فكانوا أرفع درجة وأعلى منقبة بين الشعوب في عصرهم.
 - ٦ - إيتاؤهم الحجج والبراهين والمعجزات والأدلة القاطعة، والأحكام والمواظظ والشرائع الواضحة في الحلال والحرام.
- ومع كل هذا لم يشكروا تلك النعم، بل اختلفوا في أمر الدين، كما قال تعالى:

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ﴾ أي فما وقع الاختلاف بينهم في أمر الدين إلا بعد العلم بحقيقة الحال، وبعد قيام الحجة عليهم، حباً للرئاسة، وعداوة وحسداً وعناداً، وبغياً منهم على بعضهم بعضاً. والخلاف في الأشياء يستتبع القضاء، لذا قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن الله سيفصل بينهم بحكمه العدل يوم القيامة. فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبيّن الحقّ من المبطّل.

وفي هذا تحذير للأمة الإسلامية أن تختلف مثل اختلاف بني إسرائيل، لذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨) أي ثم جعلناك يا محمد على طريقة ومنهاج من أمر الدين يوصلك إلى الحق، فاتبع ما أوحى إليك من ربك، واعمل بأحكام شريعتك المؤيدة بالأدلة الواضحة في أمتك، ولا تتبع ما لا حجة فيه من أهواء الجهال المشركين الذين لا يعلمون توحيد الله وشرائعه لعباده، وهم كفار قريش ومن وافقهم. قال الكلبي: إن رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ وهو بمكة: ارجع إلى ملة آبائك، وهم كانوا أفضل منك وأسنّ، فزجره الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ﴾ الآية، أي لو ملت إلى أديانهم الباطلة لصرت مستحقاً للعذاب، وهم لا يقدرّون على دفعه عنك.

وعلة النهي عن اتباع أهوائهم هي ما قال تعالى:

﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي إن هؤلاء المشركين الجهلة لن يدفعوا عنك من الله شيئاً أراد بك إن اتبعت أهواءهم وخالفت شريعتك. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي وإن هؤلاء

الكافرين ينصر بعضهم بعضاً، فالمنافقون أولياء اليهود في الدنيا، ولكن تنصرهم لا يفيدهم شيئاً في الآخرة، ولا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً؛ والله ناصر المؤمنين الذين اتقوا الشرك والمعاصي، فيخرجهم من الظلمات إلى النور، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. وهذه تفرقة واضحة بين ولاية الله للمتقين، وولاية الظالمين لبعضهم.

ثم بين الله تعالى فضل القرآن الدائم الخالد، قائلاً:

﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢٠) أي هذا القرآن المشتمل على شرائع الله الخالدة إلى يوم القيامة هو دلائل وبراهين للناس جميعاً فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين، وهاج إلى الجنة من عمل به، ورحمة من الله وعذابه في الدنيا والآخرة لقوم من شأنهم الإيقان وعدم الشك بصحته وتعظيم ما فيه.

وإنما خص الموقنين بذلك؛ لأنهم المتفعون به.

فقه الحياة أو الأحكام:

اشتملت الآيات على ما يأتي:

أ - امتن الله تعالى على بني إسرائيل بنعم ست هي التوراة، وفهم الكتاب أو الحكم بين الناس والقضاء في الخصومات، وإرسال كثير من الأنبياء فيهم وهم من عهد يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام، وورزقهم من طيبات الحلال من الأقوات والثمار وأطعمة الشام، وتفضيلهم على عالمي زمانهم، وإيتائهم بينات الأمر، أي دلائل الحق الواضحة، وشرائع الحلال والحرام، والمعجزات الداعية إلى الصديق والإيمان.

أ - لم يقع الخلاف بين بني إسرائيل بإيمان بعضهم وكفر بعضهم إلا بعد

قيام الحجة عليهم، وتعريفهم بحقيقة الحال، وإدراكهم صحة نبوة النبي ﷺ بوثاقهم الدينية وإخبار كتبهم وبشائرهم بنبي آخر الزمان.

وكان خلافهم نابعاً من الأغراض الذاتية، كالحسد والعداوة وحب الرياسة، لا من أجل المصلحة العامة.

وتحذيراً من هذا الخلاف توعدهم الله بقضائه الحاسم وحكمه العادل يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين في الدنيا.

٣ - وبما أن الأمر المختلف فيه عقيدةً وشرعةً لا يصلح للبقاء والاستمرار، أوصى الله نبيه محمداً ﷺ وأمتة والبشرية كلها باتباع شريعة القرآن. والشرعة: ما شرع الله لعباده من أمر الدين. وتلك الشريعة منهاج واضح يؤدي إلى الحق والسعادة والنجاة في الآخرة؛ لأنها تتضمن أوامر الله ونواهيه وحدوده وفرائضه الثابتة ثبوتاً قطعياً لا شك فيه، أما ما قبلها فلم يقيم دليل واحد على صحة ما يتناقله أهلها منها، أو ثبوته ثبوتاً صحيحاً من عند الله تعالى، لضياح التوراة، وكتابة الإنجيل كتابة متأخرة عن تاريخ نزوله على السيد المسيح عليه السلام. فإن فرض ثبوت شيء من شرائع من قبلنا، فلا خلاف في أن الله تعالى جعل الشريعة واحدة في أصولها في التوحيد ومكارم الأخلاق ومصالح الناس، وإنما خالف بينها في الفروع الجزئية لا في الأصول حسبما تقتضي المصلحة في علم الله تعالى.

٤ - قال ابن العربي المالكي الذي يرى كغيره من المالكية أن شرع من قبلنا شرع لنا: ظن بعض من يتكلم في العلم^(١) أن هذه الآية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لأن الله تعالى أفرد النبي

(١) وهو رد على الشافعية الذين يرون أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِنْكُمْ شَرِيعَةٌ وَنَهَانًا﴾ وهذه الآية.

ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر أن النبي ﷺ وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي ﷺ عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء، هل يلزم اتباعه أم لا؟ ولا إشكال في لزوم ذلك^(١)

هـ - إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على قلب نبيه براهين ودلائل ومعالم للناس في الحدود والأحكام، بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعل في سائر الآيات روحاً وحياة، وهو هدى من الضلالة، ورشد وطريق يؤدي إلى الجنة، ورحمة من العذاب في الآخرة لمن آمن واتقى.

جعلنا الله تعالى من القائمين بشرعه، المهتدين بهديه، المخلصين في اتباع أمره ونهيه، الظافرين بفضل الله ورحمته في الآخرة والدنيا.

الفارق بين المحسنين والمسيئين في الحيا والممات

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا هُمْ بِمَحْكُومُونَ ﴿١١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَئِنْ جَزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَشَّىٰ عَيْنَيْهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

القراءات:

﴿سَوَاءً﴾ : قرئ:

١- (سواء) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (سواء) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿عَشْوَةٌ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عَشْوَةٌ).

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: قرئ:

١- (تَذَكَّرُونَ) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَكَّرُونَ) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ «أَنْ» وصلتها: سدت مسد مفعول «حَسِبَ». و«سَوَاءٌ»: حال من ضمير «نَجْعَلَهُمْ» و«نَجَّيْنَهُمْ وَمَمَّائِهِمْ»: مرفوعان بـ «سَوَاءٌ»؛ لأنه بمعنى مستوي ويقرأ بالرفع «سواء» على أنه خبر مقدم، و«نَجَّيْنَهُمْ»: مبتدأ مؤخر، و«وَمَمَّائِهِمْ»: عطف عليه. و«سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» إن كانت «مَا» معرفة، كانت في موضع رفع بـ «سَاءَ» وإن كانت نكرة، كانت في موضع نصب على التمييز.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ «بِالْحَقِّ»: في موضع نصب على الحال، وليست باؤه للتعدية.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يقدر له مفعول ثان بعد قوله ﴿عَشْوَةٌ﴾ أي لرأيت أيهتي.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي من بعد هداية الله.

البلاغة:

﴿نَجَّيْنَهُمْ وَمَمَّائِهِمْ﴾ بينهما طباق. وكذا بين «السَّيِّئَاتِ» و«الصَّالِحَاتِ».

المفردات اللغوية:

﴿أَمْ﴾ الهمزة: همزة الإنكار، وأم منقطعة عما قبلها، أي أبل، والمراد

إنكار الحسابان ﴿أَجْرَحُوا﴾ اكتسبوا ومنه الجارحة: أعضاء الإنسان. ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ الكفر والمعاصي. ﴿أَنْ يَّجْعَلَهُمْ﴾ هذا الضمير وما قبله في ﴿أَجْرَحُوا﴾ للكفار، والمعنى: إنكار أن يستوي الفريقان بعد الممات في الكرامة، أو ترك المؤاخذه، كما استووا في الرزق والصحة في الحياة. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك، فهم في الآخرة في العذاب على خلاف عيشهم وحالهم في الدنيا، أي ساء حكمهم هذا، أو بش شيئاً وحكماً حكمهم هذا، و﴿مَا﴾ مصدرية.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كأنه دليل على الحكم السابق؛ لأن الخلق بالحق يستدعي العدل والتفاوت بين المسيء والمحسن. ﴿وَلِيُجْزِيَ﴾ من المعاصي والطاعات، فلا يساوي الكافر المؤمن، وهي عطف على ﴿بِالْحَقِّ﴾ لأنه في معنى العلة لما سبق، أي ليستدل بذلك على قدرته، وليعدل ويميزي. ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أخبرني. ﴿مَنْ أَمَّا إِلَهُهُمُ هُوَ﴾ ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى من عبادة الحجر؛ لأنه كان يعبد، فإذا رأى أحسن منه رفضه وعبد الآخر، والهوى: ما تهواه نفسه. ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ خذله عالماً بضلاله، وفساد استعداده وحاله قبل خلقه. ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ طبع عليهما بالخاتم بعد كفره، فلم يسمع الهدى والمواعظ، ولم يتفكر في الآيات. ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ ظلمة، فلم ينظر بعين الاستبصار والاعتبار، ولم يبصر الهدى.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ من بعد هداية الله وإضلاله إياه، أي لا يهتدي. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون. وقرئ «تذكرون».

سبب النزول:

نزول الآية (٢١):

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ قال الكلبي: نزلت هذه الآية في علي وحزرة وأبي عبيدة

ابن الجراح رضي الله عنهم، وفي ثلاثة من المشركين: عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَالْوَلِيدُ بن عتبة، قالوا للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أننا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام، وبيّن أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساوياً لحال الكافر العاصي في درجات الثواب، ومنازل السعادات^(١)

نزول الآية (٢٣):

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوْنَهُ﴾: أخرج ابن المنذر وابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: كانت قريش تعبد الحجر حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه، طرحوا الأول وعبدوا الآخر، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوْنَهُ﴾ الآية، وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين؛ لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه.

نزول بقية الآية (٢٣):

﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ قال مقاتل: نزلت في أبي جهل، ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة، ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه صادق، فقال له: مه، وما ذلك على ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس كنا نسّميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله وكمل رشده نسّميه الكذاب الخائن، والله إني لأعلم أنه صادق، قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني أتبع يتيماً أبي طالب من أجل كسرة، والآلات والعزى إن اتبعته أبداً، فنزلت: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾^(٢).

(١) تفسير الرازي: ٢٧/٢٦٦

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/١٧٠

المناسبة:

بعد بيان الفرق بين الظالمين الكافرين وبين المتقين في الولاية، بين الفرق بينهما من وجه آخر وهو الرحمة والثواب في الآخرة، ثم ذكر تعالى دليل التفاوت بين المحسنين والمسيئين وهو خلق الكون بالحق مقتضي للعدل، وجعل الجزاء منوطاً بالكسب والعمل، ثم أخبر تعالى عن المبدء المتبع هواه بأنه موضع تعجب، وأنه لا سبيل إلى هدايته بعد هداية الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢١) أي بل أظن هؤلاء الذين اقتصروا الإثم والشرك والمعاصي في الدنيا، فكفروا بالله ورسله، وعبدوا غيره، أن نجعلهم كالذين صدقوا بالله ورسله، وعملوا الأعمال الصالحة من إقامة الفرائض واجتناب المحارم، بأن نسوي بينهم في الجزاء والثواب والرحمة في دار الدنيا والآخرة، كلا لا يستون، فإن حال أهل السعادة في الآخرة غير حال أهل الشقاوة، لقد ساء ما ظنوا، وبش ما حكموا أن نسوي بين الأبرار الطائعين وبين الفجار العاصين في الدنيا والآخرة. والمعنى: إنكار أن يستوي الفريقان حياة وموتاً؛ لأن المحسنين عاشوا على الطاعة، وإنهم عاشوا على المعصية، ومات أولئك على البشري والرحمة ومات هؤلاء على الضد. وقيل: معناه إنكار أن يستويا في الممات، كما استويا في الحياة من حيث الصحة والرزق، بل قد يكون أحسن حالاً من المؤمن، فالفرق المقتضي لسعادة المؤمن وشقاوة الكافر إنما يظهر بعد الوفاة.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٢) [الحشر: ٢٠/٥٩] وقوله سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣١) [القلم: ٣٥-٣٦] وقوله عز وجل:

﴿أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٢٨) [ص: ٢٨/٣٨] .

وهذا دليل واضح أيضاً على التفرقة في مصير المؤمن الطائع والمؤمن العاصي.

أخرج الطبراني عن مسروق أن تيمماً الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَحْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَنَاهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢٨).

وبعد بيان التفاوت بين المؤمن والكافر في الآخرة والدنيا، أقام الدليل على صحة هذا المبدأ وحكمته، فقال تعالى:

١ - ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي أوجد الله وأبدع السماوات والأرض بالحق المقتضي للعدل بين العباد، فلو لم يوجد البعث والحساب والجزاء، لما كان ذلك الخلق بالحق بل كان بالباطل، ومن العدل: اختلاف الجزاء بين المحسن والمسيء.

٢ - ﴿وَلَنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي خلق الله السماوات والأرض بالحق، ليدل بهما على قدرته، ولكي تجزى كل نفس بما قدمت من عمل صالح أو سيئ، وهم أي المخلوقون لا يظلمون بنقص ثواب أو زيادة عقاب، فلو ترك الظالم الذي ظلم غيره في الدنيا، ولم يقتص منه في الآخرة، لما كان خلق السماوات والأرض بالحق.

فيكون قوله ﴿وَلَنُجْزِيَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ والتقدير: وخلق الله السماوات والأرض لأجل إظهار الحق، ولن تجزى كل نفس، والمعنى أن المقصود من خلق هذا العالم إظهار العدل والرحمة، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة، وحصل التفاوت في الجزاء والدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين.

ثم أبان الله تعالى أحوال الكفار وقبائحهم وسوء جنائياتهم، فقال:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢١) ؟ أي أخبرني عن حال ذلك الكافر الذي أطاع هواه، وترك الهدى، واتخذ دينه ما يهواه، فكأنه جعل الهوى إلهه يعبد من دون الله، فلا يهوى شيئاً إلا تبعه، دون مراعاة لما يحبه الله ويرضاه، فهذا مما يدعو إلى العجب، وكان الحارث بن قيس لا يهوى شيئاً إلا فعله، والعبرة بعموم لفظ الآية، لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله.

وقد أضله الله وخذله مع علمه بالحق، ومعرفته الهدى من الضلال، وقيام الحجة عليه، وطبع على سمعه، حتى لا يسمع الوعظ، وعلى قلبه، حتى لا يفقه الهدى، وجعل غطاء على بصره وبصيرته، حتى لا يبصر الرشد ويدرك آيات الله في الكون التي تدل على وحدانية الله تعالى.

فمن يوفقه للصواب والحق من بعد إضلال الله له بسبب انحرافه واتباعه هواه، أفلا تتذكرون تذكر اعتبار، وتتعظون حتى تعلموا حقيقة الحال؟!!

ونظير مطلع الآية قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ (٢٢) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٢٣﴾ [النازعات: ٧٩/٤٠-٤١] .

ونظير وسط الآية قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٥﴾ [البقرة: ٧/٢٦-٧] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - كما أن هناك فرقاً في الولاية بين المتقين والظالمين، هناك فرق آخر بين المحسنين والمسيئين في الجزاء في الدنيا والآخرة، فالله ولي المتقين وناصرهم في الدنيا والآخرة، والظالمون الكافرون يوالي بعضهم بعضاً في الدنيا، وتنقطع ولاياتهم في الآخرة، والمحسنون المؤمنون سعداء الدنيا والآخرة، والمسيئون الكفار أشقياء في الآخرة، وإن تساوا في الدنيا مع المؤمنين في الصحة والرزق والكفاية، أو كانوا أحسن حالاً من المؤمنين فيها.

٢ - لا بد من التفاوت في الجزاء والدرجات والدركات بين المحسنين والمسيئين، عدلاً من الله؛ لأنه بالعدل قامت السماوات والأرض، ولكي تجزى كل نفس في الآخرة بما كسبت في الدنيا، وهم لا يظلمون فيها بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

٣ - إن اتباع أهواء النفس مذموم دائماً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمّه، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَلِلُوا كَمَلُ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦/٧] وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨/١٨] وقال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩/٣٠] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠/٢٨] وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦/٣٨].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما ذكره النووي في كتاب الحجة للمقدسي عن عبد الله بن عمرو: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» وقال أبو أمامة رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما عُبد تحت السماء إلّه أبغض إلى الله من الهوى». وقال شذاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شذاد بن أوس: «الكَيْس: من دان نفسه وعمل لما بعد الموت،

والفاجر: من أتبع نفسه هواها، وتمتّى على الله» وقال ﷺ فيما أخرجه الترمذي عن أبي ثعلبة الخشني: «إذا رأيت شُحاً مطاعاً، وهوى مُتَّبِعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة» وقال ﷺ فيما أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر، وهو ضعيف: «ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات، فالمهلكات: شُحُّ مطاع، وهوى مُتَّبِع، وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب».

٤ - لا يُضِلُّ الله قوماً إلا بعد أن هداهم وبعد أن أعلمهم وعلمهم، ولا يمنع عنهم فضله ورحمته إلا بسبب جحودهم وظلمهم وكفرهم، ولا يحجب عنهم منافذ الهداية من الاستبصار بنور البصيرة والقلب، والنظر في أسباب الرشد، وسماع المواعظ ليفقه الهدى إلا بعد إعراضهم وعنادهم وغيهم.

قال المفسرون: هذه الآية رد على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه من الاعتقاد وفعل الخير وارتكاب الشر؛ لأن الله تعالى صرح بمنعه إياهم عن الهدى حين أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره، أي فالله هو الخالق لأفعال الإنسان، وليس العبد خالقاً لها، وإنما هو كاسب وآخذ ومختار أيّ الطريقين من الخير أو الشر.

٥ - إن أسباب ضلال المضلين إما اتباع الإنسان ما تدعو إليه نفسه الأمارة بالسوء: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ» وإما تجاهل الحقائق بعد العلم بوجوه الهداية: «وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ» وإما العناد: «فَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ» وإما إنكار البعث باعتقاد ألا حياة إلا هذه: «نُفُوتٌ وَنَحْيًا» [٢٤] وإنكار المبدأ قائلين: «وَمَا يُمِلُّكُمْ إِلَّا التَّهْلُكُ» [٢٤].

وقد أجاب الله على شبهتهم بقوله فيما يأتي من الآيات: «وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ» أي ليس لهم على ما قالوه دليل، وإنماذكروا ذلك ظناً وتحميناً

واستبعاداً، فلا ينبغي لعاقل أن يلتفت إلى قولهم؛ لأن الحجة قامت على نقيض ذلك، وهي دليل المبدأ والمعاد المذكور مراراً، وليس قولهم: ﴿أَتَشَاءُ يَتَابَعَاتَا﴾ [٢٥] من الحجة في شيء؛ لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال، فإنه يمتنع حصوله في الاستقبال^(١).

الدهرية وإنكار البعث وأهوال القيامة

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤ وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَشَاءُ يَتَابَعَاتَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٥ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٦ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ۝٢٧ وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِعَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾

الإعراب:

﴿يُنْتَبِتُ﴾ حال.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِرُ﴾ «وَيَوْمَ» الأول: منصوب بـ ﴿يُحْسِرُ﴾ و﴿يُؤْمِرُ﴾: للتأكيد.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ «كُلُّ» بالرفع: مبتدأ، وخبره: ﴿تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ ويقرأ بالنصب على أنه بدل من «كُلُّ» الأولى، و﴿تُدْعَى﴾ في موضع نصب على الحال، إن جعلت «وَتَرَى» من رؤية العين، أو في موضع المفعول الثاني إذا جعلته من رؤية القلب.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿يَنْطِقُ﴾ حال من (الكتاب) أو من (ذا) ويجوز جعله خبراً ثانياً لـ (ذا). ويجوز جعل ﴿كِتَابُنَا﴾ بدلاً من ﴿هَذَا﴾ و﴿يَنْطِقُ﴾: خبر المبتدأ.

البلاغة:

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ بينهما طباق.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ ﴿يَنْطِقُ﴾: استعارة تصريفية، أي يشهد عليكم بالحق، وهذا أبلغ من شهادة اللسان؛ لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالُوا﴾: أي المشركون منكرو البعث. ﴿مَا هِيَ﴾ أي الحياة. ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي إلا حياتنا التي في الدنيا. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت بعضنا ويحيا بعضنا بأن يولدوا. ﴿وَمَا يَهْلِكُ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي إلا مرور الزمان، والدهر في الأصل: مدة بقاء العالم، مأخوذ من دهره: غلبه. ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ليس لهم بذلك القول من دليل علمي. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا يظنون؛ إذ لا دليل لهم عليه، وإنما قالوه بناء على التقليد.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ من القرآن الدالة على قدرتنا على البعث. ﴿يَسْتَنْتِ﴾ واضحات. ﴿حُجَّتُهُمْ﴾ متشبه. ﴿آتَوْا بِقَابَابِنَا﴾ أحياء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أننا سنبعث، وإنما سماء حجة على حسابهم. ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ نُسْئِلُكُمْ﴾ بناء على ما هو معروف من الحجج. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ﴾ أحياء. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لاشك فيه، فإن من قدر على الابتداء في الخلق قادر على الإعادة؛ لحكمة معروفة هي إقامة العدل التام والجزاء. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة تفكيرهم وقصور نظرهم على المحسوسات أمامهم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعميم أو إعمام للقدرة بعد تخصيصها. ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ الكافرون. ﴿كُلُّ أَثَمٍ﴾ أهل دين ﴿جَائِثَةٍ﴾ بركة على الرُّكْب، أو مجتمعة من الجثوة وهي الجماعة، وقرئ «جاذية» أي جالسة على أطراف الأصابع. ﴿إِلَى كِتَابِهَا﴾ صحيفة أعمالها. ﴿الْيَوْمَ تُحْرَزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك.

﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ ديوان الحفظ الذي كتبناه عليكم؛ وأضافه إلى نفسه لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم. ﴿يَطِئُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان. ﴿نَسْتَنْسِخُ﴾ نستكتب الملائكة، ونثبت ونحفظ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالكم.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٥):

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾: أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، فأنزل الله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾

للناسية:

بعد بيان حجب المشركين عن الوصول إلى الحق والخير، بسبب كفرهم وعنادهم، ذكر الله تعالى بعض مفاصل اعتقاداتهم وهي إنكار البعث، وإنكار الإله القادر، معتمدين على مجرد الظنون والأوهام والتخمينات، والتقليد، مطالبين بإعادة إحياء آبائهم للدلالة على البعث، وتلك شبهة ضعيفة جداً.

فرد الله عليهم بالتنبيه على ما هو الدليل القاطع في الواقع ونفس الأمر، وليس مجرد إثبات الإله بقول الإله، وهو قدرة الله على الإعادة بناء على ثبوت قدرته على الإحياء الأول، ثم عمم تعالى الدليل ببيان قدرته على جميع الممكنات

في السماوات والأرض. ثم ذكر تعالى بعض أهوال يوم القيامة من الجنو على الركب بسبب المخاوف، والاحتكام إلى صحائف الأعمال المسجلة في الدنيا، والشاهدة على أصحابها.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ هذا قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب وأمثالهم في إنكار المعاد أو القيامة، فقال منكرو البعث هؤلاء المشركون: ما الحياة الحاصلة إلا الحياة التي نحن فيها في الدنيا، فليس ثم دار إلا هذه الدار، يموت قوم، ويعيش آخرون، ولا معاد ولا قيامة، وليس وراء ذلك حياة. وهذا تكذيب واضح للبعث، وإنكار صريح للقيامة. وما يمتنا إلا مرور الأيام والليالي، فمرورها هو المضي والمهلك للأنفس، أي بالطبيعة، وهذا إنكار بين للإله الفاعل المختار.

وكان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الدهر هو الفاعل، فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضييم أو مكروه، نسبوا ذلك إلى الدهر، ف قيل لهم: لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر، أي إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تسبونها إلى الدهر، فيرجع السبب إليه سبحانه.

أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار». وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله تعالى هو الدهر» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ الآية.

وذكر محمد بن إسحاق عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يقول الله تعالى: استقرضت عهدي، فلم يعطني، وسبني عهدي، يقول: وادهراه، وأنا الدهر». وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر».

وفسر الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» بقولهم: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال^(١)

ثم فند الله تعالى قولهم مبيناً عدم اعتماده على دليل، فقال:

﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما قالوا هذه المقالة، إلا شاكين غير عالمين بالحقيقة، فلا دليل لهم من نقل أو عقل، وما مستندهم إلا الظن والتخمين من غير حجة أصلاً.

قال الرازي: وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى^(٢)

ثم ذكر تعالى شبهتهم ودليلهم على إنكار البعث قائلاً:

﴿وَإِذَا نُنْفِثُ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنسَوْنَ مَا كَانُوا يَحْجَتُّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتُمْ بِبَابِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إذا تليت عليهم بعض آيات القرآن ووضحت الدلالة على قدرة الله والبعث، واستدل عليهم، وبيّن لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على

(١) تفسير ابن كثير: ١٥١/٤

(٢) تفسير الرازي: ٢٧٠/٢٧

إعادة الحياة إلى الأنفس بعد فنائها، لم يكن لهم حجة إلا طلب إعادة إحياء آبائهم الذين ماتوا، إن كنتم أيها المؤمنون صادقين في إمكان البعث، وأحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً، ليشهدوا لنا بصحة البعث.

وهذا كلام ساقط، فإن البعث يكون بعد نهاية الدنيا، ولا يلزم من عدم حصول الشيء في الحال امتناع حصوله في المستقبل يوم القيامة.

ثم ذكر الله تعالى دليل إمكان البعث قائلاً:

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَارِبِّ فِيهِ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين منكري البعث: إن الله أحياكم في الدنيا، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يجمعكم جميعاً يوم القيامة جمعاً لا شك فيه، فإن الذي قدر على البداة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧/٣٠] ..

وهذا إشارة إلى الآية المتقدمة: وهو أن كونه تعالى عادلاً منزهاً عن الجور والظلم، يقتضي صحة البعث والقيامة.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر الناس وهم مشركو العرب حينذاك ينكرون البعث، من غير تأمل وتدبر وروية، ولا يدركون الحقيقة العلمية، ويقصرون نظرهم على المحسوسات، دون تفكر بالغيبيات، فاستبعدوا قيام الأجساد أحياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَيْنَهُ قَرِيبًا ۖ﴾ [المعارج: ٧٠-٧١]. كذلك لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم.

ثم ذكر الله تعالى دليلاً أعم على قدرته بعد التخصيص، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي إن الله مالك السماوات والأرض، والحاكم فيهما والمتصرف بهما وحده في الدنيا والآخرة، من غير مشاركة أحد من عباده، ولا من الأصنام المعبودة.

وبعد بيان إمكان القول بالحشر والنشر، بدأ تعالى بذكر أحوال القيامة، وأولها ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي ويوم تقوم القيامة يخسر المكذبون الكافرون المتعلقون بالباطل، بدخول جهنم، يظهر خسرانهم في ذلك اليوم، لصيرورتهم إلى النار.

ثم أبان الله تعالى أحوال يوم القيامة قائلاً:

١ - ﴿وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً﴾ أي وتنظر أصحاب كل ملة ودين واحد جاثين على الركب من شدة الخوف والرعب، فالناس لشدة الأمر يجثون بين يدي الله عند الحساب.

٢ - ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي كل أمة تدعى إلى كتابها المنزل على رسلهم، أو إلى صحيفة أعمالها، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشَّهَادَةِ وَالشُّهَدَاءُ وَفُصِّلَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩/٦٩].

٣ - ﴿الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في يوم القيامة يجزيكم الله بما عملتم في الدنيا من خير وشر، تجازون بها من غير زيادة ولا نقص.

٤ - ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هذه صحيفة الأعمال التي أمرنا الملائكة الحفظة بكتابتها، تشهد عليكم، وتذكر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩/٤٩].

إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم وتثبتها وتحفظها عليكم. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين هم في ديوان الأعمال على ما بأيدي

الكتابة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة في القدم على العباد، قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - هذا خبر صريح يتضمن إنكار المشركين والدَّهْرِيَّةِ لِلْآخِرَةِ، وتكذيبهم للبعث، وإبطا لهم للجزاء، مأخوذ من قولهم: ﴿نَوْتُ وَتَحْيَا﴾ أي يموت بعضنا ويحيا بعضنا، أو نموت نحن، وتحيا أولادنا، وما يفنينا إلا السنون والأيام.

٢ - ليس لهم دليل نقلي أو عقلي على إنكار الآخرة، فما هم إلا قوم يتكلمون بالظن والتخمين.

قال القرطبي: وكان المشركون أصنافاً، منهم هؤلاء منكرو البعث، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفاً من المسلمين، فيتأولون ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب خيالات تقع للأرواح بزعمهم، فشرَّ هؤلاء أضرَّ من شر جميع الكفار، لأن هؤلاء يُلبسون على الحق، ويُغترُّ بتلبسهم الظاهر، والمشرِك المجاهر بشركه يحذرهُ المسلم^(١)

٣ - إذا قرئت على المشركين آيات الله المنزلة في جواز البعث لم يكن لهم دفع وحجة أو شبهة إلا أن قالوا: اتنوا بآبائنا الموق نسا لهم عن صدق ما تقولون.

فرد الله عليهم بأن الله يحييكم بعد أن كنتم نُظفاً أمواتاً، ثم يميتكم، ثم

(١) تفسير القرطبي: ١٧٢/١٦

يجمعكم يوم القيامة كما أحياكم في الدنيا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله يعيدهم كما بدأهم، ومن كان قادراً على ذلك، كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهون شيء عليه.

وسمي قولهم حجة على سبيل التهكم، أو لأنه في حسابهم وتقديرهم حجة، أو لأنه أسلوب يراد به: ما كان حجتهم إلا ما ليس حجة. والمراد نفي أن تكون لهم حجة أصلاً.

٤ - ومن أدلته تعالى على قدرته الفائقة وإمكان البعث خلق السماوات والأرض وملكها والتصرف بها، ويوم تقوم القيامة يظهر خسران الكافرين الجاحدين.

٥ - ليوم القيامة أهوال عظام ومخاوف جسام منها:

. أن كل أهل ملة يمحئون على الركب خوفاً من شدة الأمر، قال سلمان الفارسي: إن في يوم القيامة لساعة هي عشر سنين، يجرُّ الناس فيها جُثَاةً على ركبهم، حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي: «لا أسألك اليوم إلا نفسي». ومنها: أن كل أمة تدعى إلى حسابها وكتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر.

ومنها: أن الجزاء على قدر العمل ونوعه من خير أو شر.

ومنها: قطعية الإثبات للأقوال والأفعال، فإن صحائف الأعمال التي تسجلها الملائكة الحفظة على كل إنسان في الدنيا تشهد على أصحابها.

ومنها: المفاجأة بالحقيقة والواقع وهو أن الله كان يأمر ملائكته بنسخ ما يعمل به آدم في الدنيا، قال علي رضي الله عنه: إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم.

جزاء المؤمنين المطيعين وجزاء الكافرين العصاة

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ ٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ٣٤﴾ ذَلِكُمْ بِأَنكُم مُّتَّخِذْتُمْ ءَالِهَتَ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣٧﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ﴾:

وقرأ حمزة (والساعة لاريب).

﴿وَمَاؤُنْكَرُ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وماواكم).

﴿هُزُوعًا﴾: قرئ:

١- (هُزُوعًا) وهي قراءة حفص.

٢- (هُزَاءًا) وهي قراءة حمزة.

٣- (هُزُواً) وهي قراءة الباقيين.

﴿لَا يُخْرِجُونَ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (لا يُخْرِجُونَ).

الإعراب:

﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ «وَالسَّاعَةُ» بالرفع: مبتدأ ومعطوف على موضع ﴿إِنَّ﴾ وما عملت فيه، وقرئ بالنصب عطفاً على لفظ اسم إن، وهو ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾.

﴿قُلْتُ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ «السَّاعَةُ» بالرفع: مبتدأ، و﴿مَا﴾ : خبره، وقرئ بالنصب على أنه مفعول ﴿نَدْرِي﴾ و﴿مَا﴾ : زائدة. و﴿إِنْ نَّظُنُّ﴾ إلا ظناً تقديره: إن نظن إلا ظناً لا يؤدي إلى العلم واليقين. وإنما افتقر إلى هذا التقدير؛ لأنه لا يجوز أن يقتصر على أن يقال: ما قمت إلا قياماً؛ لأنه بمنزلة: ما قمت إلا قمت، وذلك لا فائدة فيه.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بدل من ﴿رَبِّ﴾ الأول.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ» : مبتدأ وخبر مقدم، ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ : حال، أي كائنة.

البلاغة:

﴿أَفَلَمْ تَكُنْ مَّآيَتِي﴾ استفهام توبيخ.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ استعارة تمثيلية، مثل تركهم في العذاب بمن سُجن في مكان ثم نسيه السجن من غير طعام ولا شراب، ووجه الشبه منتزع من متعدد والمراد: نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي؛ لأن الله تعالى لا ينسى.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة، لإهمالهم وعدم العناية بشأنهم.

المفردات اللغوية:

﴿فِي رَحْمَةٍ﴾ في جنته ﴿أَلْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الظفر البين الظاهر؛ لخلوصه عن الشوائب ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ مَائِيَّتِي﴾ أي يقال لهم ذلك، وآياتي: آيات القرآن وما قبله من الكتب المنزلة الثابتة المتضمنة شرائع الله ﴿فَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين: فالجرح: ضد المسلم، فهو المذنب بالكفر.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي قيل للكفار ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده بالبعث وبأنه محيي الموتى من القبور، و﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾: إما الموعود أو المصدر، و﴿حَقٌّ﴾: ثابت كائن لا محالة ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك ﴿إِنْ نَّظُنُّ﴾ ما نظن أو إن نحن إلا نظن ظناً، دخل حرفا النفي والاستثناء لإثبات الظن ونفي ما عداه ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ بمتحققين أن الساعة آتية.

﴿وَبَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ ظهر لهم في الآخرة جزاء أو عقوبات أعمالهم، أو عرفوا مدى قبح أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ نزل أو حل وأحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي الجزاء والعذاب ﴿نَسْنَكُمُ﴾ ترككم في النار ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ تركتم العمل للقاء هذا اليوم، وإضافة اللقاء إلى اليوم: إضافة المصدر إلى ظرفه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ مانعين منه يخلصونكم من أهواله.

﴿أَتَخَذْتُمْ مَائِيَّتَ اللَّهِ هُزُؤًا﴾ استهزأتم بها ولم تفكروا فيها، و﴿مَائِيَّتَ اللَّهِ﴾: القرآن ﴿وَعَرَّيْتُمْ﴾ خدعتمكم ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي زيتها، حتى قلتم: لا بعث ولا حساب ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ الفعل مبني للمجهول، وقرئ بالبناء للمعلوم، ومنها أي من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ﴾ لا يطلب منهم أن يعتبوا بهم بأن يرضوه بالتوبة والطاعة، لفوات الأوان، وعدم النفع يومئذ.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ الشكر والثناء بالجميل على وفاء وعده في المكذبين ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالق هذه الأشياء، والعالم: كل ما سوى الله، وجمع لاختلاف أنواعه. وهذه الأشياء نعمة من الله ودالة على كمال قدرته ﴿الْكِرْيَاءُ﴾ العظمة والسلطان ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغْلَب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قَدَّرَ وقضى.

المناسبة:

بعد بيان أحوال القيامة وأهوالها، أبان الله تعالى أحوال المؤمنين الطائعين وما أعد لهم من الرحمة أي الثواب، وأحوال الكافرين وما أعد لهم من العقاب، والتوبيخ على تفريطهم في الدنيا، وما حل بهم جزاء استهزائهم بالعذاب وانخداعهم بالدنيا، ومعاملتهم معاملة المنسي بتركهم في النار، دون انتظار الخروج منها أو التوبة واسترضاء الله عن الذنوب السالفة.

التفسير والبيان:

هذه الآيات تبين حكم الله في خلقه يوم القيامة، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين، فقال تعالى مبيناً حكم الفريق الأول:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٢٥) أي فأما المصدقون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، والذين عملوا الأعمال الصالحة وهي الخالصة الموافقة للشرع، فيدخلهم ربهم الجنة، وذلك أي الإدخال فيها هو الظفر بالمطلوب، وهو الفلاح والنجاح الظاهر الواضح.

وسمى الثواب رحمة، والرحمة جنة، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى قال للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء».

ثم قال تعالى مبيناً حكم الفريق الثاني وموجئاً إياهم:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٧) أي وأما الذين أنكروا وحدانية الله والبعث، فيقال لهم تقريباً وتوبيخاً، أما قرئت عليكم آيات الله تعالى، فاستكبرتم وأبيتتم الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها واتباعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم، ترتكبون الآثام والمعاصي، وتكذبون في قلوبكم بالمعاد والثواب والعقاب؟ لذا أردف ذلك بقوله:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾ (٣٨) أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار من طريق الرسول ﷺ والمؤمنين: إن وعد الله بالبعث والحساب، وبجميع الأمور المستقبلية في الآخرة حق ثابت، وواقع لا محالة، والقيامة لا شك في وقوعها، فآمنوا بذلك، واعمَلُوا لما ينجيكم من العذاب، قلتم: لا نعرف ما القيامة، إن نتوهم وقوعها إلا توهماً مرجوحاً أو ظناً لا يقين فيه ولا علم، وما نحن بمتحققين ولا موقنين أن القيامة آتية، أي كأنهم نفوا كل الظنون إلا الذي لا ثبوت علم فيه، وأكدوا هذا المعنى بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾.

وبعد هذا التوبيخ والنقاش، ذكر الله تعالى مايفاجؤون به من العذاب:

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٩) أي وظهر لهم قبائح أعمالهم وعقوبة أفعالهم السيئة، وأحاط بهم، ونزل عليهم جزاء أعمالهم بدخولهم النار، وعوقبوا بما كانوا يهزؤون به في دار الدنيا من العذاب والنكال، ويقولون: إنه أوهام وخرافات.

ثم أيأسهم تعالى من النجاة قائلاً:

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَفِيسَتْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ (٤٠) أي ويقال لهم: اليوم نعاملكم معاملة الناسي لكم وكالشيء المنسي الملقى غير المبالي به، فنترككم في العذاب، كما تركتم العمل لهذا اليوم،

ونجاهلتم ما جاء عنه في كتب الله؛ لأنكم لم تصدقوا باليوم الآخر، ومسكنكم ومستقركم الذي تأوون إليه هو النار، وليس لكم من أنصار ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب.

وبذلك جمع الله عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة ألوان هي:

الأول- أنه قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية.

الثاني- أنه جعل مأواهم النار.

الثالث- فقدان الأعوان والأنصار.

ثبت في الصحيح: « أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: ألم أزوجك، ألم أكرمك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك رأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول، أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني ».

ثم ذكر الله تعالى أسباب هذا العقاب أو الجزاء، فقال:

﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٢٥﴾ أي ذلك العذاب الذي وقع بكم بسبب أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً، وخذعتكم الدنيا بزخارفها وزينتها، فاطمأنتم إليها، وظننتم ألا دار غيرها، ولا بعث ولا نشور، فاليوم لا يخرجون من النار، ولا يطلب منهم العتبي بالرجوع إلى طاعة الله، واسترضائه؛ لأنه يوم لا تقبل فيه التوبة، ولا تنفع فيه المعةذرة.

وبعد أن أثبت تعالى قدرته على البعث بدلائل الآفاق والأنفس، وذكر حكمه في المؤمنين والكافرين، أثنى على نفسه بما هو أهل له تعليماً لنا، فقال:

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦) أي الحمد الخالص والشكر الكامل على النعم الكثيرة لله خالق ومالك السماوات، ومالك الأرض، ومالك ما فيها من العوالم المختلفة المخلوقة من إنس وجن وحيوان، وأجسام وأرواح، وذوات وصفات.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧) أي ولله العظمة والجلال والسلطان في أرجاء السماوات والأرض، وهو سبحانه القوي القاهر في سلطانه فلا يغالبه أحد، الحكيم في كل أقواله وأفعاله وشرعه وجميع أفضيته في هذا العالم.

ورد في الحديث القدسي الصحيح عند أحمد ومسلم وأبي داود وابن ماجه عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما، أسكتته ناري».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي:

١ - إن ثواب المؤمنين الذين عملوا صالح الأعمال، فأدوا الفرائض، واجتنبوا المعاصي والمنكرات هو دخول جنات الخلد والنعيم.

٢ - إن جزاء الكافرين الذين أشركوا بالله إلهاً آخر، واقترفوا المعاصي، وتكبروا عن طاعة الله وقبول أحكامه واتباع شرائعه هو دخول نار جهنم.

وهذا يدل على أن استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع.

٣ - يوبخ الكفار ويقرعون على تركهم اتباع آيات الله في قرآنه وكتبه المنزلة على رسله والاستماع إليها.

٤ - إذا قام المؤمنون بتذكير الكفار بوعد الله بالثواب والعقاب وتأکید أن

الساعة آتية لا ريب فيها، أنكروا ذلك وكذبوه، وأجابوا بأننا لا ندرى هل الساعة (القيامة) حق أم باطل؟ وإن نحن إلا نظن ظناً لا يؤدي إلى العلم واليقين، ولسنا متحققين ولا واثقين بأن القيامة آتية، وهؤلاء من المشركين هم الفريق الشاكون بالبعث والقيامة، وهم غير أولئك الفريق المذكورين سابقاً القاطعين بنفي البعث في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

٥ - في الآخرة تنكشف الحقائق وتنجلي الأمور بنحو قاطع، ويظهر لهؤلاء الكفار جزاء سيئات ما عملوا، وقبح جرم ما ارتكبوا، ويحيط بهم إحاطة تامة ما كانوا يستهزئون به من عذاب الله.

٦ - للعذاب ألوان ثلاثة: قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية، وصيرورة مسكنهم ومستقرهم النار، وفقدانهم الأعوان والأنصار.

٧ - يقال لهم: استحقاقهم ألوان العذاب الثلاثة المذكورة بسبب إتيانكم ثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة: وهي الإصرار على إنكار الدين الحق، والاستهزاء به والسخرية منه، والاستغراق في حب الدنيا، والإعراض بالكلية عن الآخرة والوجهان الأول والثاني داخلان في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ والوجه الثالث هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْتُمْ لِحَيَوَاتِ الدُّنْيَا﴾.

٨ - لا خروج إلى الأبد من النار، ولا أمل في استرضاء الله والتوبة والإنابة إليه والاعتذار منه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠/٣٢].

٩ - الحمد والثناء بالجميل كله على الله تعالى الخالق والمالك لكل الكون سمائه وأرضه، وعوالمه، والمتفرد بالعظمة والجلال، والبقاء والسلطان، والقدرة والكمال، والحكمة الباهرة والرحمة والفضل والكرم، وذلك يدل على أنه لا إله للمخلق إلا هو، ولا رب سواه، ولا محسن ولا متفضل إلا هو.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير المنير

في العقيدة والشرعية والمنهج

الجزء الثامن والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

مكية، وهي خمس وثلاثون آية

تسميتها:

سميت (سورة الأحقاف) للحديث فيها عن الأحقاف: وهي مساكن عاد في اليمن الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية بسبب كفرهم وطغيانهم، في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [٢١].

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة هي:

١ - تطابق مطلع السورتين في: ﴿حَمِّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾.

٢ - تشابه موضوع السورتين وهو إثبات التوحيد والنبوة والوحي والبعث والمعاد.

٣ - ختمت السورة السابقة بتوبيخ المشركين على الشرك، وبدأت هذه السورة بتوبيخهم على شركهم، ومطالبتهم بالدليل عليه، وبيان عظمة الإله الخالق المجيب من دعاه، على عكس تلك الأصنام التي لا تستجيب لدعائها إلى يوم القيامة.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السور المكية وهو إثبات أصول العقيدة الإسلامية الثلاثة: وهي التوحيد، والرسالة والوحي، والبعث والجزاء.

بدأت السورة بالحديث عن تنزيل الكتاب وهو القرآن من الله تعالى، وإنما كرر لأنه بمنزلة عنوان الكُتُب (الكتابة) ثم أقامت الأدلة على وجود الإله والتوحيد والحشر، وذمّت المشركين عبدة الأصنام، وردّت عليهم رداً دامغاً مقتنعاً، وأجابت عن شبهاتهم حول الوحي والنبوة.

ثم ذكرت حال فريقين: فريق أهل الاستقامة الذين أقروا بتوحيد الله واستقاموا على ملّته، وأطاعوا والديهم وأحسنوا إليهم، فكانوا أصحاب الجنة، وفريق الكافرين الخارجين عن هدي الفطرة، المنهمكين في شهوات الدنيا، المنكرين البعث والحساب، العاقين لوالديهم، بالشكر للإيمان والمعاد، فكانوا أصحاب النار.

ثم ضربت المثل بقصة هود عليه السلام مع قومه (عاد) الطغاة الذين اغتروا بقوتهم، وأصروا على عبادة الأصنام، فأهلكهم الله بريح عاتية، تدمر كل شيء بأمر ربها، إرهاباً لكفار قريش، وتحذيراً من استبدادهم وتكذيبهم رسول الله ﷺ، وإنذاراً بعذاب مماثل جزاء استهزائهم.

كما ذكّرتهم بإهلاك القرى المجاورة، وبمبادرة الجن إلى الإيمان بما سمعوه من آيات القرآن، ودعوة قومهم إلى إجابة نبي الله والإيمان برسالته، فإن من عاند وأعرض عن إجابة داعي الله، فهو في ضلال مبين.

ثم ختمت السورة بالتأكيد على قدرة الله على البعث؛ لأنه خالق السماوات والأرض، وبأن تعذيب الكافرين بالنار حق كائن لا محالة، وبالتهديد بأحوال

القيامة، وبأن العذاب أو الهلاك لا يكون إلا للقوم الفاسقين الخارجين عن حدود الله وطاعته، فما على الرسول إلا الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وعدم استعجال العذاب.

إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته ووقوع الحشر

والرد على عبدة الأوثان

﴿حَمَّ ١﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٣ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَقُولُ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُكْفِرُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ٦﴾

الإعراب:

﴿تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ مفعول به ثانٍ لـ ﴿أَرُونِي﴾.

البلاغة:

﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ صيغة مبالغة.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ فيه مجازان، حيث أطلق الرؤيا وأراد الإخبار، والعلاقة السببية، واستعمل همزة الاستفهام في الأمر؛ لأن كلاً من الاستفهام والأمر يدل على الطلب، و﴿أَرُونِي﴾ تأكيد لأرأيتهم.

﴿أَتُؤْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ أمر يراد به التعجيز.

﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿وَمَن أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، أي لا أحد أبعد عن الحق وأقرب إلى الجهل ممن يدعو الأصنام من دون الله، فيتخذها آلهة ويعبدها، وهي إذا دعيت لا تسمع.

المفردات اللغوية:

﴿حَمَّ﴾ هذه الحروف المقطعة للدلالة على إعجاز القرآن وتحدي العرب في أنه منظوم من حروفهم الهجائية، وللتنبية على خطورة ما يتلى في السورة ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن الكامل في كل شيء، وإنما كرر مع بداية السورة السابقة لتأكيد مدلول الكتابة ﴿الْفَرِيزِ﴾ القوي القاهر في ملكه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره وصنعه، يضع كل أمر في موضعه ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا خلقاً ملازماً للحق: وهو ما تقتضيه الحكمة والعدل، للدلالة على قدرة الله ووحدانيته، وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم والبعث للجزاء والحساب ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي بتقدير أجل مسمى ينتهي إليه الكل، وهو يوم القيامة ﴿أُنْذِرُوا﴾ خُوفُوا به من العذاب ﴿مُعْرِضُونَ﴾ مدبرون، لا يتفكرون فيه ولا يستعدون له.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني عن حال أهلكم بعد تأمل فيها ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الأصنام ﴿أُرُونِي﴾ أخبروني، وهو تأكيد لما سبق من طلب الإخبار ﴿أَمْ﴾ همزة الإنكار ﴿شِرْكٌ﴾ نصيب ومشاركة ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ مشاركة مع الله في خلق السماوات ﴿أَتُؤْنِي بِكِتَابٍ﴾ منزل ﴿مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ أي القرآن ﴿أَوْ أَثَرَةٍ﴾ بقية ﴿مَّتِّ عَلِيمٍ﴾ يؤثر ويروى عن الأولين بصحة دعواكم في عبادة الأصنام أنها تقربكم إلى الله ﴿صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿وَمَن أَضَلُّ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد ﴿يَدْعُوا﴾ يعبد ﴿مِن دُونِ

اللَّهُ غَيْرُهُ، وَهُمْ الْأَصْنَامُ، لَا يَحْيِيُونَ عَابِدِيهِمْ إِلَى شَيْءٍ يَسْأَلُونَهُ أَبَدًا ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ عَابِدَتِهِمْ﴾ غَفَلُونَ ﴿لَأَنَّهُمْ جُمَادٍ لَا يَعْقِلُونَ أَوْ عِبَادَ مُشْتَغِلُونَ بِأَحْوَالِهِمْ﴾.

﴿حُشِرَ النَّاسُ﴾ جُمِعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿كَانُوا﴾ أَيِ الْأَصْنَامِ ﴿لَهُمْ﴾ لِعَابِدِيهِمْ ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بِعِبَادَةِ عَابِدِيهِمْ ﴿كَافِرِينَ﴾ جَاهِلِينَ.

التفسير والبيان:

﴿حَمَّ﴾ ﴿١١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢﴾ أَيِ إِنَّهُ تَعَالَى كَمَا بَدَأَ سُورَةَ الْجَاثِيَةِ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَهُوَ مَعَ هَذَا التَّنْزِيلِ مُوصُوفٌ بِالْعِزَّةِ الَّتِي لَا يَفُوقُهَا شَيْءٌ، فَهُوَ الْقَوِيُّ الْقَاهِرُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ وَصْنَعِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، يَضَعُ كُلَّ أَمْرٍ فِي مَوْضِعِهِ. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَمَا عَلَى النَّاسِ إِلَّا الْإِيمَانُ بِالْقُرْآنِ وَالتَّصَدِيقُ بِمَا جَاءَ فِيهِ، وَالْإِيمَانُ بِصَدَقِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي نُبُوَّتِهِ، وَفِيمَا دَعَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ، وَإِثْبَاتِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْكَامِلَةِ النَّافِعَةِ.

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿١٣﴾ أَيِ مَا أَوْجَدْنَا وَأَبْدَعْنَا السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَالْأَرْضِ السُّفْلَى وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا خَلْقًا مُلْتَبَسًا بِالْحَقِّ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْمَشِئَةُ الْإِلَهِيَّةُ، وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ، فَلَيْسَ خَلْقُهَا عَبَثًا وَلَا بَاطِلًا.

وَقَدْ خَلَقْنَاهَا إِلَى مَدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مُعَدَّةٍ لَا تَزِيدُ وَلَا تَقْصُصُ، وَهِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمَخْلُوقَاتِ تَنْتَهِي، وَتَتَبَدَّلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ بِغَيْرِهَا.

أما الذين جحدوا بالله، بالرغم من هذه الأدلة، ومن إنزال الكتب، وإرسال الرسل، فهم لاهون عما يراد بهم، مولّون عما حُوفوا به في القرآن من البعث والحساب والجزاء، غير مستعدين له، وسيعلمون غب ذلك وعاقبته.

وبعد إثبات وجود الإله ووقوع الحشر والبعث يوم القيامة، ردّ الله تعالى على عبدة الأوثان بقوله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: أخبروني وأرشدوني عن حال آلهتكم من الأصنام وأصحاب القبور، بعد التأمل في خلق السماوات والأرض وما بينهما، هل استطاعوا الاستقلال بخلق شيء في الأرض، وهل لهم مشاركة في ملك السماوات والتصرف فيها؟.

الواقع أنهم لم يخلقوا شيئاً ولا شركة لهم في السماوات والأرض، فكيف تعبدون مع الله الخالق لكل شيء غيره وتشركون به؟

﴿أَتُنْفِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أحضروا لي دليلاً مكتوباً قبل القرآن مما نزل على الأنبياء كالتوراة والإنجيل يدل على صحة عبادتكم لآلهتكم، أو بقية من علم الأولين والأنبياء السابقين يرشد إلى صحة هذا المنهج الذي نهجتموه، إن كنتم صادقين في ادعائكم ألوهية الأصنام. والمعنى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقلياً على ذلك.

وبعد أن نفى الله تعالى القدرة عن الأصنام في الخلق وغيره، أتبعه بنفي العلم عنهم من كل الوجه، فقال:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ أي لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد من دون الله

أصناماً، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، فإنه دعا من لا يسمع فكيف يطمع في الإجابة؟ والأصنام التي يدعونها غافلون عن دعاها، لا يسمعون ولا يعقلون؛ لكونهم جامادات.

والمعنى: أن الأصنام لا قدرة لها على شيء، ولا علم لديها بشيء، فما هي إلا جاد، وعبادة الجهاد محض الضلال، وهذا يستدعي التوبيخ والتهكم.

وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ تأييد على عادة العرب، أي ما دامت الدنيا.

ثم أكد الله تعالى نفي العلم بعبادة الناس لها بقوله:

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝١﴾ أي وإذا جمع الناس العابدون للأصنام في موقف الحساب، كانت الأصنام لهم أعداء، تتبرأ منهم وتلعنهم، وكانوا جاحدين مكذبين منكرين لعبادتهم، فيخلق الله الحياة في الأصنام فتكذبهم، وتتبرأ الملائكة والمسيح وعزير والشياطين ممن عبدوهم يوم القيامة.

ونظير الآية قوله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مرم: ٨١-٨٢] أي سيكذبونهم ويعادونهم في وقت أحوج ما يكونون إليهم. وقال تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]. [٢٥/٢٩].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات البيّنات إلى ما يأتي:

أ - تأكيد مطلع سورة الجاثية: وهو كون مصدر القرآن من الله العزيز الحكيم، لا من عند محمد ﷺ ولا غيره من العرب أو العجم.

٢ - دلت آية: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾ على أمور ثلاثة: هي إثبات الإله بخلق هذا العالم، وإثبات أن إله العالم عادل رحيم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا لأجل الفضل والرحمة والإحسان، وإثبات البعث والقيامة، إذ لو لم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين، ولتعطل إيفاء الثواب للمطيعين، وإقامة العقاب على الكافرين، وذلك ينافي كون خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق.

٣ - دل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ على أن الكفار معرضون عن هذه الدلائل، غير ملتفتين إليها، وهذا كما ذكر الرازي يدل على وجوب النظر والاستدلال، أي لتكوين العقيدة وتصحيحها، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا.

٤ - بعد إثبات أصول العقيدة الثلاثة المتقدمة، فرّع الله تعالى عنها التفاريع، فرد على عبدة الأصنام بأنها عديمة القدرة على خلق الأشياء، وغير عالمة أصلاً بعبادة الوثنيين لها، وكل من الأمرين ينفي صلاحيتها للعبادة، فهي لا قدرة لها أصلاً على الخلق والفعل، والإيجاد والإعدام، والنفع والضرر، وهي جمادات لا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجات المحتاجين، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه، لم يبق مسوغ للعبادة ببديهة العقل، فهي لا تضر ولا تنفع.

ثم وبخ الله تعالى عبدة الأصنام، وأبان لهم أنه لا أحد أضل وأجهل ممن يعبد الأوثان، وهي إذا دُعيت لا تسمع، ولا يتصور منها الإجابة لا في الحال، ولا بعد ذلك إلى يوم القيامة.

٥ - أرشد قوله تعالى: ﴿أَوْ أَتَمَرَوْا مِنْ عِلْمٍ﴾ إلى جواز الاعتماد على الخط

المكتوب، وكان الإمام مالك رحمه الله يحكم بالخط إذا عرف الشاهد خطه، أو عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه، فيحكم به، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحيل والتزوير، وقد روي عنه أنه قال: «يُحْدِثُ الناس فجوراً، فتحدث لهم أقضية».

ولكن أجاز مالك الأخذ بشهادة الشهود على أن هذا خط الحاكم وكتابه، وكذلك الوصية، أو خط الرجل باعترافه بمال لغيره يشهدون أنه خطه، ونحو ذلك.

٩ - قال ابن العربي: إن الله تعالى لم يُنقِ من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا، فإنه أذن فيها وأخبر أنها جزء من النبوة، وكذلك القال، فأما الطيرة والزجر فإنه نهى عنهما. والقال: هو الاستدلال بما يستمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسناً، فإن سمع مكروهاً فهو تطير، وأمر الشرع بأن يفرح بالقال، ويمضي على أمره مسروراً به. وإذا سمع المكروه أعرض عنه ولم يرجع لأجله، وقال - كما علمه النبي ﷺ «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»^(١).

- ١ -

شبهات المشركين حول الوحي والنبوة والقرآن

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَبِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۖ﴾ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكُمُ إِنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

الإعراب:

﴿يَنْتَبِ﴾ حال.

﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا﴾ تمييز منصوب.

﴿مَا يُفَعَّلُ بِي﴾ ﴿مَا﴾: إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة.

﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ جملة حالية.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ﴾ أَدغمت الدال من ﴿وَشَهِدَ﴾ في الشين من ﴿شَاهِدٌ﴾ لقرب الدال من الشين، كما يجوز إدغام التاء والسين والضاد في الشين، فالتاء كقوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ والسين كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعَلَّ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ والضاد كقوله تعالى: ﴿لِعِضِّ شَأْنِهِمْ﴾. وإنما أَدغمت هذه الأحرف في الشين، ولم يدغم الشين في هذه الأحرف؛ لأنها أزيد صوتاً منها، لما فيها من التفشي.

البلاغة:

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: بمعنى (بل) الإضرابية، والإضراب: الانتقال من معنى لآخر، والهمزة للإنكار.

﴿بِمَا يُفِيضُونَ فِيهِ﴾: استعارة تبعية، استعمل الإفاضة في الأخذ في الشيء والاندفاع فيه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾: بينهما جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل مكة ﴿ءَايَنُنَا﴾ القرآن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ظاهرات ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي آيات القرآن والمعنى في شأن الحق ولأجله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حينما جاءهم من غير نظر وتأمل ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر بطلانه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي بل أيقولون، والهمزة الاستفهامية للإنكار، والمراد: الإضراب عن تسميتهم إياه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع منه وإنكار له وتعجيب ﴿أَفَرَنَّهُ﴾ أي اختلقه وهو القرآن ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَرْتُمْ﴾ على سبيل الافتراض ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئاً﴾ أي إن عاجلني الله بالعقوبة، فلا تقدرون على دفع شيء منها، فكيف أجترئ عليه، وأعرض نفسي للعقاب من غير توقع نفع، ولا دفع ضرر من قبلكم ﴿فَيُفِيضُونَ﴾ تندفعون وتقولون في القرآن من القدر والطعن والتكذيب ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والإنكار، وهو وعيد بالجزاء على إفاضتهم في آيات القرآن ﴿الْعَفْوَ الرَّحِيمُ﴾ الكثير المغفرة والرحمة، وهو وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن، وإشعار مجلم الله، فلم يعاجلهم بالعقوبة.

﴿يَدْعَا﴾ أو بديعاً، أي مبتدعاً ليس له مثال أو سابقة، وقرئ: بدعاً جمع

بدعة ﴿مَنْ أَرْسَلَ﴾ أي لست أول مرسل، فقد سبق قبلي كثيرون منهم، فكيف تكذبونني؟ ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرُ﴾ في الدارين: إذ لا علم لي بالغيب، و﴿وَلَا﴾ لتأكيد النفي، و﴿مَا﴾ إما موصولة منصوبة، أو استفهامية مرفوعة ﴿إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي ما أتبع إلا القرآن الموحى به، ولا أبتدع شيئاً من عندي، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه من الغيوب ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ منذر بين الإنذار بالشواهد والمعجزات عن عقاب الله.

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني عن حالكم ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هو عبد الله بن سلام، وشهادته بما في التوراة من نعت الرسول ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن، أي شهد على مثل ما في القرآن من التوراة من المعاني المصدقة للقرآن المطابقة لها، أو شهد على مثل ذلك وهو كون القرآن من عند الله ﴿فَنَامَنَ﴾ الشاهد ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا دليل على جواب الشرط المحذوف، تقديره: ألستم ظالمين؟

سبب النزول:

نزول الآية (١٠):

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾: أخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عوف بن مالك الأشجعي قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه، دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يُحِطُ الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه، فسكتوا، فما أجابه منهم أحد، ثم انصرف، فإذا رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمد، فأقبل، فقال: أي رجل تعلموني يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم فينا

رجلاً كان أعلم بكتاب الله، ولا أفقه منك، ولا من أهلك قبلك، ولا من جدك قبل أهلك، قال: فإني أشهد أنه النبي الذي تجدون في التوراة، قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه، وقالوا فيه شراً، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ الآية.

وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن سعد بن أبي وقاص قال: في عبد الله بن سلام نزلت، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله. وأخرج ابن جرير والترمذي وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال: «في نزلت» ونزل في: ﴿قُلْ كَفَى يَاللَّهُ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ اللَّهِ الْكِتَابُ﴾ [الرعد: ١٣/٤٣].

الخاصة:

بعد تقرير التوحيد ونفي الأضداد والأنداد، ذكر الله تعالى أمر النبوة وشبهات المشركين حولها وحول القرآن، فأبان أنهم يسمون معجزة القرآن بالسحر، وأنهم متى سمعوا القرآن قالوا: إن محمداً افتراه واختلقه من عند نفسه، ثم أبطل تعالى شبهتهم، فقال: إن افترته على سبيل الفرض، فإن الله تعالى يعاجلني بالعقوبة، وأنتم لا تقدرُونَ على دفع العذاب عني، فكيف أقدم على هذه الفرية، وأعرض نفسي لعقابه؟!

ثم حكى عنهم نوعاً آخر من الشبهات، وهو أنهم كانوا يقترحون عليه معجزات عجيبة، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات، فأجابهم الله تعالى بأن يقول لهم النبي ﷺ: لست بأول رسول أرسله الله، حتى تنكروا إخباري بأنِّي رسول الله إليكم، وتنكروا دعوتي لكم إلى التوحيد، ونهيي عن عبادة الأصنام، فإن كل الرسل إنما بعثوا لهذه الأهداف والغايات، وأنا من جنس الرسل وواحد منهم لا أستطيع ولا أقدر على الإتيان بالمعجزات والإخبار عن المغيبات، فذلك ليس في وسع البشر، وإنما هو بقدرة الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَبْتَدِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) أي إذا تليت على المشركين آيات القرآن حال كونها بيّنة واضحة جلية، قالوا في شأن الحق الذي أتاهم وهو القرآن: هذا سحر واضح وتمويه خادع، فكذبوا به وافتروا، وكفروا وضلوا.

ثم ذكر الله تعالى ما هو أشنع من وصف القرآن بالسحر ورد عليهم، فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْخَرْتُهُ قُلْ إِنْ أَفْخَرْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي بل يقولون: افترى محمد هذا القرآن واختلقه من عند نفسه، كذباً على الله؟ فرد الله تعالى عليهم: قل لهم أيها الرسول: لو افتريته وكذبت على الله على سبيل الفرض والتقدير كما تدعون، وزعمت أنه أرسلني رسولاً إليكم، ولم يكن الأمر كذلك، لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم أن يدفع عقابه عني، فكيف أقدم على هذه الفرية، وأعرض نفسي لعقابه؟

وقوله: ﴿أَمْ﴾ للإنكار والتعجب كما تقدم، كأنه قيل: دع هذا واسمع القول المنكر العجيب.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ لَنْ يُحْيِيَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِذًا﴾ (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ [الجن: ٧٢/٢٢-٢٣]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَلِيزِينَ (٤٧) [الحاقة: ٤٤-٤٧] وذكر هنا:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي الله أعلم بما تقولون في القرآن، وتخوضون فيه، من التكذيب له، والقول بأنه سحر وكهانة، وكفى بالله شاهداً صادقاً يشهد لي بأن القرآن من عنده،

وبالبلاغ لكم، وبالتكذيب والجحود منكم، ومع كل هذا الذي صدر منكم فالله هو الغفور لمن تاب وآمن، وصدَّق بالقرآن، وعمل بما فيه.

وهذا جمع بين الوعيد والتهديد وبين الترهيب والترغيب لهم في التوبة والإنابة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُنْتُمْ فِيهَا تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦].

ثم رد الله على المشركين شبهة أخرى هي اقتراح الإتيان بمعجزات، والإخبار عن مغيبات فقال:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ أَي لست بأول رسول جاء إلى العالم، بل قد بعث الله قبلي كثيراً من الرسل، فما أنا بالأمر المبتدع الذي لا نظير له، حتى تستكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، ولست أعلم ما يفعل بي ولا بكم في مستقبل الزمان في الدنيا وكذا يوم القيامة، هل أبقى في مكة أو أخرج منها؟ وهل أموت أو أقتل، وهل تُعجل لكم العقوبة أيها المكذبون أم تمهلون؟ والمعنى: إني لا أعلم بما لي بالغيب، فأفعاله تعالى وما يقدره لي ولكم من قضاياه لا أعلمها^(١).

﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إنما أتبع الوحي الذي ينزله الله علي في القرآن والسنة، ولا أبتدع من عندي شيئاً، ولست إلا نذيراً لكم أنذركم عقاب الله وأخوفكم عذابه على نحو واضح ظاهر لكل عاقل.

وهذا دليل على أن النبي ﷺ لا يدري ما يؤول إليه أمره وأمر المشركين في دار الدنيا، أما في الآخرة فهو ﷺ جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وذلك في الجملة، ولا يقطع لشخص معين بالجنة إلا الذي نص الشارع على

تعيينهم كالعشرة المبشرين بالجنة^(١)، وابن سلام، والعميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقرءاء السبعين الذين قتلوا بيثر مَعُونَة، وزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رَوَاحَة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم، والدليل على ذلك الحديث التالي:

أخرج أحمد والبخاري عن أم العلاء - وهي امرأة من نساء الأنصار - قالت: «لما مات عثمان بن مَظْعُون، قلت: رحمك الله أبا السائب، شهادتي عليك، لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يفعل بي ولا بكم، قالت أم العلاء: فوالله لا أزكي بعده أحداً» .

وفي رواية الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس: «أنه لما مات قالت امرأته أو امرأة: هنيئاً لك ابن مَظْعُون الجنة، فنظر إليها رسول الله ﷺ نظر مُغْضَب، وقال: وما يدريك؟ والله، إني لرسول الله، وما أدري ما يفعل الله بي، فقالت: يا رسول الله، صاحبك وفارسك وأنت أعلم، فقال: أرجو له رحمة ربي تعالى، وأخاف عليه ذنبه» .

ثم أكد الله تعالى خسارة المشركين قائلاً:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامُنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله في الحقيقة، والحال أنكم قد كفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل العالمين بما أنزل الله في التوراة على صحته وعلى مثله وهو القرآن، أو على مثل ما قلت،

(١) وهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

فَأَمَّنَ الشَّاهِدَ بِالْقُرْآنِ لِمَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَهَذَا الشَّاهِدُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ الَّذِي أَسْلَمَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، ثُمَّ تَكَبَّرْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، فَقَدْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ^(١) وَكُتِمَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ مَعْنَاهُ لَا يُوفِّقُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ، وَهُوَ اسْتِنَافٌ بَيَانِي، تَعْلِيلٌ لَاسْتِكْبَارِهِمْ.

وبعبارة أخرى: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي قد جئتكم به قد أنزله الله علي لإبلاغكم به، وقد كفرتم به وكذبتموه، أَلَسْتُمْ تَكُونُونَ أَضْلَ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمْ؟! أَوِ أَلَسْتُمْ كُتِمَ ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِكُمْ؟ يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْجَوَابُ الْمَحْذُوفُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

والشاهد في رأي أكثر المفسرين هو عبد الله بن سلام، بدليل ما ذكر صاحب الكشف: « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر - أي ابن سلام - إلى وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر، وقال له: إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ:

أما أول أشراط الساعة فتار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد، فإذا سبق ماء الرجل نزعه، وإن سبق ماء المرأة نزعته، فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: أي رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله،

(١) هذا جواب الشرط المحذوف لقوله: ﴿إِنَّ﴾ المفهوم من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ والمفعول الثاني لقوله ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ مقدر، أي أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ؟

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر^(١).
 أما إنكار أن يكون الشاهد هو عبد الله بن سلام؛ لأن إسلامه كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين، وهذه السورة مكية، فالجواب عليه - كما ذكر الكلبي - بأن السورة مكية إلا هذه الآية، فإنها مدنية، وكانت الآية تنزل، فيؤمر رسول الله ﷺ بأن يضعها في سورة كذا، فهذه الآية نزلت بالمدينة، وإن الله تعالى أمر رسول الله ﷺ بأن يضعها في هذه السورة المكية، في هذا الموضع المعين^(٢).

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - عادى مشركو مكة النبي ﷺ، فكذبوا كون القرآن نازلاً من عند الله، وكذبوا النبوة، ووصفوا القرآن بأنه سحر واضح.

ب - ولم يكتفوا بوصف القرآن بأنه سحر، بل قالوا ما هو أشنع من ذلك، قالوا: إن محمداً اختلقه وافتراه من عند نفسه، لا من عند الله.

ج - ردَّ الله عليهم افتراءهم بأنه لو افتراه محمد ﷺ على سبيل الفرض والتقدير لعجل الله له العقوبة في الدنيا، ولم يقدر أحد أن يرد عنه عذاب الله، والله أعلم بما يتقوله ويخوض به من التكذيب هؤلاء المشركون، وكفى بالله شاهداً على أن القرآن من عند الله، وأنه يعلم صدق نبيه وأنهم مبطلون.

وبالرغم من ذلك فالله الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين، فإذا آمن هؤلاء المشركون، غفر لهم ما قد سلف منهم من الذنوب والمعاصي.

(١) الكشف: ١١٩/٣

(٢) تفسير الرازي: ١٠/٢٨

٤ - ليس النبي ﷺ أول رسول يرسل، بل هو خاتم الرسل الكرام، قد كان قبله رسل، فليست دعوته إلى التوحيد، وإنكار عبادة الأصنام، وعدم علمه بالغيب مقصوراً عليه، وتلك دعوة قديمة هي دعوة جميع الرسل.

٥ - النبي ﷺ غير عالم بالغيبيات إلا بطريق الوحي، فلا وجه لطلب إخباره بغمييات لا يعلم بها، فهو لا يدري بما يفعل به ولا بالناس من أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، من الأحكام والتكاليف وما يؤول أمر المكلفين إليه. وبه يعلم أن ما يُدعى من علم بعض الأولياء بالغيب هو أمر باطل وكذب مفترى.

لكن نظراً لأن النبي ﷺ يعلم كونه نبياً، فهي يعلم أنه لا تصدر عنه الكبائر، وأنه مغفور له، وقد تأكد هذا بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢/٤٨] وقوله سبحانه: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ٥/٤٨] وقوله عز وجل: ﴿وَيُنْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٧/٣٣].

٦ - لا نسخ في آية: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ لما ذكر الواحدى وغيره عن ابن عباس: لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء؛ فقصّها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله، متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي لا أدري أأخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا، ثم قال: «إنما هو شيء رأيته في منامي، ما أتبع إلا ما يوحى إليّ» أي لم يوح إليّ ما أخبرتكم به. قال القسيري: فعلى هذا لا نسخ في الآية.

٧ - دلت آية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ على إنذار المشركين الظالمين

بعذاب أليم إذا استمروا في تكذيبهم بالقرآن، وتكبروا عن الإيمان به وعن اتباعه وطاعة الرسول المنزل عليه، بالرغم من شهادة رجل منصف عارف بالتوراة بأن القرآن حق، سواء أكان عبد الله بن سلام أم موسى عليه السلام. وعلى كل حال فهذه الآية بشارة بالنبي ﷺ في التوراة وعلى لسان موسى عليه السلام ولسان علماء بني إسرائيل، فهي كبشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَخَذَ﴾ [الصف: ٦/٦١].

وفي الآية تقديم وتأخير، تقديره: قل: أرأيتم إن كان من عند الله، وشهد شاهد من بني إسرائيل على ذلك، أي على صدق القرآن، فآمن هو، وكفرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، أي الكافرين المعاندين.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تهديد، وهو قائم مقام الجواب المحذوف للشرط: ﴿إِنْ﴾ والتقدير: قل أرأيتم إن كان من عند الله، ثم كفرتم به، فإنكم لا تكونون مهتدين، بل تكونون ضالين.

- ٢ -

شبهات أخرى للكفار

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٍ قَدِيمٌ ۝١١ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانِ عَرِيسٍ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

القراءات:

﴿لِيُنْذِرَ﴾:

وقرأ نافع، والبزي، وابن عامر (لتنذر).

الإعراب:

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ﴿كَتَبَ﴾: مبتدأ، و﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾: خبره، و﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: منصوبان على الحال من الضمير في الظرف، أو من (الكتاب).

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرِيبٍ﴾ ﴿وُسْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾: مبتدأ وخبر، و﴿لِّسَانِ عَرِيبٍ﴾: منصوبان على الحال من ضمير ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أو من (الكتاب) لأنه قد وصف بـ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أو من (ذا) والعامل فيه معنى الإشارة، أي أشير إليه لساناً عريباً، أو أنه عليه لساناً عريباً. ﴿وُسْرَىٰ﴾: إما مرفوع عطفاً على كتاب، أو منصوب على أنه مصدر. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿خَالِدِينَ﴾: منصوب على الحال من ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ والعامل فيها معنى الإشارة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ كقولك: هذا زيد قائماً.

﴿جَزَاءٌ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَزَاءٌ﴾: إما مفعول لأجله، أو منصوب على المصدر المؤكد، أي جوزوا جزاء.

البلاغة:

﴿يُنذِرَ﴾ ﴿وُسْرَىٰ﴾ بينهما طباق.

للفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم قريش، وقيل: بنو عامر وعطقان وأسد وأشجع، لما أسلمت جُهينَةُ ومُزينةُ وأسلمَ وغفار، وقيل: اليهود حين أسلم ابن سلام وصحبه.

﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي لأجلهم وفي حقهم، وقيل: إليهم. ﴿لَوْ كَانُوا﴾ الإيمان. ﴿مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ فهم أناس أدياء؛ إذ عانتهم فقراء وموالي ورعاة. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي حينما لم يهتد القائلون بالقرآن، وإذ للماضي ظرف لمحدوف مثل: ظهر عنادهم. ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي القرآن كذب قديم، مثل قولهم: أساطير الأولين.

﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن. ﴿كِتَابٌ مُّوسَى﴾ التوراة. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ أي القرآن مؤيد لكتاب موسى. ﴿لِّسَنَدَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم مشركو مكة، وهو علة لقوله: ﴿مُصَدِّقٌ﴾ ﴿وَنُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي والقرآن مبشر للمؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على الطاعة، أي جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في أمور الدين والعمل، وقوله ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تأخير رتبة العمل وتوقفه على التوحيد. ﴿فَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه في المستقبل. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات محبوب في الماضي، والفاء في ﴿فَلَا﴾ لتضمن جملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ معنى الشرط. ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية.

سبب النزول:

نزول الآية (١١):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أخرج الطبراني عن قتادة قال: قال ناس من المشركين: نحن أعز، ونحن ونحن، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان، فنزل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله يقال لها (زَيْن) أو (زَيْنرة) فكان عمر يضربها على إسلامها حتى

يفتر، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زين، فأنزل الله في شأنها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾ الآية.

وقال عروة بن الزبير: إن زئيرة - رومية كان أبو جهل يعذبها - أسلمت، فأصيب بصرها، فقالوا لها: أصابك اللات والعزى، فرد الله عليها بصرها، فقال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه زئيرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عباس والكلبي والزجاج: إن الذين كفروا هم بنو عامر وعطفان وعيم وأسد وحنظلة وأشجع، قالوا لمن أسلم من غفار وأسلم وجُهينة ومُزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا إليه رُعاة البهْم؛ إذ نحن أعزّ منهم.

وقال أكثر المفسرين: إن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا - يعني عبد الله بن سلام وأصحابه - : لو كان دين محمد حقاً ما سبقونا إليه.

المناسبة:

هذه شبهة أخرى للقوم: المشركين أو اليهود، في إنكار نبوة محمد ﷺ، تتعلق بإيمان جماعة من الفقراء كعمّار وصهيب وابن مسعود، فقالوا: لو كان هذا الدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء. ثم رد الله تعالى عليهم بأن التوراة دلت على صدق القرآن، وبشرت ببعثة محمد ﷺ.

وبعد تقرير دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المنكرين والإجابة عنها، ذكر تعالى جزاء المؤمنين العاملين عملاً صالحاً، طبقاً لما جاء به القرآن المجيد.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي قال

كفار مكة أو اليهود لأجل إيمان بعض الفقراء والمستضعفين، كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم رضي الله عنهم: لو كان هذا الدين حقاً وكان ما جاء به محمد من القرآن والنبوة خيراً ما سبقونا إلى الإيمان به، ظناً منهم أنهم سباقون إلى المكارم، وأن لهم وجاهة عند الله، وله بهم عناية.

وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً، فإن الله سبحانه يصطفي للنبوة ولدينه من يشاء، والآية كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣/٦] أي يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه كما ذكر الزغشري: لأجلهم، يعني أن الكفار قالو لأجل إيمان الذين آمنوا: لو كان خيراً ما سبقونا إليه. ويصح أن يكون المعنى: وقال الذين كفروا للذين آمنوا، على وجه الخطاب، كما تقول: قال زيد لعمرو، ثم تترك الخطاب وتنتقل إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ [يونس: ٢٢/١٠].

ثم وصف الله تعالى حال أولئك الكفار بعد ذلك القول وأجاب عنه بقوله:

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسْكُوتُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي وحين لم يهتدوا بالقرآن، ظهر عنادهم، وسيقولون بعدئذ: هذا كذب مأثور عن الناس الأقدمين، كما قالوا: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ بقصد انتقاص القرآن وأهله. وهذا هو الكبر الذي قال عنه رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود: «الكبر: بظر الحق، وعَمَص - أو غمط - الناس» أي احتقارهم. وبظر الحق: دفعه ورده.

ثم ذكر الله تعالى دليلاً على صدق القرآن وصحته، فقال:

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا

لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِيَ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ أي ومما يدل على أن القرآن حق وصدق وأنه من عند الله: اعترافكم بإنزال الله التوراة على موسى، الذي هو إمام وقدوة يقتدى به في الدين، وهو رحمة لمن آمن به، وهذا القرآن الموافق للتوراة في أصول الشرائع مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب الإلهية المتقدمة، أنزله الله حال كونه بلغة عربية واضحة فصيحة يفهمونها، من أجل أن ينذر به هذا النبي من عذاب الله الذين ظلموا أنفسهم وهم مشركو مكة، ويشر به المؤمنين الذين أحسنوا عملاً، فهو مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين. وهو ليس إفكاً قديماً كما يزعمون، بدليل توافقه مع التوراة.

وبعد ذكر شبهات المنكرين، ذكر الله تعالى حال المؤمنين وجزاءهم قائلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي إن الذين جمعوا بين التوحيد والاستقامة على منهج الشريعة، لا يخافون من وقوع مكروه بهم في المستقبل، ولا يحزنون من فوات محبوب في الماضي، وجزاءهم ما قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ أي أولئك المؤمنون الموحدون المستقيمون على أمر الله هم أهل الجنة، ماكنين فيها على الدوام، مقابل ما قدموه من أعمال صالحة في الدنيا، أي إن الجزاء بسبب العمل الصالح في الدنيا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن شأن التكبرين المقصرين تسويغ تقصيرهم بآفته الأسباب وأسخف المقالات بدافع الكبر والاستعلاء، لذا قال أهل مكة: لو كان هذا الدين حقاً ما سبقنا إليه هؤلاء العبيد والمستضعفون، وأضافوا إلى ذلك حينما لم يهتدوا

افتراءهم بقولهم: هذا القرآن كذب متوارث، وأساطير الأولين. ومن جهل شيئاً عاداه.

٢ - مما يدل على صدق القرآن وأنه من عند الله توافقه في أصول العقيدة والشرعية مع التوراة كتاب موسى عليه السلام الذي يقرّون بأنه كتاب الله، فهو قدوة ورحمة يؤتم به في دين الله وشرائعه، والقرآن مصدّق للتوراة ولما قبله من كتب الله في أن محمداً ﷺ رسول حقاً من عند الله، وهو بلغة عربية فصيحة بيّنة واضحة لكل من نظر فيه وتأمل، يشتمل على إنذار الكافرين وبشارة المؤمنين.

وكأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة القرآن: أنكم لا تتأزعون في أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام، وجعل هذا الكتاب إماماً يقتدى به، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمقدّم محمد ﷺ، فإذا سلّمتم كون التوراة إماماً يقتدى به، فاقبلوا حكمه في كون محمد ﷺ رسولاً حقاً من عند الله تعالى.

٣ - إن الذين جمعوا بين الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبين الاستقامة على الشريعة في غاية السعادة النفسية والمادية، فهم آمنون مطمّنون مرتاحون لا يعكر صفوهم مخاوف المستقبل ولا أحزان الماضي، وهم خالدون دائمون في جنات النعيم، بسبب ما قدموا من عمل صالح في دار الدنيا.

الوصية ببر الوالدين

- ١ -

وصف الولد البار بوالديه

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلَتُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿إِحْسَانًا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (حُسْنًا).

﴿كُرْهًا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (كَرْهًا).

﴿أَوْزِعْنِي أَنْ﴾:

وقرأ ورش، والبخاري (أَوْزِعْنِي أَنْ).

﴿نَقَبِلُ﴾، ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾: قرئ:

١- (نَتَقَبَّلُ، نَتَجَاوَزُ) وهي قراءة حفص، وحزرة، والكسائي.

٢- (يُتَقَبَّلُ، يُتَجَاوَزُ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ وقرئ: حُسْنًا وَحَسَنًا، وإحسانًا: منصوب على المصدر، أي أن يحسن إحسانًا. وحسنًا: صفة لمفعول محذوف، أي ووصينا الإنسان بوالديه أمرًا ذا حُسْن، وَحَسَنًا: تقديره: فعلاً حسناً.

﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ ﴿ثَلَاثُونَ﴾: خبر مبتدأ الذي هو ﴿وَحَمَلُهُ﴾ وإنما رفع: لأن في الكلام مقدراً محذوفاً، تقديره: وقدّر حمله وفصاله ثلاثون شهراً. وفي هذا ما يدل على أن أقل الحمل ستة أشهر، مراعاة لآية أخرى هي: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣/٢] فإذا أَسْقَطَ حولان من ثلاثين شهراً بقي مدة الحمل ستة أشهر.

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ حال، أي كائنين في جملتهم.

﴿وَعَدَ الصَّدَقِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه.

البلاغة:

﴿حَمَلَتَهُ أُمُّهُ كَرْهًا﴾ بعد قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية بالأم.

﴿حَمَلَتَهُ﴾ ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَوَصَّيْنَا﴾ من التوصية والإيضاء والوصية: وهي الأمر المقترن بضرورة الاعتناء والاهتمام، أي أمرنا ﴿إِحْسَانًا﴾ أن يحسن لهما إحساناً: وهو ضد الإساءة، والحسن ضد القبيح، أي أن يفعل معهما فعلاً ذا حسن ﴿كَرْهًا﴾ مشقة. ﴿وَحَمَلُهُ﴾ مدة حمله. ﴿وَفَصْلُهُ﴾ فطامه، أي المدة القصوى لفطامه من الرضاع ستان، وأقل مدة الحمل ستة أشهر، والباقي أكثر مدة الرضاع. ﴿حَتَّى﴾

إِذَا» غاية لجملة مقدرة، أي وعاش حتى «بَلَغَ أَشُدُّهُ» بلوغ الأشد: كمال العقل والرأي والقوة، وأقله ثلاثون أو ثلاث وثلاثون سنة. «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» أي تمامها، وهو أكثر الأشد، قيل: لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه إذا حط منه للفصال حولان لقوله تعالى: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّيَ الرِّضَاعَةَ» [البقرة: ٢٣٣/٢] بقي ذلك، وبه قال الأطباء. ولعل تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما.

«أَوْزَعَنِي» ألهمني ووفقني ورغبني. «نِعْمَتَكَ» نعمة الدين وغيرها من النعم. «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ» نكر كلمة «صَالِحًا» أي عملاً صالحاً للتعظيم، أو أنه أراد أي عمل أو نوع من جنس الأعمال يحقق رضا الله عز وجل. «وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» اجعل الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم. «أُولَئِكَ» أي قائلو هذا القول. «الَّذِينَ نَنْقُبُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا» أي حسن أعمالهم وطاعاتهم، فإن المباح حسن ولا يثاب عليه وقرئ: (يتقبل). «وَنَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ» لتوبتهم وقرئ: (ويتجاوز). «فِي أَحْصَاءِ الْبَلَائِ» أي كاتنين في عدادهم أو معدودين فيهم. «وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» في الدنيا في قوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ» [التوبة: ٧٢/٩].

سبب النزول:

نزول الآية (١٥):

«حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ»: روى الواحدي عن ابن عباس قال: أنزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه صحب رسول الله ﷺ، وهو ابن ثمان عشرة سنة، ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في التجارة، فتركوا منزلاً فيه سِدْرَة (شجرة السدر) ففقد رسول الله ﷺ في ظلها، ومضى

أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال له: من الرجل الذي في ظل السدرة؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبي، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلا محمد نبي الله، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، وكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضوره، فلما نبي رسول الله ﷺ، وهو ابن أربعين سنة، وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصدق رسول الله ﷺ، فلما بلغ أربعين سنة قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾^(١).

وقال السدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص، أخرج مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه عن سعد رضي الله عنه قال: قالت أم سعد لسعد: أليس الله قد أمر بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب، حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾.

وقال الحسن البصري: (هي مرسله نزلت على العموم). وهذا هو الأول؛ لأن حمل اللفظ على العموم منذ بداية نزول الوحي أوقع وأفيد وأشمل، وإن كانت العبرة دائماً لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

الخاصية:

بعد أن ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين الموحدين المستقيمين على الشريعة، أمر ووصى ببر الوالدين، وأشاد بصفة خاصة بالبرّ والديه بعد بلوغه سن الأربعين، وبشره بقبول أعماله الصالحة، والتجاوز عن سيئاته، وجعله في عداد أصحاب الجنة، وعداً منجزاً لا خُلْف فيه.

(١) أسباب النزول للواحد النيسابوري: ص ٢١٦، تفسير القرطبي: ١٦/ ١٩٤

التفسير والبيان:

﴿وَوَضَّيْنَا لِلْإِنْسَنِ يَدَيْهِ إِحْسَنًا﴾ أي وصيناه وأمرناه أن يحسن إليهما إحساناً في الحياة وبعد الممات بالحنو عليهما وبرهما والإنفاق عليهما عند الحاجة والبشاشة عند لقائهما، كما جاء في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣/١٧] وقوله سبحانه: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤/٣١] .

وجاءت الأحاديث النبوية الكثيرة المؤيدة للقرآن في هذا الأدب العظيم، وجعل بر الأبوين من أفضل الأعمال، وعقوقهما من الكبائر، ووصل البر بعد الوفاة، منها ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس» ومنها ما أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: «يَبْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِيمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِيي شَيْءٌ أَبْرُهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصَلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوَصَّلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا» .

ثم ذكر سبب التوصية وخص الأم لزيادة العناية والاهتمام بها، فقال تعالى:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي حملته في بطنها بمشقة، وولدت بمشقة، فإنها قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحم وغشيان وثقل وكرب، ووضعت بمشقة أيضاً من ألم الطَّلُقِ وشدته، ووجع الولادة ثم الرضاع والتربية، وكانت أيام الوحْم تمتنع من الطعام والشراب، وتعاف كل شيء، مما يستدعي البر بها والإحسان الزائد إليها، كما قال تعالى:

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ أي إن مدة حمله وفطامه ثلاثون شهراً، أي عامان ونصف، عانت فيهما الأم آلام السهر، وعناء الرضاع والغذاء والتنظيف والتربية بمحبة وحنان، دون ضجر ولا سأم.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم أكد من حق الأب؛ لأنها حملته بمشقة ووضعته بمشقة، وأرضعته وحضنته، وعنيت به بتعب وصبر، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك، وإن تعب في الكسب والإنفاق، لذا جاءت الأحاديث النبوية تؤكد بر الأم، وتقدمه بمراتب ثلاث على مرتبة الأب، أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: أُمُّكَ، قال: ثم مَنْ؟ قال: أُمُّكَ، قال: ثم مَنْ؟ قال: أُمُّكَ، قال: ثم مَنْ؟ قال: أبوك».

وفي الآية أيضاً إيماء إلى أن أقل الحمل ستة أشهر (نصف عام) وكان علي رضي الله عنه أول من استدلل بهذه الآية وآية لقمان: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [١٤] وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَتُ يُرَضِّعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣/٢] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن أكثر مدة الرضاع والفطام حولان كاملان، فبقي للحمل من الثلاثين شهراً ستة أشهر.

وهو استنباط صحيح، وافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، روى ابن أبي حاتم ومحمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية عن معمر ابن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جُهيَّة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه، فذكر ذلك له، فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها، بكى أختها، فقالت: وما يبكيك؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط، فيقضي الله سبحانه وتعالى في ما شاء، فلما أتى بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها، فبلغ ذلك علماً رضي الله عنه،

فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماماً لسته أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له علي رضي الله عنه: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجد به بقى إلا ستة أشهر، فقال عثمان رضي الله عنه: والله ما فطنت بهذا، علي بالمرأة، فوجدوها قد فرغ منها^(١)، فقال معمر: فو الله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه، فلما رآه أبوه، قال: ابني والله، لا أشك فيه.

وزوى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا وضعت المرأة لسته أشهر، كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعت لبعة أشهر، كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعت لسته أشهر، فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي حتى إذا قوي وشب وارتجل، فاستحكم عقله وقوته، وذلك بين الثلاثين والأربعين، وتناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه ببلوغ الأربعين سنة. وقوله ﴿حَتَّى﴾ غاية لمخدوف تقديره: فعاش أو طالت حياته حتى إذا بلغ الأشد، أي القوة، وذلك يكون بكمال قوته المادية والعقلية، لذلك قيل: إنه لم يبنأ نبي قبل الأربعين إلا ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي إذا بلغ الأربعين قال: رب ألهمني ووفقني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها علي وعلى والدي من نعمة الهداية إلى الحق والتوحيد وغير ذلك من نعم الدنيا، كسلامة

(١) وفي رواية: أن عثمان رجع عن قوله ولم يجدها، أي أن الأمر تم قبل الحد.

العقل، والصحة والعافية، وسعة العيش، وتمام الخلقة السوية، وحنان الأبوين حين ربياني صغيراً.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ أي ألهمني ووفقني للعمل الصالح الذي ترضاه مني، والعمل الصالح المرضي: هو ما يكون سالماً من غوائل عدم القبول، واجعل الصلاح سارياً في ذريتي^(١)، متمكناً راسخاً فيهم، حتى يكون لهم طبعاً وخلقاً.

﴿إِنِّي نَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي إني تبت وأنبت إليك من جميع الذنوب، والآثام، وإني من المستسلمين لك، المقادين لطاعتك، المخلصين لتوحيدك، الخاضعين لربوبيتك.

قال ابن كثير: وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، ويعزم عليها^(٢)، وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في الشاهد: «اللهم أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَاهْدِنَا سَبِيلَ السَّلَامِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظَّلَمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنُعْمَتِكَ، مُتْنِينَ بِهَا عَلَيْكَ، قَابِلِيهَا، وَأَتَمِّهَا عَلَيْنَا».

ثم ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء الصالحين قائلاً:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١١﴾﴾ أي أولئك الذين هذه طريقتهم، الموصوفون بالصفات المتقدمة التائبون إلى الله المنيبون إليه، هم الذين يكرمهم

(١) أصلح: يتعدى بنفسه، وإنما عدي بالحرف ﴿بِي﴾ هنا لإفادة الرسوخ والسرمان.

(٢) تفسير ابن كثير: ١٥٧/٤ وما بعدها.

الله، فيقبل عنهم ما قدموا من صالح العمل، وأعمال الخير في الدنيا المنسجمة مع أوامر الله، ويعفو عنهم ويغفر لهم سيئاتهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، إذ هي تتلاشى بجانب الحسنات: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ﴾ [مود: ١١/ ١١٤].

وهم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله عز وجل، كما وعد الله من تاب إليه وأتاب، فهو وعد منجز لا تخلف فيه ولا شك في حصوله، وهو الوعد الذي وعدهم الله به في كتبه وعلى لسان أنبيائه، والله مُنْجِزٌ ما وعد.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وجمعه باعتبار أفراد الإنسان الذين تحقق فيهم ما ذكر من الأوصاف من معرفة حقوق الوالدين، والرجوع إلى الله بسؤال التوفيق للشكر، وهو إيذان بأن هذه الأوصاف هي صفات الإنسانية الكاملة.

وقوله: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي حسن ما عملوا، فيشمل الحسن والأحسن.

وقوله: ﴿وَعَدَ الصِّدِّقِ﴾ مصدر مؤكد لما قبله، أي وعد الله أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئتهم وعد الصديق.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إن الإحسان إلى الوالدين فرض في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ والتوصية: الأمر، والأمر يقتضي الوجوب.

٢ - إن سبب وجوب الإحسان إلى الأبوين واضح وهو كونهما كانا سبباً لوجود الأولاد، وتربيتهم وتنشئتهم، وعلى التخصيص الأم التي تعاني من

أجل الولد معاناة شديدة ربما تضحي بحياتها له، فقد حملته بكره ومشقة، ووضعت بكره ومشقة، وسهرت على راحته الليالي الطوال، وعانت في حضانه ورضاعه عناء لا يقدر.

٣ - إن حق الأم كما تقدم بدلالة الآية أعظم من حق الأب؛ لأنه تعالى قال أولاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ فذكرهما معاً، ثم خص الأم بالذكر، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وذلك يدل على أن حقها أعظم، وأن تحملها المشاق بسبب الولد أكثر.

٤ - دلت الآية أيضاً كما تقدم على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثين شهراً، وكان أقصى مدة الرضاع حولين كاملين، بقي أقل مدة الحمل ستة أشهر، بعد إسقاط مدة حولي الرضاع، وهي أربع وعشرون شهراً من الثلاثين. روي عن عمر أن امرأة رفعت إليه، وكانت قد ولدت لستة أشهر، فأمر برجمها، فقال علي: لا رجم عليها، وكذلك روي عن عثمان أنه هم بذلك، فأبان له علي أو ابن عباس ما دلت عليه الآيات كما تقدم، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها.

وروي أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق، وكان حمله وفصاله في ثلاثين شهراً، حملته أمه تسعة أشهر، وأرضعته إحدى وعشرين شهراً.

٥ - ودلت الآية أيضاً على أن أكثر مدة الرضاع ستان، لأنه إذا دلت على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، فإنها تدل على الباقي من الثلاثين شهراً على أن أكثر مدة الرضاع حولان كاملان، وتأييد هذا بآية: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣/٢].

٦ - إن بلوغ الأشد يكون قبل الأربعين سنة، والآية تدل على أن الإنسان يحتاج إلى رعاية الوالدين له إلى مدة قريبة من مدة الأربعين سنة.

٧ - على الإنسان أن يشكر نعمة الله عليه إذا بلغ أربعين سنة، وهي مرحلة كمال العقل والبنية، وأن يطلب من الله تعالى توفيقه للعمل الصالح الذي يرضيه، وأن يجعل الصلاح سارياً في ذريته، راسخاً متمكناً فيهم.

قال علي رضي الله عنه: هذه الآية: ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه! أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره، فأوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده.

ووالده: هو أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم.

وأمه: أم الخير، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد. وأم أبيه أبي قحافة: (قَيْلَة). وامرأة أبي بكر الصديق اسمها (قُتَيْلَة) بنت عبد العُزَّى.

وقال ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾: أجاب الله دعاء أبي بكر، فأعنت تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، منهم بلال وعامر بن فهيرة؛ ولم يدع شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه. ولم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده. ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر. وهذا دليل على استجابة دعاء أبي بكر.

ومن فضائل أبي بكر: ما ذكر في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا، قال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة».

٨ - دلت الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ﴾ على أن الآية التي قبلها:

﴿وَوَضَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ مرسله، نزلت على العموم، وهو قول الحسن كما تقدم، فتشمل أبا بكر وغيره.

٩ - وهذه الآية أيضاً تدل على أن المتصف بالصفات التي قبلها هو أفضل الناس؛ لأن الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله، ويتجاوز عن كل سيئاته، يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم.

وأجمعت الأمة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، لدلالة الآية عليه، وأنه هو أولاً المراد منها، وتنطبق على أمثاله من بعده.

١٠ - وصف الله تعالى هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء هي: أن يوفقه الله للشكر على نعمته، وأن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله، وأن يصلح له في ذريته، وبذلك جمع جوانب السعادة النفسية والبدنية والخارجية. ويلاحظ منها أنه تعالى قدم الشكر على العمل، وأن طلب إلهام الشكر على نعم الله دليل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة الله تعالى، وأنه لا يكفي كون الشيء صالحاً في ظنه، بل يكون صالحاً عنده وعند الله تعالى.

١١ - دل آخر الآية: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ على أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة والإسلام والانقياد لأمر الله تعالى.

- ٢ -

وصف الولد العاق لوالديه منكر البعث

﴿وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَدَيْهِ أَلِى لَكُمْ أَنْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي
وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ
﴿٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ
﴿٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا
فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَفِ﴾ : قرئ:

١- (أَفِ) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (أَفِ) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر.

٣- (أَفِ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿أَنْتَعِدَانِي أَنْ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير (أَنْتَعِدَانِي أَنْ).

﴿وَلِيُوفيَهُمْ﴾ : قرئ:

١- (ليوفيهم) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم.

٢- (وليوفيههم) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿أَذْهَبْتُمْ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن عامر (أأذهبتم).

الإعراب:

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ أَتَدَانِي﴾ «وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ»: في موضع رفع مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: وفيما يتلى عليكم الذي قال لوالديه أو خبره: «أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ». و﴿أَفِ﴾ اسم فعل مضارع مبني على الكسر بمعنى أنضجر. و﴿أَتَدَانِي﴾ بكسر النون، على الأصل في نون الثنية، وهو الكسر، في اللغة المشهورة الفصيحة، وقرئ بالفتح على لغة بعض العرب تشبيهاً لها بنون الجمع، كما كسروا نون الجمع تشبيهاً لها بنون الثنية، حملاً لإحداهما على الأخرى، وقرئ أيضاً بالإدغام.

﴿وَبَلَّكَ ءَامِنَ﴾ «وَبَلَّكَ»: منصوب على المصدر، وهو من المصادر التي لا أفعال لها، وهي ويحك، وويسك، ووبيك. والأجود في هذه المصادر إذا كانت مضافة النصب، والرفع فيها جائز، والأجود فيها إذا كانت غير مضافة الرفع، والنصب جائز فيها.

البلاغة:

﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ بصيغة الحصر.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ فيها استعارة، استعار الدرجات للمراتب.

﴿أَذْهَبْتُمْ طِينَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ إيجاز بالحذف مع التقرير والتوبيخ، أي يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِي﴾ أراد به الجنس من أي قائل، وإن صح نزولها في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قبل إسلامه، فإن خصوص السبب لا يوجب التخصيص. ﴿أَفِ﴾ بكسر الفاء وفتحها، اسم فعل مضارع بمعنى: أتضجر، أو مصدر، أي: نتنأ وقبحاً، والأصل فيه أنه صوت يظهر عند التضجر والتبرم. ﴿لَكُمْ﴾ أتضجر منكما. ﴿أَنْ أُخْرِجَ﴾ أبعث من القبر. ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ مضت الأمم من قبلي ولم يخرج أحد من القبور. ﴿وَهُمَا يَسْتَفْتَيانِ اللَّهَ﴾ يقولان له: الغياث بالله منك، أي من كفرك، إنكاراً واستعظماً له، أي يطلبان الغوث من الله من كفره، أو يطلبان من الله أن يغيثه بالتوفيق للإيمان، أي يسألان الله أن يوفقه للإيمان، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنٌ﴾ بالله وبالبعث. ﴿وَيْلَكَ ءَامِنٌ﴾ أي هلكت، آمن بالبعث، والويل: دعاء بالهلاك والشوز، أو واد في جهنم، والمراد به الحث على الفعل أو تركه حتى لا يهلك، لا حقيقة الهلاك. ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا﴾ أي ما هذا القول بالبعث ﴿إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أكاذيب الأقدمين وأباطيلهم التي سطورها في كتبهم من غير حقيقة.

﴿حَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وجب عليهم الحكم بالعذاب وأنهم من أهل النار، قال البيضاوي: وهو يرّد النزول في عبد الرحمن بن أبي بكر؛ لأنه يدل على أنه من أهلها لذلك، وقد جبّ عنه إن كان لإسلامه. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ تعليل للحكم على الاستئناف، أي إنهم من الذين ضيعوا الفكر والنظر، الشبيه برأس المال، باتباعهم وساوس الشياطين.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي ولكل من الفريقين المؤمن والكافر مراتب ومنازل من جزاء وسبب ما عملوا من الخير والشر، فدرجات المؤمنين في الجنة عالية، ودرجات الكافرين في النار سافلة. والدرجات غالبية في المثوبة والعلو، وجاءت هنا على التغليب، ويقابلها الدرجات في الانخفاض والنزول.

و﴿عَمِلُوا﴾ أي عمل المؤمنون من الطاعات، والكافرون من المعاصي. ﴿وَلِيُوفِيَهُمْ أَفْعَالَهُمْ﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم، وقرئ (ولنوفيهم). ﴿وَهُمْ لَا يَظْمُونُ﴾ شيئاً بنقص ثواب للمؤمنين وزيادة عقاب للكافرين.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي يعذبون فيها، أو تكشف لهم. ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾، فالقول مضمر وتقرأ بهزتين مخففتين، وبهمزة ومدة، وبهمزة وتسهيل الثانية. ﴿طَبَّيْنَكُمْ﴾ لذائذكم وشبابكم وقوتكم. ﴿وَأَسْتَمْتُمْ بِهَا﴾ تمتعتم بها، فما بقي لكم منها شيء. ﴿عَذَابُ الْهُونِ﴾ الهوان والذل. ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تتكبرون. ﴿نَفْسُونَ﴾ أي تخرجون عن طاعة الله، وقرئ بكسر السين. وهذا دليل على أن تعذيبهم بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله تعالى.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧):

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمَا﴾ في عبد الرحمن بن أبي بكر قال لأبويه، وكانا قد أسلما، وأبي هو، فكانا يأمرانه بالإسلام، فيرد عليهما، ويكذبهما ويقول: فأين فلان وأين فلان؟ يعني مشايخ قريش ممن قد مات، ثم أسلم بعد، فحسن إسلامه، فنزلت توبته في هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس مثله.

لكن أخرج البخاري من طريق يوسف بن ماهان قال: قال مروان بن الحكم في عبد الرحمن بن أبي بكر: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمَا﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري.

وأخرج عبد الرزاق من طريق مكي: أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقالت: إنما نزلت في فلان، وسمت رجلاً.

وقال الحافظ ابن حجر: ونفي عائشة أصح إسناداً، وأولى بالقبول.

وقال ابن كثير: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، فقله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه^(١). وقال القرطبي نقلاً عن الزجاج: الصحيح أن الآية نزلت في عبد كافر عاق لوالديه^(٢).

للناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى الولد البار بوالديه وفوزه وتقبل الله عمله، وصف الولد العاق لوالديه هنا وجزاءه المستحق له، ثم أخبر تعالى أن لكل من الفريقين منازل ودرجات عند ربهم: إما رفعة وإما انخفاضاً، وأخبر أيضاً عما يقال للكفار توبيخاً وتقريعاً حين عرضهم على النار: إنكم تمتعتم في الحياة، وتكبرتم عن اتباع الحق، وفسقتم عن طاعة الله، فتُجازون اليوم جزاء ما عملتم ومن أجل ما عملتم.

التفسير والبيان:

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمْ أَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾
هذا عام في كل من قال هذا، إذ قال لأبويه حينما دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر: أف لكما، أي تضجر وتبرم مما تقولانه، أنتما تخبرانني أنني سأبعث من قبري بعد الموت لموعد الله؟ إن هذا البعث بعد الموت لمستبعد

(١) تفسير ابن كثير: ١٥٨/٤

(٢) تفسير القرطبي: ١٩٧/١٦

مستنكر، فقد مضت الأمم السابقة الكثيرة من قبلي، كعاد وعود، ماتوا ولم يبعث منهم أحد، وذهبوا ولم يرجع منهم خبر.

والخلاصة: المراد بالآية الجنس؛ لأن خصوص السبب لا يوجب التخصيص.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ووالداه يسألان الله أن يوفقه للإيمان، ويقولان له: ويلك آمن بالله وبالبعث، أي هلاكاً لك أو هلكت، صدق بوعد الله في اليوم الآخر الذي وعد به خلقه أنه باعثهم من قبورهم، ووعد الله حق لا خُلِف فيه، والمراد بالدعاء عليه: الحث والتحريض على الإيمان، لا حقيقة الهلاك.

﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فيقول هذا الولد مكذباً لما قال والداه، ما هذا الذي تقولانه من البعث إلا أحاديث الأولين وأباطيلهم التي سقروها في الكتب، فما البعث في الحقيقة إلا أمر باطل، لا يقبله العقل، أي في زعمه ووهمه.

ثم ذكر الله تعالى جزاء هذا القائل، فقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَيْرِينَ﴾ أي إن أولئك القائلين هذه المقالة هم الذين وجب عليهم العذاب، واستحقوا غضب الله، في جملة الأمم الكافرة المتقدمة، فهم منضمون في ذلك إليهم، سواء كانوا من الجن أو الإنس الذين كذبوا الرسل؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، لتضييعهم الفكر والنظر الشبيه برأس المال، باتباعهم وساوس الشيطان.

والمراد بالقول: قول الله إنه يعذبهم في جملة أمم قد خلت من قبلهم من

الجن والإنس. وهذا يقتضي أن الجن يموتون قرناً بعد قرن كالإنس^(١). ولعل المراد بالقول هنا قوله سبحانه لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: ٨٥/٣٨). والإشارة بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ للتحقير.

ثم ذكر الله تعالى مراتب كل من الفريقين: المحسن والمسيء، فقال:

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ (١٩) أي ولكل فريق من الفريقين: المؤمنين المحسنين الأبرار، والكافرين الأشقياء المسيئين الأشرار من الجن والإنس مراتب ومنازل عند الله يوم القيامة إما عليا وإما دنيا، من جزاء ما عملوا من الخير والشر، ومن أجل ما عملوا منها، وليوفيهم جزاء أفعالهم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وهم لا يظلمون شيئا بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، ولا يظلمهم الله مثقال ذرة فما دونها.

والدرجات: بمعنى المنازل والمراتب تشمل درجات أهل الجنة العالية، ودرجات أهل النار النازلة، لكنه عبر بالدرجات للتغليب، إذ الثواب درجات والعقاب دركات.

وبعد بيان إيصال الحق لكل أحد، بين الله تعالى أولاً أحوال العقاب وأحوال القيامة التي يتعرض لها الكافرون، فقال:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمْ طَيْبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَنْعَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠) أي واذكر أيها النبي لقومك حين تعرض النار على الكفار، أي يعذبون فيها، أو يوم ينكشف الغطاء، فينظرون إلى النار، ويقربون منها، فيقال لهم تقرعاً وتوبيخاً: استوفيتم وأخذتم لذائذكم في الدنيا، وتمتعتم بها،

باتباع الشهوات واللذات في معاصي الله سبحانه، دون مبالاة بالذنب، وتكذيباً منهم لما جاءت به الرسل من الوعد بالحساب والعقاب والثواب، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظوظكم شيء منها، ففي هذا اليوم تجازون بالعذاب الذي فيه ذلّ لكم، وخزي عليكم، وإهانة، بسبب تكبركم عن عبادة الله والإيمان به وتوحيده، وخروجكم عن طاعة الله وعملكم بمعاصيه.

وهكذا جوزوا من جنس عملهم، فكما متعوا أنفسهم، واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة في دركات جهنم، أعادنا الله منها.

أما الاستمتاع بالطيبات المباحات من غير اعتداء ولا تجاوز الحدود، فهو مباح للمسلم والكافر على السواء؛ لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُخَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝﴾ [المائدة: ٨٧/٥]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢/٧] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - إن حقوق الوالدين من الكبائر، وإن من أكبر الكبائر الإشراك بالله، وإنكار البعث والمعاد.

٢ - إن عاطفة الأبوين الصادقة المتأججة تدفعهما إلى الاستغاثة بالله وسؤاله ودعائه بالهداية لولدهما الكافر منكر البعث، أو الاستغاثة بالله من كفره، وهما يقولان له: ويلك آمن، أي صدّق بالبعث، إن وعد الله صدق لا تخلف فيه، والمراد بالدعاء الحث والتحريض على الإيمان، لا حقيقة الهلاك.

٣ - لم يقابل الولد تلك العاطفة بالتقدير والاحترام، فأجاب والديه: ما هذا الذي تقولانه من أمر البعث وتدعوانني إليه إلا أكاذيب الأولين الأقدمين وأباطيلهم. ولم يكن قوله بلطف وإنما بتضجر وتبرم، وذلك من الكبائر أيضاً.

٤ - كان هذا الولد القائل وأمثاله من الذين حقت عليهم كلمة العذاب، أي وجب عليهم العذاب بكلمة الله: « هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي » مع أمم تقدمت ومضت من قبلهم من الجن والإنس الكافرين، وإن تلك الأمم الكافرة ومن سار في منهجهم كانوا خاسرين لأعمالهم، ضيعوا سعيهم، وخسروا الجنة.

٥ - لكل واحد من فريقي المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم، وليوفيهم الله أعمالهم ولا يظلموا حقوقهم، فلا يزداد على مسيء، ولا ينقص من محسن.

٦ - يقال للكافرين تقريعاً وتوبيخاً حين تقريههم من النار ونظرهم إليها، أو عند تعذيبهم بها: لقد تمتعت بطيبات الدنيا واتبعت الشهوات واللذات، يعني المعاصي، فالיום تجزون عذاب الخزي والفضيحة والهوان، بسبب استعلائكم على أهل الأرض بغير استحقاق، وتكبركم عن اتباع الحق والإيمان، وخروجكم عن طاعة الله بغياً وظلماً.

ويلاحظ أن الاستكبار عن قبول الحق: ذنب القلب، والفسق: عمل الجوارح (الأعضاء).

ويحتج بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأن فسق الكفار يوجب العقاب في حقهم، ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات:

قال المفسرون: والأشياء الطيبة اللذيذة غير منهي عنها؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ

مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ» [الأعراف: ٣٢/٧] ، ولكن التقشف وترك التكلف دأب الصالحين، لئلا يشتغل بغير المهم عن المهم، ولأن ما عدا الضروري لا حصر له، وقد يجزّ بعضه بعضاً إلى أن يقع المرء في حد البعد عن الله تعالى^(١).

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ دخل على أهل الصُّفَّة، وهم يرقعون ثيابهم بالأدَم^(٢)، ما يجدون لها رقاعاً، فقال: «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حُلَّة، ويروح في أخرى، ويُغَدَى عليه بِجَفْنَةٍ، ويُراح بأخرى، ويسرُّ البيت كما تُسرُّ الكعبة؟» قالوا: نحن يومئذ خير، قال: «بل أنتم اليوم خير».

وذكر قتادة عن عمر رضي الله عنه، قال: لو شئت كنت أطيبكم طعاماً، وأحسنكم لباساً، ولكني أستقي طيباتي للآخرة، لأن الله وصف قوماً، فقال: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ».

وعن عمر أن رجلاً دعاه إلى طعام فأكل، ثم قدَّم شيئاً حُلواً فامتنع، وقال: رأيت الله نعى على قوم شهواتهم، فقال: «أَذْهَبْتُمْ» الآية، فقال الرجل: اقرأ يا أمير المؤمنين ما قبلها: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا» ولست منهم، فأكل وسرّه ما سمع.

وفي صحيح مسلم وغيره: أن عمر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ وهو في مَشْرَبته^(٣) حين هجر نساءه، قال: فالتفتُ فلم أر شيئاً يرّد البصر إلا أهباً^(٤) جلوداً معطونة، قد سطع ريحها؛ فقلت: يا رسول الله، أنت رسول

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان للحسن بن محمد النيسابوري النّظام: ١٢/٢٦

(٢) آدم: جمع أديم وهو الجلد.

(٣) المَشْرَبَة: الموضع الذي يشرب منه الناس، والمَشْرَبَة: الغرفة.

(٤) الأهب: جمع إهاب: وهو الجلد.

الله وخيرته، وهذا كشرى وقبصر في الديباج والحرير؟ قال: فاستوى جالساً وقال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا» فقلت: استغفر لي، فقال: «اللهم اغفر له».

والخلاصة: إن الآية للنعي على الكفار الذين يعذبون بالنار، وإن استمتعهم بالطيبات في الدنيا ليحرموا منها في الآخرة، عدلاً من الله وفضلاً ورحمة. وليس في الآية أن كل من أصاب الطيبات المباحات في الدنيا، فإنه لا يكون له منها حظ في الآخرة، والمؤمن يؤدي بإيمانه شكر المنعم، فلا يوبخ بتمتعه بالدنيا.

وعلى كل حال كان السلف الصالح يؤثرون التقشف في الدنيا، ليكون ثوابهم في الآخرة أكمل، أما التمتع بزخارف الدنيا المباحة فليس ممتنعاً، للآيات المتقدمة: ﴿لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧/٥]، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢/٧]. قال الرازي: نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التمتع أولى؛ لأن النفس إذا اعتادت التمتع صعب عليها الاحتراز والانقباض، وحينئذ فربما حمله الميل إلى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغي، وذلك مما يجزئ بعضه إلى بعض، ويقع في البعد عن الله تعالى بسببه^(١).

قصة هود عليه السلام مع قومه عاد

﴿وَإِذْ كُنَّا نَاغِيًا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا
أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ عَنْ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ
عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ كَذَلِكَ
نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِن مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا
وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ
كَانُوا يُجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
مَا هَوَّلَكُمْ مِنَ الْفُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّي أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إِنِّي أَخَافُ).

﴿أَجِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحزة وفقاً (أَجِئْنَا).

﴿وَأُبَلِّغُكُمْ﴾:

وقرأ أبو عمرو (وَأُبَلِّغُكُمْ).

﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ﴾ :

وقرأ نافع، والبزي، وأبو عمرو (ولكني أراكم).

﴿لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ : قرئ:

١- (لا يُرى إلا مساكنهم) وهي قراءة عاصم، وحمة.

٢- (لا ترى إلا مساكنهم) وهي قراءة الباقيين.

الإعراب:

﴿إِذْ أُنذَرَ قَوْمَهُ﴾ ﴿إِذْ﴾ : بدل اشتمال.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِن مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٦﴾﴾ ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ : قد: حرف يقرب الماضي من الحال ويقلل المستقبل. و﴿فِيهَا﴾ أي في الذي و﴿إِن مَكَنَّاكُمْ﴾ تحتل ﴿إِن﴾ وجهين: إما بمعنى (ما) النافية، أو زائدة. ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ : ما: إما نافية، ويؤيده دخول (من) للتأكيد في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أو استفهامية منصوبة بـ ﴿أَغْنَى﴾ والتقدير: أي شيء أغنى هو ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ﴾ : ﴿مَا﴾ فاعل (حَاقَ) وهي مصدرية، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: وحاق بهم عقاب استهزائهم؛ لأن نفس الاستهزاء لا يحل عليهم، وإنما يحل عليهم عقابه.

﴿قُرْبَانًا إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿قُرْبَانًا﴾ : إما منصوب على المصدر، أو مفعول لأجله، أو مفعول ﴿اتَّخَذُوا﴾ و﴿إِلَى اللَّهِ﴾ بدل منه.

﴿وَمَا كَانُوا يَقْتُلُونَ﴾ ﴿وَمَا﴾ : مصدرية، أو موصولة، والعائد محذوف، أي فيه.

البلاغة:

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ ثم قال: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ﴾ من قبيل الإطناب بتكرار اللفظ لزيادة التقييح عليهم.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُوْنَ﴾ توافق الفواصل الذي يزيد في جمال الكلام.

المفردات اللغوية:

﴿أَخَا عَادٍ﴾ هو هود عليه السلام، وعاد قبيلة عربية من إرم: ﴿أَنْذَرُ﴾ خوف. ﴿يَا الْأَحْقَافِ﴾ وإد باليمن فيه منازلهم، بين عُمان ومَهْرَة، وهي في الأصل جمع حَقْف: وهو رمل مستطيل مرتفع معوج فيه انحناء. ﴿خَلَّتِ الْأُنُودُ﴾ مضت الرسل التي تنذر، والنذر جمع نذير أي منذر، والجملة معترضة أو حال. ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من قبل هود ومن بعده. (أَلَا) أي بأن قال: (لا تعبدوا) أو النذر بألا تعبدوا، فإن النهي عن الشيء إنذار بمضرته. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غير الله. ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائل بسبب شرككم.

﴿لِنُؤَفِّكَ عَنْ آلِهَتِنَا﴾ لتصرفنا عن عبادتها. ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعُودُنَا﴾ من العذاب على الشرك. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك أنه يأتينا. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال هود: لا يعلم أحد متى يأتكم العذاب، ولا مدخل لي فيه فاستعجل به، وإنما علمه عند الله، فيأتيكم به في وقته المقدر له. ﴿وَأُتِلَّكُمْ مَا أُزِيلَتْ بِهِ﴾ إليكم، وما على الرسول إلا البلاغ. ﴿وَلَكِنِّي أَرْسَلْتُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ باستعجالكم العذاب ما هو، ولا تعلمون أن الرسل بعثوا مبشرين ومنذرين، لا معذبين مقترحين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي العذاب. ﴿عَارِضًا﴾ سحاباً عرض في أفق السماء.

﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ متوجهاً نحو أوديتهم . ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطَرَأٌ﴾ أي يأتينا بالمطر . ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب . ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ريح مشتملة على عذاب مؤلم ، أي هي ريح ، أو بدل من ﴿مَا﴾ .

﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلك . ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من النفوس والأموال . ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ بإرادته ومشيته ، فأهلك رجالهم ونساءهم وصغارهم وأموالهم . ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جزيناهم نجزي الكافرين . ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَنَّكُمْ فِيهِ﴾ أي لقد جعلنا لهم مكنة وقدرة في الذي جعلناه لكم يا أهل مكة من القوة والمال . ﴿سَمْعًا﴾ أسماعاً . ﴿وَأَفْئِدَةً﴾ قلوباً . ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ﴾ شيئاً من الإغناء ، وقوله : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ : زائدة للتأكيد . ﴿إِذْ كَانُوا﴾ ﴿إِذْ﴾ : معمولة لأغنى ، وفيها معنى التعليل . ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ينكرون . ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ حججه وبراهينه البينة . ﴿وَحَاقَ﴾ نزل . ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي العذاب .

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ أي أهلكنا من جواركم من أهل القرى كثمود وعاد وقوم لوط . ﴿وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا بَيْنَاهَا لَهُمْ﴾ ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ﴾ هلا نصرهم بدفع العذاب عنهم ؟ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ غيره . ﴿قُرْبَانًا﴾ مصدر أو اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى ، من طاعته ﴿إِلَهَةً﴾ معه وهم الأصنام . ﴿ضَلُّوا﴾ غابوا . ﴿عَنْهُمْ﴾ عند نزول العذاب . ﴿وَذَلِكَ﴾ أي اتخاذهم الأصنام إلهة . ﴿إِنكُفُّهُمْ﴾ أي كذبهم ، وقرئ : ﴿أَفكُفُّهُمْ﴾ أي صرفهم . ﴿يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون .

للناسبة:

بعد بيان أدلة التوحيد والنبوة التي أعرض عنها أهل مكة ، بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها ، ذكر الله تعالى قصة قوم عاد للظة والتذكر والعبرة ، فقد أهلكهم الله تعالى بسبب شؤم كفرهم ، مع أنهم

كانوا أكثر أموالاً وقوة وجاهاً من مشركي مكة، ليعتبروا بذلك، ويتركوا الاغترار بالدنيا. ويقبلوا على طلب الدين، فإن ضرب الأمثال الواقعية يستدعي عمق التأمل، وتغيير المواقف، وفيه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب قومه.

التفسير والبيان:

﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ السُّدُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢٦) أي واذكر أيها النبي لقومك أخا عاد: وهو هود عليه السلام الذي كان أخاهم في النسب، لا في الدين، بعثه الله إلى عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأحقاف في حضرموت، جمع حقف: وهو الهضبة من الرمل العظيم، وهو الأصح، أو وادٍ يدعى برهوت، وأعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبل هود ويعدده أنذروا نحو إنذاره ألا يعبدوا غير الله ولا يشركوا معه إلهاً آخر، فإني أخشى عليكم عذاب يوم عظيم الأهوال.

ونظير الآية قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (٢٦) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿[فصلت: ١٣-١٤] .

فأجابه قومه قائلين:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفِِكَكَ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧) أي قال قومه له: هل جئتنا لتصرفنا وتصدنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعوننا إليه، فأتينا بما تعدنا من العذاب العظيم إن كنت صادقاً في قولك ووعدك لنا به على الشرك.

وهذا دليل واضح على أنهم استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، وإنكاراً لحصوله، كقوله سبحانه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِهَآ» [النورى: ١٨/٤٢] . وفيه دلالة على أن الوعد قد يستعمل في موضع الوعيد.

فرد عليهم هود عليه السلام:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَنُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (١٢) أي قال هود: لا علم لي بالوقت الذي يحصل فيه ذلك العذاب، وإنما العلم بوقت مجيئه عند الله تعالى، لا عندي؛ لأنه هو الذي قدره، لا أنا، ولم يخبرني متى سيأتي به، وإنما شأني أن أبلغكم ما أرسلت به إليكم من ربكم من الإنذار والإعذار، والتحذير من العذاب، لا أن آتي به، فليس ذلك في مقدوري، ولكني أراكم قوماً لا تعقلون ولا تفهمون حيث بقيتم مصرّين على الكفر، ولم تهتدوا بما جئتكم به، بل اقترحتم علي ما ليس من شأن الرسل ووظائفهم.

ثم ذكر الله تعالى مقدمات العذاب، فقال:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي حينما رأوا العذاب أو السحاب مستقبليهم ومتجهاً نحو أوديتهم، قالوا: هذا سحاب ممطر، ففرحوا به واستبشروا، وقد حبس عنهم المطر واحتاجوا إليه، فكان مطر عذاب، كما قال تعالى واصفاً جواب هود، أو أنه من قول الله لهم:

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بل هذا هو العذاب الذي طلبتموه بقولكم: ﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعُدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ إنه ريح نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، تحمل بين جوانبها العذاب المهلك المؤلّم. قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد يقال له (المعْتَب).

وضمير ﴿رَأَوْهُ﴾ عائد إلى غير المذكور، بيّنه قوله ﴿عَارِضًا﴾ كما قال تعالى:

﴿مَا تَرَكْ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥/٣٥] ولم يذكر الأرض، لكونها معلومة. فكذا هنا الضمير عائد إلى السحاب، كأنه قيل: فلما رأوا السحاب عارضاً، وهذا أولى، أو أن الضمير عائد إلى ما في قوله: ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعُودُنَا﴾ أي فلما رأوا ما يوعدون به عارضاً.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن عائشة، قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجعماً ضاحكاً حتى أرى منه هَوَاتِهِ^(١)، إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غَيْمًا أو رِيحًا، عُرِفَ ذلك في وجهه، قلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ قال: يا عائشة، وما يُؤْمِنُنِي أن يكون فيه عذاب؟ قد عَذَّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض ممطرنا».

ثم وصف الله تعالى تلك الريح، فقال:

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٥) أي تخرب وتهلك تلك الريح كل شيء مرَّت به من نفوس (عاد) وأموالها مما شأنه الخراب، بإذن الله لها في ذلك، كقوله سبحانه: ﴿مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْزَيْفِ﴾ (٤١) [الذاريات: ٤٢/٥١] أي كالشيء البالي. ولهذا ذكر تعالى أنهم قد بادوا كلهم عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية، وأصبحوا لا يرى من أموالهم وأنفسهم شيء، لكن ترى آثار مساكنهم.

وهذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا، فكما جازينا عاداً بكفرهم بالله بذلك العذاب، نجازي كل مجرم كافر. والمقصود منه تخويف كفار مكة.

أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها

(١) هواته: جمع لُهاة وهي أنفصى سقف الفم.

وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُري عنه، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها، فسألته، فقال رسول الله ﷺ: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿لَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدِيْنِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا﴾» والاختيال: أن يخال في السماء المطر.

وأخرج مسلم أيضاً عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وأهلكك عادٌ بالدَّبُور» والصبا: ريح الشمال، والدبور: ريح الجنوب.

وبعد تخويف كفار مكة وتهديدهم ووعيدهم، وصف الله تعالى قوة عاد قائلاً:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ولقد مكنا قوم عاد والأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد وقوة الأبدان وطول العمر بمقدار لم نجعل لكم مثله ولا قريباً منه، فقد كانوا أشد منكم قوة يا أهل مكة، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأعز جانباً وأمنع سلطاناً وتسليطاً، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٤٠/٨٢].

وإنهم أعرضوا عن قبول الحجة والهداية، بالرغم مما أعطاهم الله من الحواس التي بها تدرك الأدلة، فما نفعهم ما أعطاهم الله من مفاتيح المعرفة والتذكر، ولم يتوصلوا بها إلى التوحيد وصحة الوعد والوعيد، ولم يستعملوا قُدْرَاتِ السمع والبصر والفؤاد في الخير وما خلقت له من شُكْرِ النعم.

ثم ذكر الله تعالى علة عدم انتفاعهم بحواسهم قائلاً:

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لأجل أنهم كانوا يجحدون بآيات

الله، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، حيث قالوا: ﴿فَلَنَّا بِمَا نَعُدُّنَا﴾

فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا.

ثم أكد تعالى ضرورة العظة بأمثال عاد أيضاً من الأمم السالفة المكذبة بالرسل، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧) أي وأهلكنا أيضاً يا أهل مكة ما حولكم من البلاد، من القرى المكذبة بالرسل، مثل قرى ثمود وقرى قوم لوط ومدّين مما جاور بلاد الحجاز، وأهل سبأ باليمن، وكانت في طريقهم يمرون بها في رحلاتهم صيفاً وشتاء، وبيننا الآيات وأوضحناها، وأظهرنا الحجج ونوعناها، لكي يرجعوا عن كفرهم، فلم يرجعوا.

ثم أبان الله تعالى مدى الكرب والشدة بفقد الأعوان والنصراء لدفع عذاب الله، فقال:

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٧٨) أي فهلا نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله لتشفع لهم، ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم، بل غابوا وذهبوا عنهم، ولم يحضروا لنصرتهم وعند الحاجة إليهم، وذلك الضلال والضياح سببه اتخاذهم إياها آلهة، وزعمهم الكاذب أنها تقربهم إلى الله، وتشفع، وافترأؤهم وكذبهم بقولهم: إنها آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

وفي هذا توبيخ لأهل مكة، وتنبيه إلى أن أصنامهم لا تنفعهم شيئاً، فلو نفعت لأغنت من كان قبلهم من الأمم الضالة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - إن قصص القرآن للعبرة والعظة، ومن أكثر القصص تأثيراً قصة قوم عاد بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، لذا أمر الله نبيه أن يذكر لمشركي مكة قصة عاد ليعتبروا بها، وليتذكر في نفسه قصة هود عليه السلام، فيقتدي به، ويهون عليه تكذيب قومه له.

٢ - لقد توالى الإنذارات على عاد من نبيهم هود عليه السلام، ومن الرسل الذين كانوا قبله، وجاؤوا بعده، وتركز في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وفي نبذ الشرك وعبادة الأصنام، فإن الشرك سبب لعذاب عظيم الأهوال.

٣ - قاوم قوم عاد دعوة هود هذه، وقالوا له: أجتنا لتصرفنا عن عبادة ألهتنا؟ فأتنا بالعذاب الذي توعدنا به إن كنت صادقاً في أنك نبي.

٤ - النبي مجرد مبلغ رسالة ربه، فلا يعلم الغيب، لذا قال هود لهم: إنما العلم بوقت مجيء العذاب عند الله، لا عندي، وما شأني إلا أن أبلغكم ما أرسلت به عن ربكم إليكم، وأراكم قوماً تجهلون في سؤالكم استعجال العذاب.

٥ - فوجئ قوم عاد بأمارات العذاب حينما رأوا سحباً معترضاً في السماء والأفق، فظنوا أنه سحب ممطر إياهم، مغيث لهم، ولكنه كان مشتملاً على أداة العذاب، ألا وهي الريح المدمرة، فإن الريح التي عذَّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هود عليه السلام من ديارهم، فكانت الريح تحمل الفسفاط، فترفعها في الجو حتى يرى كأنها جرادة، ثم تضرب بها الصخور.

٦ - إن أعاصير الريح بالسرعة الهائلة دمرت كل شيء مرت عليه من رجال (عاد) وأموالها، بإذن ربها، فلم يبق إلا آثار مساكنهم، ومثل هذه العقوبة يعاقب بها المشركون والكفار في كل زمان ومكان. وما أكثر ما يسمى بالحوادث الطبيعية في هذا العصر من البراكين والزلازل والأعاصير المدمرة.

٧ - إن وسائل التعذيب الربانية يضعف ويصغر أمامها كل الناس سواء أكانوا عتاة طغاة أشداء أم دون ذلك، ولقد أندر الله بهذا العقاب أهل مكة وخوفهم، وأبان لهم أنه أهلك من هو أشد منهم قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، وآثاراً حضارية وعمرانية في الأرض.

٨ - لم يعذب الله قوماً بعذاب الاستئصال إلا بعد أن طغوا وبغوا واستكبروا في الأرض بغير الحق، وعطلوا طاقات المعرفة والهدى، ووسائل التفكير والنظر والتأمل، وإذا عطلوها لم تنفعهم شيئاً من عذاب الله؛ لأنهم كانوا يحددون بآيات الله، ويكفرون بها، فأحاط بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب الإلهي الذي أُنذروا به.

٩ - ضرب الله مثلين واضحين لكفار مكة في هذه الآيات، المثل الأول - قوم عاد، والمثل الثاني - ما حولهم من أهل القرى، كديار ثمود وقرى لوط وبلاد مدين، مما كان يجاور بلاد الحجاز على طريق الشام، وكانت أخبارهم متواترة معروفة عندهم، وكذا أهل سبأ باليمن، وكانوا يمرّون على ديارهم في رحلاتهم بالصيف والشتاء.

١٠ - إن عدل الله مطلق، فإنه تعالى لم يهلك أولئك الأقوام إلا بعد أن أقام لهم الحجج والدلالات، وأنواع البينات والعظات ليرجعوا عن كفرهم، فلم يفعلوا، وأصرّوا على الكفر والعناد.

١١ - لقد بات مؤكداً لمن كان عنده أدنى نظر وتأمل أن الآلهة المزعومة من الأصنام وغيرها لم تنفع عابديها بمنع العذاب عنهم في الدنيا، فكذلك لن

تنفعهم بالشفاعة لهم في الآخرة، حيث قالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨/١٠] فإن تلك الآلهة ضلت وغابت عنهم وقت الشدة والحنة، وهي إفكهم وكذبهم في قولهم: إنها تقربهم إلى الله زلفى، وافترأؤهم بأنها آلهة، أو أن عدم نصره آلهتهم وضلالهم عنهم وقت الحاجة محمول إفكهم وافترائهم، أو عاقبة شركهم وثمرة كذبهم على الله عز وجل.

إيمان الجن بالقرآن

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ۖ﴾ (٢٩) ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۖ﴾ (٣٠) ﴿يَنْقُومُنَا أَجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ﴾ (٣١) ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ﴾ (٣٢)

القراءات:

﴿الْقُرْآنَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمة وقفاً (القرآن).

الإعراب:

﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ الجملة حالية.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ﴾ واذكر حين ﴿صَرَفْنَا﴾ أَمَلْنَا ووجهنا نحوك ﴿نَفَرًا﴾ جماعة ما دون العشرة، جمع أنفار ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ جن نصيين أو جن ينوى، وكانوا سبعة أو

تسعة، وكان ﷺ - فيما رواه الشيخان - بطن نخلة - على نحو ليلة من مكة عند منصرفه من الطائف - يصلي بأصحابه الفجر ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ ورد الفعل جمعاً مراعاة للمعنى ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن أو الرسول ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ قال بعضهم لبعض: أنصتوا أي اسكتوا واستمعوا بإصغاء (قضى) فرغ وانتهى من قراءته، وقرئ: ﴿قُضِيَ﴾ بالبناء للمجهول، والضمير للرسول ﷺ أي فرغ من قراءته، ﴿وَلَوْ﴾ رجعوا ﴿مُنْذِرِينَ﴾ مخوفين قومهم العذاب إن لم يؤمنوا، وكانوا يهودا ثم أسلموا.

﴿سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ هو القرآن ﴿أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ قيل: إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه السلام ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما تقدمه كالتوراة ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ من العقائد وهو الإسلام ﴿وَالْإِلَّهِ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ طريقة سليمة من الشرائع.

﴿أَجِيبُوا دَعَايَ اللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ الذي يدعو إلى الإيمان بالله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ يغفر بعض ذنوبكم وهو ما يكون خالص حق الله تعالى، فإن حقوق الناس ومظالم العباد لا تغفر بالإيمان، وإنما تسقط برضا أصحابها ﴿وَيُجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي يحكمكم من عذاب مؤلم معد للكفار. قال البيضاوي: واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارة على أن لا ثواب لهم، والأظهر أنهم في توابع التكليف كنبى آدم.

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يعجز الله بالهرب منه ولا يفوته ﴿وَلَيْسَ لَكَ﴾ لمن لا يجب ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ دون الله ﴿أَوْلِيَاءُ﴾ أنصار يدفعون عنه العذاب ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين لم يحبوا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ خطأ بين ظاهر.

سبب نزول الآية (٢٩):

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾: أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: إن الجن هبطوا على النبي ﷺ، وهو يقرأ القرآن بطن نخلة، فلما سمعوه، قالوا: أنصتوا،

وكانوا تسعة، أحدهم زَوْبَعَة؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ الآية، إلى قوله: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى أن في الإنس من آمن، وفيهم من كفر، أردفه هنا ببيان أن الجن أيضاً فيهم من آمن وفيهم من كفر، وأن مؤمنهم معرض للثواب، وكافرهم معرض للعقاب، وأن الرسول ﷺ مرسل إلى الإنس والجن معاً.

والملائكة والجن عالمان غيبان غير مرئيين، يجب أن يؤمن المسلم بهما، كما يجب أن يؤمن بأن النبي ﷺ تلقى الوحي من طريق الملائكة، وأنه بلغ رسالته إلى الجن فبشّروهم وأنذروهم، أما كيفية التلقي والتبليغ فغير معروفة لدينا إلا بطريق الأخبار الدينية السمعية النقلية، ولا مجال للعقل في ذلك.

التفسير والبيان:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (١٩) أي واذكر أيها النبي لقومك حين وجهنا إليك يا محمداً نفراً من الجن، وبعثناهم إليك، لهداية قومهم، فلما حضروا القرآن عند تلاوته، أمروا بعضهم بعضاً بالإنصات والإصغاء لكي يسمعوا سماع تدبر وتأمل وإمعان، وكان ذلك ببطن نخلة على بعد ليلة من مكة على طريق الطائف، وكانوا من أشرف جنّ نصيين أو من نينوى بالموصل، بعد عودة النبي ﷺ من الطائف حينما خرج يدعوهم إلى الإسلام.

فلما فرغ من تلاوة القرآن في صلاة الفجر، رجعوا قاصدين إلى قومهم، مخوفين إياهم من مخالفة القرآن، ومخذرين لهم من عذاب الله.

والآية دالة على أنه ﷺ كان مرسلأ إلى الجن والإنس ودلت روايات السنة على أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة في الليلة الأولى، وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسلأ، قومأ بعد قوم، وفوجأ بعد فوج.

من تلك الروايات الدالة على أنه ﷺ لم يشعر بحضورهم: ما ذكر سابقأ عن ابن مسعود في سبب النزول، ومنها ما رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة، فيزيدون فيها عشرأ، فيكون ما سمعوا حقأ، وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض.

وأما ما رواه البخاري ومسلم عن مسروق قال: « سألت ابن مسعود، من أذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن قال: أذنته بهم الشجرة » فهو مؤيد لما سبق، فإنه ﷺ لم يشعر بهم حال استماعهم حتى أذنته بهم الشجرة، أي أعلمته باجتماعهم.

وهناك روايات كثيرة دالة على لقاء النبي ﷺ بالجن وتبليغهم رسالته وتلاوة القرآن عليهم^(١)، منها ما أخرجه أحمد ومسلم في صحيحه عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟! استطير؟! ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في

(١) راجع تفسير ابن كثير: ٤/ ١٦٤-١٦٩

وجه الصبح - أو قال: في السحر- إذا نحن به يجيء من قِبَلِ حِراء، فقلنا: يا رسول الله، فذكروا له الذي كانوا فيه، فقال: «إنه أتاني داعي الجن، فأتيتهم، فقرأت عليهم القرآن» فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم.

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن واقفاً بالحجون» .

وسورة الجن قاطعة الدلالة على استماع الجن القرآن ومطلعها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا ۝٢﴾ [١-٢].

وقال الله تعالى هنا:

﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٠﴾ قالت الجن: يا قومنا الجن: إنا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد توراة موسى، مصدقاً لما قبله من الكتب المنزلة على الرسل، يرشد إلى الدين الحق، وإلى طريق الله القويم في العقائد والعبادات والأعمال والأخبار.

ولم يذكروا عيسى عليه السلام إما لأنه كما قال عطاء: كانوا يهوداً فأسلموا، وإما لأن عيسى أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ ورقائق أدبية إنسانية، وقليل من التحليل والتحرير، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة في التشريع لليهود والنصارى على السواء هو التوراة، فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى.

وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة بدء نزول الوحي

عليه ونزول جبريل عليه السلام أول مرة، فقال: « هذا الناموس ^(١) الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً ^(٢) إذ يخرجك قومك ».

والخلاصة: إنهم خصوا التوراة؛ لأنها مصدر الشرائع والأحكام في الماضي، ولأنها متفق عليها عند أهل الكتاب.

﴿بَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ۝﴾ أي يا قومنا الجن، أجبوا رسول الله خاتم النبيين أو القرآن إلى توحيد الله وعبادته وطاعته، يغفر لكم بعض ذنوبكم التي هي من حقوق الله، أما حقوق العباد فلا تسقط إلا بتنازل أصحابها عنها، وكذلك يحميكم ويقيكم وينقذكم من عذاب موجه مؤلم هو عذاب النار، ويدخل المؤمن منكم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۝﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌكُمْ رِزْقًا تَكُونُونَ ﴿٤٧﴾ [الرحمن: ٤٦-٤٧] .

وفي الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين: الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى، وقرأ عليهم سورة الرحمن التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم.

ولا فرق في الثواب والعقاب والأوامر والنواهي واستحقاق الجنة والنار بين الإنس والجن؛ لأن التكليف واحد، ولأن عموم آيات خطاب الفريقين يشمل كلا منهما، فلا يصح ما ذهب إليه بعض العلماء من أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما يجارون فقط من عذاب النار يوم القيامة. ومما يدل على ذلك أيضاً عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝﴾ [الكهف: ١٠٧/١٨] .

(١) ناموس الرجل: أمين السر، أو صاحب السر الذي يُطلعه على باطن أمره ويخضه بما يستره عن غيره، وأهل الكتاب يسمون جبريل عليه السلام الناموس.

(٢) أي شاباً جلدأ قوياً.

ثم حذروا قومهم من المخالفة، فقالوا:

﴿وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعِجِرٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٦) أي ومن لا يحب رسول الله ﷺ إلى التوحيد وطاعة الله، فلا يفوت الله ولا يسبقه، ولا يفلت منه، ولا يقدر على الهرب منه؛ لأنه في أرض الله، وليس له من غير الله أنصار ينصرونه ويمنعونه من عذاب الله، أولئك الذين لا يجيبون داعي الله في خطأ ظاهر واضح.

هذا تهديد ووعيد، وبذلك جمعوا على وفق نهج القرآن بين الترغيب والترهيب، ولهذا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن المقصود من الآيات توبيخ مشركي قريش على عدم إيمانهم؛ فإن الجن سمعوا القرآن، فآمنوا به، وعلموا أنه من عند الله، فما بالكم أيها المشركون وأمثالكم تعرضون وتصرون على الكفر؟!

٢ - وهناك قصد آخر وهو تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من صدود قومه عن دعوته، حتى أنه ذهب إلى الطائف لدعوة ثقيف وأهلها إلى الإسلام، فسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم، فرموه بالحجارة وأدموه، فاتجه داعياً إلى الله في خشوع وتضرع واستنصار قائلاً - كما روى محمد بن إسحاق في سيرته - : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، ورب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلي؟ إلى عدو بعيد يتجهمني^(١)، أم إلى صديق قريب ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي.

(١) أي يلقاني بالغلظة والشدّة والوجه الكريه.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك، أو يحل بي سخطك، ولك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

٣ - وفي عودته ﷺ من الطائف حينما كان يصلي الفجر أو قيام الليل في موضع يسمى «بطن نخلة» من ضواحي مكة، جاءه وفد من الجن سبعة أو تسعة من جن نصيبين أو من زينوى بالموصل، فاستمعوا إلى تلاوته القرآن، وهو لا يشعر بهم، فكانت هذه الآيات تطيباً لخاطره، وشد عزيمته وتقوية روحه.

٤ - كان أدب الجن عظيماً حين سماعهم القرآن، فينبغي التأسي بهم، فإنهم لما حضروا القرآن واستماعه أو حضروا النبي ﷺ، قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن، فلما فرغ النبي ﷺ من تلاوة القرآن، انصرفوا قاصدين من وراءهم من قومهم من الجن، منذرين لهم مخالفة القرآن، ومحذرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا.

٥ - دلت هذه القصة على أن النبي ﷺ مرسل مبعوث إلى الإنس والجن معاً، وعلى أنهم آمنوا به، وأنه بعد علمه بهم، أرسلهم في الليلة الثانية إلى قومهم، بدليل قولهم: ﴿يَقُومَنَّ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ ولولا ذلك لما أنذروا قومهم، فتكون ليلة الجن ليلتين.

٦ - لقد وصفوا القرآن بوصفين:

الأول- كونه مصداقاً لما بين يديه، أي مصداقاً لكتب الأنبياء المشتعلة على الدعوة إلى التوحيد والنبوة والمعاد والأمر بمحاسن الأخلاق.

الثاني- قوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الْبَحْرِ وَالْإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى دين الحق، ودين الله القويم.

وهذا يدل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس، قال مقاتل: ولم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ.

ويؤكد عموم دعوته ما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ لِي أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبَعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَبِيعَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنَصِرْتُ بِالرَّعْبِ بَيْنَ يَدَيِ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ». قال مجاهد: الأحمر والأسود: الجن والإنس.

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة: «وبعثت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون».

٧ - أمر الجن قومهم بإجابة النبي ﷺ في كل ما أمر به، ومنه الأمر بالإيمان، فإن آمنتم بالداعي، وهو محمد ﷺ يغفر لكم بعض ذنوبكم، وينقذكم من عذاب مؤلم موجع. قال ابن عباس: فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً، فرجعوا إلى النبي ﷺ، فوافقوه بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن، وأمرهم ونهاهم.

وبلاحظ أنهم حين عمموا الأمر بإجابة الداعي خصصوه بقولهم: ﴿وَأَمِنُوا بِهِ﴾ لأن الإيمان أشرف أقسام التكليف. وخصصوا المغفرة ببعض الذنوب؛ لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كالمظالم.

٨ - دلت هذه الآية على أن الجن كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب، وقال الحسن البصري: ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار، وكذا قال أبو حنيفة؛ ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم: كونوا تراباً مثل البهائم. وقد أجبت عن هذا في تفسير الآيات، لذا ذهب مالك والشافعي وابن أبي ليلى والضحاك إلى أن الجن كما يعاقبون في الإساءة، يجازون في الإحسان مثل الإنس. قال القشيري: والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه شيء، والعلم عند الله. وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ

دَرَجَتْ مِمَّا عَمِلُوا» [الأنعام: ١٣٢/٦] يدل على أنهم يثابون ويدخلون الجنة؛ لأنه قال في أول الآية: «يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ النَّارُ بِأَنَّهُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنبَغِي» [الأنعام: ١٣٠/٦] إلى أن قال: «وَلِكُلِّ دَرَجَتْ مِمَّا عَمِلُوا»^(١). وقال النيسابوري: «والصحيح أنهم في حكم بني آدم، يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون»^(٢).

٤ - إن من لا يجب رسول الله ﷺ ليس بمعجز لله في الأرض فلا يفوته ولا يسبقه ولا يهرب منه، وليس له من دون الله أنصار يمنعونه من عذاب الله، وهو من الضالين المخطئين في ضلال واضح.

إثبات البعث والأمر بالصبر

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّرْ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٢٢) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٢٣) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فُهِلَ بِهَذَا إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٢٤)

الإعراب:

«يَقْدِرُ»: دخلت الباء لدخول حرف النفي في أول الكلام، فهو في قوة: أليس الله بقادر، كما دخلت في قوله تعالى: «مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ» [البقرة: ١٠٥/٢] وقادر: خبر «أَنْ»

(١) تفسير القرطبي: ٢١٧/١٦ وما بعدها.

(٢) غرائب القرآن: ١٧/٢٦.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾: منصوب بتقدير فعل، أي واذكر يوم يعرض.

﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ﴾ فيه محذوف تقديره: فإنهم لم يلبثوا يوم يرون ما يوعدون إلا ساعة من نهار، فيوم: منصوب بـ ﴿يَلْبَثُوا﴾ و﴿بَلَّغٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذا بلاغ، فحذف المبتدأ للعلم به، ويجوز فيه النصب لوجهين:

أحدهما - على أنه مصدر.

والثاني - على الوصف لساعة.

المفردات اللغوية:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا، أي يعلم منكرو البعث ﴿يَعَى﴾ يعجز عنه ويضعف ﴿بَلَى﴾ هو قادر على إحياء الموتى، والفرق بين بل ونعم أن ﴿بَلَى﴾ جواب للنفي بإبطاله وتقرير نقيضه، أي فهي لإثبات النقيض، ونعم لتقرير ما قبلها. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ بأن يعذبوا في النار ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ أي يقال لهم: أليس هذا التعذيب أو العذاب؟.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى قومك ﴿أُولُوا الْعَرْصِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أصحاب الثبات والحزم والجد والصبر، فإنك من جملتهم، و﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ للبيان، فكلهم ذوو عزم، وهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، فإنهم أصحاب الشرائع الكبرى الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمل مشاقها، ومعاناة الطاعنين فيها ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لقومك نزول العذاب بهم، فإنه نازل بهم في وقته لا محالة ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة، لطوله ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ لم يقيموا في الدنيا في ظنهم إلا مقدار ساعة، لشدة ما يرون من

أحوال «بَلَّغٌ» أي هذا القرآن أو السورة أو الذي وعظمتهم به تبليغ من الله إليكم «فَهَلْ يُهْلَكُ» أي لا يهلك عند رؤية العذاب «إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ» أي الكافرون الخارجون عن الاتعاظ أو الطاعة.

المناسبة:

بعد إثبات وجود الإله القادر الحكيم المختار في أول السورة، وإبطال قول عبدة الأصنام، وإثبات النبوة، ومناقشة المشركين في عقائدهم الباطلة ورد شبهاتهم، وتوبيخهم على عدم إيمانهم مع أن الجن آمنوا بالقرآن، بعد هذا أثبت الله تعالى مسألة المعاد؛ لأن المشركين كانوا ينكرونها، فتكون أغراض السورة المكية قد تحققت، وهي إثبات التوحيد والنبوة والبعث، ثم ذكر بعض أحوال الكفار في الآخرة.

ثم سأل الله نبيه ﷺ بأمره بالصبر في دعوته، كصبر الأنبياء أولي العزم قبله، لتبليغ ما أمروا بأدائه، وعدم استعجال العذاب لهم، وذلك تعليم لنا ودرس وعظة بليغة.

التفسير والبيان:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّمْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُغَيِّمَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ أي أولم يتفكر ويعلم هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لإعادة الحياة في الأجسام مرة أخرى، أن الذي خلق الكون من السماوات والأرض في ابتداء الأمر، ولم يعجز عن ذلك ولم يضعف عن خلقهن، بل قال لها: كوني فكانت، بقادر على أن يحيي الموتى من قبورهم مرة أخرى، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ [غافر: ٤٠/٥٧].

وبما أن الجواب معروف بداهة، أجب الله تعالى عن ذلك بقوله: بلى أي بل هو قادر على ذلك كله، إنه سبحانه قادر على أي شيء أراد خلقه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبعد إثبات البعث ذكر تعالى بعض أحوال الكفار يوم القيامة، فقال:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك يوم يعذب الكافرون بالله في النار، ويقال لهم توبيخاً وتأنيباً: أليس هذا العذاب الذي تعذبونه حقاً وعدلاً وواقعاً لا شك فيه؟ فيقولون معترفين حيث لا ينفعهم الاعتراف: بلى والله ربنا إنه لحق، أي إنه لا يسعهم إلا الاعتراف.

﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي قال الله على سبيل الإهانة والتوبيخ: ذوقوا عذاب النار بسبب كفركم به في الدنيا وإنكاركم له.

وبعد تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجواب عن شبهات المشركين، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب قومه قائلاً:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك كصبر أولي الثبات والجد والعزيمة من الرسل وأنت من جملتهم، وهم أصحاب الشرائع: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، ولا تستعجل يا محمد العذاب لهم، أي للكفار، فإنه واقع بهم لا محالة. ومفعول الاستعجال محذوف، وهو العذاب.

روى ابن أبي حاتم والديلمي عن مسروق قال: قالت لي عائشة رضي الله عنها: ظل رسول الله ﷺ صائماً، ثم طواه- أي ظل في يومه لا يأكل ولا يشرب- ثم ظل صائماً ثم طواه، ثم ظل صائماً، ثم قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد، ولا لآل محمد، يا عائشة، إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها، والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض

مَنِي إِلَّا أَنْ يَكْلِفَنِي مَا كَلَفَهُمْ، فَقَالَ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَصْبِرُنَّ كَمَا صَبَرُوا، جَهْدِي، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .
وَنظِيرُ ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [الزمر: ١١/٧٣] وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَهَلْ أَكْفَرِينَ أَنَّهُمْ رُؤُوسًا﴾ [١٧/٨٦] .

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَعَلْ يُهْلِكَ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾؟ أَيُّ كَأَنَّ الْكَافِرِينَ حِينَ يَشَاهِدُونَ مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، لَمْ يَمَكِّثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَدْرَ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْأَيَّامِ، لَمَّا يَشَاهِدُونَهُ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعَظَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [١١٣/٢٣] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النَّازِعَاتِ: ٤٦/٧٩] .
وَهَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي وَعَظَّمَهُ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَالنَّبِيُّ: تَبْلِيغُ كَافٍ يَقْطَعُ حُجَّةَ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٥٢/١٤] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَلَاغِ لِقَوْمٍ عَكِيدِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ٢١/١٠٦] . وَالْبَلَاغُ: بِمَعْنَى التَّبْلِيغِ .

وَلَا يَهْلِكُ بِعَذَابِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَارِجُونَ عَنِ الطَّاعَةِ، وَالْوَاقِعُونَ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، فَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ مُّشْرِكٌ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى أَلَّا يَعْذِبَ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ. وَهَذِهِ آيَةُ أَقْوَى آيَةٍ فِي الرَّجَاءِ.
فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - دلت الآية الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ على كونه تعالى قادراً على البعث؛ لأنه خلق السماوات والأرض، ولا شك أن خلقها أعظم من إعادة الشخص حياً بعد أن صار ميتاً، والقادر على الأقوى الأكمل، لا بد من أن يكون قادراً على الأقل والأضعف.

ثم إن الله تعالى قادر على كل شيء، وتعلق الروح بالجسد أمر ممكن؛ إذ لو لم يكن ممكناً لما وقع أولاً، والله تعالى قادر على كل الممكنات، فوجب كونه قادراً على تلك الإعادة.

٢ - ذكر الله تعالى الكفار حين تعذيبهم بالنار، حيث يقال لهم توبيحاً وتهكماً على استهزائهم بوعد الله ووعيده: أليس هذا العذاب حقاً؟ فذوقوا العذاب بكفركم.

٣ - أمر الله نبيه والمؤمنين بالصبر في تبليغ الدعوة ومشاق الحياة، كصبر أصحاب الشرائع الكبرى: وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام. وسبب هذا الأمر: أن الكفار كانوا يؤذون النبي ﷺ ويضايقونه ويوغرون صدره الشريف، فتكون كلمة ﴿مِنْ﴾ للتبعيض.

وفي قول آخر: إن كل الرسل أولو عزم، ولم يبعث الله رسولاً إلا إذا كان ذا عزم وحزم، ورأي وكمال وعقل، فتكون كلمة ﴿مِنْ﴾ للتبيين لا للتبعيض.

وفي قول: كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن متى، لأن النبي ﷺ نُهي أن يكون مثله، لخفة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مغاضباً لقومه.

وهل الأمر بالصبر منسوخ؟ قال بعض المفسرين: الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: مُحْكَمَةٌ، قال القرطبي: والأظهر أنها منسوخة؛ لأن السورة مكية. وذكر مقاتل: أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ يوم أُحُد؛ فأمره الله عز وجل أن يصبر على ما أصابه، كما صبر أولو العزم من الرسل، تسهيلاً عليه وتثبيتاً له.

والراجح لدي أنها غير منسوخة؛ لأن فضيلة الصبر ذات قيمة أدبية رفيعة، ومبدأ أخلاقي ضروري وسام في كل وقت، ومثل هذا لا يصلح للنسخ، والصبر لا يمنع الجهاد ورد العدوان وقتال الأعداء من المشركين وغيرهم، فهو أمر مطلوب في السلم والحرب.

٤ - أمر الله نبيه والمؤمنين أيضاً من بعده بعدم الاستعجال في الدعاء على الكفار، فلكل شيء أوان يعلم الله وحكمته، والعذاب منهم قريب، وأنه نازل بهم لا محالة، وإن تأخر. والسنة في الدعاء طلب الوقاية من السوء والأذى، أخرج الطبراني عن أنس أن النبي ﷺ كان يدعو: «اللهم إني أسألك مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وعِزَائِمِ مَغْفِرَتِكَ، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل برّ، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا همّاً إلا فرّجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين» .

٥ - إن أجل الدنيا قصير، والآخرة خالدة دائمة، وبحسب الكفار حين يرون أهوال عذاب الآخرة أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مقدار ساعة من ساعات النهار.

٦ - في القرآن والسنة البلاغ والكفاية في إنذار الناس من العذاب وتحذيرهم من العقاب بسبب الكفر والعصيان.

٧ - من عدل الله ورحمته ألا يعذب إلا من فسق بأن خرج من طاعة الله تعالى، ولم يعمل بأمره ونهيه.

قال ابن عباس: إذا عُسِرَ على المرأة ولدها، تكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة، ثم تغسل وتسقى منها، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا العظيم: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِشِيَّةً أَوْ صُحُفًا ۖ﴾ [النازعات: ٤٦/٧٩] .

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَبَلَغَ فُتْلُكُ إِلَّا أَلْقَوْهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ صدق الله العظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنية، وهي ثمان وثلاثون آية

تسميتها:

سميت سورة محمد؛ لبيان تنزيل القرآن فيها على محمد ﷺ: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ [٢]. ولم يذكر محمد باسمه في القرآن إلا أربع مرات، في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [١٤٤] وفي سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [٤٠] وهنا في هذه السورة، وفي سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [٢٩]. وأما في غير هذه المواضع الأربعة فيذكر بصفة الرسول أو النبي.

وسميت أيضاً سورة القتال، لبيان أحكام قتال الكفار فيها في أثناء المعارك وبعد انتهائها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [٤].

مناسبتها لما قبلها:

هذه السورة يرتبط أولها ارتباطاً قوياً بآخر سورة الأحقاف: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ حتى إنه لو أسقطت البسمة بينهما، لكان الكلام متصلاً مباشرة بما قبله اتصالاً لا تنافر فيه، كالأية الواحدة.

ما اشتملت عليه السورة:

يمكن أن يوصف موضوع هذه السورة بأنه الجهاد في سبيل الله، وبما أن السورة مدنية، فهي معنية بأحكام التشريع، لاسيما أحكام القتال والأسرى والغنائم ووصف الكافرين والمؤمنين وجزاء الفريقين في الدنيا والآخرة، وأحوال المنافقين والمرتدين ووعدهم ووعيدهم.

بدأت السورة مباشرة وبما يلفت النظر بالحديث عن الكفار أعداء الله والرسول، وإظهار غضب الله عليهم، وأردفت ذلك بوصف المؤمنين وبيان رضا الله عليهم، إظهار الفرق الواضح بين الفريقين: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾

ثم أمرت المؤمنين بقتال الكافرين قتالاً عنيفاً لا هوادة فيه؛ لأنهم كفروا واتبعوا الباطل، وبشّرت المؤمنين بالنصر إن نصرُوا دين الله وصبروا في مواجهة الأعداء، وأبانت خذلان الكافرين لكراهيتهم ما أنزل الله، وفي هذا تعريف بجزاء المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

ثم عنيت بضرب الأمثال لكفار مكة وأمثالهم بالطغاة السابقين وكيفية تدميرهم بسبب طغيانهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾

ووصفت بعدئذ ألوان نعيم الجنة المعدة للمتقين للترغيب والإقبال على الإيمان والطاعة.

وانتقل البيان إلى وصف المنافقين والمرتدين ووعدهم وتهديدهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى آخر السورة. وذكرت في ثنايا ذلك أن الكافرين الصادقين عن سبيل الله والمعادين للرسول لن يضرُوا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم، ولن يغفر الله لهم، وذكرت بوجوب طاعة الله تعالى والرسول ﷺ.

وختمت السورة بما يناسب موضوعها الأصلي وهو الجهاد في سبيل الله، فدعت المؤمنين إلى تحقيق العزة والكرامة، وتجنب الضعف والوهن والمسألة المهينة، وحذرت من صلح الأعداء حال القوة، ووصفت حال الدنيا باللغو واللعب، ودعت إلى الإنفاق في سبيل الله، فإن الدنيا فانية زائلة: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ...﴾ ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ﴾

فضل السورة:

أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان يقرأها في صلاة المغرب.

بيان الفرق بين الكفار والمؤمنين

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ۖ﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۚ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۖ﴾ ﴿٢﴾

الإعراب:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ۖ﴾ ﴿١﴾ مبتدأ وخبر، وكذلك: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ البال: الحال والشأن: لا يثنى ولا يجمع. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ﴾ مبتدأ وخبر أيضاً.

البلاغة:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ۖ﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بينهما مقابلة. وبين ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿ءَامَنُوا﴾ طباق.

﴿وَأَمَّا نُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ذكر خاص بعد عام تعظيماً للمنزّل عليه، وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم دونهُ، وأنه الأصل فيه، ولذلك أكدّه بقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾
 ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَلُهُمْ﴾ سجع رصين غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة وأهل الكتاب وأمثالهم، أي امتنعوا عن الدخول في الإسلام ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ منعوا الناس من الدخول في الإسلام، وهذا عام في جميع من كفر وصد. ﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها بالكفر، فلا ثواب لها في الآخرة، ويميزون بها في الدنيا فضلاً من الله تعالى، وذلك كصلة الأرحام، وفك الأسارى، وحفظ الجوار.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من المهاجرين والأنصار وأهل الكتاب وغيرهم ﴿وَأَمَّا نُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أي آمنوا بالقرآن المنزل على النبي ﷺ، وتخصيصه بعد العموم تعظيم له واعتناء بشأنه، وقرئ: نَزَّلَ بالبناء للمعلوم، وأنزل بالبناء للمعلوم والمجهول، ونزل بالتخفيف ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي والقرآن هو الحق الثابت الذي لا شك فيه من الله ﴿كَفَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ سترها بالإيمان وعملهم الصالح، والسيئات: الذنوب ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالهم وشأنهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد. والبال: لا يشئ ولا يجمع.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من الإضلال والتكفير والإصلاح ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا أَتَّبِعُوا أَتَّبِعُوا﴾ أي بسبب اتباع الكفار الباطل من الأمر والشيطان. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي بسبب اتباع المؤمنين الحق وهو القرآن ومحمد ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك البيان وضرب المثل ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي يبين أحوال الفريقين، فالكافر يحبط عمله، والمؤمن يغفر زلله، والأول مثل لحيته، والثاني مثل لفوزه.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قال: هم أهل مكة نزلت فيهم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: هم الأنصار.

قال ابن عباس في رواية أخرى: نزلت في المطعمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابنا ربيعة، وأُبَيٍّ وَأُمَيَّةُ ابنا خَلْفٍ، وَمَنْبَةُ وَنُئَيْبَةُ ابنا الحجاج، وأبو الْبَخْتَرِيِّ بن هشام، وَزَمْعَةُ بن الأسود، وحكيم بن حِرَامٍ، والحارث بن عامر بن نوفل.

التفسير والبيان:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي الذين جحدوا توحيد الله وآياته، وعبدوا غيره، وصدوا غيرهم عن دين الإسلام، بنهيم عن الدخول فيه، وهم كفار قريش، أبطل الله ثواب أعمالهم وأحبطها وجعلها ضائعة، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء في الآخرة.

فكل ما يسمونه مكارم الأخلاق، كصلة الرحم، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وعمار المسجد الحرام بالسقاية والخدمة للحجاج، وإجارة المستجير، لا يقبل مع الكفر والصد.

ونظير الآية: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (٢٣)

[الفرقان: ٢٣/٢٥].

وبعد بيان حال الكفار وجرائهم، بَيَّنَّ حال المؤمنين وجزاءهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢٤) أي والذين صدقوا بالله، وأطاعوه، واتبعوا

أمره ونهيه، وانقادوا لشرع الله ظاهراً وباطناً، وعملوا بما يرضيه من صالح الأعمال، وصدقوا بالقرآن الذي أنزل على نبيه محمد ﷺ، فأمنوا أنه حق وآمنوا بأنه كلام الله، والقرآن هو الحق الثابت الذي لا شك فيه أنه من الله، محاسبهم ذنوبهم التي عملوها في الماضي، وغفرها لهم بالإيمان والعمل الصالح، وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا والآخرة، فعصمهم عن المعاصي، وأرشدهم إلى أعمال الخير في الدنيا، وورثهم نعيم الجنة في الآخرة، وهذا يشمل المهاجرين والأنصار وغيرهم من المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

وقوله: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ. وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة.

ثم بين الله تعالى سبب إضلال الكافرين وإصلاح وإسعاد المؤمنين، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي إن ذلك الجزاء المتقدم للفريقين بسبب اتباع الكافرين الباطل، من الشرك بالله، والعمل بمعاصيه واختياره على الحق، وبسبب اتباع المؤمنين الحق الذي أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي مثل ذلك البيان الرائع، يبين الله للناس أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة، ويظهر مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن جزاء أهل مكة الذين كفروا بتوحيد الله، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله، وهو الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، هو إبطال ثمره

أعمالهم في كفرهم، بما كانوا يسمونه مكارم الأخلاق، فلم يبق لهم عمل، ولم يوجد، وأدى ذلك بالتالي إلى أنه لم يمتنع الإهلاك عنهم، ولا صرفهم عن التوفيق لسبل السعادة.

والمراد بالإضلال: إبطال العمل وأثره بحيث لا يجده ولا يجد من يشبه عليها.

٢ - إن المغفرة هي جزاء الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة باتباع الفرائض، واجتتاب النواهي، والتصديق بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ وبما جاء به، دون أن يخالفوه في شيء. والقرآن: هو الحق الثابت الراسخ من ربهم، الذي نسخ به ما قبله، والمغفرة أو التكفير: الستر والتجاوز عما مضى من ذنوبهم وسيئاتهم قبل الإيمان، وإصلاح البال: إصلاح شأنهم وحالهم وأمورهم، والمراد إصلاح ما تعلق بدنياهم. وتكفير السيئات من الكريم: سترها بما هو خير منها، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٠].

وهذا متفق مع منهج القرآن، كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر، كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٢٢/٥٠] وقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٧].

٣ - دل قوله تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ على أن الإيمان بالقرآن المنزل من عند الله شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ. وهذا في مقابلة قوله تعالى في حق الكافر: ﴿وَصَدُّوا﴾ أي صدوا عن اتباع محمد ﷺ، وهو حث على اتباعه.

٤ - إن القرآن الكريم هو الحق النازل من الرب عز وجل، وفي الآية دليل على أن دين محمد ﷺ لا يرد عليه النسخ أبداً.

٥ - الفرق بين جزائي الفريقين: أن إضلال الكفار وإبطال أعمالهم بسبب اتباعهم الباطل وهو اتباع إله غير الله، واتباع الشيطان والشرك، وأن تكفير سيئات المؤمنين وإسعادهم وإصلاح شأنهم وحالهم وأمورهم بسبب اتباع الحق وهو التوحيد والإيمان.

أي إن ذلك الإضلال والهدى المتقدم بسبب اتباع الباطل من الكافرين، واتباع الحق من المؤمنين، فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق.

٦ - إن مثل هذا البيان الذي بين، يبين الله للناس أمر الحسنات وأمر السيئات وأحوال الفريقين. فقله ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا البيان وضرب المثل، على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم. وضرب المثل في الآية: هو أن الله جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين.

أحكام القتال والأسرى والقتلى

في سبيل الله ونصرة الإسلام

﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمُمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ۖ ﴿١﴾ سَيُجْزِيهِمْ وَيُصْلِحُ بِأَلْفِهِمْ ۖ ﴿٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۖ ﴿٣﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنصَرُوا وَيُبَيِّنَتْ أَقْدَامُكُمْ ۖ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ۖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۖ ﴿٦﴾﴾

القرءات:

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾: قرئ:

١- (والذين قُتلوا) وهي قراءة أبي عمرو، وحفص.

٢- (والذين قاتلوا) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ منصوب على أنه مصدر، تقديره: فاضربوا ضرب الرقاب، فحذف الفعل.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَاءً﴾: منصوبان على المصدر.

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف، تقديره، الأمر ذلك.

﴿فَتَسَاءَلُمْ﴾ منصوب على المصدر، تقديره: تعسهم تعساً أو تعسوا تعساً، ويقال أيضاً: أتعسهم إتعاساً. والجملة خبر المبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ عطف على تعسوا تعساً.

البلاغة:

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ بينهما طباق.

﴿تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ استعارة تبعية، شبه ترك القتال بوضع آثته، واشتق من الوضع ﴿تَضَعَ﴾ بمعنى تنتهي وتترك.

﴿وَبَيَّنَّتْ أقدامَكُمْ﴾ مجاز مرسل، أطلق الجزء وهو الأقدام وأراد الكل، أي يشبّتهم، وعبر بها لأنها أداة الثبات، وهو مثل ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠/٤٢].

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ سجع غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿لَقِيتُمْ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ أي فاضربوا الرقاب

ضرباً، أي اقتلوهم، وعبر بضرب الرقاب مجازاً عن القتل؛ لأن الغالب في القتل أن يكون بضرب الرقبة، ولتصوير القتل بأشنع صورة للإرهاب ﴿أَتَحْسَبُهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿فَتُدُّوا لَوثًا﴾ أي فأسروهم، والوثاق كالرباط: ما يوثق به الأسير من الحبل أو القيد وغيره، وشده: إحكام ربطه حتى لا يفلت ويهرب.

﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ أي فإما تمنون عليهم مناً، أو يفدون فداء، والمن: إطلاق سراح الأسير من غير مقابل أو فدية، والفداء أو المفاضة: إطلاق الأسير في مقابلة مال أو غيره كمبادلة الأسرى ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ مجاز عن انتهاء الحرب، أي حتى تنقضي الحرب أو تنتهي، ولم يبق إلا مسلم أو مسلم، والأوزار: الأثقال من السلاح والكراع (الخيول) وغيرها من أدوات القتال الثقيلة والمعدات الحربية ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، أو افعلوا بهم ذلك مما ذكر ﴿وَلَوْ بَنَىٰ اللَّهُ لَأَنصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لا نتقم منهم بغير قتال كالحسف والغرق والرجفة ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوا بِعَصَصِكُمْ بِعَفْزٍ﴾ أي ولكن أمركم بالقتال ليختبر المؤمنين بالكافرين، بأن يجاهدوهم، فيستوجبوا الثواب العظيم، والكافرين بالمؤمنين، بأن يعجل عذابهم ليرتدع بعضهم عن الكفر.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي استشهدوا، وقرئ: قاتلوا، أي جاهدوا ﴿فَلَنُؤْتِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ فلن يجبطها ويضعها ﴿سَيِّدِهِمْ﴾ سيهدي من بقي حياً إلى الثواب أو سيثبت هدايتهم، أو سيهديهم في الدنيا والآخرة إلى ما ينفعهم ﴿وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ﴾ حالهم وشأنهم في الدنيا والآخرة. ويلاحظ أن الهداية وإصلاح البال لمن لم يقتل، وأدرجوا في قوله: ﴿قُتِلُوا﴾ بطريق التغليب ﴿عَرَفَهَا هُمُ﴾ بينها لهم وأعلمها بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدي إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق.

﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ تنصروا دين الله ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ﴿وَيُؤْتِيَنَّهُمْ

أَفَدَّامَكُمْ ﴿يَبْتِكُمْ فِي أَثْنَاءِ الْقِتَالِ وَاجْمَاهِدْهُمُ الْكُفَّارَ﴾ فَتَمَسَّاهُمْ هَلَاكًا لَهُمْ وَخِيَةً مِنَ اللَّهِ ﴿ذَلِكَ﴾ أَيِ التَّعَسُّ وَإِضْلَالِ الْأَعْمَالِ ﴿يَأْتُهُمْ كَرْهُوًا مَّا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ أَيِ بِسَبَبِ كَرَاهِيَتِهِمْ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَشْتَمِلِ عَلَى التَّكَالِيفِ ﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أَبْطَلَهَا.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿وَالَّذِينَ قِيلُوا﴾: أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ يَوْمَ أَحُدَ: وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الشَّعْبِ، وَقَدْ نَشِبَتْ فِيهِمُ الْجَرَاحَاتُ وَالْقَتْلُ، وَقَدْ نَادَى الْمُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ: اغْلُ هُبْلَ (أَكْبَرَ أَصْنَامِهِمْ) وَنَادَى الْمُسْلِمُونَ: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجْلُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنْ لَنَا الْعِزَّى وَلَا عِزَّى لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ».

للفاسية:

بعد قسمة الناس إلى فريقين: فريق الكافرين الذين يتبعون الباطل وهم حزب الشيطان، وفريق المؤمنين الذين يتبعون الحق وهم حزب الرحمن، ذكر الله تعالى حكم القتال عند التحزب، وأرشد المؤمنين إلى قواعد الحرب مع المشركين أثناء المعركة وبعد انتهائها.

للتفسير والبيان:

﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أَيِ إِذَا وَاجِهْتُمُ الْكُفَّارَ فِي الْقِتَالِ، فَاحْصُدُوهُمْ حَصْدًا بِالسُّيُوفِ، وَاضْرِبُوا الرِّقَابَ ضَرْبًا. وَهَذَا أَمْرٌ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ، وَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، عِنْدَ وَجُودِ مَسْوَغَاتِ الْقِتَالِ وَتَوَافُرِ الْعُدْوَانِ، وَهُوَ قِتَالٌ لَا شَفَقَةَ فِيهِ وَلَا

هودة، وإنما يجب إعمال السلاح فيهم، حسبما تقتضي طبيعة الحرب، كما قال تعالى: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣/٢] .

هذا هو الحكم الأول في أثناء المعركة، أما بعد انتهاء المعركة فقال الله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا أَغْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي حتى إذا أكثرتم فيهم القتل، وغلبتموهم، وأصبحوا بلا قوة كالرجل المشغن بالجراح، فضعفوا واستكانوا وصاروا أسرى في أيديكم، وانتهت الحرب بإثخانهم وقهرهم، فأُسروهم وأَحْكِمُوا القيد عليهم لئلا يفلتوا ويهربوا.

وبعد الأسر أنتم تخيرون بين أمرين: إما المنّ عليهم بإطلاق سراحهم بلا مقابل أو بغير عوض، وإما الفداء بمبادلتهم بالأسرى المسلمين أو بدفع الفداء وهو المال الذي يفدي به الأسير نفسه من الأسر.

وذلك حتى لا يكون حرب مع الكفار ولا قتل، بأن يضع الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة أو المودعة، أي إن غاية هذه الأوامر إنهاء الحرب والقتال. وهذا في الحقيقة حث على السلم المستتب، ليعيش الناس في سلام وأمان، ويتم تبادل الأفكار، وتنتشر دعوة الإسلام بالحكمة والإقناع، والحجة والبرهان، والموعظة الحسنة، فليس انتشار الإسلام بالسيف كما يتصور بعض الأعداء، وإنما كان انتشاره بالقناعة الذاتية، وبالإستحسان الحر الطليق دون إجبار ولا إكراه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦/٢] .

وصريح الآية يوجب القتل فقط قبل الإثخان، والتخير بعد الأسر بين المن والفداء. وجاءت السنة مبينة جواز القتل بعد الأسر للمصلحة، كما جاء

فيها إباحة الاسترقاق جرياً على العادة السائدة في الماضي ومعاملة بالمثل. والظاهر أن الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله تعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ، ليأخذوا منهم الفداء.

ثم بيّن الله تعالى الحكمة في شرع القتال، فقال:

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ذلك هو الحكم في قتال الكفار، والله قادر على الانتصار من أعدائه بالانتقام منهم، وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب كالخسف والرجفة والغرق، دون قتال منكم أيها المؤمنون، ولكن الله أمركم بحربهم ليختبر بعضكم ببعض، فيعلم المجاهدين في سبيله، والصابرين على ابتلائه، ويميز ثوابهم، ويعذب الكفار بأيديكم، أو يحملهم الخوف على الإيمان بالله تعالى قبل نزول العذاب بهم، ومشاهدة قتل أمثالهم، فالحكمة من القتال: هي امتحان الناس واختبار صبرهم على المكاره: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٢/٣).

ثم ذكر الله تعالى ثواب الشهداء المجاهدين في سبيله قائلاً:

أ - ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي إن المقتولين في سبيل الله لا يضيع الله سبحانه أجرهم، ولن يجعل أعمالهم ضائعة كما تضيع أعمال الكفار.

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن المقدام بن مغديكرب الكندي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يُغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحَلَّى حُلَّةَ الإيمان، ويزوَّج من الحور العين، ويحار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار مريض بالدر والياقوت، الياقوتة خير من الدنيا وما فيها، ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشقَّع في سبعين إنساناً من أقاربه».

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ».

٢ - ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ⑥﴾ أي سيوفقهم الله تعالى للعمل بما يحبه ويرضاه، ويرشدهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم وأمرهم وشأنهم في الآخرة، أي تحفظ أعمالهم وتخلد لهم، ويدخلهم روضات الجنات يجرون فيها، وقد عرّفهم بها، وأعلمهم وبينها لهم من غير استدلال، حتى إن أهلها يهتدون إلى بيوتهم ومساكنهم من غير مرشد ولا دليل.

جاء في الحديث الصحيح عند البخاري: «والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

وقال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً، والتكرار بين ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤﴾ لأن الأول سبب النعيم، والثاني نفس النعيم.

والناس في الجنة درجات بحسب أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢/٦].

ثم بشرهم الله بالنصر بشرط نصره دينه وحثهم على تحقيق الشرط، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⑦﴾ أي يا أهل الإيمان بالله والقرآن والإسلام إن تنصروا دين الله ينصركم على أعدائكم، ويثبت أقدامكم عند القتال في مواطن الحرب، حتى تتحقق الغلبة والعزة والتفوق لكم، وتكون كلمة الله هي العليا.

وتأكيداً لذلك وتقوية لقلوبهم ذكر الله تعالى جزاء الكافرين بعد بيان جزاء المجاهدين، فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٨) أي وللكافرين بالله وبرسالة محمد ﷺ الخيبة والحزني والشقاء، وقد أبطل الله أعمالهم وأحبطها، فلا ثواب لهم ولا خير يرتجى منها في الآخرة. وقوله: ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ مقابل تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ.

ثم ذكر الله تعالى سبب الخيبة وإبطال الأعمال، وسبب بقائهم على الكفر والضلال قائلاً:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٩) أي ذلك التعس، وإضلال الأعمال بسبب كراهيتهم ما أنزل الله في قرآنه على نبيه المصطفى ﷺ من التكليف، فهم لا يريدونه ولا يحبونه، فأبطل الله ثواب أعمالهم بذلك السبب. والمراد بالأعمال: أعمال الخير حال الكفر؛ لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

أ - إباحة القتل الشديد في أثناء القتال؛ لأن ذلك من طبيعة الحرب، تحقيقاً للنصر والغلبة، ودحراً للعدو وإنزال الهزيمة الساحقة بجيشه. وقد خصص بعض المفسرين جواز ضرب الرقاب والإثخان (الإكثار من القتل في الحرب) بالمشركين أهل الأوثان، أو بمن لا عهد لهم ولا ذمة. والصحيح أن الآية عامة، والتخصيص لادليل عليه، لعموم الآية: ﴿فَقَرَّبَ الرِّقَابَ﴾

وهذه الآية متفقة مع آية الأنفال: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخِزَ فِي الْأَرْضِ﴾ [٦٧] غير أن آية الأنفال لم يذكر فيها ما يكون بعد الإثخان، والآية التي هنا فيها بيان تقرير مصير الأسرى وتخيير الإمام فيهم بين أحد أمرين: المَنِّ أو الفداء.

أما قتل الأسير لضرورة أو مصلحة حرية معينة في حالات خاصة وكذا استرقاقه، فمأخوذ من السنة النبوية، فيصير الإمام مخيراً في الأسرى بين أربعة أمور: القتل، والاسترقاق، والمنّ، والفداء.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث النبي ﷺ خَيْلاً قَبْلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ، فَرَبَطُوهُ فِي سَارِيَةِ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ، إِنْ تَقَتَّلَنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعَمَ تُنْعَمَ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مَا شِئْتُ، حَتَّى كَانَ الْغَدُ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ قَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتَ لَكَ، قَالَ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ.

فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ؟ وَاللَّهُ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهُ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنْ خِيلَكَ أَخَذْتَنِي، وَأَنَا أُرِيدُ الْعِمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبُوتُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ».

وهذا دليل من السنة على جواز المنّ على الأسير.

وهناك دليل آخر من السنة على جواز الفداء، قال عمران بن حصين: أَسَرَّ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنْ عَقِيلٍ فَأَوْثَقُوهُ، وَكَانَتْ ثَقِيفٌ قَدْ أَسَرَتْ رَجُلَيْنِ، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَفَدَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَسَرْتَهُمَا ثَقِيفٌ.

وأما دليل جواز قتل الأسير: فقال أبو بكر الجصاص: اتفق فقهاء

الأمصار على جواز قتل الأسير، لا نعلم بينهم خلافاً فيه، وقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ في قتله الأسير، منها قتله عُقبة بن أبي مُعَيْط، والنضر ابن الحارث بعد الأسر يوم بدر، وقتل - أي النبي - يوم أحد أبا عزة الشاعر بعدما أسر، وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بالقتل، وسبي الذرية، ومنَّ على الزبير ابن باطا من بينهم.

وفتح خير بعضها صلحاً وبعضها عنوة، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئاً، فلما ظهر على خيائته وكتمانه قتله، وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل، ومقيس بن ضبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وآخرين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، ومنَّ على أهل مكة ولم يغنم أموالهم^(١).

وأما دليل جواز استرقاق الأسرى الذي كان معاملة بالمثل مع صنيع الأمم الأخرى بعد الحرب: فهو أن الرسول ﷺ استرق بعض العرب كهوازن وبني المصطلق وقبائل من العرب^(٢)، وسبي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بني ناجية من قريش، وفتحت الصحابة بلاد فارس والروم، فسبوا من استدلوا عليه.

وأما الاستدلال بالآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذُوا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا أَلْوَاكِيَهُمْ﴾ على جواز قتل الأسير فغير سديد؛ لأن الآية واضحة في القتل قبل الأسر، وأما بعد الإتيان وهو الإضعاف، فإن المحارب يقع في الأسر، وحكم ذلك مختلف عما قبل الأسر. وقد فهم بعضهم من الآية جواز الاسترقاق، وذلك من الأمر بشد الوثاق، ويبقى بعده حالان، هما: المن والفداء.

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣٩١/٣

(٢) نيل الأوطار: ٢/٨ وما بعدها.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ﴾: ذلك يوم بدر، والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم، أنزل الله تعالى بعد هذا في الأسارى: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ فجعل الله النبي والمؤمنين في الأسارى بالخيار: إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم^(١). أي يفعل الإمام ما يراه مصلحة حربية.

٢ - هل الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ محكمة أو منسوخة؟ قال أبو حنيفة عملاً بقول السدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥/٩] فلا يفادى الأسير بالمال، ولا يباع السبي لأهل الحرب، فيرجعون حرباً علينا، ولا يفادون بأسرى المسلمين، ولا يمن على الأسرى، حتى لا يعودوا حرباً على المسلمين. وقال أبو يوسف ومحمد: لا بأس أن يفادى أسرى المؤمنين بأسرى المشركين، وهو قول الثوري والأوزاعي.

وأجاز الجمهور المن والفداء بأسرى المسلمين وبالمال للآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ فقد أجازت الآية الفداء مطلقاً من غير تقييد، وفادى النبي ﷺ أسرى بدر بالمال، وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين قال: أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي ﷺ وأسر أصحاب النبي رجلًا من بني عامر بن صعصعة، فمر به على النبي ﷺ، فقال الأسير: علام أحبس؟ فقال: بجريرة حلفائك، فقال: إني مسلم، فقال النبي ﷺ: «لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح» ثم مضى رسول الله ﷺ فناداه أيضاً، فأقبل فقال: إني جائع فأطعمني، فقال النبي: نعم هذه حاجتك، ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما. وروي أن النبي ﷺ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين.

قال ابن العربي والقرطبي: والتحقيق الصحيح أن الآية محكمة في الأمر بالقتال^(١). وهذا مذهب جمهور العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم. ولا يلجأ إلى القول بالنسخ إلا عند تعذر التوفيق والجمع بين الأدلة المتعارضة، وهنا يمكن التوفيق بحمل آيات القتال على حالة الحرب ونقض العهد ومقتضيات المعركة، فلا بدّ حينئذٍ من القتل لإعلاء كلمة الله تعالى وإظهار عزة الإسلام وإعلاء هيبة المسلمين، فإن تحقق المطلوب تختار المسلمون بعد انتهاء الحرب واستقرار السلم بين المنّ والفداء، أما القتل بعد الأسر فهو ضرورة ولا تكون إلا لمصلحة حرية واضحة يراها الإمام.

قال سعيد بن جبير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَكُمْ أَسْرَى حَتَّى يَشْخَبَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧/٨]. فإذا أُسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما يراه من قتل أو غيره^(٢). وهذا مذهب الجمهور: المالكية والشافعية والحنابلة.

والخلاصة: لم يأخذ الفقهاء بمقتضى الحصر المفهوم من الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ وقالوا إن حال المقاتلين بعد الأسر غير منحصر في الأمرين، بل يجوز القتل والاسترقاق والمنّ والفداء؛ لأن المذكور في الآية إرشاد؛ لأن الظاهر في المثخن الإزمان أي الإنهاء أو الإضعاف، والقتل مذكور في قوله: ﴿فَضْرِبَ الرِّقَابَ﴾

٣ - الجهاد طريق للامتحان والاختبار، ليعرف الصادق الصابر، والمضحى المجاهد في سبيل الله، وإن كان منزهاً عن الاستعانة بأحد، وقادراً على البطش بالأعداء وإهلاكهم بوسائل مختلفة غير القتال، أو تسليط الملائكة

(١) أحكام القرآن: ٤/١٦٨٩، تفسير القرطبي: ١٦/٢٢٨.

(٢) تفسير القرطبي: ١٦/٢٢٨.

أو أضعف خلقه، فالله يمتحن المؤمنين بالكافرين، هل يجاهدون في سبيله حقّ الجهاد أم لا؟ ويبتلي الكافرين بالمؤمنين، هل يدعون للحقّ أم لا؟ إلزاماً للحجة. ومعنى الابتلاء من الله سبحانه كما تقدم مراراً أنه مجاز، أي يعاملهم معاملة المختبر أو ليظهر الأمر لغيره من الملائكة أو الثقلين.

٤ - القتلى في سبيل الله أو الشهداء لا تضع أعمارهم، ويهدبهم ربهم إلى إدراك السعادة في الدنيا والآخرة وإلى الثواب ويشتبهم على الهداية، ويرشدهم إلى طريق الجنة من غير بحث ولا حيرة ولا توقف بعد خروجهم من قبورهم، ويصلح حالهم وشأنهم ومعاشهم في مستقبل الأمر في العقبي والمعاد أو في الدنيا، ويدخلهم الجنة التي بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال، وطيبها لهم بأنواع الملاذ.

٥ - النصر مشروط بنصرة دين الله تعالى وتطبيق شرعه والتزام أوامره واجتناب نواهيه، لذا كرر الله تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة قائلاً: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار، ويثبت قلوبكم بالأمن والنصر والمعونة في موطن الحرب.

٦ - إن جزاء الكافرين عسير ومظلم وشاق، فالخبيّة والحزني والهزيمة لهم في الدنيا، وإبطال أعمالهم في الآخرة، بسبب كراهيتهم ما أنزل الله من الكتب والشرائع، ولأن أعمالهم كانت في طاعة الشيطان، فيحبط الله ما لهم من أعمال الخيرات، كعمارة المسجد الحرام وغيره، وقرى الضيف، وأصناف القرب، ولا يقبل الله العمل إلا من مؤمن.

وبه يتبين الفرق بين موق الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وبين موق المسلمين وقتلاهم حيث قال تعالى في حقهم: ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

النظر في آثار الأمم السابقة والتأمل في أحوال المؤمنين والكافرين

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۖ ﴾ (١٠) ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَاكْلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾

القراءات:

﴿وَكَأَيِّنْ﴾:

وقرأ ابن كثير (وكائن).

الإعراب:

﴿فَيَنْظُرُوا﴾ إما مجزوم بالعطف بالفاء على ﴿يَسِيرُوا﴾ أو في موضع نصب على جواب الاستفهام بالفاء بتقدير (أن).

﴿مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: أي أخرجك أهلها، ولهذا قال: أهلكناها، فحذف الأصل، وأقيم ضمير القرية مقامهم، فصار ضمير القرية في موضع رفع بـ (أخرج) كما كان ضمير الأهل كذلك، ثم استتر ضمير القرية في (أخرج) وظهرت علامة التأنيث، لأن القرية مؤنثة، وهذا من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، مثل ﴿فَإِنَّا عَرَّمُ الْأُمُتِ﴾ [محمد: ٢١/٤٧] أي أصحاب الأمر.

البلاغة:

﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَشْنَأُهَا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمَر.

﴿الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ مجاز مرسل أي أخرج أهلها، والإخراج باعتبار السبب. وكذا قوله ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ مجاز مرسل أطلق المحل وأيد الحال.

المفردات اللغوية:

﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أهلك أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وهو أبلغ من قوله: دمرهم الله، فهذا يدل على الإهلاك مطلقاً، والأول: إهلاك ما يختص به الإنسان من نفسه وماله وولده وغيره. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَشْنَأُهَا﴾ أمثال تلك العاقبة أو العقوبة؛ لأن التدمير يدل عليها. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي نصر المؤمنين وقهر الكافرين بسبب ولاية الله. ﴿مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ولي وناصر المؤمنين، أي ناصر المؤمنين على أعدائهم. ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ لا ناصر لهم يدفع العذاب عنهم. ويأتي المولى بمعنى المالك كما في قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ﴾ [يونس: ٣٠/١٠] أي إلى مالك أمورهم والمتصرف في شؤونهم.

﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ يستفحون بمتاع الدنيا. ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم، ولا يلتفتون إلى العاقبة أو الآخرة. ﴿مَثْوًى﴾ منزل ومقام ومصير. ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ أي وكم من أهل قرية. ﴿مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ أي مكة أي من أهل مكة، حذف المضاف وأجريت أحكامه على المضاف إليه، وقوله ﴿مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ روعي فيه لفظ قرية. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بأنواع العذاب، روعي فيه معنى ﴿قَرْيَةٍ﴾ الأولى. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ من إهلاكنا.

﴿بَيِّنَةٍ﴾ حجة وبرهان، وتشمل القرآن والحجج العقلية. ﴿سُوءَ عَمَلِهِ﴾ كالشرك والمعاصي. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في عبادة الأوثان، فلا شبهة دليل لهم في ذلك، فضلاً عن وجود حجة لديهم. والجواب عن قوله: ﴿أَفَنَنْ كَان﴾ و ﴿كَمَنْ زَيْن﴾ هو لا مماثلة بين المؤمنين وكفار مكة.

سبب النزول:

نزل الآية: (١١):

﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ مَوْلَى﴾: قال قتادة: نزلت يوم أحد والنبي ﷺ في الشعب، إذ صاح المشركون: يوم بيوم، لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم» وقد تقدّم ذلك.

نزل الآية (١٣):

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ﴾: أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ تلقاء الغار، نظر إلى مكة، فقال: أَنْتِ أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ إِلَيَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك، لم أخرج منك، فأنزل الله: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ الآية. وذكره الثعلبي أيضاً عن قتادة وابن عباس، وهو حديث صحيح.

الخاصية:

بعد أن أبان الله تعالى مصير الكافرين والمؤمنين، ونعى على الأولين، وأثنى على الآخرين تنبيهاً على وجوب الإيمان، حضّ على النظر في آثار الأمم المتقدمة، والتأمل في أحوال المؤمنين والكافرين، للعبرة والعظة، وإدراك أن الله ناصر المؤمنين وخاذل الكافرين، ومنعم على أهل الإيمان والصلاح بالجنة، بسبب تبيّتهم الحق، ومعاقب الكفار بالنار، بسبب اتباعهم أهواءهم في عبادة الأوثان.

التفسير والبيان:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١١﴾﴾ أي أفلم يمش هؤلاء المشركون بالله تعالى المكذبون

لرسوله ﷺ في الأرض أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا، فيروا كيف كان مصير الأمم السالفة، وما آل إليه أمر الكافرين من قبلهم، فإن آثار العذاب في ديارهم بسبب تكذيبهم وكفرهم باقية، لقد هلك الله عليهم ديارهم، وأهلكهم واستأصلهم، فلم يبق من الأهل والولد والمال شيئاً يذكر، ونحى الله تعالى المؤمنين من بين أظهرهم.

ولهؤلاء الكافرين المكذبين ولجميع الأمم الكافرة أمثال عاقبة من قبلهم من الكفرة. وقد عوقب كفار قريش في الدنيا بالهزيمة المنكرة في بدر وفتح مكة، ولهم عقاب أشد في نار جهنم في الآخرة.

وسبب العقاب ما قال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١١) أي ذلك التدمير والاستئصال للكافرين، ونجاة المؤمنين بسبب أن الله ناصر عباده الذين آمنوا بالله تعالى وأطاعوا رسوله ﷺ، وأن الكافرين الجاحدين بالله تعالى والمكذبين رسوله ﷺ لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب، فوقعت العقوبة بهم. ولما بين الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا، بين حالهم في الآخرة، فقال:

١- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي إن الله ينعم يوم القيامة على عباده الذين آمنوا بالله وصدقوا به وعملوا صالح الأعمال، فقاموا بالفرائض واجتنبوا المعاصي، بدخول الجنات (البساتين) التي تجري الأنهار من تحت قصورها، تكرماً لهم.

٢- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي والذين جحدوا بوجود الله وتوحيده وكذبوا رسوله يتصفعون بمتاع الدنيا، ويأكلون منها كأكل الأنعام (الإبل والبقر والغنم) لا هم لهم إلا بطونهم

وفروجهم، ساهون عن العاقبة، لاهون بما هم فيه، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عند أحمد والشيخين والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء».

ونار جهنم يوم جزائهم مسكن ومنزل لهم يستقرون فيه.

والخلاصة: إن الله يدخل المؤمن الجنة، والكافر النار في عالم الآخرة.

ثم هدد الله تعالى مشركي مكة وأوعدهم بقوله:

﴿وَكَايَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾ أي وكثير من أهل المدن والأمم السالفة ذات القوة والنفوذ كانوا أشد بأساً وقوةً من أهل مكة الذين أخرجوك منها، فأهلكناهم، ولم يجدوا لهم ناصراً ولا معيناً يدفع عنهم العذاب، فبالأولى من هو أضعف منهم، وهم قريش.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد وخاتم الأنبياء. فإذا أهلك الله عز وجل عتاة الأمم الذين كذبوا الرسل، فسيفعل الأمر نفسه بأمثالهم، وإن امتنع إيقاع عذاب الاستئصال في الدنيا بسبب الرسول ﷺ نبي الرحمة، فإن العذاب لهم كائن لا محالة في الآخرة.

ثم أبان الله تعالى سبب التفرقة في جزاء الفريقين، فقال على طريق الإنكار:

﴿أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ يَنبَغٍ مِنْ رَبِّيَ، كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ. وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ أي أفمن كان على بصيرة وبقين من أمر دينه وبما جبل عليه من الفطرة السليمة بتوحيد الله، كمن زين له سوء عمله فرآه حسناً، وهو عبادة الأوثان، والإشراك بالله، واقتراف المعاصي، واتبعوا أهواءهم في عبادتها، وانهمكوا في أنواع الضلالات، بلا شبهة توجب الشك، فضلاً عن حجة صحيحة، والمعنى لا يستوي الفريقان.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْبَعُثُكُمْ إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩/١٣] ، وقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [الحشر: ٢٠/٥٩] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - هدّد الحق تعالى بحال الأقدمين، ودعا كفار قريش والناس قاطبة إلى النظر بقلوبهم في مصير الكافرين المكذبين، كيف أهلكهم واستأصلهم، وأعلن صراحة أن للكافرين في كل عصر وجيل أمثال هذه الفعلة، يعني التدمير، أو أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة، إن لم يؤمنوا.

ب - ذلك الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين، وأما الكافرين الذين اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضرّ، وتركوا الله تعالى، فلا ناصر لهم ولا معين يمنع عنهم العذاب.

ج - إن جزاء الفريقين مختلف، فالله تعالى يدخل المؤمنين الذين عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، وأما الكافرون فإنهم يتمتعون في الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عما في المستقبل، ونار جهنم في الآخرة منزلهم ومقامهم ومسكنهم الذي لا يفارقونه.

قال الرازي: كثيراً ما يقتصر الله على ذكر الأنهار في وصف الجنة؛ لأن الأنهار يتبعها الأشجار، والأشجار تتبعها الثمار، والماء سبب حياة العالم، والنار سبب الإعدام، وللمؤمن الماء ينظر إليه ويتنفع به، وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرّر بها^(١).

(١) تفسير الرازي: ٥١/٢٨

والمؤمن وإن شارك الكافر في التمتع بالدنيا، فلم يذكر ذلك في حقه؛ لأن له الجنة العظيمة، فمتاع الدنيا لا يلتفت إليه في حقه، والكافر ليس له إلا الدنيا.

٤ - خصّ الله تعالى أهل مكة بتهديد ووعد آخر، فلما لم ينتفعوا بالمثل العام بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكر لهم مثلاً آخر، وهو أن كثيراً من الأقوام الغابرة كانوا أشدّ قوة منهم، فأهلكهم الله تعالى، ولا ناصر لهم.

٥ - لا يستوي عقلاً في الدنيا وواقعاً وعدلاً في الآخرة أهل الإيمان الذين هم على بصيرة وثبات ويقين وهم محمد ﷺ وأمته، وعِبَاد الأصنام كأبي جهل وسائر الكفار الذين حسّن لهم الشيطان قبيح أعمالهم، واتبعوا ما اشتهوا، فالفرق الأول ناجون والثاني هالكون.

صفة نعيم الجنة وعذاب النار

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۝١٥﴾

الفراءات:

﴿عَاسِنٍ﴾:

وقرأ ابن كثير (أسن).

الإعراب:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ﴾ أو ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ وكان قائلاً قال: وما مثلها؟ فقل: فيها أنهار، ويجوز أن يكون ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ في

موضع الحال، أي مستقرة فيها أنهار، كما يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي فيها أنهار.

﴿مَنْ حَمَرَ لَذَقَ لِلشَّرِيبَيْنِ﴾ «لَذَقَ»: تأنيث (لَذَّ) وهو اللذيذ، أو وصف بمصدر، مثل رجل عدل وقرئ بالحركات الثلاث، فالجر على صفة الحمرة، والرفع على صفة الأنهار، والنصب على العلة أي التمييز، أي لأجل لذة الشاربين.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف أي لهم مغفرة، أو عطف على لفظ المحذوف في قوله «وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» أي لهم أصناف.

﴿كَانَ هُوَ خَالِدٌ﴾ خبر مبتدأ مقدر، أي أمن هو في هذا النعيم؟

البلاغة:

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَدٍ يَنْغَيِّرُ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمَرٍ﴾
إطناب بتكرار لفظ «أَنْهَارٌ» تشويقاً لنعيم الجنة.

المفردات اللغوية:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صفة الجنة العجيبة الشأن، وهو على حذف حرف الاستفهام، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار وهو قوله تعالى: «أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ» والتقدير: أمثل الجنة وأصحابها كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ أو كمثل من هو خالد؟ فهو كلام في صورة الإثبات، ومعنى النفي والإنكار. وفائدة التعرية عن حروف الاستفهام زيادة تصوير مكابرة من يسوي بين الفريقين. أو فيما قصصنا عليك صفة الجنة العجيبة.

﴿آسِنٍ﴾ متغير الطعم والرائحة لطول مكثه، وفعله: أَسَنَ الماء بالفتح يَأْسِنُ وَيَأْسُنُ كضَرَبَ ونَصَرَ، أو أَسِنَ بالكسر مثل عَلِمَ، وقرئ بالمد والقصر

كضارب وحذر، أي ماء الجنة غير متغير الطعم والريح، بخلاف ماء الدنيا، يتغير بعارض. ﴿وَأَنهَرُ مِنْ لَيْنٍ لَّهٗ يَغَيَّرُ طَعْمُهُ﴾ بخلاف لبن الدنيا، لخروجه من الضرع. ﴿وَأَنهَرُ مِنْ حَمْرٍ لَّدَقِ لِلشَّرِبِينَ﴾ أي تلذذ خالص ليس معه ذهاب عقل ولا سكر ولا صداع، بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب، و﴿لَّدَقِ﴾: تأنيث لَدَ، أي لذيد. ﴿وَأَنهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ منقى خالي من الشمع والقذى وفضلات النحل وغيرها، بخلاف عسل الدنيا فإنه بخروجه من بطون النحل يخالطه الشمع وغيره، والتوصيف بهذه الأوصاف يقتضي غزارتها واستمرارها.

﴿وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي لهم فيها أصناف من الثمار. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم مغفرة، أي قاله راضٍ عنهم، مع إحسانه إليهم بما ذكر، بخلاف الإنسان قد يكون مع إحسانه ساخطاً. ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً﴾ ماءً حاراً شديد الغليان، مكان أشربة أهل الجنة. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي مصارينهم من فرط الحرارة، جمع مِعَى.

المناسبة:

بعد بيان الفرق بين المؤمنين والكافرين في الاهتداء والضلال، بين الله تعالى الفرق بينهما في الجزاء والمرجع والمآل، فذكر ما للمؤمنين من أنواع النعيم في الجنة، وما للكافرين من الخلود في النار وشرب الماء شديد الحرارة الذي يقطع الأمعاء. والكلام متصل أيضاً بما قال عز وجل قبل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ فهناك بيان الجزاء، وهنا وصف تلك الجنات المعدة للمتقين.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى في هذه الآية نوعين من الجزاء لكل من الفريقين: جزاء مادي وجزاء معنوي، أما نوعا جزاء المؤمنين فهما المشروب والمطعم، والمغفرة

والرضوان، وأما نوعا جزاء الكافرين فهما المشروب الحار، والخلود في النار. ولما قدّم في الذكر في الآية السابقة المتبصر صاحب البيّنة على من اتّبع هواه، قدّم في هذه الآية حال الأول في المآل على حال الآخر.

ومعنى الآية: إن نعت الجنة أو وصفها العجيب الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين الذين اتّقوا عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه هو ما تسمعون. ثم ابتدأ بمشروب أهل الجنة:

- فيها أنهار جارية من ماء غير متغير الطعم والريح واللون لطول المكث، بل إنه ماء عذب فرات متدفق نقي غير مصحوب برواسب أو طحالب، من شربه لا يظمأ أبداً. وقد ابتدأ بالماء؛ لأنه أعم نفعاً للناس من بقية المشروبات. روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك».

- وفيها أنهار من حليب لم يحمض كما تتغير ألبان الدنيا، وهو في غاية البياض والحلاوة والدسومة، ورد في حديث مرفوع: «لم يخرج من ضرع الماشية» وثني باللبن؛ لأنه ضروري للناس كلهم، وهو غذاء كامل ومطعوم شهى.

- وفيها أنهار من خمر لذينة الطعم، طيبة الشرب، ليست كريهة الطعم والرائحة أو مرّة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة: «لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ» [الصافات: ٤٧/٣٧] ، «لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ» [الواقعة: ١٩/٥٦] ، أي ليس فيها ضرر ولا مادة مسكرة تزيل العقل، ولا يصيب شاربها صداع، ولا يذهب عقله، وإنما هي لذينة للشاربين: «بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» [الصافات: ٤٦/٣٧] . ورد في حديث مرفوع: «لم يعصرها الرجال بأقدامهم» . وذكرت في المرتبة الثالثة؛ لأنها ليست ضرورية، وإنما فيها متعة ذوقية، فهي لذينة الطعم، طيبة الشرب، لا يتكرهها الشاربون، وتناولها للذة بعد حصول الري والمطعوم.

- وفيها أنهار من عسل في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح، لم يخالطه شيء من الشمع والقذى والعكر والكدر، ثبت في حديث مرفوع: «لم يخرج من بطون النحل». وذكر في المرتبة الرابعة؛ لأنه ليس ضرورياً وإنما جمع بين مختلف الطعوم والإحساسات الذوقية المرغوبة، ولا شك أن الحلو أطيب الطعوم، والعسل أرقاها، وفيه فوائد كثيرة للجسد: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩/١٦]، ففيه الشفاء في الدنيا بعد المشروب والمطعم، وفيه الخير في الآخرة.

وإنما ذكر الله تعالى هذه الأجناس الأربعة من الأنهار؛ لأنها جمعت بين الضرورة (الماء) والحاجة (اللبن) والمتعة (الخمر غير المسكرة) والعلاج النافع (العسل).

أخرج الإمام أحمد والترمذي والبيهقي عن معاوية بن حيدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد».

ثم ذكر الله تعالى المأكول الممتع وهو الثمار والفواكه اليانعة، فللمتقين في الجنة مختلف أنواع الثمار وأصناف الفاكهة ذات الألوان البديعة، والروائح الذكية، والطعوم الشهية، كقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥/٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ ذَوَّجَ﴾ [الرحمن: ٥٢/٥٥]. ولما كان الأكل في الجنة للذة لا للحاجة ذكر الثمار ولم يذكر اللحم والخبز.

وبعد بيان الجزء المادي من المشروب والمأكول ذكر تعالى الجزء المعنوي وهو ظفر أهل الجنة مع ذلك كله بمغفرة الله ورضوانه وتجاوزه عن سيئاتهم وذنوبهم كرماً وحلماً وفضلاً ورحمة، والمغفرة تكون قبل دخول الجنة، فقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ كأنه قال تعالى: لهم الثمرات فيها، ولهم المغفرة قبل دخولها.

ثم قارن الله تعالى ما وعد به المتقين من النعيم بما أوعده الكافرين من الجحيم، فأبان: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة وبيننا ما هم فيه من نعيم وخلود، كمن هو خالد في النار؟ لا شك أنه لا يستوي من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، وليس أهل الجنة التي فيها الثمار والأنهار كأهل النار التي فيها الجحيم في العذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [عند: ٤٧/١٢] .

فالخلود صفة مشتركة بين أهل الجنة وأهل النار، ولكن شتان ما بين النوعين، الأولون خالدون في النعيم المقيم، والآخرون خالدون في العذاب الأليم.

وأما شراب أهل النار: فهو أن يسقوا من ماء حار شديد الغليان لا يستطيع، ولكنهم يضطرون إلى شربه، فيقطع الأمعاء والأحشاء، ويذيب ما في البطن لفرط حرارته، فهل شرابهم كشراب أهل الجنة المار الذكر والموصوف بما سبق؟

فقه الحياة أو الأحكام:

قارن الله تعالى بين نوعين من جزاء المؤمنين المتقين، والكافرين الظالمين، وهي مقارنة تستوجب التأمل، وتبين مدى الفرق الشاسع بين المرغب فيه والمرهب منه.

فمشروب المتقين من أنهار أربعة: الماء واللبن والخمر اللذيذة غير المسكرة والغسل، ومأكولهم مختلف أصناف الثمار، وأما شراب أهل النار فهو الماء الشديد الحرارة أو الغليان الذي يقطع الأمعاء، إذا دنا منهم شوى وجوههم، وسقطت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من أديبارهم. وليس هو ماء حميماً فحسب؛ لأن مجرد الحرارة لا يقطع، بل هو ماء حميم مخصوص يقطع.

ولأهل الجنة مع ذلك كله المغفرة من ربهم لذنوبهم، ورضوان الله عليهم،
ولأهل النار السخط والغضب الإلهي، والهزء والسخرية، والتوبيخ والتفريع.
والكل في خلود دائم، أهل الجنة خالدون ماكثون فيها على الدوام يرفلون
بالنعيم الدائم، وأهل النار خالدون مقيمون فيها أبداً، يتلظون بحرّ السعير
المنتهب المستمر.

قال ابن كيسان: مثل هذه الجنة فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها
الحميم والزقوم. ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب
المقيم، أي أمثل هؤلاء كهؤلاء؟! وقال الفراء: أضمن يخلد في هذا النعيم كمن
يخلد في النار؟!

جعلنا الله من أهل الجنان، وأعادنا من حرّ النيران.

أوصاف المنافقين والمؤمنين

- ١ -

حال المنافقين والمهتدين عند استماع آيات العقيدة

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ
ءِيفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۗ﴾ (١١)
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ ۖ هُدًى وَءَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٢) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ
أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ۚ ذَكَرَهُمْ﴾ (١٣) ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ
لِذُنُوبِكَ ۚ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمُ ۚ وَمَثَلُكُمْ﴾ (١٤)

الإعراب:

﴿ءِيفًا﴾ ظرف بمعنى وقتاً مؤقتاً، أو حال من ضمير: ﴿قَالَ﴾

﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ ﴿ذِكْرُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿فَإِنَّ لَهُمْ﴾: خبره، والمعنى: فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة. وتاء ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ للساعة. وذهب أبو الحسن الأخفش إلى أن ذكراهم يرتفع بالظرف وهو ﴿فَإِنَّ لَهُمْ﴾. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾: بدل اشتمال من ﴿السَّاعَةَ﴾، أي ليس الأمر إلا أن تأتيتهم الساعة فجأة.

البلاغة:

﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿نَقْوَاهُمْ﴾ ﴿ذِكْرُهُمْ﴾ سجع رصين غير متكلف، له جرس وإيقاع قوي على السامع.

المفردات اللغوية:

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من الكفار فئة المنافقين. ﴿مَنْ يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ﴾ في خطبة الجمعة وغيرها، وهم المنافقون، كانوا يحضرون مجلس الرسول ويسمعون كلامه، فإذا خرجوا ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي لعلماء الصحابة كابن مسعود وابن عباس، استهزاء وسخرية. ﴿مَاذَا قَالَ عَافِيًا﴾ أي ما الذي قال في هذه الساعة؟ استهزاء واستعلاماً، فقلوه: آفياً، أي الساعة التي قبل الوقت الذي أنت فيه، وقرئ بالمد والقصر، مأخوذ من أنف الشيء: وهو ما تقدم منه، فهو اسم فاعل لا تنف. أو هو مأخوذ من استأنف الشيء: إذا ابتدأه، أي ماذا قال في أول وقت يقرب منا. ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها بالكفر. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في التفاف.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ وهم المؤمنون. ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ زادهم الله بالتوفيق والإلهام. ﴿وَأَنذَهُمْ نَقْوَاهُمْ﴾ بين لهم ما يتقون به ربهم، وألهمهم ما يتقون به النار. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أي ما ينتظرون وهم أهل مكة غير مجيء القيامة؟ ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي ليس الأمر إلا أن تأتيتهم فجأة. ﴿أَشْرَاطُهَا﴾

علاماتها، منها بعثة النبي ﷺ، وانشقاق القمر، وظهور الدخان. ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ﴾ فكيف لهم. ﴿إِذَا جَاءَهُمْ﴾ الساعة. ﴿ذَكَرْتَهُمْ﴾ تذكروهم، أي لا ينفعهم حينئذ تذكروهم.

﴿قَالَهُمْ أَنَّهُ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ﴾ أي إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين، قدم واثبت يا محمد على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، وتكميل النفس بإصلاح أحوالها، وبما ينفع في القيامة، واطلب المغفرة لأجل ذنبك، وهذا الأمر مع عصمته ﷺ عن الذنوب للتعليم واستئذان أمته به، وقد فعل ذلك، فقال فيما رواه الطبراني عن أبي هريرة: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مئة مرة» أو أن أقل الذنب: ترك الأولى.

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي واستغفر أيضاً لأهل الإيمان بالدعاء لهم وتحريضهم على موجبات المغفرة. وفي إعادة الجار وهو اللام، وحذف المضاف وهو (ذنوب) إشعار بفرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم. ﴿مُتَقَلِّبُكُمْ﴾ تصرفكم وتقلبكم لأشغالكم في الدنيا. ﴿وَمَثْوًى لَّكُمْ﴾ إما سكونكم ومأواكم إلى مضاجعكم في الليل، وإما مأواكم في الجنة أو النار، أي هو عالم بجميع أحوالكم في الدنيا والآخرة، لا يخفى عليه شيء منها، فاحذروه والخطاب للمؤمنين وغيرهم.

سبب النزول:

نزل الآية (١٦):

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ﴾: أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ، فيستمع المؤمنون منهم ما يقول ويعونه، ويسمعه المنافقون فلا يعونه، فإذا خرجوا سألو المؤمنين: ماذا قال أنفأ؟ فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية.

وروى مقاتل: أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود، استهزاء: ماذا قال محمد أنفأ؟ قال ابن عباس: وقد سُئِلْتُ فيمن سُئِلَ.

المناسبة:

بعد بيان حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة، ذكر الله تعالى حال المنافقين، وأنهم من الكفار، وأنهم جهلة لا يفهمون كلام النبي ﷺ عند الاستماع إليه، وإنما يستمعون ولا يتفكرون، لنهاونهم واستهزائهم، على عكس حال المؤمن المهتدي، فإنه يستمع ويفهم، ويعمل بما يعلم. ثم هدد تعالى أولئك المنافقين وأمرهم بأن يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا قبل مجيء الساعة. ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالشباب على ما هو عليه من صحة الاعتقاد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات.

التفسير والبيان:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا﴾ أي ومن هؤلاء الكفار الخالدين في النار: منافقون يستمعون كلام النبي ﷺ وتلاوته في خطبه ومجالسه، فلا يفهمون منه شيئاً لعدم وعيهم وإدراكهم وإيمانهم، فإذا خرجوا من عنده قالوا لعلماء الصحابة الواعين لما سمعوا، وسألوهم على طريقة الاستهزاء والاستخفاف والسخرية: ماذا قال النبي في الساعة القريبة من هذه؟ والمعنى: أننا لم نلتفت إلى قوله، ولم نكثر بما يتكلم به، ولم نفهم ما يقول، ولم ندر ما نفع ذلك.

فوصفهم الله تعالى وصفاً يدل على حقيقتهم، فقال:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي أولئك المنافقون هم الذين ختم الله على قلوبهم بسبب نفاقهم، فلم يؤمنوا ولم يهتدوا إلى الحق، ولا

اتجهت قلوبهم إلى شيء من الخير، واتبعوا شهواتهم وأهواء نفوسهم في الكفر والعناد، أي إنهم تركوا اتباع الحق إما بسبب عدم الفهم، أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة، واتبعوا ضده، فليس لديهم فهم صحيح ولا قصد حسن.

ثم قابلهم الله تعالى بالمؤمنين المهتدين، فقال:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (٧) أي والذين قصدوا الهداية إلى طريق الخير، وفقهم الله تعالى، وشرح صدورهم، فأمنوا بالله وعملوا بما أمرهم به، وثبتهم على الهدى، وزادهم هدى بالتوفيق، وألهمهم رشدهم وأعانهم على التقوى، بالتوفيق للعمل الذي يرضاه.

ثم هددهم الله تعالى بمجيء القيامة، فقال:

﴿فَهَلْ يُظُنُّونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ (٨) أي فهل ينتظر المنافقون والكافرون إلا مجيء القيامة التي تأتيهم فجأة وهم غافلون عنها، وقد حدثت أماراتها وعلاماتها، ومنها بعثة النبي ﷺ، ورد في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالوسطى والسبابة».

ومن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة (القيامة) حيث لا ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣/٨٩] أي لا ينفعهم تذكرهم وإيمانهم حينئذ.

والمراد بالآية أن أدلة الإيمان بالله تعالى وصدق رسوله ﷺ وبالبعث كثيرة ساطعة بالبرهان في القرآن والفطرة والنفس والعقل وعالم الشهادة والحس، فإذا لم يؤمنوا في وقت قريب قبل مجيء الموت والقيامة، فلا ينفعهم إيمان حينئذ بعد انتهاء العمر وزوال الدنيا التي هي دار العمل والتكليف.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالشبات على ما هو عليه والاستغفار، فقال:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١) أي إذا علمت أيها النبي حال الفريقين: المؤمن والكافر، من السعادة والشقاوة ومجيء علامات القيامة وأشراتها فاثبت واستمر على ما أنت عليه من التوحيد ومراقبة النفس، واعلم أنه لا إله غير الله ولا رب سواه، وأن البعث حق آت لا ريب فيه، واستغفر مما قد يصدر منك مما هو خلاف الأولى، واستغفر أيضاً لذنوب أتباعك وأمتك، بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم، والله يعلم أعمالكم وتصرفكم في أشغالكم نهاراً، ومستقركم ليلاً، وقيل: أو مأواكم في الدار الآخرة، قال ابن كثير: والأول أولى وأظهر، وفي هذا ترغيب بالعمل وترهيب من المخالفة.

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠/٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦/١١].

وكان من دعاء النبي ﷺ عملاً بالأمر الإلهي بالاستغفار والدعاء: ما ورد في صحيح البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي».

وفي الحديث الصحيح أيضاً أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت».

(١) الفاء في هذه الآية وما تقدمها لعطف جملة على جملة بينهما اتصال.

وثبت في الصحيح كذلك أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وروى أبو يعلى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: إنما هلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون».

وفي الأثر المروي: «قال إبليس: وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم، فتلا هذه الآية: ﴿فَاعْلَمْ﴾ وذلك أنه أمر بالعمل بعد العلم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - المنافقون كعبد الله بن أبي بن سلول، ورفاعة بن التابوت، وزيد بن الصليب، والحارث بن عمرو، ومالك بن دُخْشُم قوم انتهزيون نفعيون، كانوا يحضرون الخطبة النبوية يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألو عنه، وهم أيضاً قوم جهلة لإقفار قلوبهم من الإيمان، وخلو عقولهم من الوعي والإدراك، فكانوا يحضرون عند رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر.

٢ - لذا وصفهم الله تعالى بأنهم ممن طبع الله على قلوبهم بكفرهم فلم يؤمنوا واتبعوا أهواءهم في الكفر، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

٣ - من منهج القرآن: الموازنة والمقارنة بين الأضداد ليتبين الفرق، فكثيراً ما يقابل بين المؤمنين والكافرين كما في الآيات المتقدمة، أو بين المؤمنين والفجار، وهنا قابل بين المؤمنين المهتدين والمنافقين، فالمنافقون طبع الله على قلوبهم بكفرهم واتبعوا أهواءهم في الكفر، والمؤمنون زادهم الله هدى، فعلموا ما سمعوا وعملوا بما علموا، وآتاهم تقواهم، أي ألهمهم التقوى، ووقفهم للعمل الذي فرض عليهم.

٤ - إذا كانت البراهين على وجود الله وتصديق نبيه والإيمان بالبعث قد اتضحت، والكافرون والمنافقون لم يؤمنوا، فلا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة التي ستأتيهم فجأة، وظهرت علاماتها وأماراتها، ومنها بعثة النبي ﷺ وانشقاق القمر والدخان، وكثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللثام.

ولكن حين مجيء الساعة لا ينفعهم التذكر والإيمان؛ إذ لا تقبل التوبة ولا يحسب الإيمان.

٥ - لا يفيد المؤمن إلا الثبات على توحيد الله، والاعتقاد بأن لا إله إلا الله لها الفوقية والتقدم على كل شيء، والاشتغال بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، وهذا دليل التأخي والمحبة والرغبة في الخير والسعادة لأهل الإيمان جميعاً، ودليل على وجوب استغفار الإنسان لجميع المسلمين.

وقد أمر النبي ﷺ بالدوام والاستمرار على عقيدة التوحيد والإخلاص، وبالاستغفار لذنبه ولذنوب المؤمنين والمؤمنات؛ لأنه القدوة المثل والأسوة الحسنة للأمم، ولتعليم أمته انتهاج منهجه واقتفاء سيرته. وذنوب الأنبياء: تركهم ما هو الأولى بمنزلتهم العالية عند الله تعالى. وتقديم الأمر بالتوحيد على الاستغفار دليل على تقديم العلم على العمل، وعلى أن أول الواجبات العلم والنظر قبل القول والإقرار، وفي الآية ما يدل على التواضع وهضم النفس؛ لأن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بالاستغفار لذنبه وذنوب من على دينه.

٦ - لا يخفى على الله تعالى شيء من حركات بني آدم وسكناتهم، بل وجميع خلقه، فهو سبحانه عالم بجميع ذلك جملة وتفصيلاً، فيعلم متقلبهم وتصرفهم في النهار، ومستقرهم بالليل، ومثواهم في الدنيا والآخرة. وعلى هذا يكون حمل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَثَوَكُمْ﴾ على العموم لكل ما ذكر أولى وأحرى كما اختار القرطبي رحمه الله تعالى.

والعلم بأن الله رقيب على كل شيء يستدعي الطاعة والعمل الصالح، ويوجب الرهبة من العصيان والمخالفة، وهو معنى التقوى التي يوفق الله إليها عباده المؤمنين.

- ٢ -

حال المنافقين والمؤمنين عند نزول الآيات العملية

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَفُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۞ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۞﴾

القرءات:

﴿عَسَيْتُمْ﴾:

وقرأ نافع (عَسَيْتُمْ).

الإعراب:

﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ مبتدأ وخبر، أي فويل لهم. ﴿فَأُولَئِكَ﴾: اسم للتهديد والوعيد، كأنه قال: الوعيد لهم، وهو ممنوع من الصرف؛ لأنه على وزن أفعل معرفة.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ «إِنْ تَوَلَّيْتُمْ»: جملة شرطية، وقعت اعتراضاً بين اسم (عسى) وخبرها، وتقديره: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم إن توليتم.

البلاغة:

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ مجاز عقلي، لأنه نسب العزم إلى الأمر، وهو لأهله، مثل: (نهاره صائم).

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أبلغ في التوبيخ وأكد في التقريع. وفيه ما يسمى في البلاغة في غير القرآن بتجاهل العارف أي سلوك طريقة الاستخبار.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ «لَوْلَا» للحث أو الحض على حصول ما بعدها، والمراد: يقول المؤمنون: هلا نزلت سورة في أمر الجهاد «تُحْكِمُهُ» مبينة واضحة لا شبهة ولا احتمال فيها لمعنى آخر. «وَذِكْرَ فِيهَا الْقِتَالِ» أي الأمر به. «مَرَضٌ» ضعف في الدين وشك ونفاق. «نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» أي نظر المغمى عليه خوفاً من الموت، أو المحتضر الذي لا يحرك بصره، والمراد أن المنافقين يخافون من القتال ويكرهونه. «فَأُولَئِكَ لَهُمْ» أي فالويل والهلاك لهم، مأخوذ من الوَلَّى أي القرب، ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه، أو يؤول إليه أمرهم. قال ابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل: وهي كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَكَ فَأُولَى﴾ (القيامة: ٣٤/٧٥).

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ استئناف كلام جديد، أي الطاعة والقول المعروف خير لهم، أي أحسن وأمثل، قال الرازي: لا يقال: طاعة نكرة لا تصلح

للابتداء، لأننا نقول: هي موصوفة، يدل عليه قوله: ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ فإنه موصوف، فكأنه تعالى قال: طاعة موصوفة وقول معروف خير^(١). وقيل: ذلك حكاية قولهم، لقراءة أبي: (يقولون طاعة وقول معروف).

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ جد أصحاب الأمر، بأن فرض القتال. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد والإيمان والطاعة. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي لكان الصدق خيراً لهم، وجملة ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ جواب ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ ولا يضر اقترانه بالفاء، وجواب (لو): لكان.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بكسر السين وفتحها، أي لعلمكم، أو فهل يتوقع منكم إلا الإفساد إن أعرضتم عن الإيمان والقتال. وكلمة (عسى) تدل على توقع حصول ما بعدها. وبما أن التوقع من الله غير متصور؛ لأن الله عز وعلا عالم بما كان وبما يكون، فتفيد هنا التحقق، أي لعلمكم إن أعرضتم وتوليتم عن دين الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالإغارة والنهب والسلب وقطع الأرحام، ومقاتلة بعض الأقارب بعضاً وواد البنات. أو إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي المفسدون. ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ طردهم الله من رحمته لإفسادهم وقطعهم الأرحام. ﴿فَأَصْمَمَهُمْ﴾ عن استماع الحق. ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ جعلها كالعمياء عن طريق الهدى، فلا يهتدون سبيله.

المناسبة:

بعد بيان حال الكافر والمنافق والمهتدي عند استماع آيات العقيدة أو الآيات العلمية من التوحيد والحشر والبعث وغيرها من أصول الاعتقاد في

(١) تفسير الرازي: ٦٢/٢٨ وما بعدها.

الإسلام، بين تعالى حالهم عند نزول الآيات العملية، كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها، فأوضح أن المؤمن كان ينتظر نزولها، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول: هلا أمرنا بشيء من العبادة، ليتقرب إلى ربه ويحظى برضاه، وأن المنافق كان إذا نزل شيء من التكاليف البدنية أو المالية شقّ عليه، ليعلم تباين الفريقين في العلم والعمل، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل، والمؤمن يعلم ويجب العمل.

لذا كافأ الله المؤمنين بالرضا والمحبة والجنة، وجوزي المنافقون باللعنة والطرد من الرحمة والخير.

التفسير والبيان:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ ۖ﴾ أي يتمنى المؤمنون المخلصون شرعية الجهاد، فيسألون ربهم عز وجل قائلين: هلا أنزلت سورة يأمرنا فيها ربنا بقتال الكفار، حرصاً على ثواب الجهاد، ونيل درجات المجاهدين، فإذا أنزلت سورة بيّنة واضحة في الأمر به، وذكر فيها أن الجهاد فرض على المسلمين، فرحوا بها، وشقّ على المنافقين ورأيت الذين في قلوبهم شك ومرض ونفاق وهم المنافقون، ينظرون إليك نظر المحتضر الذي شخّص بصره عند الموت، جنباً عن القتال، وخوفاً من لقاء الكفار، فالويل والموت والهلاك أولى لهم أي قاربهم ما يهلكهم، واللام في (لهم) مزيدة، أو فالأولى والأجدر بهم أن يسمعوا ويطيعوا في الحالة الراهنة، أو العقاب أحق وأولى بهم.

وهذا على المعنى الأول تهديد لهم ووعيد بقرب هلاكهم، وقوله: ﴿يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ﴾ تصوير رائع لحالة الجبن والفرع والخوف في نفوسهم من لقاء الأعداء. وفي الآية افتضاح أمر المنافقين عند

الأمر بالقتال، أما قبل القتال فكانوا يترددون إلى الفتيتين: فئة المؤمنين وفئة الكافرين.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الدِّينِ قِيلَ لَهُمُ اقْبَلُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْنَا أَجَلَ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧/٤] .

وبعد هذا التهديد والوعيد، قال الله تعالى مشجعاً لهم:

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي طاعة مخلصه الله وقول معروف أحسن وأمثل وخير لهم من غيرهما.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي فإذا جدَّ الحال وفرض القتال، فلو صدقوا في ذلك القول وفي القتال، وأطاعوا الله تعالى، وأخلصوا له النية، لكان إظهار الإيمان والطاعة خيراً لهم من المعصية والمخالفة.

ثم ونَجَّهم الله تعالى، وردَّ على شبهتهم في أن القتال إفساد وأن العرب من ذوي أرحامنا وقبائلنا، فقال:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي فلعلكم إن توليتم عن الطاعة والجهاد، وأعرضتم عن القتال وتنفيذ أحكامه، أو فهل يتوقع منكم إن توليتم أمر الأمة أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، فتسفكوا الدماء، وتفسدوا في الأرض بالبغي والظلم والنهب والسلب والمعاصي، وتقطعوا أرحامكم بالقتل والعقوق ووآد البنات وسائر مفسدات الجاهلية. قال قتادة وغيره: معنى الآية: فلعلكم أو يخاف عليكم إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض ولسفك الدماء.

قال أبو حيان: والأظهر أن ذلك خطاب للمنافقين في أمر القتال، وهو الذي سبقت الآيات فيه، أي إن أعرضتم عن امثال أمر الله تعالى في القتال، هل ينتظر منكم إلا أن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام، فإذا لم تعينهم قطعتم ما بينكم وبينهم من صلة الرحم، ويدل على ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ فالآيات كلها في المنافقين. وهذا التوقع الذي في (عسى) ليس منسوباً إليه تعالى؛ لأنه عالم بما كان وما يكون، وإنما هو بالنسبة لمن عَرَفَ المنافقين كأنه يقول لهم: لنا علم، من حيث ضياعهم، هل يتوقع منكم إذا أعرضتم عن القتال أن يكون كذا وكذا^(١)

وهذا حث لهم على التدبر وترك العصبية والجدال، فالله يعلم أنهم إن ولّوا أمور الناس، أو أعرضوا عن هذا الدين، لم يصدر عنهم إلا القتل والنهب وسائر أنواع المفساد، كعادة أهل الجاهلية.

لذا حكم الله عليهم باللعنة، فقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۖ﴾ أي أولئك الظالمون وسفاكو الدماء بغير حق هم الذين أبعدهم الله من رحمته وطردهم عنها، فأصمهم في الدنيا عن استماع الحق، وأعمى أبصارهم عن رؤية الحق والنظر في أدلة الكون الدالة على عدالة نظام الله تعالى وشرعه في عباده من تحريم الدماء والأموال بغير حق. وإنما لم يقل: (أصم آذانهم) لأن السمع لا يتفاوت بوجود الأذن وعدمها، ولذلك يسمع مقطوع الأذن، أما الرؤية فتتعلق بالبصر نفسه، فذكر الأبصار، ولم يذكر الأذن.

وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، وأمر بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «وخلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه، قامت الرحم، فأخذت بحقوي^(١) الرحمن عز وجل، فقال: مة، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٣١﴾

فقه الحياة أو الأحكام:

أ - المؤمنون المخلصون مشتاقون للوحي، حريصون على الجهاد وثوابه، والمنافقون هدامون لكيان الأمة، جبناء في القتال خوفاً وهلعاً، ميالون في السر إلى الكفار، نافرون من التكاليف الشرعية، وخصوصاً فرض الجهاد.

٢ - هدد الله المنافقين وأوعدهم وحذرهم بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ» أي الويل والهلاك لهم، والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه، أو أحق وأجدر بهم طاعة الله تعالى وقول معروف.

ثم رغبهم في إصلاح أمرهم، ودعاهم إلى الطاعة، وأبان لهم أن الطاعة المخلصة والقول المعروف أمثل لهم وأحسن وخير من المخالفة والعصيان ودعاية السوء.

٣ - أكد تعالى دعوتهم إلى الطاعة وتحذيرهم من المخالفة، فأبان أنه إن جد الأمر وفرض القتال كرهوه^(٢)، أو فإذا عزم أصحاب الأمر، فلو صدقوا الله في الإيمان والجهاد، لكان خيراً لهم من المعصية والمخالفة.

(١) الحقو: الإزار أو الحضر، والمراد هنا مجاز عن شدة التعلق واللجوء إلى الله والاستعانة.

(٢) فيكون جواب «إذا» محذوفاً.

٤ - إن سلوك المنافقين إن تولوا أمر الأمة أو إن أعرضوا عن كتاب الله تعالى ودينه واتباع رسوله ﷺ أمر معروف، وهو العودة إلى مفاصد الجاهلية من الإفساد في الأرض بسفك الدماء الحرام، والبغي والظلم، والنهب والسلب، وتقطيع الأرحام.

٥ - لا يستحق أولئك المنافقون إن استمروا على نفاقهم إلا الطرد والإبعاد من رحمة الله، وإلقاء الصمم في الآذان عن سماع الحق، والعمى في الأبصار والقلوب عن إدراك الخير، فكل من سار على نهجهم، حَقَّتْ عليه اللعنة، وسلبه الله الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق، وإن سمعه، فكأنه كالبهيمة التي لا تعقل.

- ٣ -

حال المنافقين بعد ردتهم وعند قبض أرواحهم والتذكير بحكمة الجهاد

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ
أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَارَهُمْ ۝٢٧ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۝٢٨ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ
أَصْفَتَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَمَعَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠ وَلَسْبَلُونَكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَيَبْلُغُوا
أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾

القراءات:

﴿الْقُرْآنَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمة وقفاً (القران).

﴿وَأَمَلَى﴾:

وقرأ أبو عمرو (وَأَمَلَى).

﴿إِسْرَارُهُمْ﴾:

وهي قراءة حفص، وحمة، والكسائي.

وقرأ الباقر (أسرارهم).

الإعراب:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا﴾ ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ إما قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ وإما مقدر تقديره: معذبون.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾: في موضع رفع، خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فكيف حالهم، فحذف المبتدأ للعلم به. وجملة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿الْمَلَكَةُ﴾. وفاء ﴿فَكَيْفَ﴾: فاء التفریع لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

البلاغة:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ استفهام توبيخي.

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ استعارة تصرية، شبه قلوبهم بالأبواب المقفلة، فهي لا تنفتح لوعظ واعظ.

﴿أَزْنَدُوا عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ﴾ كناية عن الكفر بعد الإيمان.

المفردات اللغوية:

﴿يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يفهمونه ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقتحموا المعاصي ويقعوا في الموبقات ﴿أَمَرَ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي بل على قلوب لهم مغاليقها التي لا تفتح، فلا يفهمونه. وتنكير ﴿قُلُوبٍ﴾ لأن المراد: قلوب بعض منهم، وإضافة الأقفال لها للدلالة على أقفال مناسبة لها، مختصة بها، وليست من جنس الأقفال المعهودة، والأقفال جمع قفل. وهو استفهام توبيخي، و﴿أَمَرَ﴾: منقطعة بمعنى (بل) والهمزة للتقرير.

﴿أَزْنَدُوا عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ﴾ رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زين لهم خطاياهم وسهل لهم ﴿وَأَمَّلَىٰ لَهُمْ﴾ مد لهم في الآمال والأمانى الباطلة ووعدهم بطول الأجل، والضمير للشيطان، أي الممي والمضل هو الشيطان، بإرادته تعالى.

﴿ذَلِكَ﴾ الإضلال ﴿يَا نَهْمُ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي قال المنافقون للمشركين أو لليهود، أو قال اليهود الذين كفروا بالنبي ﷺ بعدما تبين لهم نعتة للمنافقين ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بعض أموركم، كالقعود عن الجهاد والمعاونة على عداوة النبي ﷺ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي إنهم قالوا ذلك سراً، فأظهره الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى، والإسرار: مصدر وهو السر، وقرئ بفتح الهمزة: أسرارهم جمع سر.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ﴾ أي فكيف حالهم، أو فكيف يعملون ويحتالون حيثنذ؟ ﴿بَصُرُوتٌ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرُهُمْ﴾ تصوير لتوفيقهم، أي يتوفونهم وهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد، وفي هذا تخويف وتهديد، إذ يتعرضون عند التوفي إلى أهوال وفظائع تشبه ما يجنبون عن القتال له ويخافون منه.

﴿ذَلِكَ﴾ التوفي الموصوف بالحالة المذكورة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾ من الكفر وكتمان نعت الرسول ﷺ وعصيان الأمر ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ كرهوا العمل بما يرضيه من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها.

﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَثَهُمْ﴾ أن لن يبرز الله تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين أحقادهم، والأضغان: جمع ضِغْن أي حقد شديد ﴿لَأَرْسَنَكُهُمْ﴾ أي عَرَّفْنَاكُم بدلائل تعرفهم بأعيانهم، واللام لام الجواب، وكررت في المعطوف الآتي: ﴿فَلَعَرَفْنَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي بعلامتهم، والفاء هنا فاء التفریع ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله لتعرفنهم ﴿لَحْنُ الْقَوْلِ﴾ أسلوبه ومعناه، أو إمالته عن وجهه الصريح إلى التعريض والتورية، فإذا تكلّموا عندك عَرَّضُوا بما يعيب أمر المسلمين ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيجازيكم على حسب قصدكم: إذ الأعمال بالنيات.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ لنختبرنكم بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة أي نعاملكم معاملة المختبر بالجهاد ﴿حَتَّىٰ قَلَمَ﴾ علم ظهور وانكشاف، أما العلم الحقيقي فهو متوفر بالنسبة لله ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في الجهاد وغيره من المشاق ﴿وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ نظهر حسن أعمالكم وقبحها، وطاعتكم وعصيانكم في الجهاد وغيره، أو أخبركم عن الإيمان وموالات المؤمنين صدقاً وكذباً.

الخاصة:

بعد بيان حال إعراض المنافقين عن الخير واستماع القرآن، أمرهم تعالى بتدبر القرآن، ونهاهم عن الإعراض عنه كيلا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات، ثم أخبر أنهم رجعوا وارتدوا إلى الكفر بعدما تبين لهم حقيقة الإسلام بالدلائل الواضحة، أو نعت محمد ﷺ في التوراة بالمعجزات الباهرة، وأوضح سبب ردتهم وهو قولهم ليهود بني قريظة والنضير: سنطيعكم في بعض الأمور والأحوال.

ثم ذكر تعالى ما يلاقونه من أهوال عند قبض أرواحهم بسبب اتباع أهوائهم وإسقاط ربهم، وأردفه ببيان قدرة الله على كشف أحوالهم وافتضاح أمرهم، وأعلن صراحة لهم أن الدنيا دار اختبار بالأوامر والنواهي كالجهاد وغيره، ليعلم المجاهد الصادق في إيمانه، والصابر على مشاق التكليف وليختبر أعمالهم الحسنة والسيئة وأخبارهم التي يشيعونها، فيجازيهم بما عملوا.

التفسير والبيان:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٦) أي أفلا يتفهم هؤلاء المنافقون وغيرهم القرآن ويتصفحونه، فيعملون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة؟ بل أعلی قلوبهم أقفال؟ فهم لا يفهمون ولا يعقلون شيئاً من معانيه، ولا تفتح قلوبهم للحق، وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار.

والآية توبيخ لهم، وأمر بتدبر القرآن وتفهمه، ونهي عن الإعراض عنه. وقد وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة، فإنه تعالى قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير وغير ذلك من الأمور الحسنة، ﴿فَاصْنَهُمْ﴾ لا يسمعون حقيقة الكلام، وأعمالهم لا يتبعون طريق الإسلام، فهم كما حكى القرآن بين أمرين: إما ألا يتدبروا القرآن؛ لأن الله أبعدهم عن الخير، وإما أن يتدبروا لكن لا يدخل معانيه في قلوبهم؛ لكونها مقفلة.

ثم أبان الله تعالى منشأ ذلك مشيراً إلى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثته وارتدوا، أو مشيراً إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ (٢٧) أي إن الذين فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر،

من بعد ما ظهر لهم الهدى بما جاءهم به رسول الله ﷺ من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة، زين لهم الشيطان خطاياهم، وسهل لهم الوقوع فيها، وحسن لهم الكفر، وخدعهم وغرهم بالأمانى والآمال، ووعدهم بطول العمر ومدّ الأجل.

وهذا الكلام: قيل: إنه في أهل الكتاب، قال قتادة: نزلت في قوم من اليهود، وكانوا عرفوا أمر الرسول ﷺ من التوراة، وتبين لهم بهذا الوجه، فلما باشروا أمره، حسدوه، فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى.

وقيل: إنه في المنافقين، قال ابن عباس وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا، ثم ماتت قلوبهم.

والظاهر- كما ذكر أبو حيان- أن الآية تتناول كل من دخل في لفظها.

ثم بين الله تعالى بعض مظاهر ضلالهم، فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢٦) أي ذلك الارتداد والكفر بعد الإيمان بسبب أن هؤلاء المنافقين وغيرهم من اليهود الذين ارتدوا على أدبارهم قالوا للذين أبغضوا ما نزل الله في قرآنه، وهم المشركون أو اليهود: يهود بني قريظة والنضير من يهود المدينة: سطيعكم في بعض الأمور، كعداوة النبي ﷺ، ومخالفة ما جاء به، والقعود عن الجهاد معه، أي إنهم مالؤهم وتآمروا معهم سراً أو في الباطن، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبيتون.

لذا كشفهم الله وأبان أنه يعلم ما يسرون وما يخفون وما يعلنون، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: ٨١/٤]

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾
[الحشر: ١١/٥٩].

ثم ذكر الله تعالى سوء حالهم وما يتعرضون له من أهوال حين توفيتهم، فقال:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ (١٧)؟ أي فكيف حالهم وكيف يعملون ويصنعون إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، واستخرجتها بالعنف والقهر وضرب وجوههم وظهورهم، وذلك بكيفية يكرهونها وحال يخافونها في الدنيا، ويحسبون عن القتال من أجلها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠/٨] وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ - أي بالضرب - ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣/٦]. ومعنى الكلام التخويف والتهديد؛ أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر.

وسبب هذه الأهوال ما قال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨) أي ذلك التوفي على الصفة المذكورة بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي، وتآمرهم مع أعداء الله على معاداة ومحاربة النبي ﷺ وأصحابه، وكرهيتهم ما يرضي الله من الإيمان الحق والتوحيد والطاعة، فأبطل الله أعمالهم الخيرية بهذا السبب، ومنها ما قد عملوا من الخير قبل الردة، كالصدقة وعون البائس الفقير وإغاثة الملهوف؛ لأنهم فعلوه أثناء الشرك والكفر وأمر الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (١٣) [الفرقان: ٢٥/٢٣].

ثم ويخ الله تعالى المنافقين وهددهم على قصر نظرهم وعداوتهم للمؤمنين، فقال:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَثَهُمْ﴾ (٢٩) أي أيعتقد هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق وحقد وعداوة للمؤمنين أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ويبرز أحقادهم وعداوتهم؟! لا تظنوا هذا، فالله عالم الغيب والشهادة، يعلم السر وأخفى، فيوضح أمرهم ويجليه ويفضح شأنهم كما فعل في سورة براءة التي تسمى الفاضحة.

ثم أكد تعالى هذا المعنى بقوله:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠) أي ولو نشاء يا محمد لأعلمناك أشخاصهم، وعرفناك أعيانهم معرفة تقوم مقام الرؤية، فعرفتكم بعلامتهم الخاصة بهم التي يتميزون بها، ولكنه تعالى لم يفعل ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحلاً للأمر على ظاهر السلامة.

والله لتعرفنهم يا محمد في فحوى الكلام ومقصده ومغزاه، وهو تعريضهم بأمرك وأمر المسلمين، ومخاطبتهم النبي ﷺ بألفاظ ظاهرها الحسن، وباطنها القبح. قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. وعن أنس أنه ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، ولقد كنا في بعض الغزوات، وفيها تسعة منهم يشكوهم الناس، فناموا ذات ليلة، وأصبحوا، وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب: هذا منافق.

والله لا تخفى عليه خافية، ويعلم جميع أعمالهم، فيجازيهم عليها من خير أو شر. وهذا وعد ووعد، وبشارة وإنذار.

ثم أعلن الله تعالى منهج الحياة الدنيوية بالنسبة للتكاليف الشرعية، فقال:

﴿وَلَتَبْلُوكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ أي ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي ونعاملنكم معاملة المختبر، ومنها الجهاد في سبيل الله، حتى نعلم علم ظهور وانكشاف، فالله يعلم الحقائق كلها قبل وجودها، وإنما التكليف يظهر المجاهدين بحق في سبيل الله، الذين امتثلوا الأمر بالجهاد، ويظهر الذين صبروا على دينه ومشاق ما كَلَّفَ به، ويظهر أخبار الناس ويكشفها امتحاناً لهم، ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به، ومن عصى ولم يمثل. ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا: إلا لنعلم، أي لنرى. وقال علي رضي الله عنه: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾: حتى نرى.

وقال إبراهيم بن الأشعث: كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبتلينا، فإنك إذا بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - يجب على المسلمين وغير المسلمين تدبر القرآن وتفهمه للتعرف على أحكامه ومراميه وغاياته، وليعلم ما أعد الله للذين تولوا عن الإسلام، فإن لم يفعلوا أقفل الله عز وجل قلوبهم بأقفال الكفر والعناد، فهم لا يعقلون.

وهذا رد على مذهب القدرية والإمامية الذين يقولون: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه.

٢ - إن كل من ظهرت له الدلائل على صحة عقيدة الإسلام وشريعته وسمعها، ولم يؤمن بها، فهو ممن زين له الشيطان سوء عمله وخطاياها، سواء كان من أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد ﷺ وبعثته، وارتدوا، أو من غير أهل الكتاب.

٣ - لقد تأمر المنافقون واليهود على النبي ﷺ والمؤمنين، في الباطن والسر،

وعادُوهم، وتواطؤوا مع المشركين الذين كرهوا ما نزل الله في كتابه على توهين قوة المسلمين، ولكن الله تعالى مطلع على سرهم، وكاشف أمرهم، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ بذلك.

٤ - يتعرض الكفار والمنافقون لأهوال شديدة عند الوفاة، فتتزع الملائكة أرواحهم بعنف وشدة، وتضرب وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد.

٥ - إن سبب تلك الأهوال في الدنيا هو اتباعهم ما أسخط الله بإضمار الكفر إن كانوا منافقين، أو بكتمان ما في التوارة من نعت محمد ﷺ، وكراهيتهم ما يرضي الله وهو الإيمان، مما يؤدي إلى إحباط أعمالهم التي عملوها من صدقة وصلة رحم وغير ذلك.

٦ - يخطئ المنافقون الظن إن توهموا ستر الحال وألا يخرج أو يبرز الله ما يضمرونه من مكروه وحسد، وحقد وعداوة لنبي الله تعالى والمؤمنين.

٧ - إن في قدرة الله تعالى أن يعرف نبيه بأعيان المنافقين، وقد عرفه إياهم بأوصافهم لا بأسمائهم في سورة براءة، ويمكن معرفتهم بسهولة فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، فإن فحوى الكلام ومعناه ينبئ عن حقيقة الحال، والله يعلم أعمال عباده، فلا يخفى عليه شيء منها. ومن أمثلة تعريفهم في سورة براءة قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣/٩] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤/٩] .

وثبت في السنة تعيين جماعة من المنافقين، روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: «خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن فيكم منافقين، فمن سميت فليقم، ثم قال: قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا

فلان، قم يا فلان، حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً، ثم قال: إن فيكم منافقين، فاتقوا الله، قال: فمرّ عمر رضي الله عنه برجل ممن سُمّي مَقْنَعٌ قد كان يعرفه، فقال مالك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، قال: بُعْدًا لَكَ سائر الدهر.

٨ - إن ميدان الحياة ميدان اختبار وتجربة لينكشف الناس بعضهم لبعض، فيتعبدهم الله بالشرائع، وإن علم سبحانه سلفاً عواقب الأمور، من أجل رؤية المجاهدين في سبيل الله والصابرين على مشاق التكليف، وتمييزهم عن غيرهم، واختبار أخبارهم وإظهارها للملأ، فبالجهاد يعلم الصادق في إيمانه أو قوله: أمنت، من الكاذب الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

حال بعض كفار أهل الكتاب

وبعض المؤمنين في الدنيا والآخرة

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ ۖ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ۖ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۖ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَٰمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَزَ أَعْمَالَكُمْ ۖ﴾ ﴿٣٤﴾

القرآيات:

﴿السَّالِمِ﴾ :

وقرأ حمزة (السلم).

الإعراب:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ : خبر ﴿إِنَّ﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَنْ

يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» ودخلت الفاء في الخبر؛ لأن اسم ﴿إِنَّ﴾: ﴿الَّذِينَ﴾، فشابه الشرط؛ لأنه مبهم، ولم يؤثر دخول ﴿إِنَّ﴾ بخلاف ما لو دخلت (ليت ولعل وكان) فإنه لا يجوز فيه دخول الفاء في الخبر مع ليت ولعل وكان، لأن ﴿إِنَّ﴾ للتأكيد، وتأكيد الشيء لا يغير معناه، بخلاف (ليت ولعل وكان) فإنها غيرت معنى الابتداء؛ لإدخال معنى التمني والترجي والتشبيه.

﴿وَأَنْتَ الْأَعْلَوْنَ﴾ حذف منه واو لام الفعل.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن طريق الحق، قيل: إنهم المشركون كفار قريش وهم المطعمون يوم بدر، والراجح أنهم أهل الكتاب يهود بني قريظة وبني النضير؛ لأن الله ذكر المشركين في أول السورة، ثم ذكر المنافقين ﴿وَسَأَقُوا الرَّسُولَ﴾ خالفوه، بأن صاروا في شق وجانب، وهو في شق وجانب آخر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ وهو معنى سبيل الله أي طريق الحق، وهذا يؤيد أن الآية في أهل الكتاب، تبين لهم في كتبهم صدق محمد ﷺ ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بكفرهم وصددهم عن سبيل الله، وهو تهديد معناه: هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول ﷺ، والواقع أنه مع الله تعالى، فإن محمداً رسول الله ﷺ ما عليه إلا البلاغ، فإن ضرروا ضرروا الرسل، والله منزّه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق ﴿وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي يبطل أفعالهم الخيرية من صدقة وصلة رحم ونحوها، فلا يرون لها في الآخرة ثواباً، فيكون المعنى: يبطل حسنات أفعالهم بكفرهم ومشاققتهم ومعاداتهم الرسول ﷺ.

﴿وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَلُكُمْ﴾ لا تبطلوا ثواب أفعالكم بما أبطل به هؤلاء، كالكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها، قال البيضاوي: وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن طريق الحق والهدى ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ

يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» هذا عام في كل من مات على كفره، وإن صح نزوله في أصحاب القلب (البئر غير المطوية) يوم بدر.

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ لا تضعفوا ﴿وَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ بكسر السين وفتحها، أي إلى الصلح خوراً وتذللاً مع الكفار إذا لقيتموهم، وقرئ: ولا تدعوا: من ادعى بمعنى دعا ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْلَبُونَ﴾ الأغلبون القاهرون ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر، أي ناصركم ﴿وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَعْمَالُكُمْ﴾ لن يضيع ثواب أعمالكم ولن ينقصها، يقال: وتره حقّه، أي نقصه، ومنه قوله ﷺ فيما أخرجه النسائي عن نوفل بن معاوية: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» أي ذهب بهما، وأصبح فرداً.

سبب الخزول:

نزول الآية (٣٢):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ قال ابن عباس: هم المطعمون يوم بدر.

نزول الآية (٣٣):

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ خطاب للمؤمنين بلزوم الطاعة في أوامر الله تعالى والرسول ﷺ في سنته. أخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

نزول الآية (٣٤):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾

﴿٢٦﴾ نزلت في أصحاب القلب أي قلب بدر، حيث ألقى قتلى المشركين في بئر.

المناسبة:

بعد بيان حال المشركين في أول السورة، ثم حال المنافقين، ذكر الله تعالى حال جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قُرَيْظَةَ والتَّضْيِير، كفروا وصدوا عن سبيل الله، فهددهم الله؛ لأنهم تركوا الحق بعد معرفته. ثم ذكر قصة بعض الصحابة وهم بنو سعد الذين أسلموا، وامتثلوا بإسلامهم على النبي ﷺ، فنهاهم الله عن ذلك. ثم أبان تعالى حكم من ماتوا كفاراً، وهو أنه لن يغفر الله لهم، وأنه خاذلهم في الدنيا والآخرة، فلا داعي لإظهار الضعف والتذلل أمامهم، والمؤمنون في قوة وغلبة وتفوق.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾ أي إن الذين جحدوا توحيد الله، وصدوا الناس عن دينه وطريق الحق بأن منعواهم عن الإسلام واتباع الرسول ﷺ، وخالفوا الرسول ﷺ وعادوه من بعد أن ظهر لهم الحق، وعرفوا أن محمداً رسول ﷺ من عند الله بالمعجزات الواضحة والأدلة القاطعة، لن يضرروا الله شيئاً بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر؛ لأن العباد لن يبلغوا ضرَّ ربهم فيضرونه، فهو مُتْرَه عن ضرر الغير مهما كان، وإنما يضرّون أنفسهم ويخسرونها يوم المعاد، وسيبطل الله ثواب أعمالهم؛ لكفرهم.

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، فقال له:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣)
 أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله أطيعوا الله تعالى وأطيعوا رسوله ﷺ، بامتنال
 وأوامرهما واجتناب نواهيهما، ولا تبطلوا حسناتكم بالردة أو بالمعاصي
 الكبائر، وبالرياء والسمعة، والمن والأذى، أما الإبطال بالردة فدليلة الآية
 التي بعدها: ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

وأما الإبطال بالكبائر فقد ذكر في سبب النزول عن أبي العالية قال: كان
 أصحاب النبي ﷺ يرون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب، كما لا ينفع مع
 الشرك عمل، حتى نزلت الآية، فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم.

وقال قتادة رحمه الله: رحم الله عبداً لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ.
 وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تبطلوها بالرياء والسمعة، أو بالشك
 والنفاق.

وروى محمد بن نصر المروزي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا
 معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول،
 حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا
 الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات، والفواحش، حتى نزل قوله
 تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فلما
 نزلت كففتنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر
 والفواحش، ونرجو لمن لم يصبها.

ثم أبان الله تعالى أن أعمال المكلف إذا بطلت، فإن فضل الله باق، يغفر له
 إن شاء، ما لم يمت على الكفر، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤)
 أي إن الذين جحدوا توحيد الله، ومنعوا الناس عن دين الله تعالى
 واتباع رسوله ﷺ، وماتوا وهم مصرون على الكفر، فلا مغفرة لهم، بل إنهم

معاقبون في النار. قال مقاتل: نزلت في رجل سأل النبي ﷺ عن والده، وقال: إنه كان محسناً في كفره. وعن الكلبي: نزلت في رؤساء أهل بدر.

ونظير الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨/٤]. ولا تسامح أكثر من هذا، فإن الله غفور رحيم لمن مات وهو مؤمن، ولا مغفرة ولا رحمة بالموت على الكفر.

ثم بين سبحانه ألا حرمة للكافر في الدنيا والآخرة، وأمر بقتال الكفار، فقال:

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٢٥) أي فلا تضعفوا عن القتال أيها المؤمنون، ولا تدعوا الكفار إلى الصلح والمسالمة ابتداء منكم، وإظهاراً للعجز والضعف، فإن ذلك لا يكون إلا عند الضعف، ولا مانع من قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، أما في حال كونكم أنتم الأعلون: الغالبون القاهرون المستولون على أعدائكم، فلا تبدؤوهم بطلب الصلح، والله معكم بالنصر والمعونة عليهم، ولن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم. وقوله ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء.

فأما إذا كان الكفار في حال قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح وإنهاء الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن شؤم الكفر بالله تعالى ورسوله ﷺ ومحاولة صد الناس عن الإسلام

وشرعه ومعاداة الرسول بعد العلم أنه نبي بالحجج والآيات مردّه إلى الكفار أنفسهم، وسيبطل الله في الآخرة ثواب ما عملوه، والله منزّه عن أن يتضرر بكفر كافر أو فسق فاسق.

٢ - المؤمنون مأمورون على الدوام بلزوم الطاعة في أوامر الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، منهيون عن إبطال حسناتهم بالمعاصي الكبائر، أو بالرياء والسمعة، أو بالمن والأذى، أو بترك طاعة الرسول ﷺ.

وفي هذا إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات، والمعاصي تخرج عن الإيمان.

٣ - يدل ظاهر نهي المؤمنين عن إبطال أعمالهم على أن من شرع بنافلة، ثم أراد تركها ليس له ذلك، وللعلماء آراء في الموضوع.

فذهب الشافعي إلى أنه يجوز ترك ما شرع فيه من أعمال التطوع؛ لأن المتطوع أمير نفسه، وإلزامه إياه مخرج عن وصف التطوع: «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» [التوبة: ٩١/٩] والمراد بالآية إبطال ثواب العمل المفروض، فإن الله نهي الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلاً فلا؛ لأنه ليس واجباً عليه. فإن قيل: اللفظ عام، فالجواب أن العام يجوز تخصيصه؛ لأن النقل تطوع، والتطوع يقتضي تحييراً.

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنه لا يجوز ترك ما بدئ به من تطوع، كصلاة نافلة وصوم تطوع؛ لأن المتطوع أمير نفسه قبل أن يشرع، أما إذا شرع فقد ألزم نفسه، وعقد عزمه على الفعل، فوجب عليه أن يؤدي ما التزم، وأن يوفي بما عقد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» [المائدة: ١/٥].

٤ - إن الوفاة على الكفر توجب الخلود في النار، وباب التوبة والمغفرة مفتوح طوال الحياة، فمن مات مصرأً على جحوده توحيد الله عوقب بجهنم.

٥ - لا تجوز الدعوة إلى السلم والمصالحة أو المهادنة تذلاً وإظهاراً

للضعف، ما دام المسلمون أقوياء، وإن حدثت الغلبة من الأعداء في الظاهر في بعض الأحوال، فإن الله ناصر المؤمنين، ولن يتقصهم شيئاً من أعمالهم. فإذا عجز المسلمون لضعفهم عن مقاومة الأعداء، جازت مهادنة الكفار عند الضرورة.

وكذلك إذا رأى الإمام مصلحة في المهادنة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل النبي ﷺ في صلح الحديبية مع المشركين مدة عشر سنين.

أما إن طلب المشركون الصلح بحسن نية من غير خداع، فلا بأس بإجابتهم لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١/٨].

وعلى هذا تكون كل من الآيتين: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ و﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾ محكمة غير منسوخ إحداهما بالأخرى كما قال بعضهم، فهما نزلتا في وقتين مختلفي الحال، فالأولى في حال قوة المسلمين، والثانية حال طلب الأعداء الصلح.

تأكيد الحث على الجهاد بالترهيد في الدنيا

﴿إِنَّمَا لِلدُّنْيَا لُغَبٌ وَلَهُوَ وَتُؤْمَرُوا وَتَنْفَوُا يُؤْيَكُمُ أَجُورُكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخَّلُوا أَضْعَفَتْكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءُ تَدْعُونَ لِتُنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾

الإعراب:

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا﴾: ﴿يَسْأَلْكُمْوهَا﴾: فعل يتعدى إلى مفعولين، فالأول (كمو) والثاني: (ها) و﴿فَيُخَفِّكُمْ﴾ مجزوم بالعطف على

﴿يَسْتَلْكُمُوهَا﴾، و ﴿تَبَخَّلُوا﴾ مجزوم: لأنه جواب الشرط، و ﴿وَيُخْرِجْ﴾ مجزوم بالعطف على ﴿تَبَخَّلُوا﴾.

﴿هَتَانَتْ هَؤُلَاءَ﴾ (ها): للتنبيه، و(أنتم): مبتدأ، و﴿هَؤُلَاءَ﴾: موصول بمعنى الذين: خبر، وصلته: ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي أنتم الذين تدعون، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون، ثم استأنف وصفهم، فقال: تدعون لتنفقوا. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ معطوف على: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾.

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ يجوز العطف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم بالجزم كما هنا، وبالرفع مثل: ﴿وَإِنْ يُفْتَلِكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١/٣].

البلاغة:

﴿الْفَقِيرُ﴾ و﴿الْفُقَرَاءُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي الاشتغال فيها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثبات لها، واللعب: كل مالا منفعة فيه في المستقبل، ولا يشغل عن مهام الأمور، فإن شغل عنها فهو اللهو، ومنه آلات الملاهي: لأنها تشغل عن غيرها ﴿وَتَنَفَّوْا﴾ الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿يُؤَيِّدُكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ يعطكم ثواب الإيمان والتقوى ﴿وَلَا يَسْتَلْكُمُ أَمْوَالُكُمْ﴾ لا يطلب جميع أموالكم، بل يقتصر على الزكاة المفروضة التي هي جزء يسير، كربع العشر، والعشر.

﴿فِيخْفِكُمْ﴾ يبالغ في الطلب، من الإحفاء والإلخاف: بلوغ الغاية في كل شيء، يقال: ألحف بالمسألة وأحفى وألح بمعنى واحد، ﴿وَيُخْرِجْ﴾ البخل ﴿أَصْفَنَكُمْ﴾ أحقادكم أي عداوتكم لدين الإسلام ﴿هَتَانَتْ هَؤُلَاءَ﴾

أي أنتم يا مخاطبون، هؤلاء الموصوفون. ﴿لِيُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ما فرض عليكم من الزكاة ونفقة الجهاد وغيرها ﴿يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يقال: بخل عليه وعنه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ عن نفقتكم ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ إلى الله ﴿وَلِئِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ تعرضوا عن طاعته ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يُقِمَّ مقامكم قوماً آخرين أو يجعل بدلکم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا امْتَلَكُكُمْ﴾ في التولي عن طاعته وعن الإيمان، بل مطيعين له تعالى.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بالجهاد، ونهى عن الضعف والخور في مواصلة الكفاح وطلب المواجهة والمصالحة مع الأعداء، حث على الجهاد بالنفس والمال والإنفاق في سبيل الله، بتحقيق الدنيا في أعين المؤمنين، والترغيب في الإيمان والتقوى، لتعود فائدتها عليهم، وهدد تعالى في ختام السورة بأنه إن أعرضتم عن الإيمان والجهاد والتقوى، يجعل بدلاً عنكم قوماً آخرين هم أفضل منكم لإقامة دينه، ونصرة دعوته.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ﴾ أي احرصوا أيها المؤمنون على جهاد الأعداء، واسترخصوا الحياة الدنيوية واطلبوا الآخرة، فإنما حاصل الدنيا لعب ولهو، أي باطل وغرور، لا ثبات له ولا اعتداد به إلا ما كان منها لله عز وجل، بسلك سبيله وطلب رضاه وعبادته وطاعته. وفي هذا تحقير لأمر الدنيا وتهوين لشأنها. واللعب: كل ما لا ضرورة فيه في الحال ولا منفعة في المآل، ولم يشغل عن غيره، فإن شغل عن غيره فهو لهو، ومنه آلات الملاهي؛ لأنها مشغلة عن غيرها.

وقد جاء ذم الدنيا والحرص عليها والتمسك بزيتها وإهمال الآخرة في

آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزْرَةٌ
وَقَفَاخَرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٠] .

ثم أعاد الله تعالى الوعد بالثواب وتأكيدَه والترغيب في الآخرة قائلاً:

﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ أي إن تؤمنوا بالله
ورسوله حق الإيمان، وتتقوا ربكم حق التقوى بأداء فرائضه واجتناب
نواهيه، يؤتكم ثواب أعمالكم وطاعاتكم في الآخرة، ولا يأمركم بإخراج
جميع أموالكم في الزكاة وسائر وجوه الطاعات، بل يأمركم بإخراج القليل
منها، والمعنى: أن الله غني عنكم، لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم
صدقات الأموال، مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم،
ويرجع ثوابه إليكم.

ثم بيّن الله تعالى سبب الحرص على الدنيا، فقال:

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِفْكُمْ تَبَخَّلُوا وَنَخْرَجْ أَصْغَنَكُمْ﴾ أي إن يطلب
ربكم أموالكم كلها، فيجهدكم ويلح في الطلب عليكم، تشحوا وتبخلوا،
وتمتنعوا من الامتثال، ويظهر عندئذ أحقادكم.

قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضعاف. وهذا
كما ذكر ابن كثير حق وصدق، فإن المال محبوب إلى النفس، ولا يصرف إلا
فيما هو أحب إلى الشخص منه.

ثم أبان تعالى ما سلف وأكدَه بقوله:

﴿هَآئِنْتُمْ هَآؤَآءَ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أنتم أيها المؤمنون
المخاطبون مدعوون للإتفاق في سبيل الله، أي في الجهاد والزكاة وفي طريق
الخير.

﴿فَيْنَكُمْ مَن يَبْخُلُ وَمَن يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنسُرُ الْفُقَرَاءَ﴾ أي فبعضكم يبخل باليسير من المال ولا يجيب لدعوة الإنفاق، فكيف لا تبخلون بالكثير وهو جميع الأموال؟ ومن يبخل في الإنفاق، فإنما يمنع نفسه الأجر والثواب ببخله، ويعود وبال ذلك عليه، فإنه بالبخل يتغلب العدو عليكم، فيذهب عزكم وأموالكم، وربما أنفسكم.

والله هو صاحب الغنى المطلق المنزه عن الحاجة إلى أموالكم، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، لذا قال: ﴿وَأَنسُرُ الْفُقَرَاءَ﴾ أي أنتم أيها العباد الفقراء بالذات إلى الله، وإلى ما عنده من الخير والرحمة، فهو سبحانه لا يأمر بالإنفاق لحاجته، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب.

ثم أبان الله تعالى سنته في الاستبدال بقوم قوماً آخرين أفضل منهم إن عرضوا عن حمل الأمانة، فقال محذراً ومذكراً ومهدداً:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي إن تعرضوا عن الإيمان والتقوى وعن طاعة الله واتباع شرعه، يستبدل قوماً آخرين يكونون مكانكم هم أطوع لله منكم، أي يكونون سامعين مطيعين لله ولأوامره، وليسوا أمثالكم في التولي عن الإيمان والتقوى، وفي الإنفاق في سبيل الله.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير وعبد الرزاق والبيهقي والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا، استبدل بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب يده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس» لكن تكلم به بعض الأئمة رحمهم الله، كما قال ابن كثير، وقال الترمذي: حديث غريب في إسناده مقال.

وعن الكلبي والحسن وعكرمة: شرط في الاستبدال توليهم، لكنهم لم يتولوا، فلم يستبدل قوماً، وهم العرب أهل اليمن أو العجم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - الدنيا دار لعب ولهو ومشاغل وشهوات، فالسعيد من استخدمها للآخرة، ولم ينس نصيبه منها بقدر الحاجة، فمن آمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، واتقى ربه بفعل الفرائض وترك النواهي، ظفر بالثواب العظيم في الآخرة دار الخلد.

٢ - المال محبوب الإنسان طبعاً، لذا لم يأمر الله لطفاً منه ورحمة بإنفاق جميعه في سبيله، كالزكاة والجهاد ووجوه الخير، بل أمر بإخراج البعض من الربح الذي هو من فضل الله وعطائه، لا من رأس المال، ليرجع ثوابه إلى المنفق نفسه، فكانت النسبة تتراوح بين ربع العشر ونصف العشر والعشر فقط، لذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْكُمُ أَمْوَالُكُمْ﴾ إنما يسألكم أمواله؛ أي الأرباح التي يسرها لكم؛ لأنه المالك لها، وهو المنعم بإعطائها. وقال: ﴿إِنْ يَسْتَلْكُمُهَا فَيُخَفِّضْكُمُ﴾ أي يلج عليكم ﴿تَبَخَّلُوا وَنُخْرِجْ أَصْغَرَكُمْ﴾ أي يخرج البخل أحقادكم.

٣ - أكد تعالى لطفه بعباده في التكاليف المالية، فذكر أنه طلب منهم اليسير من أموالهم، فبخلوا، فكيف لو طلب منهم الكل؟!.

٤ - من بخل بتقديم شيء من ماله في سبيل الله كالجهاد وطرق الخير، فإنما يبخل على نفسه، فيمنعها الأجر والثواب.

٥ - الله هو الغني عن عباده وعن كل ما سواه، فليس بمحتاج إلى أموالهم، ولكن العباد أنفسهم هم الفقراء إلى الله عز وجل، لتحصيل الثواب

والفضل الإلهي، فلا يقولوا: إنا أيضاً أغنياء عن القتال وعن معونة الفقراء، فالواقع أنه لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فإنه لولا القتال لقتلوا، بغزو الكفار واجتياح بلاد المسلمين، والمحتاج إن لم تدفع حاجته، قَصَدَ الغنيَّ وأخذ ماله، ولا سيما أن الشارع أباح للمضطر ذلك. وأما في الآخرة فالأمر ظاهر حيث يكون كل إنسان فقيراً إلى فضل الله ورحمته، وفي حال الحساب، وهو موقوف مسؤول في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

٦ - أُنذِر الله تعالى عباده وحذرهم من إهمال حمل المسؤولية والقيام بأعباء التكليف، فهم إن أعرضوا عن الإيمان والجهاد والتقوى، استبدل قوماً غيرهم يكونون أطوع لله منهم، ثم يكونون أفضل وأمثل وأحسن منهم، وتلك هي سنة الله في خلقه، وليسوا أمثال المستبدل بهم في البخل بالإنفاق في سبيل الله، كما قال الطبري. والأولى العموم، أي لا يكونوا أمثالكم في الوصف، ولا في الجنس، كما ذكر الرازي. وقال الزمخشري: أي يخلق قوماً على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى، غير متولين عنهما، كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦/٣٥].

وقد اختلف المفسرون في تعيين أولئك القوم الجدد، فقيل: هم الملائكة، أو الأنصار، أو التابعون، أو أهل اليمن، أو كندة والنخع، أو العجم، أو فارس والروم، والأولى تفويض ذلك إلى علم الله تعالى.

والخطاب لقريش أو لأهل المدينة، والأولى جعل الخطاب متجدداً بتجدد الأجيال والأمم، سواء من كان عند نزول الوحي أم بعد ذلك.

حكى عن أبي موسى الأشعري: أنه لما نزلت هذه الآية، فرح بها رسول الله ﷺ، وقال: «هي أحب إلي من الدنيا».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَتْحِ

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة الفتح لافتتاحها ببشرى الفتح المبين: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾. أخرجه أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) عن عبد الله بن مَعْقِل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح -أي فتح مكة- في مسيره سورة الفتح على راحلته، فرجع فيها، قال معاوية بن قُرَّة: لولا أي أكره أن يجتمع الناس علينا، لحكيت قراءته.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه:

١ - إن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال، وقد ورد في الحديث: أنها نزلت مبينة لما يفعل به وبالمؤمنين، بعد إبهامه في قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [٩]. وجاء في سورة محمد تعليم المؤمنين كيفية القتال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [٤] ثم ذكر هنا بيان الثمرة اليانعة لتلك الكيفية وهو النصر والفتح.

٢ - في كلتا السورتين (محمد والفتح) بيان أوصاف المؤمنين والمشركين والمنافقين.

٣- في سورة محمد أَمَرَ النبي بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات [الآية: ١٩] وافتتحت هذه السورة بذكر حصول المغفرة.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة كسابقتها مدنية، نزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن صلح الحديبية، بعد الانصراف من الحديبية. والصور المدنية كما هو معروف تحدثت عن المنافقين الذين ظهروا في المدينة، وعينت بشؤون التشريع في الجهاد والعبادات والمعاملات.

بدأت السورة الكريمة ببشارة النبي ﷺ بالفتح الأعظم وانتشار الإسلام بعد فتح مكة الذي كان صلح الحديبية بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة بداية طيبة له.

ثم أخبرت بوعد الله المنجز لا محالة للمؤمنين ووعيده للكافرين والمنافقين، وأبانت مهام النبي ﷺ من الشهادة على أمته وعلى الخلق يوم القيامة والتبشير والإنذار، من أجل الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ونصرته.

وأردفت ذلك بأمرين متميزين: أولهما- الإشادة بأهل بيعة الرضوان تحت الشجرة في الحديبية، وبيان أن بيعتهم في الحقيقة لله، وتسجيل رضوان الله تعالى عليهم، ووعدهم بالنصر في الدنيا، وبالجنة في الآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾

والثاني- ذم المنافقين من عرب أسلم وجُهيّة ومُزينة وغفار الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، وكانوا من أعراب المدينة.

وأبانت إعفاء أصحاب الأعذار (الأعمى والأعرج والمريض) من فريضة الجهاد، واكتفت منهم بطاعة أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، فذلك مؤذن بدخول الجنة.

وذُكِّرَتْ بفضل الله تعالى على المؤمنين في إبرام الصلح والكف عن القتال بينهم وبين أهل مكة كفار قريش الذين كفروا وصدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، وتأثرهم بحمية الجاهلية من الأنفة والكبر والعصية، ورفضهم كتابة البسملة في مقدمة الصلح، وكتابة (محمد رسول الله) ، وتثبيت المؤمنين على كلمة التقوى وهي طاعة الله تعالى والرسول ﷺ وقبول شروط الصلح، بالرغم من إحجاف بنوده في الظاهر بحقوق المسلمين.

وتحدثت بعدئذ عن البشرى بتحقيق رؤيا النبي ﷺ التي رآها في المدينة المنورة أنهم يدخلون المسجد الحرام (مكة) آمنين مطمئنين، وتم ذلك بالفعل في العام المقبل حيث دخل المؤمنون مكة معتمرين: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾.

وختمت السورة بأمور ثلاثة: هي إرسال محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ووصف النبي والمؤمنين بالرحمة فيما بينهم والشدة على الكفار الأعداء، ووعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم.

فضلها:

نزلت هذه السورة على النبي ﷺ بعد عودته من الحديبية، روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» .

وفي رواية: «لقد أنزلت علي الليلة آية أحب إلي مما على الأرض» وفي رواية مسلم عن أنس: «أحب إلي من الدنيا جميعها» .

أضواء من السيرة على سبب نزول السورة (صلح الحديبية وبيعة الرضوان) .

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام وهو في المدينة المنورة أنه دخل مكة، وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك، ففرحوا فرحاً عظيماً.

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة معتمراً (زائراً البيت الحرام) لا يريد حرباً، ومعه ألف وخمس مئة (١٥٠٠) من المهاجرين والأنصار ومسلمي الأعراب، وساق معه الهدى^(١)، وأحرم بالعمرة من (ذي الحليفة) وخرج معه من نسائه أم سلمة رضي الله عنها.

ولم يكن مع رسول الله ﷺ وصحبه غير سلاح المسافر: السيوف في القُرب، فبعث عيناً له من خزاعة، يخبره عن قريش، فلما أصبح قريباً من «عُسفان» - موضع بين مكة والمدينة - على مرحلتين من مكة، أتاه عينه بشر ابن سفيان الكعبي قائلاً: يا رسول الله - هذه قريش علمت بمسيرك، فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل (النوق ذات اللبن والأولاد) أي عازمين قاصدين طول الإقامة، وقد نزلوا بذئ طوى، يحلفون بالله، لا تدخلها عليهم أبداً، وقد جمعوا لك الأحابيش (جماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة) وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت.

فأرسل رسول الله ﷺ حينئذ عثمان بن عفان إلى قريش يبلغهم قصد رسول الله ﷺ، وأنه لا يريد إلا العمرة، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا المسلمين إلى البيعة، واجتمعوا تحت الشجرة - شجرة الرضوان - فبايعوه على القتال وألا يفروا، وتسمى بيعة الشجرة أو بيعة الرضوان، قال سلمة بن

(١) يسن للقادم إلى مكة أن يهدي إلى الحرم شيئاً من الأنعام (الإبل والبقر والغنم) ويسمى ذلك هدياً.

الأكوع رضي الله عنه: «بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة». فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى الصلح والموادة، وكان قد أتى رسول الله ﷺ أن الذي بلغه من أمر عثمان كذب.

وقد أنزل الله في هذه البيعة قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ٤٨/١٨]. وكان هذا الصلح هو الفتح، وبعد رجوعه إلى المدينة فتح الله عليه خير، فقسمها على أهل الحديبية لم يشركهم أحد غيرهم، وكانوا ألفاً وخمس مئة، منهم ثلاث مئة فارس. وهذا قول سعيد بن المسيب، والمشهور أنهم كانوا أربع عشرة مئة.

ولما علمت قريش بهذا أرسلت سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، وقال: اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا الكاتب علي بن أبي طالب، وبدأ الاتفاق على بنود المعاهدة، بعد أن رفض سهيل كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وكتب «باسمك اللهم» ورفض أيضاً وصف محمد بالرسالة، فكتب: «محمد بن عبد الله».

وتم الصلح على أن يكف الفريقان عن الحرب عشر سنين يأمن فيهن الناس، دون قتال ولا اعتداء، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن جاء قريشاً من أصحاب محمد ﷺ لم يردوه عليه، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فسارعت خزاعة، فدخلت في عقد محمد ﷺ وحالفته، وتواثبت بنو بكر، فدخلوا في عهد قريش وعقدهم.

وعلى المسلمين الرجوع عن مكة هذا العام، وإذا كان العام القادم خرجت قريش من مكة، ودخلها المسلمون ثلاثة أيام، معهم سلاح الراكب، السيوف في القُرب.

وقد اعترض بعض كبار المسلمين مثل عمر بن الخطاب على الصلح، لعدم تكافؤ شروطه، وإجحافه بالمسلمين، ولكنه كان في الحقيقة نصراً كبيراً؛ لأن قريشاً اعترفوا بمكانة المسلمين، وتمت الهدنة التي استراح فيها المسلمون عن الحروب والمعارك التي شغلتهم وأضعفتهم، وتمكن المسلمون من القيام بدعوة الإسلام في ظل الأمن والسلام، ودخل في الإسلام كثير من العرب.

فكان ذلك فتحاً مبيناً، أو تمهيداً لفتح مكة، قال الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه..» فقد كان عدد المسلمين وقت الصلح ألفاً وخمس مئة أو أربع مئة، ثم صاروا عام فتح مكة بعد الصلح بستين عشرة ألفاً، منهم خالد بن الوليد وعمر بن العاص. وقال ابن مسعود وجابر والبراء رضي الله عنهم: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وبعد أن نحر النبي ﷺ هَذِيه حيث أحصر ورجع، وبعد انصرافه نزل عليه ليلاً وهو في الطريق بين مكة والمدينة هذه السورة.

روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: لما أقبلنا من الحديبية عَرَسْنَا^(١) فمنا، فلم نستيقظ إلا والشمس قد طلعت، فاستيقظنا، ورسول الله ﷺ نائم، فقلنا: أيقظوه، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فقال: «افعلوا ما كنتم تفعلون، وكذلك يفعل من نام أو نسي» أي قضاء الصلاة، قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبناها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتينه بها، فركبها، فبينما نحن نسير، إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه، فلما سُرِّي عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

(١) التعريس: نزول القوم من آخر الليل للنوم والاستراحة ثم الارتحال.

فضائل صلح الحديبية على النبي ﷺ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾

القراءات:

﴿صِرَاطًا﴾:

وقرأ قنبل (سراطاً).

الإعراب:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ لام (يغفر) متعلقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) وهي لام (كي) وهي حرف جر، وإنما حسن دخولها على الفعل؛ لأن (أن) مقدرة بعدها، ولهذا كان الفعل بعدها منصوباً، وأن مع الفعل في تقدير الاسم، فلم تدخل في الحقيقة إلا على اسم.

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ تقديره: إلى صراط مستقيم، فلما حذف حرف الجر، اتصل الفعل بقوله: ﴿صِرَاطًا﴾ فتصبه.

البلاغة:

﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ و﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ الفتح في أصل اللغة: إزالة الأغلاق، والفتح في باب الجهاد: هو الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً، مجرب أو بغيره؛ لأن البلد قبل ذلك

منغلق ما لم يُظفر به، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح: والمراد: قضينا لك بفتح مكة وغيرها في المستقبل عنوة بجهادك، فتحاً بيناً ظاهراً، أو هو وعد بفتح مكة، والتعبير عنه بالماضي للدلالة على تحققه وصيرورته في حكم الواقع.

والمراد بالفتح هنا في رأي الجمهور: هو صلح الحديبية (والحديبية بئر سمي المكان بها) وسمي هذا الصلح فتحاً؛ لأنه كان سبباً لفتح مكة من قبيل المجاز المرسل بإطلاق السبب على المسبب. قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، اختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام من قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثير بهم سواد الإسلام، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف، ففتحوها.

وقال جماعة: المراد فتح مكة، وعد الله به قبل حدوثه بطريق البشارة من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين، قال الزمخشري^(١): هو فتح مكة، وقد نزلت السورة مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية، عذة له بالفتح، وحيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى، اهـ.

﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ يجوز أن يكون الفتح فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سبباً أو علة للغفران والثواب، وكذلك فتح الحديبية وإن لم يكن فيه قتال شديد، لكن وقع فيه ترام بين القوم بسهام وحجارة أو كونه سبباً لفتح مكة، يكون لما تضمنه من مجاهدة سبباً للمغفرة.

فإن لم يجعل الفتح علة للمغفرة، فيكون ذكر اللام - كما قال الزمخشري - لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة، وهي المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية

(١) تفسير الكشاف: ١٣٥/٣

الصراط المستقيم، والنصر العزيز، أي لتحصيل مجموع هذه الأمور كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة أو الحديبية ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين، وغايات العاجل والآجل.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك مما يصح أن يعاتب عليه، ويما أن الأنبياء معصومون عن الذنوب الكبائر والصغائر، فالمراد بالذنوب هنا: فعل ما هو خلاف الأولى والأفضل بالنسبة ل مقام الأنبياء، فهو من قبيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. أو أن المراد ما هو ذنب في نظره العالي، وإن لم يكن في الواقع كذلك. وفي هذا ترغيب للأمة في الجهاد.

﴿وَيَسِّرَ لَكُمْ أَسْرَكُمْ﴾ أي ويتم بالفتح المذكور إتمامه عليك، بإعلاء الدين، واجتماع الملك مع النبوة وفتح البلاد ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي يثبتك بالفتح على الطريق القويم، وهو دين الإسلام وتبليغه وإقامة شعائره ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا﴾ أي وينصرك الله بالفتح نصراً فيه عز ومنعة: وهو الذي لا دُلَّ بعده، أو يعز به المنصور وهو الذي لا يناله كل أحد، فوصف الشخص بالنصر العزيز للمبالغة.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾: أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها.

نزول الآية (٢):

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ﴾: أخرج أحمد والشيخان والترمذي والحاكم عن أنس قال: أنزلت على النبي ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجَعَهُ مِنَ الْحَدِيبَةِ، فقال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض»،

ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله، قد بين الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾. وقال ابن عباس: إن اليهود شتموا بالنبي ﷺ والمسلمين لما نزل قوله: ﴿وَمَا آدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ وقالوا: كيف تتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به، فاشتد ذلك على النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿١﴾ الآية.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ﴿١﴾ أي إنا فتحنا لك أيها الرسول فتحاً ظاهراً لا شك فيه، وهو صلح الحديبية الذي كان سبباً لفتح مكة وانتشار العلم النافع والإيمان، أو فتح مكة، وعده الله به قبل حصوله، وذكره بلفظ الماضي لتحقيقه، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين، كما بينت في تفسير المفردات.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي لكي يجتمع لك مع المغفرة: تمام النعمة في الفتح، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، فيتحقق لك عز الدارين وسعادة الدنيا والآخرة. والمغفرة تشمل جميع ما فرط منك قبل الرسالة وبعدها من الهفوات التي تعد خلاف الأولى بالنظر إلى مقامك العالي، وذاك بالنظر لمن سواك لا يسمى ذنباً، فهو من قبيل ما يسمى: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وفي هذا تشريف عظيم للنبي ﷺ، وهو من خصائصه التي لا يشاركه فيها غيره.

أخرج الجماعة (أحمد والأئمة الستة إلا أبا داود) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يقول: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وأخرج أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ

إذا صلى، قام حتى تنفطر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أتصنع هذا، وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً».

﴿وَبُيِّنَ لَكُمْ عَلَيْكُمْ وَبِهِدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾^(٢)
 أي ولكي يتمم إنعامه عليك بإعلاء شأن الدين وانتشار الإسلام وفتوح البلاد شرقاً وغرباً ورفع شأنك في الدنيا والآخرة؛ وليرشدك إلى الطريق القويم بما يشرعه لك من الشرع العظيم، ويثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه؛ ولينصرك الله على أعدائك نصراً غالباً منيعاً، لا يتبعه ذل، أو هو عزيز المنال فريد المثال.

فقه الحياة أو الاحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

أ - بشر الله نبيه والمؤمنين بفتح عظيم مبين واضح، وهو في رأي الجمهور كما تقدم صلح الحديبية الذي كان سبباً لفتح مكة وانتشار العلم النافع والإيمان واختلاط الناس مع بعضهم بعضاً، وتكلم المؤمن مع الكافر. قال موسى بن عتبة: قال رجل عند مُنْصَرَفِهِمْ من الحديبية: ما هذا بفتح؛ لقد صدونا عن البيت، فقال النبي ﷺ: «بل هو أعظم الفتح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا». وتساءل الزخشي بقوله: كيف يكون فتحاً، وقد أحصروا، فبحروا، وحلقوا بالحديبية؟ ثم أجاب: كان ذلك قبل الهدنة، فلما طلبوها، وتمت، كانت فتحاً مبيتاً.

وقال الشعبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١) قال: هو صلح الحديبية، لقد أصاب فيها ما لم يُصَب في غزوة؛ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبويع بيعة الرضوان، وأطعموا نخل بخير، وبلغ الهدى محلّه،

وظهرت الروم على فارس؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقد سبق كلام الزهري.

والخلاصة: تحقق في هذا الصلح أمور ثلاثة: هي معرفة قوة العدو ومدى كفايته في السلم والسياسة والصلح، وتمييز المؤمنين من المنافقين، واختلاط المسلمين بالمشركين الذي أدى إلى الدخول في الإسلام.

وقيل: إنه فتح مكة، وهو مناسب لآخر السورة التي قبلها، حيث حث تعالى على الجهاد بالنفس وبالمال والإنفاق في سبيل الله، ونهى عن طلب الصلح، فقال: لا تسألوا الصلح من عندكم، بل اصبروا، فإنهم يسألون الصلح ويجهدون فيه، كما كان يوم الحديبية.

٢ - كانت ثمار الفتح الأعظم أربعة أمور هي:

الأول- البراءة المطلقة للنبي ﷺ بمغفرة جميع ذنوبه المتقدمة والمتأخرة التي تعد بمثابة خلاف الأولى والأفضل بالنظر لمقامه الشريف.

الثاني- إتمام النعمة عليه بالجمع بين النبوة والملك، وبين سعادة الدنيا والآخرة.

الثالث- الإرشاد والهداية إلى الطريق المستقيم بتبليغ الرسالة والثبات على الحق.

الرابع- النصر المؤزر العزيز المنيع الذي لا ذل بعده.

ويمكن القول بالتعبير الحديث: تحقق بهذا الفتح مفهوم سيادة الدولة الإسلامية الداخلية والخارجية، واستقلالها، وظهور النبي ﷺ بصفة كونه حاكماً وإماماً في السياسة والحكم إلى جانب كونه نبياً، كما تحقق له عز الدنيا والآخرة، وثباته على دين الحق ونشره في أرجاء الدنيا.

وعقد صلح الحديبية، كما أنه أثبت صفة الحاكم السياسي للنبي ﷺ على الأمة الإسلامية وعاصمتها المدينة، أدى إلى اعتراف المشركين بالدولة الإسلامية في المدينة المنورة، والإقرار بسيادتها واستقلالها.

آثار صلح الحديبية

في المؤمنين والمنافقين والمشركين

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمُؤْمِنَاتِ جُنَّتِ بَحْرَى مِنْ نَحْيِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٢﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ ۖ وَالْمُنَافِقَاتِ ۖ وَالْمُشْرِكِينَ ۖ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ ۚ بِاللَّهِ ظَنَنَ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ ۚ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٣﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٤﴾

القراءات:

﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (دائرة السوء).

الإعراب:

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا بد من تقدير فعل قبله، فإن من قال ابتداء: لتكرمني، لا يصح ما لم يقل قبله: جئتكم أو نحوه، والتقدير هنا إما: إنا فتحنا ليدخل، كما في قوله: ليغفر لك الله، وإما: أنزل السكينة ليدخل، أو أمر بالجهاد، ونحو ذلك.

﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا﴾ ﴿عِنْدَ﴾ حال من الفوز.

البلاغة:

﴿وَيُكَفِّرُ﴾ ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ بينهما طباق.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَفَقِّهَاتِ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿أَنْزَلَ﴾ خلق وأوجد ﴿السَّكِينَةَ﴾ الثبات والطمأنينة مأخوذ من السكون ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أوجد السكينة في القلوب في مواضع القلق والاضطراب ﴿لِيَزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ يقيناً مع يقينهم، أو ليزدادوا إيماناً بالشرائع، ومنها الدين، مع إيمانهم بالله واليوم الآخر ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر أمرها، فيسلط بعضها على بعض تارة، ويسلم فيما بينها تارة أخرى، كما تقتضي حكمته، وجنود السماوات والأرض: الأسباب السماوية والأرضية ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليمًا بالمصالح، حكيماً فيما يقدر ويدبر، والمعنى: أنه ما يزال متصفاً بذلك.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يغطيها ولا يظهرها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي التكفير للسيئات وإدخال الجنات ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي إن دخول الجنات فوز عظيم عند الله ﴿الْأَسْوَى﴾ بفتح السين وضمها، وهو المساءة، وظن السوء: أي ظن الأمر السوء، وهو ألا ينصر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دائرة ما يظنونه ويتصورونه بالمؤمنين، فلا يتخطاهم، وهو العذاب والهزيمة والشر. والدائرة في الأصل: الخط الدائري المحيط بالمركز، ثم استعملت في الحادثة المحيطة بالإنسان، كحاطة الدائرة بالمركز، وكثير استعمالها في السوء والمكروه ﴿وَعُصِبَ اللَّهُ﴾ سخط ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبغدهم وطردهم من رحمته طرداً نزلوا به إلى أعماق جهنم ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ مرجعاً. ﴿عَزِيزًا﴾ قوياً في ملكه يُغْلِبُ ولا يُغْلَبُ ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه. والمراد: أنه لم يزل متصفاً بالعزة والحكمة.

سبب النزول:**نزول الآية (٥):**

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : سبق بيانه في الآيات السابقة.

الخاصية:

بعد أن أخبر الله تعالى بفضلله على نبيه ﷺ وبأنه ينصر رسوله، أبان بعض أفضاله على المؤمنين من أصحابه وبعض أسباب النصر، وهو تثبيت أقدام المؤمنين واطمئنان قلوبهم في ميادين المعارك، وأردفه ببيان سته في تسليط بعض جنوده على بعض، ثم رفع معنويات الجند المؤمنين بوعدهم بالخلود في الجنان، وإبعاد الكافرين والمنافقين المعادين للمؤمنين بالعذاب الشديد، والغضب عليهم وطردهم من رحمته.

التفسير والبيان:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ أي إن الله عز وجل هو الذي خلق وأوجد السكون والطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ، وانقادوا لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ، واستعدوا للقتال بإخلاص دون فرار، لثلا تضطرب نفوسهم في وقت المحنة، وليزيدهم الله يقيناً جديداً على يقينهم الحاصل من قبل. وهذا يسمى حديثاً رفع الروح المعنوية للجيش.

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بالآية على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب. ويصح تأويل زيادة الإيمان بأنه الإيمان بالشرائع بعد إيمانهم بالله، قال ابن عباس: إن أول ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة ثم الزكاة ثم الجهاد ثم الحج.

ثم ذكر الله تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إن الله تعالى يدبر أمر جنوده في هذا العالم كيف يشاء، من الملائكة والإنس والجن والشياطين، والقوى الكونية في السماء والأرض كالزلازل والبراكين والأعاصير والبحار والأنهار ونحوها، فالله قادر على إرسال مَلَك واحد، يبيد الجبال والبلاد، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد والقتال لحكمة بالغة ومصلحة عالية، لذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي كان الله ولا يزال عليماً بمصالح خلقه، حكيماً في صنعه وتقديره وتدبيره. وهذا منسجم مع موقف أبي بكر الذي عرف برسوخ الإيمان، أما عمر بن الخطاب فتساءل عن عدم التكافؤ الظاهري في شروط الصلح، وقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل فعلاً نعطي الدنيا في ديننا؟ ولكن إيمانه لم يتزعزع، بل إن ذلك يدل على مزيد الإيمان والغيرة على مصالح المسلمين في تقديره، ثم أنزل الله الطمأنينة على قلبه وقلوب أمثاله، وشرحها لما رآه النبي ﷺ، وصدقت الأيام رأيه.

ثم ذكر الله تعالى ما وعد به أهل الإيمان، فقال:

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ٥﴾ أي يبتلي الله بجنوده من شاء ليدخل المؤمنين ويعذب غير المؤمنين، أو أنزل السكينة أو إنا فتحنا ليرتب عليه دخول المؤمنين والمؤمنات جنات (بساتين) تجري الأنهار من تحت قصورها، وهم ماكثون فيها أبداً، ويستر عنهم خطاياهم وذنوبهم ولا يظهرها ولا يعذبهم بها، بل يعفو ويصفح ويستر ويرحم وكان ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم عند الله وفي حكمه فوزاً عظيماً كبيراً ونجاة من كل غم، وظفراً بكل مطلوب، وذلك كقوله جلّ وعلا: ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥/٣]. وذكر تكفير السيئات بعد

الإدخال في الجنة، مع أنه يكون قبله؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب، ولأن الأصل الإدخال، والتكفير تابع.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة». وقد نصّ الله تعالى على المؤمنات هنا مع أن أغلب الآيات يكون فيها خطاب الرجال شاملاً للنساء؛ لثلاث يتوهم أحد أن النساء لا يدخلن الجنات؛ لأن المرأة لاجهاد عليها. وهكذا في كل موضع يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به، مع كون المؤمنات يشتركن معهم، ذكرهن الله صريحاً^(١).

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءَ﴾ أي وليعذب أهل النفاق وأهل الشرك بالهم والغم بسبب ما يشاهدونه من انتشار الإسلام وانتصار المسلمين وقهر المخالفين، وبما يصابون به من القهر والقتل والأسر في الدنيا، وبعذاب جهنم في الآخرة، لظنهم السيئ بالله وحكمه وهو أن النبي ﷺ وأصحابه يُغلبون ويبادون، وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام، كما حكى تعالى عنهم في آية أخرى وهي: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِحَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ٤٨/١٢]. وإنما قدم المنافقين على المشركين؛ لأن ضررهم أشد، وخطرهم أعظم.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي إن ما يظنونه بالمؤمنين دائر عليهم لا خروج لهم منه، واقع بهم من قتل وأسر ونحوهما، وسخط الله عليهم، وأعدّ لهم جهنم يصلونها، وساءت مرجعاً ومترلاً يصيرون إليه، وبذلك جمع بين جزائهم وحالهم في الدنيا وفي العقبى.

(١) تفسير الرازي: ٨٢/٢٨

ثم قال تعالى مؤكداً لقدرته على الانتقام من أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾ (٧) أي الله في السماوات والأرض جنود لا حصر لها من الملائكة والإنس والجن والشياطين وغيرها من كل ما فيه قوة ومقدرة على قهر أعدائه، وكان الله وما يزال قوياً لا يُغْلَب، ولا يرد بأسه، حكيماً في صنعه وتدبيره لخلقه.

وفائدة إعادة هذه الآية بيان أن الله جنود الرحمة وجنود العذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ثم ذكرهم ثانياً لبيان إنزال العذاب بالكافرين، وعبر أولاً بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ليتناسب مع إنزال الرحمة، ثم عبر بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾ للإشارة إلى شدة العذاب، وذكر العزة يتناسب مع العقاب والتهديد، وذكر العلم يتلاءم مع التدبير التام لأمر الخلق وتوزيع الرحمة، وأن إنزال السكينة وزيادة الإيمان وترتيب الفتح على ذلك، كله ثابت في علم الله، منسجم مع الحكمة. وذكر جنود السماوات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة؛ لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة، فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة، ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا﴾ وذكر الجنود بعد تعذيب الكفار، وإعداد جهنم للدلالة على كون الغضب على الكفار والإبعاد والطرده من الرحمة أولاً، فيدخلون جهنم، ثم يسلب عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله تعالى.

روي أنه لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبي: أبطن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو، فأين فارس والروم؟ فبين الله عز وجل أن جنود السماوات والأرض أكثر من فارس والروم.

فقه الحياة أو الأحكام:

كان من فضائل صلح الحديبية وآثاره أربعة أشياء في حق كل من النبي ﷺ والمؤمنين والكفار.

أما فضائله الأربعة في حق النبي ﷺ فهي كما تقدّم: مغفرة الذنوب، واجتماع الملك والثبوة، والهداية إلى الصراط المستقيم، والعزة والمنعة.

وأما أفضاله الإلهية الأربعة في حق المؤمنين أصحاب النبي ﷺ فهي الطمأنينة والسكينة، وزيادة الإيمان، ودخول الجنان، وتكفير السيئات.

وأما آثاره الأربعة في حق أهل النفاق وأهل الشرك، فهي العذاب الأليم، وغضب الله، واللعنة أو الطرد من الرحمة، ودخول جهنم.

ودلّ قوله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ على أن الإيمان يزيد وينقص.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في الموضعين تخويف وتهديد، فلو أراد تعالى إهلاك المنافقين والمشركين، لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

وظائف النبي ﷺ وفائدة بعثته

ومعنى بيعته في الحديبية

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ (٨) لِيُتَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُعْزِرُوهُ وَيُؤْقِرُوهُ وَيُخَيِّرُوهُ بَكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ (١٠)﴾

القرءات:

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (ليؤمنوا، ويعزروه، ويوقروه، ويسبحوه).
﴿عَلَيْهِ اللَّهُ﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقر (عليه الله).
﴿فَسُبُّوتِهِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (فسنوته).

الإعراب:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) هذه المنصوبات الثلاثة منصوبة على الحال من كاف ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ وهو العامل فيها، كما عمل في صاحب الحال.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ حال أو استئناف كلام جديد، وهو مؤكد قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ على طريق التخييل والتمثيل، ولا جارحة هناك.

البلاغة:

بين قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ و﴿وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿تُكَّتْ﴾ و﴿أَوْفَى﴾ طباق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ استعارة تصريحية تبعية، شبه المعاهدة على الجهاد بالأنفس بدفع السلع مقابل الأموال، واستعير اسم المشبه به للمشبه، واشتق من البيع يبائعون، بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، فوجه الشبه اشتغال كل على المبادلة.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استعارة مكنية، شبه اطلاع الله على مبايعتهم بملك

وضع يده على أيدي رعيته، وطوى ذكر المشبه، ورمز بشيء من لوازمه وهو اليد على طريق الاستعارة المكنية، أي إن الله شُبَّ بالمبايع، وذكر اليد قرينة، وإسنادها له تخيل، وفي ذكر اليد مع أيدي الناس مشاكلة.

للفردات اللغوية:

﴿شَهِدًا﴾ على أمتك في القيامة بتبليغ الرسالة، لقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣/٢]. ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالثواب والجنة لمن أطاعك. ﴿وَنَذِيرًا﴾ ومنذراً مخوفاً بالعقاب والنار لمن عصاك. ﴿لَتُؤْمِنُوا﴾ الخطاب للنبي ﷺ والأمة، وقرئ بالياء (ليؤمنوا) أي الناس وكذا الفعلان بعده. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تنصروه وتؤيدوه وتقوّوه بتقوية دينه ورسوله. ﴿وَتَوْفِّرُوهُ﴾ تعظموه من التوقير: وهو الاحترام والتعظيم، والضمير فيهما لله تعالى - وهو الأولى - أو لرسوله ﷺ. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تنزهوا الله عما لا يليق به من الشرك والولد، من التسبيح، أو تصلوا له من السبحة: وهي صلاة التطوع. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوة وعشيا، أي أول النهار وآخره، أو دائماً.

﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ بيعة الرضوان يوم الحديبية، بايعوه على الموت في نصرته والدفاع عنه، أو على ألا يفرّوا من قريش، وأصل المبايعة أو البيع: مبادلة المال بالمال، ثم أطلق هنا على المعاهدة على الثبات في محاربة الكفار في مقابل ضمان الجنة لهم. وكانت المبايعة تحت شجرة بالحديبية (وهي قرية صغيرة بينها وبين مكة حوالي مرحلة، وهي في حدود الحرم). ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُوكَ اللَّهُ﴾ لأن الله هو المقصود بالبيعة، مثل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٤/٨٠] أي إن المقصود من بيعة الرسول ﷺ وطاعته طاعة الله وامتنال أوامره، والمراد بآية ﴿يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ﴾: أي صفقتهم إنما بمضيها وبمنح الثمن فيها الله عز وجل، وأن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يؤكد معنى البيعة، والمراد أنه تعالى مطلع على

مبايعتهم، فيجازيهم عليها، ونصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه. واستعمال اليد هنا بمعنى الغلبة والنصرة ونعمة الهداية، فهو مجاز، والله منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام. ويعتقد السلف بوجود يد الله تعالى، لا كالأيدي؛ لأنه ليس كمثله شيء، وهذا أسلم، وإن كان المجاز أولى عقلاً وأحكم رأياً، ونفوض الأمر لله مع الإيمان بما ورد في القرآن والسنة الصحيحة.

﴿تَكُتْ﴾ نقض العهد، وضدّه: أوفى بالعهد ووفى به: إذا أتمه. ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ يرجع وبال وضرر نقضه عليه. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ﴾ وفى في مبايعته، وقرأ الجمهور بكسر الهاء، وقراءة حفص بضم الهاء؛ لأنها هاء (هو) وهي مضمومة، فاستصحب ذلك، كما في (له، وضربه). ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة.

قال جابر بن عبد الله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت، وعلى ألا نفر، فما نكث أحد منا البيعة إلا جدّ بن قيس، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط نافته، ولم يثر مع القوم.

للفاسية:

بعد بيان فضائل الفتح - صلح الحديبية - على النبي ﷺ وعلى أصحابه المؤمنين، أعقبه بيان خصائصهما، فذكر وظائف الرسول ﷺ الثلاث (وفي الأحزاب: الخمس) ومدحه وأبان فائدة بعثته ليرتب عليه ذكر البيعة، فذكر بيعة الرضوان بين النبي ﷺ والمؤمنين، وأشاد بإخلاص المبايعين ونصرة دين الله تعالى، وأوضح جزاء ناقض العهد، ومن أوفى بالعهد.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) أي إننا أرسلناك يا محمد

رسولاً شاهداً تشهد على الخلق وعلى أمتك بتبليغ الرسالة، ومبشراً بالجنة المؤمنين المطيعين، ومنذراً مخوفاً بالنار الكافرين العصاة.

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٩) أي إنا أرسلناك لتؤمنوا بالله ورسوله - والخطاب لرسول الله ﷺ ولأئمة - وتقوا وتؤيدوا الله بنصرة دينه ورسوله، وتعظموه، وتنزهوا الله عما لا يليق به من الشرك والولد والصاحبة والتشبيه بالمخلوقات، على الدوام، أو في الغداة والعشي، أي أول النهار وآخره، والمراد صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر، كما قال ابن عباس. والمراد بتعزيز الله، تعزيز دينه ورسوله ﷺ.

قال الزمخشري: والضمائر - في الأفعال الثلاثة غير الأول - لله عز وجل، ومن فرق الضمائر فقد أبعد.

وبعد بيان أنه مرسل، قال الله عز وجل تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ليبيّن أن من بايعه فقد بايع الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي إن الذين يبايعونك أيها النبي يبيعة الرضوان بالحديبية تحت الشجرة على قتال قريش، إنما يبايعون الله، أي يطيعونه ويعاهدونه على امتثال أوامره؛ لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة، ولأن طاعة الرسول ﷺ هي طاعة الله تعالى في الحقيقة.

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي إن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه على السواء، وإن الله هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، وهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١/٩] . وإن نعمة الله عليهم بالهداية فوق إجابة البيعة، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُوتُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُوتُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧/٤٩] . والخلاصة: إن قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ استئناف مؤكد للكلام السابق من أن مبايعة الرسول ﷺ مبايعة لله تعالى.

﴿فَمَنْ تَكَلَّفَ فَإِنَّمَا يَنْكُحْ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوْنَةٌ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي يتفرع عن البيعة مع الله أنه من نقض العهد مع النبي ﷺ، فإنما وبال ذلك وضرره على الناقض نفسه، لا يجاوزه إلى غيره.

ومن وفى بالعهد وثبت عليه، ونفذ ما عاهد عليه الرسول ﷺ في البيعة، فسيؤتيه الله ثواباً جزيلاً، ويدخله الجنة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨/٤٨] .

وهذه البيعة كما تقدم هي بيعة الرضوان التي كانت تحت شجرة سمر بالحديبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذٍ على الأصح ألفاً وأربع مئة، وقيل: ثلاث مئة أو خمس مئة.

فقه الحياة أو الاحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن مهام النبي ﷺ المذكورة هنا هي ثلاث:

أ- الشهادة على الخلق وعلى أمة بالبلاغ، فهو يشهد على الناس بأن رسلهم وأنبياءهم بلغوهم رسالة الله بما أخبره الله به في القرآن، ويشهد على أمة بتبليغهم الرسالة الإلهية، وقد أعلن ذلك في حجة الوداع: «اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد» .

ب- وتبشير من أطاعه بالجنة.

ج- وإنذار من عصاه بالنار.

والمذكور في سورة الأحزاب خمس: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿٤٦﴾ [٤٥-٤٦] وهذا لأن المقام في الأحزاب مقام ذكر الرسول ﷺ؛ لأن أكثر السورة في ذكر الرسول ﷺ وأحواله، ففصل في مهامه، واقتصر في سورة الفتح على الثلاث المقدمة، ثم ذكر بعدئذ ما يدل على كونه داعياً وكونه سراجاً في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾.

٢ - إن الغاية من إرسال النبي ﷺ هو الوصول إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، ونصرة دين الله ورسوله، وتعظيم الله وإجلاله، وتسييحه بالقول وتنزيهه من كل قبيح على الدوام، أو في أول النهار وآخره، أو فعل الصلاة التي فيها التسييح.

٣ - إن الذين بايعوا النبي ﷺ بالحدبية على قتال قريش ومناصرته فقد بايعوا الله تعالى، فبيعتهم للنبي ﷺ إنما هي بيعه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠/٤].

والله تعالى مطلع على بيعتهم ومجازيهم خيراً، فيده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المنة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة، ونعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة، وقوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم.

ومذهب السلف رضوان الله عليهم: الإيمان الظاهري بما يسمى يداً لله، مع تنزيه المولى عن مشابهة الحوادث وصفات الأجسام وإثبات الجوارح (الأعضاء) له، ويقولون: إن معرفة حقيقة اليد هنا فرع عن معرفة حقيقة الذات، ولن يستطيع المخلوق ذلك، فالأولى التفويض في معرفة الحقيقة لله

تعالى، مع الإيمان الكامل بكل ما جاء في القرآن والسنة الثابتة. ومذهب الخلف: تأويل اليد بالقدرة أو القوة أو النصرة أو النعمة، على طريق الاستعارة بالكناية، كما تقدم في البلاغة.

٤ - إن الناكث ناقض العهد بعد البيعة يرجع ضرر النكث والنقض عليه؛ لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب.

٥ - وإن من أوفى بعهده الذي عاهد الله تعالى عليه في البيعة، سيمنحه الله تعالى في الآخرة ثواباً جزيلاً، ويدخله الجنة.

أحوال المتخلفين عن الحديبية

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُكِرَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ١٣﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا ذُرُوعًا نَنَيْعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُسَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْذَوْنًا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى يَوْمِ الْأُولَى بَأْسٌ شَدِيدٌ لِقَائِهِمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطَبِعُوا نَفْسَكُمْ لَرِغْوَةِ اللَّهِ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧﴾

القراءات:

﴿ضَرًّا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (ضَرًّا).

﴿كَلَّمَ اللَّهُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (كَلَّمَ الله).

﴿يُدْخِلُهُ﴾، ﴿يُعَذِّبُهُ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (ندخله، نعذبه).

الإعراب:

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ﴾ ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، أي ظننتم أنهم لا يرجعون.

﴿نُقَلِّبُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ ﴿نُقَلِّبُونَهُمْ﴾: حال مقدرة، و﴿يُسَلِّمُونَ﴾: إما معطوف على ﴿نُقَلِّبُونَهُمْ﴾ أو مستأنف، تقديره: أو هم يسلمون. وقرئ: أو يسلموا: بتقدير (أن) و (أو) بمعنى (إلا) وقيل بمعنى (حتى).

البلاغة:

بين الضر والنفع في قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ طباق. ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ إطناب بتكرار نفي الحرج والإثم عن أصحاب الأعذار للتأكيد.

المفردات اللغوية:

﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ المتخلفون، جمع مخلف: وهو المتروك في المكان خلف

الخارجين عنه، والمراد بهم هنا قبائل حول المدينة من الأعراب هم أسلم وجُهينة ومُزينة وغفار وأشجع والدَّيل، استنفرهم رسول الله ﷺ عام الحديبية ليخرجوا معه إلى مكة للعمرة، فتخلفوا، واعتذروا بالشغل في أموالهم وأهلهم، وإنما خلفهم الخذلان وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش إن صدّوهم. ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قبائل من الأعراب سكان البوادي حول المدينة. ﴿شَعَلْتَنَّا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا﴾ عن الخروج معك؛ إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالنا، وقرئ بالتشديد (شَعَلْتَنَّا) للتكثير، وهذا كذب منهم. ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله من التخلف أو ترك الخروج معك، وطلب الاستغفار خبت منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون، ومصانعة من غير توبة ولا ندم.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هذا تكذيب من الله تعالى لهم في الاعتذار والاستغفار، فهم يطلبون الاستغفار وغيره في الظاهر، وهم كاذبون في اعتذارهم. ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد يمنعكم من مشيئة وقضائه، والملك: إمساك الشيء بقوة وضبط. ﴿ضَرًّا﴾ بفتح الضاد وضماها، والضر: الضرر اللاحق بالأهل والمال والنفس، كقتل وهزيمة وهزال وسوء حال وضياح. ﴿نَفْعًا﴾ النفع: ما يفيد من حفظ النفس والمال والأهل. ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي كان ولم يزل متصفاً بذلك، فهو يعلم تخلفكم وقصدكم فيه، و﴿بَلْ﴾ للانتقال من غرض إلى آخر.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظنكم أن المشركين يستأصلونهم. و﴿يَنْقَلِبُ﴾ يرجع، والأهلون: العشائر وذوو القرابة، جمع أهل، وقد يجمع على أهلات، مثل أرضات على أن أصله أهلة. ﴿وَلَنَنْتَرُظَ طَرَفَ السَّوَاءِ﴾ الظن السيئ، وهو الظن المذكور ﴿بُورًا﴾ جمع بائر، أي هلكى أو هالكين عند الله بهذا الظن وفساد العقيدة وسوء النية. ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضع الكافرين موضع الضمير إيذاناً بأن من لم

يجمع بين الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، فهو كافر مستوجب للسعير بكفره، والسعير: نار ملتهبة شديدة، وتنكيرها للتهويل، أو لأنها نار مخصوصة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره كيف يشاء. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ إذ لا وجوب عليه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي ولم يزل متصفاً بذلك، والغفران والرحمة من ذاته، جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «سبقت رحمتي غضبي».

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المذكورون. ﴿مَغَانِمَ﴾ هي مغنم خير، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية في ذي الحجة، من سنة ست، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم هاجم خير بمن شهد الحديبية بسبب اعتداءات اليهود المتكررة، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة، ثم خصها بأهل الحديبية. ﴿ذُرُونَا﴾ اتركونا. ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ لناخذ منها. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي يريدون أن يغيروا كلام الله، وهو وعده لأهل الحديبية أن يعوضهم عن مغنم مكة مغنم خير، فهم يريدون الشركة في المغنم دون أن ينصروا دين الله تعالى.

﴿لَن تَنَّبِعُونَا﴾ نفى في معنى النهي. ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي مثل ذلك قال الله من قبل استعدادهم للخروج إلى خير، وقبل عودنا. ﴿بَلْ تَحَسَّدُونَنَا﴾ أي تحسدونا أن نصيب معكم شيئاً من الغنائم. ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً وهو فهمهم لأمر الدنيا دون الدين. ومعنى الإضراب الأول. ﴿بَلْ تَحَسَّدُونَنَا﴾ رد منهم أن يكون حكم الله ألا يتبعوهم، وإثبات الحسد، والثاني: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ رد من الله تعالى لذلك، وإثبات لجهلهم بأمور الدين.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرر ذكرهم بهذا الوصف مبالغة في الذم وإشعاراً بشناعة التخلف. ﴿سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أصحاب

بأس شديد أي قوة في القتال، وهم بنو حنيفة أصحاب اليمامة، أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله ﷺ، أو فارس والروم. ولا دليل على التعيين. «نُقْتَلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ» أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أو الإسلام، لا غير.

«فَإِنْ تُطِيعُوا» في قتالهم «يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا» هو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة. «وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا قَوْلَيْتُمْ مِنْ قَبْلُ» عن الحديبية. «أَلَيْسَ» مؤلماً، لعظم جرمكم.

«لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ» أي إثم وذنب في ترك الجهاد، ويلاحظ أنه تعالى لما أوعد على التخلف، نفى الحرج عن أصحاب الأعذار (الأعمى والأعرج والمريض) استثناء لهم من الوعيد. «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» فصل الوعد وأجل في الوعيد مبالغة في الوعد لسبق رحمته. «وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا» هذا تعميم بعد تفصيل الوعد، إذ التهيب هنا أنفع من الترغيب.

سبب نزول الآية (١٧):

«لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى» قال ابن عباس: لما نزلت: «وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا قَوْلَيْتُمْ مِنْ قَبْلُ» الآية، قال أهل الرِّمَانَةِ: كيف بنا يا رسول الله؟ فأنزل الله: «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ».

المناسبة:

بعد بيان حال المنافقين، بين الله تعالى حال المتخلفين، وهم قوم من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، لظنهم أنه يهزم، وقد ذكر تعالى أحوالاً ثلاثاً لهم: هي الاعتذار عن التخلف عن الحديبية بانشغالهم في الأموال والأهل، وطلب المشاركة في وقعة خيبر وغنائمها، ودعوتهم إلى قتال قوم أولي بأس شديد، ثم استثنى تعالى أصحاب الأعذار لترك الجهاد.

التفسير والبيان:

الاعتذار عن التخلف: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أخبر تعالى رسوله ﷺ أثناء عودته من الحديبية بما يعتذر به المخلفون الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم، وتركوا السير مع رسول الله ﷺ حين خرج إلى مكة معتمراً عام الحديبية، وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة وهم أسلم وجُهينة ومُزينة وغفار وأشجع والدَّيل، وإنما قال: ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ لأن الله خلفهم عن صحبة نبيه ﷺ. والخلف: المتروك. والآية من إعجاز القرآن؛ إخباره عن الغيب، وقد وقع الأمر مطابقاً لخبر القرآن.

ولقد اعتذروا بشغلهم بالأموال والأهل، وسألوا أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ، ليغفر الله لهم ما وقع منهم من التخلف عنه بسبب الانشغال، لا بسبب العصيان ومخالفة الأمر. وذلك في الحقيقة قول منهم، لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، لذا رد الله عليهم وكذبهم بقوله:

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي إنهم ليسوا صادقين في الاعتذار، فهم يتصنعون ذلك بظواهر ألسنتهم، أما في أعماق قلوبهم فهم يعتقدون أن محمداً ﷺ وصحبه سينهزمون، ويخافون من مقاتلة قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة، وهم الأحابيش، بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ يَنْفَلِتَ الرُّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي قل أيها النبي لهم: فمن يمنعكم مما أَرَادَهُ اللهُ بكم من خير أو شر؟ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ اللهُ فيكم، وإن صانعتُمونا ونافقتُمونا، سواء بإنزال ما يضركم من ضياع الأموال وهلاك الأهل، أو بتحقيق النفع لكم من نصر وغنيمة.

بل في الحقيقة، إن تخلفكم ليس لما زعمتم، فإن الله خبير بجميع ما تعملونه من الأعمال، وقد علم أن تخلفكم لم يكن للانشغال بالمال والأهل، بل للشك والنفاق والخذلان وسوء الاعتقاد والخوف من قريش وأعوانهم وما خطر لكم من الظنون الفاسدة، الناشئة عن عدم الثقة بالله تعالى، ثم افترض شأنهم، فقال تعالى:

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۖ﴾ (١٧) أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، وقد اعتقدتم أن العدو يقتل ويستأصل المؤمنين نهائياً، فلا يرجع أحد منهم إلى أهله إلى الأبد، وزين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم، فقبلتموه، وظننتم أن الله سبحانه لا ينصر رسوله ﷺ، وكنتم قوماً هالكين عند الله تعالى، وصرتم بما فعلتم لا تصلحون لشيء من الخير، تستحقون شديد العقاب.

ثم أخبر الله تعالى عن عقاب الكفار، فقال:

﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۖ﴾ (١٨) أي من لم يصدق بالله تعالى ورسوله ﷺ، ولم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، كما صنع هؤلاء المخلفون، فجزاؤهم ما أعده الله لهم من عذاب السعير والنار الشديدة الالتهاب جزاء الكفر.

ثم أبان تعالى مدى قدرته الشاملة لكل شيء، فقال:

﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَقْدِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا ۖ﴾ (١٩) أي لله سلطة التصرف المطلق في أهل السماوات والأرض، يتصرف فيهم كيف يشاء، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا يحتاج إلى أحد من خلقه.

يغفر لمن يشاء أن يغفر له ذنوبه، ويعذب بالنار من يريد أن يعذبه على كفره ومعصيته، والله ما يزال غفوراً للذنوب عباده التائبين، رحيماً يرحم جميع خلقه، ويخص بمغفرته ورحمته من يشاء من عباده.

وفي هذا حث عام على الإصلاح، وترغيب لهؤلاء المتخلفين وأمثالهم من المقصرين بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، وفي الآية أيضاً بيان واضح أنه تعالى يغفر للمبايعين بمشيتته، ويعذب الآخرين بمشيتته، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل، وأتم وأكمل، وأن عظيم الملك يكون أجره في غاية السعة، وعذابه وعقوبته في غاية النكال والألم.

طلب المشاركة في وقعة خيبر:

ثم أوضح الله تعالى كذب المتخلفين في ادعائهم الانشغال بالمال والأهل، بدليل طلبهم السير مع النبي ﷺ إلى خيبر، لما توقعوا من مغنم يأخذونها، فقال:

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي سيقول هؤلاء الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذا انطلقتم أيها المسلمون إلى مغنم خيبر لتأخذوها وتحوزوها: اتركونا نتبعكم في السير، ونشهد معكم غزو خيبر؛ لأنهم علموا أن الله وعد المسلمين فتح خيبر وتخصيص من شهد الحديبية بغنائمها.

والخلاصة: أنه لو كان اعتذارهم بالانشغال صحيحاً، لما طلبوا السير مع النبي ﷺ إلى خيبر.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي يريدون تبديل وعود الله لأهل الحديبية بتخصيصهم بمغنم خيبر، فقد أمر الله رسوله ألا يسير معه إلى خيبر أحد من غير أهل الحديبية، ووعد أهل الحديبية بمغنم خيبر وحدهم، لا

يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً.

ثم صدر قرار المنع صراحة، فقال تعالى:

﴿قُلْ لَنْ تَنصِبُوهُ كَذَلِكَم قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي قل لهم أيها الرسول صراحة: لن تسيروا معنا في خير، وهكذا أخبرنا الله تعالى من قبل رجوعنا من الحديبية ووصولنا إلى المدينة: أن غنيمة خير لمن شهد الحديبية خاصة، ليس لغيرهم فيها نصيب. والخلاصة: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم.

وهذا نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْفُقُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣/٩]^(١).

ثم أخبر الله تعالى عن ردهم على ذلك بقوله:

﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ حَسْبُ الدُّنْيَا﴾ أي فسيقول الخلفون عند سماع هذا القول: بل إنكم تحسدوننا في المشاركة في الغنيمة، والحسد لا غيره هو الذي يمنعكم من الإذن لنا في الخروج معكم.

فأجابهم الله تعالى بقوله:

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ليس الأمر كما زعموا أمر حسد منكم على أخذهم شيئاً من الغنيمة، بل لأنهم لا يفهمون إلا فهماً قليلاً، والمراد: لا يفهمون شيئاً من أمور الدين وهو جعل القتال لله تعالى، وإصلاح النية له، وصدق الإيمان به، وإن كانوا يعلمون ويفهمون أمور الدنيا.

(١) وهذا مجرد إيراد التشابه في الحكم، وإن كانت هذه الآية في ﴿بَرَكَاتٍ﴾ نزلت في غزوة تبوك،

وهي متأخرة عن عمرة الحديبية.

وهذا دليل على أن محاولتهم نقض حكم الله تعالى، واتهام المؤمنين بالחסد صادر عن جهل وقلة تدبر ووعي، وإنهم قوم ماديون لا يعرفون إلا الدنيا. وقد دعوتهم إلى القتال باستثناء أصحاب الأعداء إن كانوا صادقين في طلب المشاركة مع المؤمنين.

ثم أبان الله تعالى أن ميدان القتال متسع ما يزال مفتوحاً إن أرادوا إثبات إخلاصهم مع النبي ﷺ والذين آمنوا، فقال:

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء المخلفين من الأعراب إن أرادوا الانتماء إلى الصف الإسلامي بحق وصدق: ستندبون إلى قتال قوم أولي شدة وصلابة ونجدة، تخيرونهم بين أحد أمرين: إما المقاتلة أو الإسلام لاثالث لهما، وهذا حكم الكفار الذين لا عهد بينهم وبين المسلمين بعقد الجزية ونحوها، ويشمل مشركي العرب والمرتدين وغير العرب.

أما المفسرون فذكروا أربعة أقوال في تعيين أولئك القوم وهي:

أ - هوازن وغطفان يوم حنين، وكان قتالهم بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة.

ب - ثقيف.

ج- بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة، وكان قتالهم بعد ذلك أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وأكثر المفسرين على أن القوم هم بنو حنيفة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر؛ لأنه تعالى قال: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ ومشركو العرب والمرتدون هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية عند أبي حنيفة، وأما الشافعي فعنده لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب.

د- أهل فارس والروم وأهل الأوثان.

قال ابن جرير: إنه لم يقم دليل من نقل ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين.

ثم وعدهم الله تعالى بالثواب إن أطاعوا، وأوعدهم بالعذاب إن عصوا، فقال: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي فإن تستجيبوا، وتنفروا في الجهاد، وتؤدوا ما عليكم، يعطكم الله ثواباً حسناً، وهو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وإن تعرضوا كما أعرضتم من قبل زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم، يعذبكم عذاباً شديداً مؤلماً بالقتل والأسر والقهر في الدنيا، وبعذاب النار في الآخرة، لعظم جرمكم.

ثم استثنى الله تعالى أصحاب الأعذار من فرضية الجهاد ومن الوعيد على التخلف، فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار وهي العمى والعرج المستمر والمرض المزمن، أو الطارئ أياماً حتى يبرأ ثم وذنّب في التخلف عن الجهاد؛ لعدم استطاعتهم. وقدم الأعمى على الأعرج؛ لأن عذره دائم مستمر.

قال مقاتل: هم أهل الزمالة الذين تخلفوا عن الحديبية، وقد عذّرهم.

ثم رغب سبحانه وتعالى في الجهاد وطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فقال:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي يطع الله تعالى ورسوله ﷺ بإخلاص، فيجاهد مع المؤمنين لإعلاء كلمة الله تعالى والدفاع عن دينه، يدخله الله في الآخرة جنات تجري

من تحت قصورها الأنهار تتدفق عذوبة وتتلاًلأ بياضاً، ومن يعرض عن الطاعة، ويعص الله تعالى ورسوله ﷺ، فيتخلف عن القتال، يعذبه الله عذاباً شديداً الألم، في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار.

وبالرغم من أن طاعة كل واحد من الله والرسول طاعة الآخر، فإنه جمع بينهما بياناً لطاعة الله غير المرئي وغير المسموع كلامه، فقال: طاعته عز وجل في طاعة رسوله ﷺ، وكلامه سبحانه يسمع من رسوله ﷺ.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات الإخبار عن أحوال ثلاثة للمتخلفين:

الحالة الأولى - اعتذارهم بالأموال والأهل: وهذا يدل على الأمور التالية:

أ - إن اعتذار جماعة من الأعراب كانوا حول المدينة كان بعذر سطحي وإيه هو الانشغال بالأموال والأهل، أي ليس لهم من يقوم بهم، بعد أن استفرهم النبي ﷺ ليخرجوا معه حذراً من قريش، وأحرم بعُمرَة وساق معه الهذلي (شاة ونحوها) ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتناقلوا عنه واعتلوا بالشغل، فزلت الآية في شأنهم، وسموا بالمتخلفين أي المتروكين.

وأحسوا بضعف موقفهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ يعني فنحن مع إقامة العذر معترفون بالإساءة، فاستغفر لنا واعف عنا في أمر الخروج.

وهذا إن قبل مع الناس فلا يقبل مع الله تعالى المطلع على حقائق الأمور، لذا دل هذا الموقف على قصور النظر، فضلاً عن سوء الاعتقاد والجهل.

٢ - لقد فضحهم الله تعالى أيضاً، وكذبهم بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وهذا هو النفاق المحض، فهم قوم منافقون، ينطبق عليهم العذاب المذكور في الآية السابقة: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ﴾ [٦].

٣ - وردَّ الله تعالى عليهم أيضاً حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضر، ويعجل لهم النفع، والضر: اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال. والنفع: ضد الضر.

ومضمون الرد بإيجاز: لن يستطيع أحد دفع ما أراده الله في عباده من خير أو شر.

٤ - وزَيَّفَ الله تعالى مُدَّعَاهُمْ، وافتضح شأنهم، وأبان سوء ظنهم حين قالوا: إن محمداً وأصحابه أَكَلَةُ رَأْسٍ^(١) لا يرجعون، وزعموا أن الرسول والمؤمنين سيقتلون ويستأصلون، ولن يعودوا إلى أهلهم أبداً؛ لأنهم قالوا: أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة، فكيف يكون حالهم إذا دخل المسلمون بلادهم، وأحاطوا بهم؟!

وزَيَّنَ الشيطان النفاق في قلوبهم، وظنوا ظناً سيئاً أن الله تعالى لا ينصر رسوله ﷺ، وبذلك جمعوا بين النفاق وسوء الظن وسوء التقدير.

لكل هذا أخبر الله تعالى عن حكمه فيهم وهو أنهم قوم بور، أي هلكى فاسدون لا يصلحون لشيء من الخير.

٥ - ثم أوعدهم الله تعالى بعذاب السعير، وأبان أنهم كفروا بالنفاق.

٦ - وأخبر تعالى عن قدرته الفائقة بتصرفه في أهل السماوات والأرض، وأنه غني عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكليف بالجهاد وغيرهم ليثيب من آمن، ويعاقب من كفر وعصى.

الحالة الثانية- طلب المسير إلى خير: وهذا يشير إلى ما يأتي:

أ - إنهم قوم أغبياء جهلة كذبة: فكيف اعتذروا سابقاً بالانشغال بالأموال والأهل، والآن يطلبون المشاركة في السير إلى خير؟!

(١) أي هم قليل يشبههم رأس واحد.

٢ - إنهم قوم ماديون: يفرون من مواطن الخوف والخطر واحتمال القتال ويحرصون على أخذ غنائم الحرب حينما يحسون بضعف الأعداء وهم يهود خبير.

٣ - إنهم قوم كفرة: يريدون أن يغيروا كلام الله وحكمه، وقدره ووعدته الذي وعد لأهل الحديبية؛ لأن الله تعالى جعل لهم غنائم خبير، عَوْضاً عن فتح مكة إذا رجعوا من الحديبية على صلح.

٤ - إنهم جماعة يستحقون النبذ والعزل المدني: لذا حكم الله تعالى بمنعهم من الخروج مع المسلمين إلى خبير.

٥ - إنهم مرضى القلوب لانطوائها على الحقد والحسد، ومن حقد على الآخرين أو حسدهم ظن أن الآخرين مثله، لذا حاولوا اتهام المسلمين زوراً وبهتاناً بأنهم يحسدونهم على أخذ شيء من الغنائم. وربما فهموا ذلك من قول رسول الله ﷺ: «إن خرجتم لم أمنعكم، إلا أنه لاسهم لكم» فقالوا: هذا حسد، فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه، وهو قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ نهاراً وَّ لَيْلاً وَحِينَ تَضَعُونَ أَرْسَالَكُمْ﴾.

٦ - إنهم قوم لا يفهمون: فلا يعلمون من الدين شيئاً أو قليلاً بسبب ترك القتال، وإن كانوا يعلمون أمور الدنيا.

الحالة الثالثة- حقل التجربة بالمعارك القادمة: وهذا يدل على ما يأتي:

أ - أخبر تعالى زيادةً في تكذيبهم وافتضاح أمرهم أن ميدان القتال مفتوح، فإن كانوا مسلمين صادقين فليجربوا أنفسهم في ملاقاتة أقوام ذوي بأس شديد، ومراس ونجدة.

ب - فتح الله تعالى باب الأمل أمامهم، وأفادهم بأنهم إن أطاعوا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ وجاهدوا بحق يعطهم الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في

الآخرة، وإن أعرضوا في المستقبل عن الجهاد كما أعرضوا في الماضي عام الحديبية، يعذبهم بعذاب مؤلم موجه وهو عذاب النار.

وقد استدل بعض المفسرين بآية: ﴿سَنُدْعُو إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم.

واستدلوا بآية ﴿تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ تُسَلِّمُوا﴾ على حكم من لا تؤخذ منهم الجزية، وهم مشركو العرب والمتردون، فالخيار مقيد فيهم بأمرين: إما المقاتلة وإما الإسلام، لا ثالث لهما.

واستدل الفقهاء بآية ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ على إعفاء أصحاب الأعذار من فريضة الجهاد، وهم الأعمى والأعرج عرجاً دائماً، والمريض المزمن أو المريض مرضاً مؤقتاً يمنع من الخروج من المنزل إلى أن يبرأ. واقتصر النص القرآني على الأصناف الثلاثة؛ لأن العذر إما بسبب اختلال القوة أو إخلال في عضو، فيقاس عليهما ما في معناهما، كالفقير الذي يمنع من إحضار السلاح حال التطوع بالجهاد ودون تقديمه من الدولة، والاشتغال بذوي الحاجة والضعف كطفل ومريض، ونحو ذلك مما يعرف في الفقه. وقد ضبط الفقهاء الأعذار المانعة من الجهاد بأن المانع إما عجز حسي أو عجز حكمي.

فمن الأول: الصغر والجنون والأنوثة والمرض المانع من الركوب للقتال، والعرج اليّن، وفقد البصر، وعدم وجدان السلاح وآلات القتال.

ومن الثاني: الرق والدّين الحال بلا إذن رب الدين، وعدم إذن أحد الأبوين المسلمين.

ودل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ على الحث على الجهاد والترهيب من ترك القتال، فإن من أطاع الله تعالى ورسوله ﷺ وجاهد في سبيل الله،

أدخله الله جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن أعرض عن المشاركة في الجهاد، عَذَّبَهُ عَذَاباً شديداً الألم، لعظم جُرمه، وإساءته للمجتمع الإسلامي.

فإن الجهاد سبيل لدحر العدوان، وطرد المعتدين، والتخلص من أذاهم، وهو طريق العزة والكرامة، وصون الاستقلال، وحماية حرمان البلاد والأوطان، والحفاظ على كيان الأمة، ولولاه لذابت الأمم، وزالت الأديان والقيم، وانصهرت الجماعات، ولحق الذل والهوان والاستعباد بالشعوب إلى الأبد، أو إلى أن تصحو وتستيقظ من رقادها وسباتها، وتنفض الذل عن هاماتها.

لذا جعله الله فريضة على المؤمنين، وإن كان مكروهاً على النفس، ليعلم الصادق في إيمانه، الصابر على تحمل مشاق التكليف، واختبار أعمال الناس حسنات أو سيئات، فيجازيهم بها.

وهو ذروة سنام الإسلام، وسبيل إلى جنات الخلد، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وهم في درجة الأنبياء والصدّيقين، وحسن أولئك رفيقاً.

جزاء أهل بيعة الرضوان

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِرَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

البلاغة:

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ التعبير بصيغة المضارع المفيد للحال عن الماضي لاستحضار صورة المبايعة.

المفردات اللغوية:

﴿رَضِيَ﴾ الرضى: ما يقابل السخط ﴿عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أهل الحديبية، ورضى الله عنهم لمبايعتهم رسول الله ﷺ، وكان عددهم على الأصح ألفاً وأربع مئة، ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ يبايعون الرسول ﷺ على أن يقاتلوا قريشاً، ولا يفرون منهم، ولا يخشون الموت ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هي شجرة (وهي شجرة الطلح أو السنط) ﴿وَأَثَبَهُمْ﴾ كافأهم على عملهم.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ علم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء وإخلاص البيعة ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ الطمأنينة والأمن وسكون النفس بالتشجيع أو الصلح ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ جازاهم على ببيعة الرضوان بفتح خير، بعد انصرافهم من الحديبية.

﴿وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ﴾ أي وأثابهم أيضاً مغامم خير يأخذونها، وكانت خير ذات بساتين نخيل ومزارع، قسمها رسول الله ﷺ بين أهل الحديبية المقاتلة، فأعطى الفارس سهمين، والراجل سهماً ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي كان الله وما يزال غالباً قوياً، مراعيًا مقتضى الحكمة في تدبير خلقه.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال: «بينما نحن قائلون^(١)، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ، يا أيها الناس، البيعة، البيعة، نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة شجرة، فبايعناه، فأنزل الله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية».

فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لك لابن

(١) نائمون نوم القيلولة.

عفان، يطوف بالبيت ونحن هنا، فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة، ما طاف حتى أطوف».

وروي أنه لما نزل الحديبية بعث جِراش بن أمية الخزاعي إلى أهل مكة، فهُمُّوا به، فمنعه الأحابيش، فرجع، فبعث عثمان بن عفان رضي الله عنه، فحبسوه، فأرجف بقتله، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه، وكانوا ألفاً وثلاث مئة أو أربع مئة أو خمس مئة، وبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا منهم، وكان جالساً تحت سمرة أو سدر.

وأخرج الشيخان عن يزيد بن عُبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: «على أي شيء بايعتم رسول الله؟ قال: على الموت».

وأخرج مسلم عن معقل بن يسار قال: «لقد رأيته يوم الشجرة - التي كانت تحتها بيعة الرضوان بالحديبية - والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة، قال: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر».

ووفق العلماء بين الروایتين، فجماعة كانت مع سلمة، وجماعة مع معقل، وأرى أن الغاية من الحديثين واحدة هي الثبات في مواجهة قريش، لذا قال جابر بن عبد الله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت، وعلى ألا نفر، فما نكث أحد منا البيعة إلا جدّ بن قيس، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط ناقته، ولم يثر مع القوم. ويلاحظ أن جابر جمع بين الروایتين.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن جابر أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

للناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى حال المخلفين عام الحديبية، عاد إلى بيان حال الذين

بايعوا تحت الشجرة، وذكروا فيما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيكُ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ فأبان جزاءهم في الدنيا والآخرة، وهو الظفر بغنائم كثيرة من خير، وأخبر الله عن رضاه عن أهل تلك البيعة في الآخرة، لصدق إيمانهم، وإخلاصهم في بيعتهم، وإنزال السكينة (الطمأنينة) عليهم وتثبيت قلوبهم وأقدامهم. والخلاصة: لما ذكر تعالى حال من تخلف عن السفر مع الرسول ﷺ ذكر حال المؤمنين المخلص الذين سافروا معه. والآية دالة على رضى الله تعالى عنهم، ولذا سميت بيعة الرضوان.

التفسير والبيان:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ أي تالله لقد رضى الله عن المؤمنين المخلصين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان، بالحدبية، على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا، وروي أنه بايعهم على الموت، وكان عددهم في الأصح ألفاً وأربع مئة. وسميت بيعة الرضوان، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ﴾.

روى البخاري أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال: انطلقت حاجاً، فمررت بقوم يصلّون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب، فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها، وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم!!

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه عن نافع قال: بلغ عمر أن أناساً يأتون الشجرة التي بويح تحتها، فأمر بها، فقطعت.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي فعلم الله ما في قلوبهم من الإيمان والصدق، والإخلاص والوفاء، والسمع والطاعة،

فأنزل الطمأنينة وسكون النفس عليهم، وجازاهم فتح خير بعد انصرافهم من الحديبية، ثم أتبعه بفتح مكة وفتح سائر البلاد والأقاليم.

وفاء ﴿فَعَلِمَ﴾ للتعقيب، والفعل متعلق بقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ وبما أن العلم بما في القلوب قبل الرضى، فيكون المراد كما يقول القائل: فرحت أمس إذ كلمت زيداً، فقام إلي، أو إذ دخلت عليه فأكرمني، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيباً في المعنى، والآية كذلك إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم. وفاء ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ للتعقيب الواقعي، فإنه تعالى رضي عنهم، فأنزل السكينة عليهم.

﴿وَمَعَانِهِ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: وأثابهم أيضاً مغنم كثيرة، وهي غنائم خير، وكان توزيع الغنائم تعويضاً لهم عما تأملوه من غنائم أهل مكة، ومخصصاً بأهل بيعة الرضوان.

وكان الله وما يزال غالباً كامل القدرة، مديراً أمور خلقه على وفق الحكمة والسداد، وقد حقق لأهل بيعة الرضوان العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

جازى الله تعالى أهل بيعة الرضوان بجزءين: مادي ومعنوي، أما المعنوي: فهو إسباغ الرضى الإلهي عليهم، وإنزال السكينة والطمأنينة على قلوبهم، بسبب ما علمه في نفوسهم من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة.

وأما الجزء المادي: فهو فتح خير أو فتح مكة، وغنائم خير وأموالها، فقسّمها عليهم، وكانت خير ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة، أو غنائم فارس والروم.

مغانم وفتوحات ونعم كثيرة أخرى للمؤمنين

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةًَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ٢١ وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَر ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾

القراءات:

﴿صِرَاطًا﴾ :

وقرأ قبل (سراطاً).

﴿تَعْمَلُونَ﴾ :

وقرأ أبو عمرو (يعملون).

الإعراب:

﴿وَلِتَكُونَ﴾ أي المعجزة، وهو عطف على مقدر، أي لتشكروه.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ : ﴿وَأُخْرَى﴾ : في موضع نصب بالعطف على ﴿مَغَانِمَ﴾ وتقديره: وعدكم ملك مغانم كثيرة وملك أخرى؛ لأن المفعول الثاني وهو: ﴿مَغَانِمَ﴾ لا يكون إلا منصوباً؛ لأن الأعيان لا يقع الوعد عليها، إنما يقع على تملكها وحيازتها. ويصح أن تكون مبتدأ، و﴿لَمْ تَقْدِرُوا

عَلَيْهَا: صفة لها، وجاز الابتداء بها لكونها موصوفة، و﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾: خبر المبتدأ.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، أي سن الله ذلك سنة.

البلاغة:

﴿لَوْلُوا آلَ دَبْرَ﴾ كناية عن الهزيمة؛ لأن المنهزم يدير ظهره للعدو عند الهرب.

المفردات اللغوية:

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ هي ما وعد به المؤمنون إلى يوم القيامة إثر الفتوحات ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أيدي قريش بالصلح، وأيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، وأيدي اليهود عن المدينة إذ هموا بعيالكم، بعد خروج الرسول ﷺ منها إلى الحديبية، بأن قذف في قلوبهم الرعب ﴿وَلِتَكُونَ﴾ أي الغنائم المعجلة ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أمانة للمؤمنين في نصرهم يعرفون بها صدق الرسول ﷺ في وعدهم فتح خيبر والمغانم وغير ذلك، وحراسة الله لهم في غيبتهم ومشهدهم، وحفظ كيان المؤمنين الآتين بعدهم ما داموا على الاستقامة ﴿وَنَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يوفقكم ويرشدكم إلى الثقة بفضل الله والتوكل عليه في كل الأمور.

﴿وَأُخْرَى﴾ أي ومغانم أخرى هي مغانم فارس والروم ﴿لَعَلَّ تَقْدَرُوا عَلَيْهَا﴾ الآن، لما تتطلب من الإعداد الأقوى ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ علم أنها ستكون لكم، وقد أعدها لكم وغنمكموها وأظهركم عليها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي ولم يزل متصفاً بذلك؛ لأن قدرته ذاتيه لا تختص بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قَتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحديبية ﴿لَوْلُوا آلَ دَبْرَ﴾ لهربوا وانهمزوا ﴿ثُمَّ

لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا ﴿ حَارِسًا حَامِيًا يَجْرُسُهُمْ ﴾ وَلَا نَصِيرًا ﴿ معيناً ينصرهم. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ حكم الله وقانونه القديم فيمن مضى من الأمم غلبة أنبيائه، ونصر المؤمنين، وهزيمة الكافرين، كما قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ إِلَّا أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١/٥٨] أي سنَّ الله ذلك سنة ثابتة دائمة ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أيدي كفار مكة ﴿بِطْنِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكة بالحديبية ﴿أَظْفَرَكُمُ عَلَيْهِمْ﴾ أظهركم عليهم وجعلكم متغلبين عليهم، فإن ثمانين منهم طافوا بعسكركم ليصيبوا منكم، فأخذوا وأتي بهم إلى رسول الله ﷺ، فغفا عنهم، وخلق سييلهم، فكان ذلك سبب الصلح ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي ولم يزل مطلعاً على جميع الأمور.

سبب الغزول:

نزول الآية (٢٤):

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ﴾: أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً في السلاح من جبل التنعيم^(١)، يريدون غرة^(٢) رسول الله ﷺ، فأخذوا، فأعتقهم، فأنزله الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ الآية.

وأخرج مسلم ونحوه من حديث سلمة بن الأكوع، وكذا أحمد والنسائي نحوه من حديث عبد الله بن مفضل المزني، وابن إسحاق نحوه من حديث ابن عباس.

(١) التنعيم: موضع في الحل بين مكة وشرف.

(٢) الغرة: الغفلة: أي يريدون أن يصادفوا منه ﷺ ومن أصحابه غفلة من التأهب لهم.

وحديث أحمد عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنهما هو: قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وكان علي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: اكتب باسمك اللهم .

وكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة، فأمسك سهيل ابن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله.

فبينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً، عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد؟ وهل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا، فخلّى سبيلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خبير، أردفه بذكر نعم كثيرة أخرى.

أولها- أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين، وكل ما غنموه كان منها، والله كان عالماً بها.

وثانيها- وعدهم بغنائم هوازن وفارس والروم وغيرها من البلاد التي ستفتح.

وثالثها- الوعد بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وتلك سنة الله القديمة.

ورابعها- امتنان الله على عباده المؤمنين بكف أيدي المشركين عنهم في الحديبية.

التفسير والبيان:

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢٠) أي وعدكم الله أيها المؤمنون مغانم كثيرة من المشركين والكفار على ممر الدهر إلى يوم القيامة، ولكن عجل لكم غنائم خبير، وكف أيدي قريش عنكم يوم الحديبية بالصلح، وأيدي اليهود أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان عن قتالكم، وقذف في قلوبهم الرعب، فلم ينلکم سوء مما أضمره أعداؤکم لکم من المحاربة والقتال.

كل ذلك لتشكروه، ولتكون تلك النعم علامة للمؤمنين يعلمون بها صدق رسول الله ﷺ في جميع ما يبعدهم به، وأن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة العدد، وليزيدكم بتلك الآية أو العلامة هدى، أو يثبتكم على الهداية إلى طريق الحق، والانقياد لأمر الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

- ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١) أي وعدكم الله غنائم أخرى وفتوحات أخرى غير صلح الحديبية وفتح خيبر، لم تكونوا تقدرعون عليها في حالتكم الراهنة، قد أحاط الله بها علماً أنها ستصير أو ستكون لکم، وتفتحونها وتأخذونها، مثل غنائم هوازن في غزوة حنين، وفتوحات فارس والروم، وكان الله وما يزال على كل شيء قديراً مقتدراً، لا يعجزه شيء.

- ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢) أي لو بادركم بالقتال كفار قريش بالحديبية، لنصر الله تعالى رسوله ﷺ وعباده المؤمنين عليهم، ولا نهزم جيش الكفر فاراً هارباً، ثم لا يجدون حارساً وحامياً يحرسهم ويواليهم على قتالكم، ولا ناصراً معيماً ينصرهم عليكم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (١٣) أي تلك سنة الله القديمة وعادته في خلقه بنصر جيش الإيمان على جيش الكفر، ورفع الحق ووضع الباطل، وغلبة أوليائه على أعدائه، بالرغم من عدم تكافؤ القوى، مثل نصر الله يوم بدر أوليائه على أعدائه من المشركين، وتلك السنة مستمرة ثابتة، لا تغيير لها.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (١٤) أي والله سبحانه وتعالى هو الذي كَفَّ أيدي المشركين عن المسلمين، وأيدي المسلمين عن المشركين، لما جاؤوا يصدّون رسول الله ﷺ ومن معه عن البيت الحرام عام الحديبية، في داخل مكة وحدودها، فإن ثمانين رجلاً من أهل مكة - كما تقدّم في سبب النزول - هبطوا على النبي ﷺ من قبل جبل التنعيم، متسلحين، يريدون غيرة النبي ﷺ، فأخذهم المسلمون، ثم تركوهم. وهذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين بكفّ المشركين عنهم، وكفّ المسلمين عن الكفار.

وكان الله وما يزال بصيراً بأعمال عباده المؤمنين والمشركين، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وعلى هذا، ليس المراد من قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فتح مكة، فالصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة، وأن مكة فتحت عنوة، وإنما المراد: ما بعد الأسر لم يحدث قتل.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات البيّنات إلى ما يأتي:

أ - وعد الله تعالى المؤمنين الصادقين مغامم الأعداء إلى يوم القيامة، ومغامم خير المعجلة جزء منها.

ب - إتماماً للمنة والفضل الإلهي، منع الله تعالى عباده المؤمنين وحاهم من

أذى وحرب أهل مكة، وكَفَّمَهُم عنهم بالصلح، كما كَفَّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبي ﷺ إلى الحديبية وخير، وأيدي اليهود وحلفائهم من أسد وغطفان عن قتال المسلمين في خير. وكان قد جاء عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَعُوفُ ابْنِ مَالِكِ النَّضْرِيِّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا لِيَنْصُرُوا أَهْلَ خَيْبَرِ، والمسلمون محاصرون لهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب، وكَفَّمَهُم عن المسلمين، وزاد الله هؤلاء هدى، وثَبَّتَهُمْ على الهداية.

٣ - وعد الله عباده المؤمنين مغامم وفتوحات أخرى إلى يوم القيامة، منها غنائم هوازن، وغنائم فارس والروم، وذلك قبل حدوثها، ولم يكونوا يرجونها، حتى أخبرهم الله بها، وهو إخبار بالمغيبات دالٌّ على إعجاز القرآن، وأنه من عند الله تعالى، وأن الرسول ﷺ صادق في نبوته.

٤ - ومن أفضاله تعالى على المؤمنين أنه كفَّ عنهم شرَّ أعدائهم، فإنه سواء قاتلت غطفان وأسد والذين أرادوا نُضْرَةَ أَهْلِ خَيْبَرِ، أم لم يقاتلوا، لا ينصرون، والغلبة واقعة للمسلمين، وذلك أمر إلهي محكوم به محتوم، ولن يجد الكفار موالياً ينفعهم بالطف، ولا ناصراً يدفع بالعنف، وليس للذين كفروا شيء من ذلك، وطريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه، وهي سنة ثابتة مستمرة لا تقبل التغير.

٥ - وتأكيذاً لنصر المؤمنين وطمأنينة الله تعالى دعائم الصلح والسلام قبل اللقاء وبعده، ومنع حدوث القتال بين المسلمين والكفار، حتى ولو قاتل الكفار، فإنهم سينهزمون ويولّون الدّبر، وحتى بعد ظفر المسلمين بهم، فإنه تعالى كفَّ أيدي المؤمنين عنهم. وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من بعد ما أخذتموهم أسارى، وتمكنتم منهم لم يقع القتل، فإنه متى ظفر الإنسان بعده، يبعد انكفافه عنه، مع أن الله كفَّ اليدين.

وكفَّ أيدي المؤمنين عن الكفار: هو إطلاقهم من الأسر، وسلامتهم من القتل.

ذم المشركين وحكمة المصالحة يوم الحديبية

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنصِبِيكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّدُخُلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥﴾﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

القرءات:

﴿قُلُوبُهُمُ الْحَمِيَّةَ﴾: قرئ:

١- (قُلُوبِهِمْ) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (قُلُوبُهُمْ) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٣- (قُلُوبِهِمْ) وهي قراءة الباقرين.

الإعراب:

﴿وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾: منصوب بالعطف على الكاف والميم في ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾. و﴿مَعَكُوفًا﴾ حال، و﴿أَنْ يَبْلُغَ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: عن أن يبلغ محله، أو بدل اشتمال.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾: مبتدأ مرفوع، ﴿وَنِسَاءٌ﴾: معطوف عليهم، وخبر المبتدأ محذوف، ولا يجوز إظهار خبر المبتدأ إذا وقع بعد ﴿وَلَوْلَا﴾ لطول الكلام بجوابها.

﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ في موضع رفع؛ لأنه صفة لـ ﴿رِجَالٌ﴾، ﴿وَنِسَاءٌ﴾.

و﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أي تقتلوهم، وفي موضع ﴿أَنْ﴾ وجهان: الرفع على البدل بدل اشتمال من ﴿رِجَالٌ﴾ أي ولولا وطؤكم رجالاً مؤمنين لم تعلموهم، أو النصب على البدل بدل اشتمال من الهاء والميم في (تعلموهم)، أي ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموا وطأهم.

وجواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف أغنى عنه جواب ﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واللام في ﴿لَيَدْخُلَنَّ اللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف، دل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ ولا تتعلق بـ ﴿كَفَّ﴾ هذه لأنها صلة ﴿الَّذِي﴾، ووقع فصل طويل في الكلام بين ﴿كَفَّ﴾ واللام، ولا يجوز الفصل بينهما.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿إِذْ﴾: متعلق بـ ﴿لَعَذَبْنَا﴾.

﴿حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل من ﴿الْحَمِيَّةِ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَصَدُّوَكُمْ﴾ منعوكم عن الوصول إليه. ﴿وَأَلْهَى﴾ أي وصدوا الهدى: وهو ما يهdy إلى مكة، أو ما يقدم قرباناً لله تعالى إلى الحرم ويذبح فيه، حين زيارة البيت الحرام في الحج أو العمرة، وهو سنة. ﴿مَعْكُوفًا﴾ محبوساً عن الوصول للحرم. ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ أن يصل مكانه الذي ينحر فيه عادة، وهو منى أو الحرم المكي. وليس المراد مكانه الذي يحل فيه نحره، وإنما المراد مكانه المعهود، وهو منى، وإلا لما نحره الرسول ﷺ حيث أحصر، قال البيضاوي: فلا ينتهض حجة للحنفية على أن مذهب هدى المحصر، هو الحرم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ موجودون بمكة مع الكفار. ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين. ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ مأخوذ

من الوطء: الدوس، والمراد به هنا الإهلاك، جاء في الحديث: «اللهم اشدد وطأتك على مضر» أي أن تبيدوهم مع الكفار لو أذن لكم في الفتح. ﴿فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ﴾ من جهتهم. ﴿مَعَرَّةٌ﴾ مكروه ومشقة، وإثم بالتقصير في البحث عنهم، والمكروه كوجوب الذية والكفارة بقتلهم، والتأسف عليهم، وتعمير الكفار بذلك. مأخوذ من عرّه: إذا عراه ودهاه ما يكرهه. ﴿يَغَيِّرُ عِلْمَكُمْ﴾ منكم، متعلق بـ ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ غير عالمين بهم. وضماير الغيبة للصفين بتغليب الذكور. وجواب ﴿وَلَوْ لَا﴾ محذوف، لدلالة الكلام عليه، تقديره: لأذن لكم في الفتح أو لما كفّ أيديكم عنهم. والمعنى: لولا كراهة أن تبيدوا أناساً مؤمنين بين الكفار، جاهلين بهم، فيصيبكم بإهلاكهم أو إبادتهم مكروه، لما كفّ أيديكم عنهم.

﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ علة لكف أيدي أهل مكة، صوناً للمؤمنين، أي كان ذلك ليدخل الله في توفيقه لزيادة الخير، أو الإسلام. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من المؤمنين أو المشركين. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ تميزوا عن الكفار أو تفرقوا عنهم. ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي لعذبنا الكافرين من أهل مكة حينئذٍ بالقتل والسبي. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلماً شديداً الألم.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي اذكر حين ذاك، أو ظرف ﴿لَعَذَّبْنَا﴾، أو ﴿وَصَدْرُكُمْ﴾ ﴿الْحِمِيَّةَ﴾ الأنفة من الشيء. ﴿حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ التي تمنع إذعان الحق، وهي صدّهم النبي وأصحابه عن المسجد الحرام، فهي حمية في غير موضعها، لا يؤيدها دليل ولا برهان. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنزل عليهم الثبات والوقار، وصالحوا أهل مكة على أن يعودوا من قابل، ولم يلحقهم من الحمية ما لحق الكفار، حتى يقاتلوهم. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ أي المؤمنين. ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ كلمة الشهادة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وقيل: هي بسم الله الرحمن الرحيم، أي اختارها لهم، أو ألزمهم الثبات والوفاء بالعهد، وإضافة الكلمة إلى التقوى؛ لأنها

سبب التقوى وأساسها. ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ أولى بالكلمة من الكفار. ﴿وَأَهْلَهَا﴾ المستأهلين لها، وهو عطف تفسيري لكلمة ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي ولم يزل متصفاً بذلك، فيعلم من هو أهل كل شيء، ويسره له.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٥):

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ﴾: أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبغ^(١) قال: قانتل النبي ﷺ أول النهار كافراً، وقانتل معه آخر النهار مسلماً، وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة، وفيما نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾. وفي رواية ابن أبي حاتم: «كنا ثلاثة رجال، وتسع نسوة، وفيما نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ الآية»:

الخاصية:

بعد أن ذكر الله تعالى امتنانه العظيم على المؤمنين إذ كف عنهم أيدي الكافرين من قريش، وكف أيدي المؤمنين عن الكافرين، وأبرم بينهم ميثاق صلح الحديبية، أبان تعالى أسباب هذا الكف المتبادل، وأوضح حكمة المصالحة بقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ حفاظاً عليهم، ومن أجل نشر دين الإسلام ودخول الناس فيه، وتبديد آثار الأنفة والحمية الجاهلية التي لا تستند إلى برهان معقول، وإنزال السكينة والطمأنينة والثبات على قلب الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، وإلزامهم الوفاء بالعهود.

وقد بينت سابقاً كيف تمّ الصلح الذي جاء في بعض رواياته: أنه لما همّ

(١) قال ابن كثير: والصواب أبو جعفر حبيب بن سبغ.

رسول الله ﷺ بقتال كفار قريش، بعثوا سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، ليسألوه أن يرجع في عامه، على أن تحل قريش مكة في العام القابل ثلاثة أيام، فأجابهم، وكتبوا بينهم كتاباً، على النحو المذكور آنفاً.

التفسير والبيان:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حَجَّتُهُمْ﴾ أي إن مشركي العرب من قريش وحلفائهم هم الكفار الجاحدون توحيد الله دون غيرهم، وهم منعوكم أيها المسلمون من الطواف بالبيت الحرام، وأنتم أحقُّ به وأنتم أهله، وصدُّوا الهدى (ما يهدى إلى الحرم من الأنعام) محوساً في مكانه عن بلوغ حِلِّه بغياً وعناداً، وكان الهدى سبعين بدنة (ناقة) وحِجْلَه: منحره الذي يذبح فيه عادة، وهو حيث يحلُّ نحره من الحرم، وهو منى أو الحرم المكي، فرخص الله سبحانه لهم يجعل ذلك الموضع الذي وصلوا إليه وهو الحديبية مكان الإحصار (المنع من دخول مكة) حِجْلاً للنحر، وكانوا خارج الحرم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَفَضَّيْكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ولولا وجود المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بمكة، الذين يكتمون إيمانهم ويخفونه خيفة على أنفسهم من قومهم، لأذنا لكم بالفتح، ولما كففتنا أيديكم عنهم، ولكننا سلطانكم عليهم، فقتلتموهم واستأصلتموهم، ولكن يقع بينهم فريسة القتل أقوام من المؤمنين والمؤمنات لم تعرفوهم ولم تعلموا أنهم مؤمنون حالة القتل، فطفؤوهم بالقتل، ففضيكم من جهتهم مشقة وتأسف، وإثم وكفارة على القتل الخطأ، لوقوع القتل جهلاً بغير علم منكم بهم، وحيث يقول المشركون: إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم.

﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ولكن كف أيديكم عنهم وحال

بينكم وبين قتالهم ليخلص المؤمنين من أسرهم، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

﴿لَوْ تَزَلَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا، وانفصل بعضهم عن بعض بما يسمى اليوم بفك الارتباط، لعذبنا الذين كفروا عذاباً مؤلماً وهو القتل، بأن نسلطكم عليهم، فتقتلوهم قتلاً ذريعاً. والخلاصة: لو تزيل المؤمنون من الكفار لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم.

ثم بين الله تعالى ظرف العذاب أو وقته، فقال:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية التي لا تدعن للحق ولا تعرف منطقاً ولا تعتمد دليلاً مقنعاً، وهي قولهم: واللوات والعزى لا يدخلونها علينا، وإياؤهم كتابة البسمة ووصف محمد ﷺ بأنه رسول الله في مقدمة صلح الحديبية.

فأنزل الله الطمأنينة والثبات والصبر على رسوله وعلى المؤمنين، حيث لم يدخلهم ما دخل أهل الكفر من الحمية، وثبتهم على الرضا والتسليم، وألزمهم كلمة الشهادة أو التوحيد وهي «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» أو ألزمهم تعظيم الحرم، وترك القتال فيه، ولم يستفزه صنيع الكفرة، لينتهكوا حرمة الحرم.

وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة وأجدر بها وأهلاً لها من دون الكفار؛ إذ هم أهل الخير والصلاح والعقيدة الصحيحة، على نقبض الكفار ذوي العقيدة الفاسدة.

وكان الله وما يزال عليمًا بمن يستحق الخير، ممن يستحق الشر.

روى النسائي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ، حِمْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، ولو حِثِّمَ كما هموا، لفسد المسجد الحرام) فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فأغلظ له، فقال- أي أبي-: إنك لتعلم أي كنت أدخل على رسول الله ﷺ، فيعلمني مما علَّمه الله تعالى، فقال عمر رضي الله عنه: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقراً وعَلِّمَ مما علَّمك الله تعالى ورسوله ﷺ.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - ذمَّ الله تعالى قريشاً إذ كفروا بتوحيد الله، ومنعوا المؤمنين دخول المسجد الحرام عام الحديبية، حين أحرم النبي ﷺ مع أصحابه بعمرة، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ تحله، ولم يكن هذا من اعتقادهم، ولكنه حملتهم الأنفة، ودعتهم حيية الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه ديناً؛ فونجهم الله على ذلك وتوعدهم عليه، وأنس رسول الله ﷺ ببيانه ووعد.

٢ - إن حرمة المؤمن عند الله عظيمة، فقد كان صلح الحديبية من أجل ثلاثة رجال وسبع أو تسع نسوة حتى لا يقتلوا في زحمة المعركة لو حدث قتال، فيعاب المسلمون، ويقول المشركون: قد قتلوا أهل دينهم، وتلزمهم كفارة القتل الخطأ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجرمها، ولم يُعلم بإيمانه الكفارة دون الدية في قوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢/٤].

٣ - دل قوله تعالى: ﴿يَغْيِرْ عِلْمٌ﴾ على تفضيل الصحابة، واتصافهم بصفات كريمة من العفة عن المعصية، والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم

أصابوا من ذلك أحداً، لكان من غير قصد. وهذا مشابه لوصف النملة جُند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨/٢٧] .

٤ - لم يأذن الله للمسلمين في قتال المشركين عام الحديبية لِيُسلم بعد الصلح الموقَّع للإسلام من أهل مكة، وقد أسلم الكثير منهم، وحسن إسلامهم، ودخلوا في رحمة الله؛ أي جنته.

٥ - لو تميز المؤمنون عن الكفار لعذب الكفار بالسيف، ولكن الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن الكفار.

٦ - آية ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ﴾ دليل على وجوب مراعاة حرمة المؤمن والامتناع من قتله إذا اختلط بالكفار، إلا لمصلحة ضرورية قطعية كلية، كما في قتل التُّرس، أي المسلمين المترس بهم من قبل العدو، فيتخذهم دريئة تحمي نفوسهم، وحيلة تمكنهم من التقدم.

ومعنى كونها ضرورية: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ومعنى أنها كلية. أنها قاطعة مفيدة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس، واستولوا على كل الأمة. ومعنى كونها قطعية: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً.

والمصلحة بهذه القيود لا خلاف في اعتبارها؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعاً، إما بأيدي العدو، فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدو على كل المسلمين، وإما بأيدي المسلمين، فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون.

ولا خلاف بين العلماء أنه لا يجوز تعمد المسلمين المترس بهم بالقتل، وهل تجب الدية والكفارة؟ اختلف العلماء:

فقال الحنفية: لا دية ولا كفارة.

وقال الشافعية والثوري: تجب الدية والكفارة^(١).

٧ - لم يكن منع أهل مكة المشركين من دخول المؤمنين المسجد الحرام لسبب معقول، وإنما بدوافع الأنفة أو الحمية الجاهلية التي لا يؤيدها دليل ولا برهان، دفعتهم عصيتهم لأهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنفة من أن يعبدوا غيرها.

كذلك حملتهم تلك العصية لوثنية الجاهلية على الامتناع من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» و «محمد رسول الله» في مقدمة الصلح.

٨ - أما المؤمنون فقد أنزل الله عليهم الطمأنينة والوقار، وثبتهم على الرضى والصبر والتسليم، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل في قلوب أولئك من الحمية والغضب، وألزمهم كلمة «لا إله إلا الله» لأنهم كانوا أحق بها من كفار مكة؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبه نبيه.

تصديق رؤيا الرسول ﷺ عام الفتح

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٨﴾﴾

القراءات:

﴿الرُّؤْيَا﴾:

وقرأ السوسي (الرؤيا).

الإعراب:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ﴾ «الرُّؤْيَا» بحذف مضاف أي تأويل الرؤيا؛ لأن الرؤيا مخايل تُرى في النوم، فلا تحتل صدقاً ولا كذباً، وإنما يحتل الصدق والكذب تأويلها. وبالحق: إما صفة مصدر محذوف أي مصدقاً ملتبساً بالحق، أو قسم باسم الله أو بنقيض الباطل. و﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾ أصله: لتدخلون، إلا أنه لما دخلت نون التوكيد حذفت النون التي هي نون الإعراب، لتوالي الأمثال، والفعل معرب عند الجمهور، ويرى ابن الأنباري أن النون محذوفة للبناء.

و «ءَامِنِينَ» «مُحْلِقِينَ» «وَمُقَصِّرِينَ» كلها منصوبات على الحال من الضمير المحذوف في ﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾ وكذلك قوله: «لَا تَخَافُوكَ» جملة في موضع الحال، وتقديره: غير خائفين.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ تقديره: كفاكم الله شهيداً، فحذف مفعولي ﴿وَكَفَى﴾، و﴿وَكَفَى﴾ يتعدى إلى مفعولين، قال تعالى: «سَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ» [البقرة: ١٣٧/٢]. و﴿شَهِيدًا﴾ منصوب على التمييز، أو الحال.

للإبلاغ:

﴿مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ صدقه في رؤياه ولم يكذبه، فحذف الجار وهو (في) ووصل الفعل، كقوله تعالى: «صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» [الأحزاب: ٢٣/٣٣] يرى الزمخشري أنه متعلق بـ «صَدَقَ»، أي

صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقاً ملتبساً بالحق، أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، ويجوز أن يتعلق بـ «الرُّؤْيَا» حالاً منها، أي صدقه الرؤيا ملتبساً بالحق، على معنى أنها لم تكن أضغاث أحلام، ويجوز أن يكون «بِالْحَقِّ» قسماً إما بالحق الذي هو نقيض الباطل، أو بالحق الذي هو من أسماء الله تعالى.

﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾ جواب القسم على أن «بِالْحَقِّ» قسم، وعلى الرأي الأول والثاني هو جواب قسم محذوف «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» تعليق للوعد (أو للعدة) بالمشيئة، تعليماً للعباد «مُخْلِفينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ» محلقاً بعضكم جميع شعورهم، ومقصراً آخرون بعض شعورهم «لَا تَخَافُوكُمْ» أبداً «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا» من الحكمة في تأخير ذلك «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ» جعل من دون دخول المسجد، أو من دون فتح مكة «فَتَتَمَّ قَرِيباً» هو فتح خيبر، ثم تحققت الرؤيا في العام القابل.

﴿بِالْهُدَى﴾ ملتبساً بالهدى «وَدِينِ الْحَقِّ» دين الإسلام «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» ليعليه على جنس الدين كله بنسخ ما كان حقاً، وإظهار فساد ما كان باطلاً، وفيه تأكيد الوعد بالفتح «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً» على أن ما وعده كائن، أو على نبوته بإظهار المعجزات.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿لَقَدْ صَدَفَ﴾: أخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أرى النبي ﷺ، وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين

محلقيْن رؤوسهم ومقصرين، فلما نحر الهدي بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله، فنزلت: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّيَا﴾ الآية.

وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة؛ فلما صالح قريشاً بالحديبية، ارتاب المنافقون حتى قال رسول الله ﷺ: إنه يدخل مكة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّيَا بِالْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأن رؤياه ﷺ حق.

وقصة الرؤيا: أنه ﷺ رأى في المنام - وهو في المدينة^(١) - أن ملكاً قال له: ﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَخَافُوكَ﴾ فأخبر أصحابه بالرؤيا، ففرحوا وجزموا بأنهم داخلون في عامهم، فلما صُدُّوا عن البيت، واستقر الأمر على الصلح، قال بعض الضعفة المنافقون: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت.

وقالوا أيضاً: أليس كان يَعِدُنَا النبي ﷺ أن نأتي البيت، فنطوف به؟ فقال لهم أهل البصرة: هل أخبركم أنكم تأتون العام؟ فقالوا: لا، قال: فإنكم تأتون وتطوفون بالبيت، فأنزل الله تصديقه.

وجاء في السيرة: أن عمر بن الخطاب قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: ألسنتُ نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: فلم تُعطي الدنيا في ديننا إذن؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر: أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم تُعطي الدنيا في ديننا؟

(١) الظاهر أن مكان الرؤيا في المدينة أصح من القول بأنها في الحديبية.

قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بعُزْزِهِ^(١)، فوالله إنه لعلى الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به؟ قال: بلى، قال: فأخبرك أنه آتية العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به^(٢).

التفسير والبيان:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٧) أي تالله لقد صدق الله تعالى تأويل رؤياه التي رآها تصديقاً مقترناً بالحق، أنكم ستدخلون المسجد الحرام بمشيئة الله في العام القابل، وليس في هذا العام عام الحديبية، حالة كونكم آمنين من العدو، ومحلقاً بعضكم جميع شعره، ومقصراً بعضكم الآخر، وأنكم غير خائفين.

وهذا تأكيد للأمن، فإنه تعالى أثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد. وكان ذلك في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة إلى المدينة، أقام بها ذا الحجة والحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة، وبعضها صلحاً.

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ معتمراً هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى، وسار أصحابه يُلبّون. ثم دخل مكة بالسيوف مغمدة في قُربها، كما شارط أهل مكة في صلح الحديبية.

(١) أي سر على نهجه.

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٤-٢٠٠

ثم رتب الله تعالى على التصديق وسوء ظن القوم قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾^(١) من الحكمة والمصلحة في تأخير الفتح إلى العام القابل، فجعل من دون ذلك الفتح فتحاً آخر قريب الحصول، وهو فتح خير.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لتعليم العباد وإرشادهم إلى تعليق كل أمر بمشيئة الله.

ثم أكد تعالى صدق الرؤيا بتصديق الرسول ﷺ في كل شيء بقوله:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨) أي إن الله عز وجل هو الذي أرسل رسوله محمداً بالعلم النافع والعمل الصالح، وبما يرشد إلى طريق الهداية الصحيح، ودين الإسلام، ليعليه على كل الأديان، بنسخ سائر الديانات السابقة، وإظهار فساد العقائد الزائفة، وكفى بالله شهيداً على هذا الوعد من إظهار دينه على جميع الأديان، وعلى أن محمداً ﷺ رسوله، وهو ناصره. وفي هذا رد على سهيل ابن عمرو الذي أبى أن يكتب في مقدمة صلح الحديبية: «محمد رسول الله» وتسليية لرسول الله ﷺ، وتأكيد لصدق رؤياه ﷺ، وتبشير بفتح مكة لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾

فقه الحياة أو الأحكام:

إن رؤيا الأنبياء حق لا شك فيه، ولكن توقيت حدوث مقتضى الرؤيا بعلم الله، لا بعلم البشر، ولم يكن في إخبار النبي ﷺ أنه وصحبه سيدخلون المسجد الحرام في زمن محدد معين، ففهم الصحابة أن ذلك سيكون عام الحديبية، ولكن الله الحكمة البالغة، يفعل الأشياء حسبما يرى من المصلحة والخير

(١) الفاء لعطف ﴿فَعَلِمَ﴾ على ﴿صَدَقَ﴾ وبما أن العلم متقدم على الرؤيا، فإن المراد بالتعقيب والترتيب علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب.

والحكمة، وصدق الرؤيا في العام القابل، وجعل في الفترة ما بين العامين فتح خبير.

وكان دخولهم آمنين من العدو، غير خائفين أثناء استقرارهم في مكة لأداء العمرة.

والتحليق والتقصير جميعاً للرجال، وكلاهما جائز، ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: رحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة.

والله تعالى تأكيداً لتصديق رؤيا رسوله ﷺ، أبان أنه صدق الرسول ﷺ في كل شيء، فأرسله رسول الهدى، ورسول الدين الحق: دين الإسلام، ليعليه على كل الأديان، وكفى بالله شاهد عدل وحق لنبيه ﷺ على صحة نبوته بالمعجزات، وعلى أنه رسول من عند الله، وعلى إظهار دينه على جميع الأديان.

أوصاف الرسول ﷺ والمرسل إليهم

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُمْ فَازْرَعُوهُ فَاسْتَغْلَطَتْ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِمْ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ١٩﴾

القراءات:

﴿شَطْطَهُمْ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان (شَطَاه).

﴿فَأَزَرَهُ﴾ :

وقرأ ابن ذكوان (فَأَزَرَهُ).

﴿سُوقَهُ﴾ :

وقرأ قبل (سُوقَهُ، سُوقَهُ).

الإعراب:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ مبتدأ، و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: خبر المبتدأ، أو عطف بيان ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ﴾ مبتدأ أيضاً وخبر، و﴿رُحَمَاءُ﴾ خبر ثان، وما بعده أخبار عن الذين مع النبي ﷺ، ويجوز أن يكون ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ وصف محمد، و﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ عطف على ﴿مُحَمَّدٌ﴾. و﴿أَشِدَّاءُ﴾ خبر عن الجميع، و﴿رُحَمَاءُ﴾ خبر ثان عنهم، والنبي داخل في جميع ما أخبر به عنهم.

و ﴿رُكْعًا سَجْدًا﴾ منصوبان على الحال من الهاء والميم في ﴿تَرْتِلُهُمْ﴾ لأنه من رؤية البصر، و﴿يَتَّبِعُونَ﴾ جملة فعلية إما في موضع رفع على أنها خبر بعد خبر، أو في موضع نصب على الحال من الهاء والميم في ﴿تَرْتِلُهُمْ﴾ وتقديره: تراهم ركعاً سجداً مبتغين فضلاً.

﴿سَيِّمَاهُم﴾ مبتدأ، وخبره: إما ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ أو ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

و ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ مبتدأ وخبر. و﴿وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ إما معطوف على (مثل) الأول ويكون ﴿كَزْرَعٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم كزراع، أو هما مبتدأ وخبر كالجملتين السابقتين، فيكون لهما على هذا الوجه مثلان وُصِفُوا بهما، أحدهما: في التوراة والآخر: في الإنجيل، وعلى الوجه الأول لهما مثلان كلاهما في التوراة والإنجيل.

البلاغة:

﴿أَشِدَّاءُ﴾ و﴿رُحَمَاءُ﴾ بينهما طباق.

﴿كَرَّعَ أَخْرَجَ شَطَطَهُمْ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ تشبيه تمثيلي، وجه الشبه فيه منترع من متعدد.

ويلاحظ مراعاة الفواصل في كل آيات السورة على وتيرة واحدة من قوله تعالى: ﴿مُيْنًا﴾ ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾.

للفردات اللغوية:

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أصحابه المؤمنون ﴿أَشِدَّاءُ﴾ غلاظ قساة جمع شديد ﴿رُحَمَاءُ﴾ متعاطفون متوادون في قلوبهم رحمة. كالوالد مع الولد، جمع رحيم، والمعنى: أنهم يغلفون في القتال على أعدائهم، ويتراحمون فيما بينهم، كقوله تعالى: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤/٥].

﴿تَرَبُّهُمْ﴾ تبصرهم ﴿رُكْمًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشغولون بالصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ يطلبون الثواب والرضى ﴿سِيَمَاهُمْ﴾ علامتهم، والمراد: السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود، أو هي نور وبياض يعرفون به بالآخرة أنهم سجدوا في الدنيا ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ كاثنة منه ﴿ذَلِكَ﴾ الوصف المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم العجيبة الجارية مجرى الأمثال في الغرابة ﴿شَطَطُهُمْ﴾ فراخه أو فروعه التي تنبت حول الأصل ﴿فَتَازَرَهُ﴾ أعانه وقواه، من الموازنة: المعاونة ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فغلظ ﴿فَاسْتَوَى﴾ قوي واشتد واستقام ﴿عَلَى سُوقِهِ﴾ أصوله وقضبانته، جمع ساق ﴿يَعِجِبُ الزُّرَّاعُ﴾ لحسنه جمع زارع، مثل الصحابة رضي الله عنهم بذلك، لأنهم بدؤوا في قلة وضعف، فكثروا وقووا، فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس.

﴿لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ متعلق بمحذوف، دل عليه ما قبله، أي شبهوا

بذلك، فهو علة لتشبيهم بالزرع في زكائه واستحكامه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ لما سمع الكفار بهذا غاظهم ذلك، وقوله ﴿مِنْهُمْ﴾ لبيان الجنس أي الصحابة، لا للتبعض؛ لأنهم كلهم بالصفة المذكورة ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ الجنة. والمغفرة والأجر هما أيضاً لمن بعدهم من المؤمنين والمؤمنات.

للناسية:

بعد بيان كون النبي ﷺ مرسلًا بالهدى ودين الحق، يبين حال الرسول والمرسل إليهم، فأكد الشهادة في قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ثم وصف صحابته بأوصاف عجيبة: هي الشدة على الأعداء، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة العبادة، والحرص على الثواب والرضى من الله، والتميز بالنور والضياء في الدنيا والآخرة، وبيان صفاتهم في كل من التوراة والإنجيل، والانتقال من الضعف إلى القوة والكثرة، وكونهم موعودين من الله بالمغفرة والجنة.

التفسير والبيان:

- ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي إن محمداً رسول من عند الله حقاً بلا شك ولا ريب.

- ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن صحابته يمتازون بالشدة والغلظة والصلابة على من جحد بالله وعاداهم، وبالرقة والرحمة على بعضهم بعضاً، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/٥٤]. وقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَقُولُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣/٩].

وكما جاء في الحديث الصحيح عند أحمد ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل

الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وفي حديث الشيخين والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

وقال الحسن البصري: بلغ من تشددهم على الكفار: أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتزق بشياهم، فكيف بأبدانهم؟ وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه،. والمصافحة جائزة بالاتفاق. وأما المعانقة والتقبيل فقد كرههما أبو حنيفة رضي الله عنه، وإن كان التقبيل على اليد، ومن حق المؤمنين: أن يراعوا هذه السنة أبداً، فيتشددوا على مخالفهم، ويرحموا أهل دينهم.

﴿تَرْبَهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي تشاهدتهم يكثرون الصلاة بإخلاص، فتبصرهم غالباً راكعين ساجدين، يلمسون ويطلبون الثواب والرضا، ويحتسبون عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة، ورضا الله تعالى عنهم، والرضا أكبر من الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢/٩].

- ﴿سَيِّئَاتِهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي علامتهم المميزة لهم وجود النور والبهاء والوقار في الوجه والسمت الحسن والخشوع، قال السُّدِّي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقد أسنده ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف.

وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلّات لسانه.

والمراد أن أثر العبادة والصلاح والإخلاص مع الله تعالى يظهر على وجه المؤمن، لذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من أصلح سريرته، أصلح الله تعالى علانيته».

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس، كائناً ما كان».

وروى أحمد أيضاً وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الهدى الصالح، والسُّمْت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة».

- «ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطُهُ فَازَرُّهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزَّרَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» أي ذلك الوصف المذكور للصحابة هو وصفهم الذي وصفوا به في التوراة ووصفوا به في الإنجيل، وهم كانوا ضعافاً قليل العدد، فازدادوا وكثروا وتقوا، مثل الزرع الذي أخرج فروخه وفروعه على جوانبه، فاشتد وقوي وأعانه وشده، أي إن الزرع قوى الشَّطء؛ لأنه تغذى منه واحتمى به، وتحول من الدقة إلى الغلظ، واستقام على أعواده، يعجب هذا الزرع الزَّارِعَ لقوته وحسن منظره، كما هو معروف.

وهذا مثل ضربه الله تعالى للصحابة، كانوا في الابتداء قلة، ثم زادوا وكثروا وتقوا، كالزرع تكون فراخه في الابتداء ضعيفة، ثم تتقوى تدريجياً حتى يغلظ ساقه.

وقد كثر الله الصحابة وقواهم ليكونوا غيظاً للكافرين.

وهكذا يكون إيمان المسلم إذا دخل في الإسلام ضعيفاً، ثم يتقوى بصحبته وملازمته لأهل العلم والإيمان حتى يستوي ويكون مثلهم، وربما أقوى منهم.

- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي وعد الله تعالى الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، وعملوا صالح الأعمال أن يغفر ذنوبهم، ويجزل أجرهم وثوابهم، ويدخلهم الجنة، ووعد الله حق وصدق وكائن لا محالة، ولن يخلف الله وعده.

وهذا يشمل الصحابة وكل من اقتفى أثرهم، وسار على منهجهم من أفواج الإيمان وجند الإسلام، وتلاحق الأجيال. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه».

فقه الحياة أو الأحكام:

أثبتت الآية صفتي النبوة والرسالة لمحمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. ووصفت أصحابه بثماني صفات هي:

١ - ٢: الشدة والصلابة والعنف على الأعداء الكفار، والرحمة والرفقة والرفق والبر بالمؤمنين، فهم أسود غضاب عبوسون في وجه الكفار الذين يعادونهم، ضحوكون بشوشون في وجوه إخوتهم المؤمنين.

٣- ٤: يمتازون بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، مع وصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، واحتساب جزيل الثواب وهو الجنة عند الله تعالى المشتملة على فضل الله وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، فهم يطلبون بعملهم الخلد في الجنة ورضا الله تعالى.

٥ - علامتهم المميزة لهم النور والضياء في الدنيا والآخرة، والسمت الحسن، والخشوع والتواضع لله تعالى.

٦ - تلك الأوصاف وصفوا بها في كل من التوراة والإنجيل والقرآن.

٧ - كثرة الخير والبركة والنماء فيهم، فإنهم كانوا قلة ضعافاً، ثم صاروا كثرة أشداء أقوياء، كمثّل الزرع الذي ينبت من حوله الفراخ، ثم تقوى وتشتد وتكبر. ولقد فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار.

٨ - وعدهم الله تعالى جميعاً وأمثالهم المتبعين لهم بإحسان وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة بمغفرة الذنوب والثواب الذي لا ينقطع وهو الجنة. وقد وردت آيات أخرى وأحاديث كثيرة في فضل الصحابة، والنهي عن التعرض لهم بالإساءة، والصحابة كلهم عدول، وهم أولياء الله تعالى وأوصياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. وفيما سبق ذكرت بعض الأحاديث، ومن قرأ الآية السابقة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [١٨] والآية: ﴿رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣/٢٣] وآيات سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [٨-٩] من قرأ ذلك عرف مدى ثناء الله عليهم، والشهادة لهم بالصدق والفلاح. وقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد والشيخان والترمذي عن ابن مسعود: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم».

وقد استدل الإمام مالك رحمه الله بهذه الآية ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ على تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم، فهو كافر لهذه الآية، قال ابن كثير: ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك. والظاهر أنهم فساق.

قال بعض العلماء عن خلافات الصحابة والافتتال الذي حدث بينهم: «تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْحَجُرَاتِ

مدنية، وهي ثمانى عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة ﴿الْحَجُرَاتِ﴾ لأن الله تعالى ذكر فيها تأديب أجلاف العرب الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات وهي حجرات (بيوت) نساؤه المؤمنات الطاهرات رضي الله عنهن، وكانت تسعاً، لكل واحدة منهن حجرة، منعاً من إيذاء النبي ﷺ وتوفيراً لحُرمة بيوت أزواجه.

وتسمى أيضاً سورة (الأخلاق والآداب) فقد أرشدت إلى آداب المجتمع الإسلامي وكيفية تنظيمه، وأشادت بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، ونودى فيها بوصف الإيمان خمس مرات، وأصول تلك الآداب خمسة وهي:

طاعة الله والرسول ﷺ، وتعظيم شأن الرسول ﷺ، والتثبت من الأخبار المنقولة، وتحريم السخرية بالناس، وتحريم التجسس والغيبة وسوء الظن.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها وهي سورة الفتح من نواح ثلاث، هي:

أ - في السورة المتقدمة حكم قتال الكفار، وفي هذه حكم قتال البغاة (أهل الثورة الداخلية).

٢ - ختمت السابقة بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وافتتحت هذه بـ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكيراً لهم بجرمتهم عند الله عندما وصفهم بكونهم أشداء رحماء، مما يقتضي محافظتهم على هذه الدرجة بطاعة الله تعالى والرسول ﷺ.

٣ - في كلتا السورتين تشريف وتكريم لرسول الله ﷺ، خصوصاً في مطلع كل منهما، والتشريف يقتضي من المؤمنين الرضا بما رضي به الرسول ﷺ من صلح الحديدية، وألا يتركوا شيئاً من احترامه قولاً وفعلاً.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسابقتها أحكام شرعية لكونها مدنيتين، وهي أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع الإسلامي على أساس متين من التربية القوية، والأخلاق الرصينة، حتى إنها سميت (سورة الأخلاق) فهي في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب. وآدابها نوعان: خاص وعام.

أما الآداب الخاصة: فهي ماله علاقة بين النبي ﷺ وأمته. وقد ابتدأت السورة بها، فأوجبت طاعة الله تعالى والرسول ﷺ وحذرت من المخالفة. ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا﴾ ثم أمرت بخفض الصوت أثناء خطاب النبي ﷺ إجلالاً له وهيبة منه وتعظيماً لقدره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ ثم طالبت المؤمنين بخطاب الرسول ﷺ بصفة النبوة والرسالة، لا باسمه وكنيته تعظيماً واحتراماً له، وجعلت خفض الصوت عند رسول الله ﷺ من التقوى، وذمّت من يناديه من وراء حُجرات نساءه كعُيَينة بن حِصْن وأشباهه، وذكرت السورة في آخرها ذمّ الامتنان على الله تعالى ورسوله ﷺ بالإيمان: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ﴾.

ثم تحدثت عن الآداب الاجتماعية العامة: وهي المتصلة بعلاقات الناس بعضهم مع بعض، مما فيه تقرير فضيلة وذم رذيلة، لإقامة دعائم المجتمع الفاضل.

فأمرت المؤمنين بالتثبت من الأخبار وعدم الإصغاء للإشاعات التي يروجها الفساق ويتناقفونها: ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ وأشادت بمقتضى الإيمان، وكرهت الكفر والفسوق والعصيان.

ثم أبانت طريق فض المنازعات الداخلية بين فئتين متقاتلتين من المؤمنين وهو الإصلاح، وقاتل الفئة الباغية (البغاة) حتى تعود لصف الجماعة والوحدة: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأعلنت قيام رابطة الإخاء والود بين المؤمنين، وحذرت من تفكك الجماعة المؤمنة وإثارة النزاع بين أفرادها، وتوليد الأحقاد والضغائن والكراهية بسبب السخرية والهمز واللمز والتنازع بالألقاب، سواء بين الرجال أو النساء، أو بسبب سوء الظن بالمسلم والتجسس (تتبع العورات) والغيبة والنميمة.

ثم أعلنت مبدأ الإخاء الإنساني، والمساواة بين الشعوب والأفراد من مختلف الأجناس والألوان والعناصر، فلا عداوة ولا طبقية ولا عنصرية، وإنما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح ومكارم الأخلاق.

وختمت السورة بالكلام عن الأعراب، فميّزت بين الإيمان والإسلام، وذكرت غرر صفات المؤمنين وشروط المؤمن الكامل (الإيمان بالله ورسوله، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله) وعابت المنّ على الرسول ﷺ بالإسلام، ووضعت ضوابط احترام القيم الدينية والأخلاقية، وهو رقابة الله جل جلاله لعباده، وعلمه بغيب السماوات والأرض وأهلها، وبصره بجميع أعمال الخلق.

طاعة الله تعالى والرسول ﷺ والتأدب في خطاب النبي ﷺ

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
 ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ
 كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا
 يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
 ﴿٥﴾

للقرءات:

﴿النَّبِيِّ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

الإعراب:

﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ الكاف: في موضع نصب؛
 لأنها صفة مصدر محذوف، تقديره: جهراً كجهر بعضكم. و﴿أَن تَحْبَطَ﴾: في
 موضع نصب: بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: لأن تحبط، ويجوز أن
 يكون في موضع جر، بإعمال حرف الجر مع الحذف.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ﴾: ﴿أُولَٰئِكَ﴾: إما خبر ﴿إِنَّ﴾، أو مبتدأ وخبره
 ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ والجملة منهما خبر ﴿إِنَّ﴾ ويجوز أن يكون ﴿أُولَٰئِكَ﴾ صفة
 ﴿الَّذِينَ﴾ ويكون ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. و﴿مَغْفِرَةٌ﴾: إما مرفوع
 بالظرف، أو مبتدأ والظرف خبر مقدم عليه، وهذا أوجه.

﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾: مبتدأ، و﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾: خبره، والجملة منهما خبر ﴿ إِنَّ ﴾

البلاغة:

﴿ لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ استعارة تمثيلية، شبه حال الذين يريدون آراءهم أمام النبي ﷺ بحال من تقدم للسير أمام ملك أو حاكم عظيم، وكان عليه أدباً أن يسير خلفه.

﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ تشبيه مرسل مجمل، لوجود أداة التشبيه.

المفردات اللغوية:

﴿ لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لا تقدموا أمراً أو حكماً أو رأياً دونهما، أو لا تقدموا، مأخوذ من مقدمة الجيش: من تقدم منهم، والمراد: لا تقولوا بخلاف القرآن والسنة، والمراد بـ ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾: أمامهما ﴿ وَأَنْقُوا اللَّهَ ﴾ خافوه واحذروا مخالفة أمره ونهيه في التقديم أو مخالفة الحكم وغيرهما ﴿ سَمِعَ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِمَ ﴾ بأفعالكم.

﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ أي إذا كلمتموه، فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أي إذا ناجيتموه، فلا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته، أو لا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً إجلالاً له، وخاطبوه بـ (يا أيها النبي) أو (يا رسول الله). وتكرير النداء بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ لمزيد الاستبصار وضبط النفس، وزيادة الاهتمام به والتعظيم له ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي لثلاً^(١) أو كراهة وخشية أن تحبط، أي يطل ثواب أعمالكم؛

(١) قال الزجاج: التقدير: لأن تحبط، فاللام المقدرة لام الصيرورة.

لأن في رفع الصوت والجهر استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحيطة إذا ضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة «وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» أنها محبطة.

«يَغْضُونَ أَسْوَأَهُمْ» يخفضونها ويُلينونها «عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ» مراعاة للأدب أو مخافة مخالفة النهي «أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» اختبرها، والمراد: طهرها ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة «لِلنَّقْوَى» أي مرّنها على التقوى، وأعدّها لها «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» لذنوبهم «وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» ثواب عظيم لغضهم الصوت وسائر طاعاتهم، وتذكير «وَأَجْرٌ» للتعظيم.

«مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ» أي من خلف وخارج غرف نسائه ﷺ، جمع حُجْرَة: وهي قطعة من الأرض تحجر بمخاط ونحوه مثل الغرفات جمع غرفة، والظلمات جمع ظلمة «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة أمام منصب النبي ﷺ.

«وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ» أي لو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال، لما فيه من الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبين للثناء والثواب «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» حيث اقتصر على النصيح والتفريع لهؤلاء المسيئين للأدب، التاركون تعظيم الرسول ﷺ.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا»: أخرج البخاري والترمذي وغيرهما عن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أخبره أنه قدم ركب من بني قميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أُمِر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أُمِر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت

خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ أي إن الآيات نزلت في مجادلة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عند النبي ﷺ في تأمير القعقاع بن معبد أو الأقرع بن حابس.

وأخرج ابن المنذر عن الحسن البصري: أن أناساً ذبحوا قبل رسول الله ﷺ يوم النحر، فأمرهم أن يعيدوا ذبجاً، فأنزل الله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا﴾.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأضاحي بلفظ: ذبح رجل قبل الصلاة فنزلت. وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة: أن أناساً كانوا يتقدمون الشهر، فيصومون قبل النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

نزل الآية (٢):

﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾: أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ الآية.

وروي أن الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر، وكان جهوري الصوت، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ، فيتأذى بصوته، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

نزل الآية (٣):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْظُونَ﴾: أخرج ابن جرير عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، فمر به عاصم بن عدي بن العجلان، فقال: ما يبكيك؟ قال: هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في، وأنا صيِّت رفيع

الصوت، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا به، فقال: أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟ قال: رضيت، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ الآية. والقصة مروية أيضاً في الصحيحين عن أنس بن مالك.

وقال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ نال أبو بكر ألا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار^(١)، فأنزل الله تعالى في أبي بكر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾

نزول الآية (٤):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾: أخرج الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرقم قال: جاء ناس من العرب إلى حُجْر النبي ﷺ، فجعلوا ينادون: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن مدحي زين، وإن شتمي شين، فقال النبي ﷺ: ذاك هو الله، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ الآية. وهو خبر مرسل له شواهد مرفوعة من حديث البراء وغيره عند الترمذي، بدون نزول الآية، وأخرج ابن جرير نحوه عن الحسن.

وأخرج أحمد بسند صحيح عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فلم يجبه، فقال: يا محمد، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال «ذلكم الله».

وقال محمد بن إسحاق وغيره: نزلت في جفاة بني تميم، قدم وفد منهم على

(١) السرار: المسارة، أي كصاحب السرار، أو كمثل المساررة لخفض صوته، والكاف صفة

النبي ﷺ، فدخلوا المسجد، فنادوا النبي ﷺ من وراء حجرته أن اخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا زين، وإن ذمنا شين، فأدى ذلك من صياحهم النبي ﷺ، فخرج إليهم، فقالوا: إنا جئناك يا محمد نفاخرُك، ونزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝﴾. وكان فيهم الأقرع ابن حابس، وعيينة بن حصن، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم.

التفسير والبيان:

هذه باقة من الآداب الخاصة في معاملة النبي ﷺ من قبل المؤمنين على أساس من التوقير والاحترام والتعظيم:

أ- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ أي يا أيها المؤمنون إيماناً صحيحاً، لا تتقدموا ولا تتعجلوا بقول أو حكم أو قضاء في أمرٍ ما أو فعل قبل قضاء الله تعالى ورسوله ﷺ لكم فيه، فربما تقضون بغير حق، واتقوا الله في كل أموركم، وراقبوه في عدم تخطي ما لم يأذن به الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن الله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم ونياتكم، لا يخفى عليه شيء منكم.

وهذا نهى واضح عن مخالفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وذكر الرسول؛ لأنه مبلّغ عن الله تعالى شرعه ودينه. قال ابن عباس في الآية: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله تعالى ورسوله ﷺ من شرائع دينكم.

والآية شاملة أيضاً ترتيب مصادر الاجتهاد، أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بِمَ تحكم؟» قال: بكتاب الله تعالى، قال فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله.

وهذا يعني أنه آخر رأيه ونظيره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه لكان تقديماً بين يدي الله ورسوله. والخلاصة: هذا أدب شامل القول والفعل والاجتهاد.

ثم ذكر الله تعالى أدباً في القول فقال:

٢ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله إذا تكلمتم مع الرسول ﷺ فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته؛ لأن رفع الصوت يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام، وخفض الصوت وعدم رفعه من التعظيم والتوقير، وهذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين، وهو أدب محمود مع كل الناس أيضاً.

٣ - ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي إذا كلمتموه فخطبوه بالسكينة والوقار، خلافاً لما تعتادونه من الجهر بالقول الدائر بينكم، ولا تقولوا: يا محمد ويا أحمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، توقيراً له، وتقديراً لمهمته ورسالته التي يبلغكم بها في سكون وهدوء وعدم انزعاج وتبرم نفسي. وهذا أدب ثالث.

﴿أَنْ تَحْطَ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي نهاكم الله عن الجهر غير المعتاد وعن رفع الصوت خشية أن يذهب ثواب أعمالكم، أو أن يؤدي الاستخفاف به إلى الكفر، من حيث لا تشعرون بذلك، كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مالك وأحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن بلال بن الحارث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يُلقِي لها بالاً، يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقِي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض».

وبعد أن حذر من خطر المخالفة، رغب الله تعالى في خفض الصوت وحث عليه قائلاً:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣) أي إن الذين يخفصون أصواتهم في أثناء كلام رسول الله ﷺ وفي مجالسه، أخلص الله قلوبهم للنقوى، ومحصها، وجعلها أهلاً ومحللاً، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده من رديئه، ويسقط خبيثه، فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَدِّبُونَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، طهر الله قلوبهم من كل قبيح، ولهم مغفرة لذنوبهم، وثواب عظيم على تأديبهم بخفض الصوت وسائر الطاعات. ونحو الآية: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُفِّرُوهُ وَتُوقِرُوهُ﴾ [الفتح: ٩/٤٨] .

روى الإمام أحمد عن مجاهد قال: كُتِبَ إِلَى عُمَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، رَجُلٌ لَا يَشْتَهِي الْمَعْصِيَةَ، وَلَا يَعْمَلُ بِهَا؟ فَكُتِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَهَوْنَ الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم ذم الله تبارك وتعالى الذين ينادون رسول الله ﷺ من خلف أو قدام الحجرات، وهي بيوت نساءه، كما يفعل أجلاف الأعراب، فقال تعالى مرشداً لهم إلى ما هو الخير والأفضل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١) أي إن الذين ينادونك من بعيد، من وراء حجرات (بيوت) نساءك، وهم جفاة بني تميم أكثرهم جهال لا يعقلون الأصول والآداب والأشياء، ولا يدركون ما يجب لك من التعظيم والاحترام. وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ إما أن يراد به الكل؛ لأن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل، احترازاً عن الكذب واحتياطاً في الكلام، أو يكون المراد أنهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) أي وليتهم لو صبروا حتى تخرج إليهم كالمعتاد، لكان لهم في ذلك الخير

والمصلحة في الدنيا والآخرة، لما فيه من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ ورعاية جانبه الشريف، والعمل بما يستحقه من الإعظام والإجلال، والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب. وهذا حث على التوبة والإنابة.

فقه الحياة لو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، وتقديم حكم القرآن والسنة على ما سواهما.

٢ - تعليم العرب وغيرهم مكارم الأخلاق وفضائل الآداب، إذ كان في العرب جفاء وسوء أدب في خطاب النبي ﷺ وتلقيب الناس.

٣ - قال القرطبي وابن العربي: قوله تعالى: ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والافتداء به. وربما احتج نفاة القياس بهذه الآية، وهو باطل منهم، فإن ما قامت دلالاته، فليس في فعله تقديم بين يديه، وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشريعة، فليس فيه تقديم بين يديه^(١).

٤ - الأمر بالتقوى وإيجابها عام في كل الأوامر والنواهي الشرعية، ومنها التقدم بين يدي الله تعالى ورسوله ﷺ المنهي عنه، والله يراقب الناس، فهو سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم.

٥ - يجب خفض الصوت أثناء مخاطبة النبي ﷺ والامتناع من الجهر بالأصوات أعلى من صوته، وإلا لم يتحقق من المؤمنين الاحترام الواجب

(١) تفسير القرطبي: ٣٠٢/١٦ وما بعدها، أحكام القرآن: ١٧٠١/٤ وما بعدها.

للنبي ﷺ. وليس المراد النهي عن الجهر مطلقاً بحيث يلزم الهمس، وإنما النهي عن جهر مخصوص مقيد بصفة، وهو الخالي عن مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب عنها.

٦ - ويجب أيضاً على المؤمنين ألا يخاطبوا النبي ﷺ بقولهم: يا محمد، ويا أحمد، ولكن: يا نبي الله، ويا رسول الله؛ توقيراً له.

والهدف من هذين الواجبين تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته.

٧ - قال القاضي أبو بكر بن العربي: حرمة النبي ﷺ ميتاً كحُرْمَتِهِ حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لَفْظِهِ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يُعْرَضَ عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به، وقد نبّه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤/٧] وكلام النبي ﷺ من الوحي وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة، بيانها في كتب الفقه^(١).

٨ - إن النهي المذكور عن رفع الصوت هو الصوت الذي لا يناسب ما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء. أما الصوت المرفوع الذي يقصد به الاستخفاف والاستهانة، فلا شك أنه كفر. وأما الصوت الذي يرفع في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو ونحو ذلك، فليس منهياً عنه؛ لأنه لمصلحة، ففي الحديث أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حُنين: «اصرخ بالناس» وكان العباس أجهر الناس صوتاً؛ يروى أن غارة أُنْتَهَم يوماً، فصاح العباس: يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدة صوته.

(١) أحكام القرآن: ١٧٠٣/٤.

٩ - إن مخالفة النهي في الآية برفع الصوت أكثر من الحالة المتوسطة المعتادة يؤدي إلى إحباط الأعمال وإبطال الثواب. وليس قوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم؛ فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم. ويكون قوله ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى أن ارتكاب المأثم يجر الأعمال إلى الحبوط من حيث لا يشعر المرء به.

١٠ - إن الذين يخفزون أصواتهم عند رسول الله ﷺ إذا تكلموا إجلالاً له، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له، أولئك الذين اختص الله قلوبهم للتقوى، وطهرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى، ولهم مغفرة لذنوبهم، وثواب عظيم وهو الجنة.

١١ - إن أعراب بني تميم الذين وفدوا على النبي ﷺ، فدخلوا مسجد المدينة، ونادوا النبي ﷺ من وراء حجرته أن اخرج إلينا، فإن مدحنا زين، وذمنا شين، هم قوم جهلة ذوو طباع جافة قاسية، وكانوا سبعين رجلاً، وكان المنادي منهم الأقرع بن حابس، في رواية الترمذي عن البراء بن عازب، وكان النبي ﷺ نام للقائلة، جاؤوا شفعاء في أسارى بني عنبر، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى على النصف ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء.

وقال مقاتل: كانوا تسعة عشر: منهم قيس بن عاصم، والزُّبَيْرُ بن بَدْر، والأقرع بن حابس، وسُوَيْد بن هاشم، وخالد بن مالك، وعطاء بن حابس، والقَعْقَاع بن مَعْبُد، ووَكَيْع بن وَكَيْع، وعُيَيْنَةُ بن حِصْن، وهو الأحق المطاع.

١٢ - لو انتظروا خروجه ﷺ، لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم، وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشغل فيها بمهمات نفسه؛ فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب.

١٣ - قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حث على التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

الآداب العامة

- ١ -

وجوب التثبت من الأخبار

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ يَنْبِئُ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ
فَنُصِصُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي
كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾:

وقرأ حزة، والكسائي (فَتَبَيَّنُوا).

الإعراب:

﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾: ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾: في تقديره وجهان: إما
كراهية أن تصيبوا، أو لثلا تصيبوا. و﴿يَجْهَلُونَ﴾: حال من فاعل تبينوا، أي
جاهلين.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾: أن وما بعدها ساذ مسدّ مفعولي ﴿وَأَعْلَمُوا﴾

﴿فَضَلَا مِنَ اللَّهِ﴾: إما مفعول لأجله، أو مصدر مؤكد لما قبله.

البلاغة:

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾: التفات عن الخطاب للغيبة بعد قوله: ﴿حَبَّبَ

إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ». بين ﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَرَزَنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وبين ﴿وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ما يسمى بالمقابلة.

المفردات اللغوية

﴿فَاسِقٌ﴾ خارج عن حدود الدين أو الشرع، مأخوذ من قولهم: فسق الرطب: إذا خرج من قشره، والفسوق: الخروج من الشيء والانسلاخ منه ﴿يَبِئْسَ﴾ خبر ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي اطلبوا بيان الحقيقة ومعرفة الصدق من الكذب، وقرئ: (فتثبتوا) من الثبات ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا﴾ أي خشية ذلك أو كراهة إصابتكم ﴿فَنُصِيحُوا﴾ تصيروا ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ﴾ من الخطأ بالقوم ﴿تَكْدِمِينَ﴾ مغتمين غماً لازماً، متمنين أنه لم يقع.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي فلا تقولوا الباطل، فإن الله يخبره بالحال ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ الذي تخبرون به على خلاف الواقع ﴿لَعَنْتُمْ﴾ لوقعتم في العنت وهو الجهد والهلاك والإثم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ﴾ استدراك ببيان عذرهم، وهو أنهم من فرط حبه للإيمان وكراهتهم الكفر، حملهم على ذلك لما سمعوا قول الفاسق ﴿وَرَزَنَهُ﴾ حسنه ﴿الْكُفْرَ﴾ تغطية نعم الله ببحودها ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ الخروج عن الحد ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ المخالفة ﴿أُولَئِكَ﴾ البعض المتبينون ﴿الرَّاشِدُونَ﴾ الثابتون على دينهم، وهذه جملة معترضة، والخطاب لرسول الله ﷺ، مأخوذ من الرشاد: وهو إصابة الحق واتباع طريق الاستقامة.

﴿فَضَلَّ مِنَّا اللَّهُ وَفِصْمَةً﴾ تعليل لقوله: ﴿حَبَبٌ﴾ ﴿وَكَرَهُ﴾ فإن التحبيب والرشد فضل من الله وإنعام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ في إنعامه عليهم بالتوفيق.

سبب النزول:

نزول الآية (٦):

﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ﴾: ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبة. أخرج ابن جرير وأحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن أبي الدنيا وابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس: أن الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط، بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المُضْطَلِقِ مُصَدِّقاً^(١)، وكان بينهما إحنة^(٢)، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم، فرجع فقال: إن القوم هموا بقتلي، ومنعوا صدقاتهم، فهم النبي ﷺ بغزوهم، فبينما هم في ذلك إذ قِيم وفدهم، وقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك، فخرجنا نكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة، فاتهمهم النبي ﷺ وقال: «لَتَنْتَهَنَّ أَوْ لَا بُعْثَ إِلَيْكُمْ رَجُلًا هو عندي كنفي، يقاتل مقاتلتكم، ويسبي ذراريكم» ثم ضرب بيده على كتف علي رضي الله عنه، فقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ﷺ.

وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد، فوجدهم منادين بالصلاة، متهجين، فسلموا إليه الصدقات، فرجع.

ولا خلاف في أن الشخص الذي جاء بالنبا هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط. والآية وإن وردت لسبب خاص فهي عامة لبيان الثبوت، وترك الاعتماد على قول الفاسق، قال الحسن البصري: فوالله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة، إنها لمرسلة إلى يوم القيامة، ما نسخها شيء.

وأكد الرازي ذلك بأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد سيئ بعيد؛ لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقاً، كيف والفاسق في أكثر

(١) المصدق: الذي يأخذ صدقات (زكوات) الغنم.

(٢) الإحنة: الحقد، جمع إحن.

المواضع: المراد به من خرج عن رتبة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التافقون: ٦/٦٣] وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠/١٨] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠/٣٢]^(١).

لكن أكثر المفسرين على أن الوليد كان ثقة عند رسول الله ﷺ، فصار فاسقاً بكذبه، والظاهر أنه سمي فاسقاً تنفيراً وزجراً عن الاستعجال في الأمر من غير تثبت، فهو متأول ومجتهد، وليس فاسقاً على الحقيقة.

الخاصة:

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بأمرين: وهما طاعة الله تعالى والرسول ﷺ، وخفض الصوت عند الرسول ﷺ؛ لبيان وجوب احترامه، أردفه بأمر ثالث وهو وجوب التثبت من الأخبار، والتحذير من الاعتماد على مجرد الأقوال، منعاً من إلقاء الفتنة بين أفراد المؤمنين وجماعاتهم. وهذا أدب اجتماعي عام ضروري للحفاظ على وحدة الأمة، واستئصال أسباب المنازعات فيما بينها.

التفسير والبيان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِ الَّذِي كَذَبُوا﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، إن أتاكم فاجر لا يبالي بالكذب بخبر فيه إضرار بأحد، فتبينوا الحقيقة، وتثبتوا من الأمر، ولا تتعجلوا بالحكم حتى تبصروا في الأمر والخبر لتتضح الحقيقة وتظهر، خشية أن تصيبوا قوماً بالآذى، وتلحقوا بهم ضرراً لا يستحقونه، وأنتم جاهلون حالهم، فتصبروا على ما حكمتهم عليهم بالخطأ نادمين على ذلك، مغتمين له، متمنين عدم وقوعه.

(١) تفسير الرازي: ١١٩/٢٨.

وفي تنكير «فَاسِقٌ» و«بَنِيَّ» دلالة على العموم في الفساق والأنباء، كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ، فتوقفوا وتطلبوا بيان الأمر وانكشف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق؛ لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه^(١).

والآية دالة على أن خبر الواحد العدل حجة، وشهادة الفاسق لا تقبل.

ثم ذكّرهم بوجود رسول الله ﷺ بينهم ليعظموه ويسألوه، فقال:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَنِتَّمُ﴾ أي اعلّموا أن معكم رسول الله، فعظموه ووقروه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، ولا تقولوا قولاً باطلاً، ولا تتسرعوا بالحكم على الناس من غير تبين حقيقة الخبر، ولو أطاعكم في كثير مما تخبرونه به من الأخبار، وتشيرون عليه من الآراء غير الصائبة، لأدى ذلك إلى الوقوع في العنت، وهو التعب والإثم والهلاك، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل اتضاح الأمور، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر والتأمل فيه.

وإنما قال: ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ بلفظ الاستقبال دون: أطاعكم، للدلالة على استمراره في الثبوت والتحقيق مما يتقل إليه من الأخبار، بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي في كثير مما عنّ لهم من الآراء والأهواء، فلو أرادوا منه الاستمرار في طاعته لهم، لوقعوا في الإثم والهلاك.

وفي قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ مراعاة لجانب المؤمنين حيث لم ينسب جميع أرائهم إلى الخطأ، وفيه أيضاً تعليم حسن وتأديب جميل في باب التخاطب، وإشارة إلى تصويب رأي بعضهم، ولهذا استدرك مشيراً إلى رأي بعضهم في ضرورة التريث إلى أن يتبين أمر بني المصطلق، فقال:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي ولكن الله حبب أي قرب الإيمان إلى بعضكم، وإلا لم يحسن الاستدراك بـ ﴿وَلَكِنَّ﴾ فلم يقع في ورطة التسرع في الأخبار، وعدم الثبوت فيها، وكانوا أبرياء من اتهام الآخرين؛ لأن الله جعل الإيمان أحب الأشياء إليكم، وحسنه بتوفيقه وتثبيتته في أعمال قلوبكم، وجعل كلاً من الكفر (حجود الخالق وتكذيب الرسل) والفسوق (الخروج عن حدود الدين) والعصيان (المخالفة وعدم الطاعة) مكروهاً عندكم.

وهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين استقاموا على طريق الحق، ومقتضى الشرع، وأدب الدين، فلم ينزلقوا في اتهام غيرهم دون ثبوت.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي إن الله حبب إليكم الإيمان، وكره إليكم الأمور الثلاثة المتقدمة تفضلاً منه عليكم، وإنعاماً من لدنه، والله عليم بكل الأمور الحادثة والمستقبلية، حكيم في تدبير شؤون خلقه، وفي أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

أ - وجوب الثبوت من الأخبار المنقولة والروايات المروية، أخذاً بالحيطه والحذر، ومنعاً من إيذاء الآخرين بخطأ فادح، فيصبح التسرع في الحكم والتصديق نادماً على العجلة وترك التأمل والتأني. لذا كان نبي الله ﷺ يقول: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان»^(١).

٢ - في هذه الآية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ دليل على قبول خبر الواحد إذا

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك وهو ضعيف.

كان عَدْلًا؛ لأنه إنما أمر المسلم في الآية بالتثبت عند نقل خبر الفاسق، ومن ثبت فسقه، بطل قوله في الأخبار إجماعاً؛ لأن الخبر أمانة، والفسق قرينة يبطلها، فالفسق علة التبين، فإن لم يوجد لم يكن علة، واستثنى الإجماع والدعاوى والإنكار والإقرار لغيره بحق على نفسه وإثبات حق مقصود على الغير أي أمور المعاملات، كأن يقال: أرسل فلان إليك كذا أو هذا مالي، ولو كان المخبر كافراً. أما في الإنشاء على غيره فقال الشافعي وغيره: لا يكون الكافر ولياً في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك: يكون ولياً؛ لأنه يلي مالها، فيلي تزويجها، وإذا ولي المال فالنكاح أولى، وهو وإن كان فاسقاً في دينه إلا أن غَيْرَتَهُ موقرة، وبها يحمي الحرم. ويرى الحنفية قبول شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض. والخلاصة: إن مراد الآية في الشهادات وإلزام الحقوق وإثبات أحكام الدين في غير الاعتقاد.

٣ - استدل بعضهم بالآية على أن الفاسق أهل للشهادة، وإلا لم يكن للأمر بالتبين فائدة، كما قال الألوسي. ومذهب الحنفية: أن الفاسق لا تقبل شهادته وإن كان أهلاً لها، ولو قضى بها القاضي كان عاصياً، وينفذ قضاؤه^(١).

٤ - استدل الحنفية بالآية على قبول خبر الواحد المجهول الحال؛ لأن الآية دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت والتبين، فيقتصر فيه على محل وروده، ويبقى ما وراءه على الأصل، وهو القبول.

٥ - في الآية أيضاً دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم (أي اليقين) بدليل وجوب التثبت فيه؛ إذ لو كان يوجب العلم بحال، لما احتيج فيه إلى التثبت^(٢).

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٢٩٨/٣

(٢) المرجع السابق: ص ٣٩٩.

٦ - قال ابن العربي: ومن العَجَب أن يجوز الشافعي ونظراؤه إمامة الفاسق. ومن لا يؤمن على حبة مال، كيف يصح أن يؤمن على قنطار دين؟^١ ومن صلى خلف الفاسق تجب عليه الإعادة سرّاً في نفسه، ولكن لا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة خلف من لا يرضى من الأئمة^(١)

٧ - إذا كان الفاسق والياً ينفذ من أحكامه ما وافق الحق، ويردّ ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال.

٨ - لا خلاف في قبول قول الفاسق إذا كان رسولاً عن غيره في قول يبلغه أو شيء يوصله أو إذن يعلمه، وهذا جائز للضرورة الداعية إليه. لكن لا يقبل قوله فيما إذا تعلق بقول الفاسق حق للغير.

٩ - استدل بعضهم بالآية على أن من الصحابة من ليس بعدل؛ لأن الله تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن عقبة، فإنها نزلت فيه، ولا يمكن إخراج سبب النزول من اللفظ العام، وهو صحابي بالاتفاق. وقال أكثر العلماء: الصحابة كلهم عدول.

١٠ - الفاسق نوعان: فاسق غير متأول، وهذا لا خلاف في أنه لا يقبل خبره. وفاسق متأول كالجبرية والقدرية، ويقال له: المتبدع بدعة واضحة، وفي هذا خلاف، فمن الأصوليين كالشافعي: من ردّ شهادته وروايته معاً، ومنهم من قبلهما وهم جمهور الفقهاء والحدثين؛ لأن ردّ شهادته لتهمة الكذب، والفسق اعتقاد لا يمنع الصدق، وأما الرواية فمن احتراز عن الكذب على غير الرسول ﷺ، فهو على الرسول ﷺ أشدّ تحرزاً.

١١ - إن قضى الفاسق بما يغلب على الظن، كالقضاء بالشاهدين العدلين، لم يكن ذلك عملاً بجهالة، وإنما العمل بجهالة: قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقوله.

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ١٧٠٣/٤ وما بعدها.

١٢- إن وجود الرسول ﷺ في أصحابه ركن ثبت وأناة وتأن، فيمنع التسرع في إصدار الأحكام، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عُقبة إليه، لكان خطأ، ووقع في العنت (الإثم والمشقة والهلاك) من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم. ويكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ألا تكذبوا، فإن الله تعالى يعلم رسوله ﷺ أنباءكم، فتفتضحون.

١٣- ذكر الله الإيمان وقابله بأمور ثلاثة كرهها إليهم وهي الكفر والفسوق والعصيان، والإيمان اسم لثلاثة أشياء: التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح (الأعضاء). والكفر: هو الإنكار وهو يقابل الإذعان بالجنان، والفسوق يقابل الإقرار باللسان، والعصيان يقابل العمل البدني، فهو ترك العمل بالطاعات والأحكام الشرعية ويشمل جميع المعاصي وهذا يعني أن المؤمن المثبت لا يكذب.

١٤- استدلت الأشاعرة بقوله ﴿حَبَبَ﴾ و﴿وَكْرَهُ﴾ على مسألة خلق الأفعال، أي إن الله تعالى خلق أفعال العباد وذواتهم وصفاتهم وألستهم وألوانهم، لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦/٣٧].

وهذا رد على القَدَرية^(١) والإمامية والمعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه. ويؤولون آية ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَّا فِي قُلُوبِكُمْ وَكْرَهُ﴾ على اللطف والتوفيق.

(١) الجبرية والقدرية: فرقتان شاذتان في العقيدة خرجا عما عليه جمهور العلماء، تقول الأولى: إن الله تعالى مجبر للعبد على فعله، وليس لإرادة الإنسان واختياره دخل حقيقي فيها. وتقول الثانية: إن العبد خالق لأفعاله، دون أن يكون لله عليه سلطان فيها (الشافي شرح أصول الكافي للشيخ عبد الله المظفر: ٢/٢٣٦، والكافي تأليف العلامة محمد بن يعقوب الكليني الرازي).

١٥ - إن الذين وفقهم الله، فحبَّب إليهم الإيمان، وكرَّه إليهم الكفر، أي قَبَّحَ عندهم هم الراشدون، والله فعل ذلك بهم فضلاً منه ونعمة من لدنه، والفضل: ما في خزائن الله من الخير، وهو مستغن عنه، والنعمة: ما يصل من الفضل إلى العبد، وهو ما يحتاج إليه.

وفي تسميتهم بالراشدين إشارة إلى أنهم أقاموا على اتباع أمر الرسول ﷺ، والتزموا إرشاده، وعرفوا مقامه ومكانه بينهم، فاستحقوا الرشد، وكانوا راشدين، وفيه تعريض بالفريق الآخر حيث ابتعدوا عما يوصلهم إلى الرشد.

١٦ - إن الله تعالى علِّم بكل شيء، يعلم من يتحرى الخير ومن لا يتحراه، ومن يريد الرسول ﷺ على ما لا تقتضي به الحكمة ومن لا يريده، وهو فوق هذا يعلم الأشياء، ويُعلم الرسول ﷺ بها، ويأمره بما تقتضي به الحكمة، فيجب الوقوف عند أمره، واجتناب الاقتراح عليه.

١٧ - كان النبي ﷺ في دعائه يدعو دائماً بمضمون الآية [٧] أخرج الإمام أحمد والنسائي عن أبي رفاعة الزرقى عن أبيه قال: لما كان يوم أُحُد، وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثني على ربي عز وجل، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال ﷺ:

اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

اللهم أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعتنا.

اللهم حَبِّبْ إلينا الإيمان وزَيِّنْهُ في قلوبنا، وكرِّهْ إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين. اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدّون عن سبيلك، واجعل عليهم رِجْزَكَ وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق .»

- ٢ -

وسائل فض المنازعات الداخلية حكم البغاة

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

الإعراب:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾: «طَائِفَتَانِ»: مرفوع بفعل مقدر، تقديره: وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، ولا يجوز أن يحذف الفعل مع كلمات الشرط العاملة إلا مع (إن) لأنها الأصل في حروف الشرط، وثبت للأصل ما لا يثبت للرفع.

والقياس: اقتلتا، كما قرأ ابن أبي عيلة: أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير، على تأويل الرهطين أو النفرين، وإنما قال: اقتتلوا في قراءة حفص حملاً على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس، فكل طائفة جماعة، والطائفة أقل من الفرقة.

البلاغة:

﴿أَفْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بينهما طباق.

﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ تشبيه بليغ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، وأصله المؤمنون كالأخوة في التراحم.

﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والتحضيض.

المفردات اللغوية:

﴿طَائِفَتَانِ﴾ تشية طائفة: الجماعة من الناس ﴿أَفْتَلُوا﴾ جمع الفعل؛ لأن الطائفتين في معنى القوم أو الناس، أو لأن أقل الجمع اثنان. ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعوة إلى حكم الله، وامنعوهما عن القتال بالنصيحة أو بالتهديد والتعذيب ﴿بَغَتْ﴾ تعدت وتجاوزت الحد وجارت، من البغي: الظلم ﴿تَفَيَّءَ﴾ ترجع ﴿إِلَّا أَمَرَ اللَّهُ﴾ الحق ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ أزيلوا آثار النزاع بضمان المتلفات بالإنصاف ﴿وَأَقْسَطُوا﴾ اعدلوا في كل الأمور من الإقساط: إزالة القسْط وهو الجور، والقاسط: الجائر، كما في آية: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥/٧٢] يقال: أقسط: عدل، وقسط: أخذ حق غيره، والمقسط: العادل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين، أي يحمد فعلهم بحسن الجزاء.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين والعقيدة والإيمان الموجب للحياة الأبدية، فالأخوة في الدين أقوى وأدوم من أخوة النسب والصدافة، وهو تعليل للأمر بالإصلاح، لذا كرر الإشارة إلى الإخاء مرتباً عليه الأمر بالإصلاح، فقال: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا تنازعا، وخص الاثنين

بالذكر؛ لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق، وقرئ: إخوانكم وإخوانكم ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة حكمه والإهمال فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على تقواكم.

سبب النزول:

نزل الآية (٩):

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾: أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وغيرهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنه قيل لرسول الله ﷺ: يا نبي الله، لو أتيت عبد الله بن أبيّ، فانطلق إليه على حمار، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فبال الحمار فقال: إليك عني، فوالله لقد آذاني نثر حمارك، فقال عبد الله ابن رواحة: والله، إن بول حماره أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فوقع بينهم حرب بالجرید والأيدي والنعال، فأنزل الله فيهم»: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾.

وقيل: كان النبي ﷺ متوجهاً لزيارة سعد بن عباد في مرضه، فمر على عبد الله ابن أبي بن سلول، فقال ما قال، فرد عليه عبد الله بن رواحة، فتعصب لكل أصحابه، فتقاتلوا، فنزلت، فقرأها ﷺ، فاصطلحوا، وكان ابن رواحة خزرجياً، وابن أبيّ أوسياً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحته امرأة يقال لها أم زيد، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها، وجعلها في علية له، لا يدخل عليها أحد من أهلها، فبعثت المرأة إلى أهلها، فجاء قومه، وأنزلوها لينطلقوا بها، واستعان الرجل بقومه، فجاءوا ليحولوا بين المرأة وأهلها، فتدافعوا وكان بينهم معركة، فنزلت فيهم هذه الآية، فبعث إليهم رسول الله ﷺ، فأصلح بينهم وفاؤوا إلى أمر الله تعالى.

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: كانت تكون الخصومة بين الحيين، فيُدعون إلى الحكم، فيأبوا أن يجيوا، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾.

وأخرج ابن جرير أيضاً عن قتادة قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في رجلين من الأنصار، كانت بينهما مداراة في حق بينهما، فقال أحدهما للآخر: لأخذنه عثوة، لكثرة عشيرته، وإن الآخر دعا ليحاكمه إلى النبي ﷺ، فأبي، فلم يزل الأمر، حتى تدافعوا، وحتى تناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال، ولم يكن قتال بالسيف.

والخلاصة: يمكن أن تتعدد أسباب النزول، والوقائع المذكورة متشابهة.

المناسبة:

بعد أن حذر الله تعالى المؤمنين من نبأ الفاسق، أبان هنا ما يترتب على خبره من الفتنة والنزاع، وربما الإقتتال، فطلب تعالى الإصلاح بالوسائل السلمية بين المتنازعين كالنصيحة والوعظ والإرشاد والتحكيم، فإن بغت إحدى الفئتين على الأخرى، فتقاتل الباغية الظالمة. ثم علل الأمر بالصلح بوجود رباط الأخوة بين الفريقين ثم أمر الوسطاء والأطراف المتنازعة بتقوى الله وطاعة أمره.

التفسير والبيان:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي إذا تقاتل فريقان من المسلمين، فيجب على ولاة الأمور الإصلاح بالنصح والدعوة إلى حكم الله والإرشاد وإزالة الشبه وأسباب الخلاف.

والتعبير بأن للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقع القتال بين المسلمين، وأنه إن وقع، فإنما هو نادر قليل. والخطاب في الآية لولاة الأمور، والأمر فيها للوجوب.

وقد استدلل البخاري وغيره بهذا على أن المعصية وإن عظمت لا تخرج من الإيمان، خلافاً للمعتزلة والخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر وهو في النار.

وثبت في صحيح البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى، ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». فكان كما قال ﷺ أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة.

﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي فإن اعتدت وتجاوزت الحد إحدى الفئتين على الأخرى، ولم تدعن لحكم الله وللنصيحة، فعلى المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية، حتى ترجع إلى حكم الله وما أمر به من عدم البغي. والقتال يكون بالسلاح وبغيره، يفعل الوسيط ما يحقق المصلحة، وهي الفئته، فإن تحقق المطلوب بما دون السلاح كان مسرفاً في الزيادة وإن تعين السلاح وسيلة فعل حتى الفئته.

﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِاَعْدِلْ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي رجعت الفئة الباغية عن بغيتها، بعد القتال، ورضيت بأمر الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى، حتى لا يتجدد القتال بينهما مرة أخرى.

واعدلوا أيها الوسطاء في الحكم بينهما، إن الله يحب العادلين ويمجازيهم أحسن الجزاء. وهذا أمر بالعدل في كل الأمور.

أخرج ابن أبي حاتم والنسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال:

إن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ، بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا»^(١)

وأخرج مسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور، على عرش العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وُلُّوا».

ثم أمر الله تعالى بالإصلاح في غير حال القتال ولو في أدنى اختلاف، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١١) أي تنميماً للإرشاد ذكر تعالى أن المؤمنين إخوة في الدين، يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان، فيجب الإصلاح بين كل أخوين متنازعين، وزيادة في أمر العناية بالإصلاح بين الأخوين أمر الله بالتقوى، والمعنى: فأصلحوا بينهما، وليكن رائدكم في هذا الإصلاح وفي كل أموركم تقوى الله وخشيته والخوف منه، بأن تلتزموا الحق والعدل، ولا تحيفوا ولا تميلوا لأحد الأخوين، فإنهم إخوانكم، والإسلام سوى بين الجميع، فلا تفاضل بينهم ولا فوارق، ولعلكم ترحمون بسبب التقوى وهي التزام الأوامر واجتناب النواهي.

ويلاحظ انه قال: اتقوا الله عند تخاصم رجلين، ولم يقل ذلك عند إصلاح الطائفتين، لأنه في حالة تخاصم الرجلين يخشى اتساع الخصومة، وأما في حال تخاصم الطائفتين فإن أثر الفتنة أو المفسدة عام شامل الكل.

وكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر تفيد أنه لا أخوة إلا بين المؤمنين، ولا أخوة بين المؤمن والكافر؛ لأن الإسلام هو الرباط الجامع بين أتباعه، وتفيد أيضاً أن أمر الإصلاح ووجوبه إنما هو عند وجود الأخوة في الإسلام، لا بين الكفار، فإن كان الكافر ذمياً أو مستأمناً وجبت إعانته وحمايته ورفع الظلم عنه، كما تجب إعانة المسلم ونصرته مطلقاً إن كان خصمه حربياً.

(١) إسناده جيد قوي، ورجاله على شرط الصحيح.

وجاءت أحاديث كثيرة تؤيد أخوة الدين، جاء في الصحيح: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه» وفي الصحيح أيضاً: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» وفي الصحيح كذلك: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحِمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَمَى وَالسَّهَرِ» «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضُهُ بعضاً، وشبك بين أصابعه ﷺ». وأخرج أحمد عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الأديان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس».

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

أ - يجب على ولاية الأمور وحكام الدول الإسلامية الإصلاح بين فئتين متقاتلتين مسلمتين، بالدعوة إلى كتاب الله لهما أو عليهما، وبالنصح والإرشاد والجمع والتوفيق بين وجهات النظر.

٢ - فإن تعدت إحدى الفئتين ولم تستجب إلى حكم الله وكتابه، وتناولت وأفسدت في الأرض، فيجب قتالها باستعمال الأخف فالأخف حتى الفئته إلى أمر الله، أي الرجوع إلى كتابه، فإن رجعت وجب حمل الفئتين على الإنصاف والعدل، فإن الله يحب العادلين المحقين، ويمجزيهم أحسن الجزاء.

والفئة الباغية في اصطلاح الفقهاء: فرقة خالفت الإمام بتأويل سائغ في الظاهر، باطل بطلاناً مطلقاً بحسب الظن لا القطع. أما المرتد فتأويله باطل قطعاً، فليس باغياً، وكذا الخوارج في الاعتقاد دون قتال المسلمين وهم صنف من المبتدعة يكفرون من أتى بمعصية كبيرة، ويسبّون بعض الأئمة، ليسوا بغاة، وكذلك مانع حق الشرع لله أو للعباد ليس باغياً؛ لأنه لا تأويل له.

ولا بد أن يكون للبغاة شوكة وعدد وعُدَد يحتاج الإمام في دفعهم إلى كلفة ببذل مال أو إعداد رجال، فإن كانوا أفراداً يسهل ضبطهم فليسوا بأهل بغى.

وأكثر العلماء على أن البغاة ليسوا بفسقة ولا كفرة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾. وقال علي رضي الله عنه: إخواننا بغوا علينا، ولكنهم يخطئون فيما يفعلون، ويذهبون إليه من التأويل، مثل الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، ومثل معاوية وأتباعه كانوا بغاة للحديث المشهور أن عماراً تقتله الفئة الباغية، ومثل مانعي الزكاة في عهد أبي بكر.

٣ - في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن المؤمن بارتكاب المعصية الكبيرة كالقتل وعقوق الوالدين وأكل الربا وأكل مال اليتيم لا يخرج عن كونه مؤمناً؛ لأن الباغي جعل من إحدى الطائفتين، وسماها تعالى مؤمنين.

٤ - إن قتال الفئة الباغية لدفع الصائل. وفصل العلماء الحكم في البغاة فقالوا: إن اقتتل فتتان على البغي منهما جميعاً، أصلح بينهما، فإن لم يصطلحا وأقامتا على البغي، قوتلتا.

وإن كانت إحداها باغية على الأخرى، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن ترضى بالصلح، فإن تم الصلح بينهما وبين المبغي عليها، وجب عقده بالقسط والعدل. فإن أثبتت شبهة أزيلت بالحجة النيرة والبرهان القاطع الدال على الحق. وفي الآية دلالة على أن اعتقاد مذاهب أهل البغي لا يوجب قتالهم ما لم يقاتلوا؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا﴾^(١).

٥ - في الآية دليل واضح على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيتها على

(١) تفسير القرطبي: ٣١٧/١٦، أحكام القرآن للجصاص: ٤٠١/٣

الإمام أو على أحد من المسلمين، وعلى إبطال قول من منع من قتال المؤمنين، محتجاً بحديث أخرجه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن ابن مسعود: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر». ونص الآية صريح في الرد على هذا.

٦ - قال ابن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله: «تقتل عمّاراً الفتنة الباغية»^(١) أي عمار بن ياسر.

٧ - لا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة.

٨ - الأمر بقتال البغاة فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقيين، ولذلك تخلف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذا الأمر؛ كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، ومحمد بن مسلمة وغيرهم، وصوّب ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه عملهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ يدل على أن من العدل في صلحهم ألا يطالبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال؛ فإنه تَلَفٌ على تأويل، وفي طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستمرار في البغي.

١٠ - ما يبدأ به البغاة: إذا خرجت على الإمام العدل فتنة خارجة باغية ولا حجة لها، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافة أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، وهو الحق الذي دعا الله إليه قبل القتال، فإن أبوا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يقتل أسيرهم ولا يتبع

(١) أحكام القرآن: ٤/١٧٠٥.

مُذْبِرِهِمْ، وَلَا يُذَفَّفُ^(١) عَلَى جَرِيحِهِمْ، وَلَا تُسَبَّى ذُرَارِيهِمْ^(٢) وَلَا أَمْوَالُهُمْ. وَإِذَا قَتَلَ الْعَادِلُ الْبَاغِيَّ أَوْ الْبَاغِي الْعَادِلَ وَهُوَ وَلِيَّهِ لَمْ يَتَوَارَثَا، وَلَا يَرِثُ قَاتِلُ عَمْدًا عَلَى حَالٍ. وَأَمَّا الَّذِينَ لَهُمْ تَأْوِيلٌ بَلَا شُوْكَةٍ فَيُلْزِمُهُمْ ضَمَانٌ مَا أَتْلَفُوا مِنْ نَفْسٍ وَمَالٍ كَقَطَاعِ الطَّرْقِ إِذَا قَاتَلُوا.

١١- ما استهلكه البغاة: إن ما استهلك أثناء تجمع البغاة والخوارج للقتال والتفرق عند انتهاء الحرب من دم أو مال، لا ضمان فيه بالإجماع.

١٢- أموال البغاة وأسراهم وجرحاهم: اختلف الفقهاء في أموال البغاة التي أخذت منهم أثناء قتالهم، فقال محمد بن الحسن: لا تكون أموالهم غنيمة، وإنما يستعان بسلاحهم وكُرَاعِهِمْ (خيولهم) على حريهم، فإذا انتهت الحرب رد المال إليهم.

وروي عن أبي يوسف أن ما وجد في أيدي أهل البغي من كُرَاعٍ وسلاح، فهو فيء يقسم ويخمس، وإذا تابوا لم يؤخذوا بدم ولا مال استهلكوه.

وقال مالك والأوزاعي والشافعي: ما استهلكه الخوارج من دم أو مال، ثم تابوا لم يؤخذوا به، وما كان قائماً بعينه رُدَّ إليهم.

وقال أبو حنيفة: يضمّنون.

وأما أسراهم وجرحاهم فلا يقتلون.

والقول الأصح: ما فعله الصحابة في حروبهم، لم يتبعوا مُذْبِرًا، وَلَا ذَفْفًا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا قَتَلُوا أَسِيرًا، وَلَا ضَمَّنُوا نَفْسًا وَلَا مَالًا، وَهُمْ الْقُدُوءُ فِي ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَدْرِي كَيْفَ حَكَمَ اللَّهُ فِيمَنْ

(١) تذييف الجريح: الإجهاز عليه.

(٢) الذراري: النساء والأطفال.

بَعَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: لَا يَجْهَزُ عَلَى جَرِيحِهَا، وَلَا يَقْتُلُ أَسِيرَهَا، وَلَا يَطْلُبُ هَارِبَهَا، وَلَا يَقْسِمُ فِيئِهَا» وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ مِثْلَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَرَوَى مِثْلَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

أما ما كان قائماً رد بعينه.

١٣ - أَقْضِيَةُ الْبَغَاةِ وَأَحْكَامُهُمْ: لَوْ تَغْلَبَ الْبَغَاةُ عَلَى بِلَدٍ، فَأَخَذُوا الصَّدَقَاتِ، وَأَقَامُوا الْحُدُودَ، وَحَكَمُوا فِيهِمْ بِالْأَحْكَامِ، لَمْ تُثَنَّ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَاتُ وَلَا الْحُدُودُ، وَلَا يَنْقُضُ مِنْ أَحْكَامِهِمْ إِلَّا مَا كَانَ خِلَافاً لِلْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ أَوْ الْإِجْمَاعِ، كَمَا تَنْقُضُ أَحْكَامُ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالسُّنَّةِ.

وَأَمَّا أَقْضِيَتُهُمْ فِي الْخُصُومَاتِ؛ فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ: لَا يَنْبَغِي لِقَاضِي الْجَمَاعَةِ أَنْ يَجِيزَ كِتَابَ قَاضِي أَهْلِ الْبَغْيِ وَلَا شَهَادَتَهُ وَلَا حُكْمَهُ، إِلَّا أَنْ يُوَافِقَ رَأْيَهُ، فَيَسْتَأْنِفُ الْقَضَاءُ فِيهِ^(١).

١٤ - لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْسَبَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ خَطَأٌ مَقْطُوعٌ بِهِ، إِذْ كَانُوا كُلُّهُمْ اجْتَهَدُوا فِي مَا فَعَلُوا وَأَرَادُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُمْ كُلُّهُمْ لَنَا أُمَّةٌ، وَقَدْ أَمَرْنَا بِالْكَفِّ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَلَّا نَذْكُرَهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ؛ لِحُرْمَةِ الصَّحْبَةِ وَلِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ سَبِّهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَهُمْ، وَأَخْبَرَ بِالرِّضَا عَنْهُمْ. وَقَدْ سَأَلَ بَعْضُهُمْ عَنِ الدَّمَاءِ الَّتِي أَرِيقَتْ فِي مَا بَيْنَهُمْ فَقَالَ: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ﴿البقرة: ١٣٤/٢﴾. وَسَأَلَ بَعْضُهُمْ عَنْهَا أَيْضاً فَقَالَ: «تِلْكَ دِمَاءٌ قَدْ ظَهَرَ اللَّهُ مِنْهَا يَدِي، فَلَا أُخْضِبُ بِهَا لِسَانِي» أَيَّ تَحْرِزاً مِنَ الْوُقُوعِ فِي خَطَأٍ، وَالْحُكْمِ عَلَى بَعْضِهِمْ بِمَا لَا يَكُونُ مَصِيباً فِيهِ. وَقَالَ ابْنُ فُورَكٍ: إِنْ سَبِيلُ مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمَنَازَعَاتِ، كَسَبِيلِ مَا جَرَى بَيْنَ إِخْوَةِ يُوسُفَ مَعَ يُوسُفَ.

(١) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِلْجَسَّاسِ: ٤٠٣/٣

١٥- إنما المؤمنون إخوة في الدين والحُرمة، لا في النسب، ذكر القرطبي: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب^(١). جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تحسبوا ولا تحسبوا ولا تناجشوا»^(٢)، وكونوا عباد الله إخواناً.

وقد سبق إيراد أحاديث كثيرة في تأخي المسلمين، فالمسلمون إخوة، وكأن الإسلام أب لهم، يتمون إليه كما ينتمي الإخوة إلى أبيهم: أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقَيْس أو تميم

١٦- في آية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ والتي قبلها دليل كما تقدم على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان؛ لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين، مع كونهم باغين، قال الحارث الأعور: سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه- وهو القدوة- عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفيين: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فرؤا، فقليل: أمناققون؟ قال: لا؛ لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

وفي هذه الآية دليل على جواز إطلاق الإخوة بين المؤمنين من جهة الدين. وقوله: ﴿فَأَصْلَحُوا﴾ دليل على أن من رجا صلاح ما بين متعادين من المؤمنين أن عليه الإصلاح بينهما^(٣).

(١) تفسير القرطبي: ٣٢٢/١٦

(٢) التحسس: الاستماع لحديث القوم، والتحسس: تتبع العورات والمعائب، والتناجش: أن تزيد في ثمن سلعة ولا رغبة لك في شرائها.

(٣) أحكام القرآن للخصاص: ٤٠٤/٣

- ٣ -

آداب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا ضَرَّاءٌ مِنْ
ضَرَّاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْبِزُوا أُنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ
بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْتَبِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ
إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا إِنَّهُ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ
لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ
ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

القراءات:

﴿بِئْسَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحزة وقفاً (بيس).

﴿مَيْتًا﴾ :

وقرأ نافع (ميتاً).

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ :

وقرأ البزي (لِتَعَارَفُوا).

الإعراب:

﴿بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ﴾ : ﴿الْفُسُوقُ﴾ : بدل من ﴿الْأَتَمُّ﴾ ؛ لإفادته أنه فسق.

﴿وَلَا يَجَسَّسُوا﴾ أصله: تتجسسوا، فحذف منه إحدى التاءين.

﴿لِيَتَعَارَفُوا﴾ أصله لتعارفوا، حذف منه إحدى التاءين.

البلاغة:

﴿أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تشبيه تمثيلي، مثل المغتاب بمن يأكل لحم الإنسان الميت، وفيه تقييح التشبيه بأقبح الصور.

المفردات اللغوية:

﴿لَا يَسْخَرُ﴾ لا يهزأ ولا يحتقر ولا يعيب، والسخرية والسخرى: الازدراء والاحتقار، ويقال: سخر به وسخر منه. وقد تكون السخرية: بمحاكاة القول أو الفعل أو الإشارة. ﴿قَوْمٌ﴾ هم الرجال دون النساء، فالقوم مختص بالرجال؛ لأنهم قوامون على النساء. ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يعب بعضكم بعضاً، ولا تعيبوا فتعابوا، واللمز: الطعن والتنبه إلى المعايب بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا تتداعوا بالمكروه من الألقاب، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفاً، ومنه: يا فاسق، يا كافر. ﴿يَسْمُ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي ساء الاسم والصيت، وهو المذكور من السخرية واللمز والتنابز، بأن يُذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتجارهم به، والمراد تهجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين، مأخوذ من قولهم: طار اسمه في الآفاق أي ذكره وشهرته. ﴿وَمَنْ لَمْ يَنْبَ﴾ من ذلك المنهي عنه. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهم لا غيرهم ظلمة، بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

﴿أَجْنَبُوا﴾ تباعدوا وكونوا بمنأى عنه أو على جانب منه. ﴿كثيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ ﴿الظَّنُّ﴾ حد وسط بين العلم (اليقين) والشك أو الوهم، وهو ما يطرأ للنفس

بسبب شبهة أو أمانة قوية أو ضعيفة. وإيهام الكثير لاحتياط في كل ظن ويتأمل من أي نوع، فبعض الظن واجب الاتباع كالاتجاه في الأحكام العملية وحسن الظن بالله، وبعضه حرام كالظن في الإلهيات والنبوات، أو عند مصادمة الدليل القاطع، وظن السوء بالمؤمنين، وبعضه مباح كالظن في الأمور المعاشية.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾ أي ذنب مؤثم موجب العقوبة عليه، وهو كثير كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين، وهو تعليل مستأنف للأمر بالاجتناب. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ التجسس: البحث عن العورات والمعايب وكشف ما ستره الناس. ﴿وَلَا يَغْتَابِ الْغَبِيَّةَ﴾ الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره في غيبته، وإن كان العيب فيه. ﴿أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ أي لا يحسن به، وهو تمثيل لما يناله المغتاب من عرض غيره على أفحش وجه، مع مبالغات الاستفهام المقرر، وإسناد الفعل إلى أحد للتعميم، وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتيا بأكُل لحم الإنسان، وجعل المأكول أخاً وميتاً، وتعقيب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي تقريراً وتحقيقاً لذلك، أي فاغتيابه في حياته كأكل لحمه بعد مماته، وقد عرض عليكم أكل لحوم البشر فكرهتموه، فاكرهوا الغيبة التي هي مثل الأكل المذكور. ﴿وَأَلْفَوْا اللَّهَ﴾ عقاب الله في الاغتيا ب، بأن تنوبوا منه. ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ قابل توبة التائبين بكثرة، رحيم بهم، فيجعل صاحب التوبة كمن لم يذنب.

﴿مَنْ ذَكَرَ وَأُنْثِيَ﴾ من آدم وحواء عليهما السلام، أو من أب وأم، فالكل سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالنسب ما دام أصلهم واحداً ﴿شُعُوبًا﴾ جمع شُعب: وهم الجماعة من الناس التي لها وطن خاص، أو من أصل واحد كربيعة ومضر، وهو يجمع القبائل وأعم منها. ﴿وَقَبَائِلَ﴾ جمع قبيلة: وهي ما دون الشعب. وطبقات النسل عند العرب سبع: الشعب، ثم القبيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة، مثاله: خزاعة:

شعب، وكنانة: قبيلة، وقريش: عِمارة، وقصي: بطن، وعبد مناف: فخذ، وهاشم: فصيلة، والعباس: عشيرة.

﴿لَتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، لا للتفاخر بالآباء والقبائل، فلا تتفاخروا بعلو النسب، وإنما الفخر بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ بالتقوى تكمل النفوس وتفاضل الأشخاص، والتقوى: التزام المأمورات واجتناب المنهيات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بكم وبكل شيء، خير بيواطنكم وأسراركم كجهركم.

سبب النزول:

نزول الآية (١١):

﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾: قال الضحاك: نزلت في وفد بني غنيم الذين تقدم ذكرهم في بيان سبب نزول الآية الأولى من هذه السورة، استهزؤوا بفقراء الصحابة، مثل عمار وخباب وابن فُهيرة وبلال وصُهيب وسلمان وسالم مؤلى أبي حذيفة وغيرهم؛ لما رأوا من رثالة حالهم، فنزلت في الذين آمنوا منهم. وقال مجاهد: هو سخرية الغني من الفقير. وقال ابن زيد: لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة. وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس عيَّره رجل بأم كانت له في الجاهلية، فنكس الرجل استحياء، فأُنزل الله تعالى هذه الآية.

وقيل: نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قديم المدينة مسلماً، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت.

والخلاصة: لا مانع من تعدد وقائع النزول، فقد يكون كل ما ذكر سبباً لنزول الآية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

نزل الآية (١١) أيضاً:

﴿وَلَا نِسَاءَ مِّن نِّسَاءٍ﴾ : قال ابن عباس: إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن النساء يُعَيِّرُنِي، ويقلن لي: يا يهودية بنت يهوديتين! فقال رسول الله ﷺ: «هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد» فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: نزلت في نساء النبي ﷺ عيّرَن أم سلمة بالقصر.

نزل الآية (١١) كذلك:

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ : أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جيرة بن الضحاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة، فيدعى ببعضها، فعسى أن يكرمه، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال الترمذي: حسن.

وأخرج الحاكم وغيره من حديث أبي جيرة أيضاً قال: كان الألقاب في الجاهلية، فدعا النبي ﷺ رجلاً منهم بلقبه، فقيل له: يا رسول الله، إنه يكرمه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. ولفظ أحمد عنه قال: فينا نزلت في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قدم النبي ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فنزلت^(١).

نزل الآية (١٢):

﴿وَلَا يَغْتَبَ بَئِضُكُم بَعْضًا﴾ : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي أكل ثم رقد، فذكر رجل أكله ورقاده، فنزلت.

(١) ورواه أيضاً البخاري في الأدب وأهل السنن.

نزل الآية (١٣):

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي مُلَيْكَةَ قال: لما كان يوم الفتح، رَفِيَ بلال على ظهر الكعبة، فأَذَن، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذَن على ظهر الكعبة؟ فقال بعضهم: إن يَسْخَطَ الله هذا يَغْيَرَهُ أو إن يرد الله شيئاً يَغْيَرُهُ، فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ الآية، فدعاهم النبي ﷺ وزجرهم على التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء.

وقال ابن عساکر في مبهماتہ: وجدت بخط ابن بشکوال أن أبا بكر بن أبي داود أخرج في تفسير له أنها نزلت في أبي هند، أمر رسول الله ﷺ بني يَاضَةَ أن يزوجه امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله: نزوج بناتنا موالينا؟ فنزلت الآية. قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى وأرشد إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى، ومع النبي ﷺ، ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق، بيّن ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة، من الامتناع عن السخرية، والهمز واللمز والتنازع بالألقاب، وإساءة الظن وتتبع عورات الناس ومعائبهم، والغيبة والنميمة، ووجوب المساواة بين الناس، واعتقاد أن معيار التفاضل والتمييز هو التقوى والصلاح وكمال الأخلاق.

ويلاحظ سمو الترتيب الإلهي في سرد الآداب العامة في الموضوعات المذكورة، حيث رتب الله تعالى وقوع النزاع والاقتتال بين الطوائف والأفراد على أبناء الفاسقين، ثم نهى عن الأخلاق المردولة التي ينشأ عنها النزاع، ثم أعلن وحدة الإنسانية في الأصل والمنشأ، كل ذلك من أجل الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، وجعلها مثلاً يحتذى في التعامل مع الأمم والشعوب الأخرى، لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله في كل مكان.

التفسير والبيان:

هذه أخلاق الإسلام وآدابه العالية أَدَبُ الله تعالى بها عباده المؤمنين وهي:

أ - النهي عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم وازدراؤهم والاستهزاء بهم:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله لا يهزأ رجال من آخرين، فربما كان المسخور بهم عند الله خيراً من الساخرين بهم، أو قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له، فهذا حرام قطعاً، ذكر فيه علة التحريم أو النهي، كما قال بعضهم:

لا تُهِنَ الْفَقِيرَ عَلَيْكَ أَنْ تَرَكَعَ يَوْمًا، والدهر قد رفعه

فقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ تعليل للنهي:

وقال ﷺ - فيما رواه الحاكم وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين^(١) تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبره». ورواه أحمد ومسلم بلفظ: «رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب، لو قسم على الله لأبره».

وبالرغم من أن النساء يدخلن عادة في الخطاب التشريعي مع الرجال، فقد أفردهن بالنهي هنا دفعاً لتوهم عدم شمول النهي لهن، وأكد معنى النهي للنساء أيضاً، وذلك بالأسلوب نفسه، فنص على نهى الرجال، وعطف بنهي النساء، بصيغة الجمع؛ لأن أغلب السخرية تكون في مجامع النساء، فقال:

ولا يسخر نساء من نساء، فلعل المسخور منهن يكنَّ خيراً من الساخرات.

ولا يقتصر النهي على جماعة الرجال والنساء، وإنما يشمل الأفراد؛ لأن علة النهي عامة، فتفيد عموم الحكم لعموم العلة.

(١) الطَّمْر: الثوب الخلق البالي.

أخرج مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صُوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فالتمييز إنما يكون بإخلاص الضمير، ونقاء القلب، وإخلاص الأعمال لله عز وجل، لا بالمظاهر والثروات، ولا بالألوان والصور، ولا بالأعراق والأجناس.

٢ - النهي عن الهمز واللمز، أي التعيب بقول أو إشارة خفية:

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تلمزوا الناس، ولا يطعن بعضهم على بعض، ولا يعيب بعضهم بعضاً بقول أو فعل أو إشارة. وقد جعل الله لمر بعض المؤمنين لمزاً للنفس؛ لأنهم كنفس واحدة، فمتى عاب المؤمن أخاه، فكأنما عاب نفسه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩/٤] أي لا يقتل بعضهم بعضاً. أخرج أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «المؤمنون كرجل واحد، إذا اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكى عينه اشتكى كله».

والهماز اللماز مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١٠٤/١]. والهمز يكون بالفعل، واللمز يكون بالقول، وقد عاب الله من اتصف بذلك في قوله: ﴿هَازٍ مَّشَلَمٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١/٦٨] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً بهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال^(١).

والفرق بين السخرية واللمز: أن السخرية احتقار الشخص مطلقاً، على وجه مضحك بحضرته، واللمز: التنبيه على معاييه، سواء أكان على شيء مضحك أم غيره، وسواء أكان بحضرته أم لا، وعلى هذا يكون اللمز أعم من السخرية، ويكون من عطف العام على الخاص؛ لإفادة الشمول.

(١) انظر الفروق للقرافي: الفرق بين قاعدة الغيبة وقاعدة النميمة والهمز واللمز: ٢٠٩/٤

٣ - التنابز بالألقاب أي التداعي بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا يلقب بعضكم بعضاً لقب سوء يغيظه، كأن يقول المسلم لأخيه المسلم: يا فاسق، يا منافق، أو يقول لمن أسلم: يا يهودي أو يا نصراني، أو يقول لأي إنسان: يا كلب، يا حمار، يا خنزير، ويعزر المرء القائل ذلك بعقوبة تعزيرية. وقد نص العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء أكان صفة له أم لأبيه أم لأمه، أم لكل من يتنسب إليه. والتنابز يقتضي المشاركة بين الاثنين، وعبر بذلك لأن كل واحد سرعان ما يقابل الآخر بلقب ما، فالنبز يفضي في الحال إلى التنابز، بعكس اللمز يكون غالباً من جانب، ويحتاج للبحث عن عيب ما يرد به.

ويستثنى من ذلك: أن يشتهر بلقب لا يسوؤه، فيجوز إطلاقه عليه، كالأعمش والأعرج من رواة الحديث. أما الألقاب المحمودة فلا تحرم ولا تكره كما قيل لأبي بكر: عتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين، ولعلي: أبو تراب^(١)، ولخالد: سيف الله، ولعمرو بن العاص: داهية الإسلام.

﴿يَسِّرْ الْأَسْمَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي ساء الوصف أن يسمى الرجل فاسقاً أو كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته، أو أن يذكر بالفسوق بعد الدخول في الإيمان. والفسوق: هو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يفعلون بعدما دخلوا في الإسلام وعقلوه. والمراد: ذم اجتماع صفة الفسوق بسبب التنابز بالألقاب مع الإيمان، وذلك تغليظ وتنفير شديد، حيث جعل التنابز فسقاً، وهو تعليل للنهي السابق.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَنْبَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ومن لم يتب عما نهى الله عنه من الأمور الثلاثة (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب) فهو من الظالمين، بل

(١) لما عليه من التراب عندما أيقظه ﷺ من نومه تحت نخيل في أرض بني مدلج.

هم لا غيرهم الظالمون أنفسهم، بسبب العصيان بعد الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

وسبب وصف العضاة بالظلم: أن الإصرار على المنهي كفر؛ إذ جعل المنهي كالأمور، فوضع الشيء في غير موضعه.

٤- النهي عن سوء الظن وتحريمه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي يا أيها المصدقون بالله ورسوله، ابتعدوا عن كثير من الظن، فيشمل بعض الظن وهو أن يظن بأهل الخير سوءاً، وهذا هو الظن القبيح، وهو متعلق بمن ظاهره الصلاح والخير والأمانة.

أما أهل السوء والفسوق المجاهرون بالفجور، كمن يسكر علانية أو يصاحب الفاجرات، فيجوز ظن السوء به لتجنبه والتحذير من سلوكه، دون تكلم عليه، فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم.

ثم علل الله تعالى النهي بأن بعض الظن وهو ظن السوء بأهل الخير، أو ظن الشر بالمؤمن ذنب مؤثم أي موقع في الإثم، لنهي الله عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَنْتَنِيَنَّ ظَنُّكَ السَّوْءَ وَكَانَتْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢/٤٨] أي هلكى.

وقد وردت أحاديث كثيرة في تحريم سوء الظن بالمؤمن، منها ما رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: « ما أطيبك وأطيب ريحك، وما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك، ماله ودمه، وأن يظن به إلا خيراً ». قال ابن عباس في الآية: نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن إلا خيراً.

ومنها ما رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تنافسوا، ولا تباغضوا، ولا تبادبوا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وفي رواية أخرى لمسلم والترمذي: «لا تَقَاطَعُوا ولا تَدَابِرُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَحَاسَدُوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» والتدابير: الهجر والقطيعة.

٥- تحريم التجسس:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايهم، وتستكشفوا ما ستره، وتستطلعوا أسرارهم، فالتجسس: البحث عما هو مكتوم عنك من عيوب المسلمين وعوراتهم. أما التجسس: فهو البحث عن الأخبار، والاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو تسمع على أبوابهم.

أخرج أبو داود وغيره عن أبي بَرزَةَ الأسلمي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عورات المسلمين، فضحه الله في قعر بيته».

وأخرج الطبراني عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لازمات لأمتي: الطَّيْرَةُ^(١) والحسد وسوء الظن، فقال رجل:

(١) الطيرة: ما يتشام به من القول الرديء، والأدق أن يقال: التطير: هو الظن السيئ الكائن في القلب، والطيرة: هو الفعل المرتب على هذا الظن من فرار أو غيره، وكلاهما حرام؛ لأنه «كان ﷺ يحب القول الحسن، ويكره الطيرة» ولأنها من باب سوء الظن بالله تعالى. والقول: هو ما يظن عنده الخير، عكس الطيرة والتطير، والقول الحسن: كالكلمة الحسنة والتسمية بالاسم الحسن، والقول الحرام: كأخذ القول من المصحف وضرب الرمل والقرعة والضرب بالشعر، وجميع هذا النوع حرام؛ لأنه من باب الاستقسام بالأزلام. والأزلام: أعواد كانت في الجاهلية: مكتوب على أحدهما: افعل، وعلى الآخر: لا تفعل، وعلى الآخر: غفل، =

وما يُذهِبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيَّرت فامض.

وأخرج أبو داود أيضاً عن أبي أمامة وآخرين من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة من الناس أفسدهم».

قال أبو قلابة: حَدَّثَ عمر بن الخطاب أن أبا مَحْجَنٍ الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه.

٩ - تحريم الغيبة، وهي ذكرك أخاك بما يكره:

﴿وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً في غيبته بما يكره، سواء أكان الذكر صراحة أم إشارة أم نحو ذلك، لما فيه من الأذى بالمغتتاب. وهو يتناول كل ما يكره، سواء في دينه أو دنياه، في خُلُقِهِ أو خَلْقِهِ، في ماله أو ولده أو زوجته أو خادمه أو لباسه ونحو ذلك.

وقد فسر النبي ﷺ الغيبة فيما رواه أبو داود والترمذي وابن جرير عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذُكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: إن كان فيه ما تقول فقد

= فيخرج أحدهما، فإن وجد عليه: افعل، أقدم على حاجته، أو لا تفعل، أعرض عنها واعتقد أنها ذميمة، أو خرج المكتوب عليه: غفل، أعاد الضرب، فهو طلب قسمة الغيب بتلك الأعواد، ويسمى استقساماً، أي طلب القسم الجيد من الرديء (انظر الفروق للقرافي، الفرق بين قاعدة التطير وقاعدة الطيرة وما يحرم منهما وما لا يحرم، والفرق بين قاعدة الطيرة وقاعدة الفأل الحلال والفأل الحرام: ٤/ ٢٣٨، ٢٤٠).

وتحريم الغيبة مرتبط بحماية الكرامة الإنسانية، ثبت في الأحاديث الصحيحة من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع فيما رواه الشيخان عن أبي بكر: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

وروى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حَسْبُ امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

وروى أبو داود أيضاً عن أبي بُرْدة البلوي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه في بيته».

﴿وَالْتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، واکرهوا الغيبة وتباعدوا عنها، إن الله تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه واعتمد عليه.

قال جمهور العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك، وأن يعزم على ألا يعود، ويندم على ما فعل، وأن يتحلل من الذي اغتابه، وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله، فإنه إذا أعلمه بذلك، ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذن أن يثني عليه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك، كما روى الإمام أحمد وأبو داود عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من همى مؤمناً من منافق يغتابه، بعث الله تعالى إليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبه، حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال».

٧- المساواة بين الناس في الأصل والمنشأ، والتفاضل بالتقوى:

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ كان النداء السابق لأهل الإيمان لتأديبهم بالأخلاق الفاضلة، ونادى هنا بصفة الناس الذي هو اسم الجنس الإنساني، ليناسب بيان المطلوب، ويؤكد ما نهى عنه سابقاً، وليعمم الخطاب للناس جميعاً منعاً من السخرية واللمز وغير ذلك على الإطلاق، فقال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ﴾ الآية.

والمعنى: أيها البشر، إنا خلقناكم جميعاً من أصل واحد، من نفس واحدة، من آدم وحواء، فأنتم متساوون، لأن نسبكم واحد، ويجمعكم أب واحد وأم واحدة، فلا موضع للتفاخر بالأنساب، فالكل سواء، ولا يصح أن يسخر بعضكم من بعض، ويلمز بعضكم بعضاً، وأنتم إخوة في النسب.

وقد جعلناكم شعوباً (أمة كبيرة تجمع قبائل) وقبائل دونها لتتعارفوا لا لتتناكروا وتتحالفوا، والمقصود أن الله سبحانه خلقكم لأجل التعارف، لا للتفاخر بالأنساب.

وإن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوى، فمن اتصف بها كان هو الأكرم والأشرف والأفضل، فدعوا التفاخر، إن الله عليم بكم وبأعمالكم، خبير ببواطنكم وأحوالكم وأموركم.

والآية دليل للمالكية الذين لم يشترطوا الكفاءة في الزواج، سوى الدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ﴾

وقد وردت أحاديث صحاح كثيرة، منها ما رواه أبو بكر البزار في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب، وليستهين قوم يفخرون بأبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان».

وروى ابن أبي حاتم والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مُنَاخاً في المسجد، حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل، فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«يا أيها الناس، إن الله تعالى قد أذهب عنكم غيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برّ تقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى، إن الله عز وجل يقول: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) ثم قال ﷺ: أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم»^(١).

وروى الطبري في آداب النفوس قال: «خطب رسول الله ﷺ بمى في وسط أيام التشريق، وهو على بعير، فقال:

«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحر، ولا لأحر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب».

وقد تقدم ذكر حديث مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة: «إن الله لا ينظر إلى صُوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وعند الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنّ الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبكم إليه أتقاكم».

(١) فيه راوٍ ضعيف، وهو عبد الله بن جعفر، والد علي بن المديني.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

أ - حَرَّمَ اللهُ تعالى بدلالة النهي في الآية الأولى ثلاثة أشياء: هي السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، ومن فعل ما نهى الله عنه منها فذلك فسوق، وهو لا يجوز، وهو من الظالمين أنفسهم بتعريضها بسبب ظلمه غيره إلى العذاب والعقاب إن لم يتب، والعلة واضحة وهي احتمال أن يكون المسخور منه والملموز والملقب خيراً ممن عابه.

واستثنى من التنابز بالألقاب المكروهة من غلب عليه اللقب في الاستعمال والشهرة، فلم يعد يعرف إلا بها، كالأعرج والأحذب والأعمش.

أما الألقاب الحسنة كالصديق لأبي بكر، والفاروق لعمر، وذي النورين لعثمان، وتلقب خزيمه بذي الشهادتين، وأبي هريرة بذي الشمالين، والخزباق بن عمرو بذي اليدين، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، فذلك جائز مقبول مألوف بين العرب والعجم. لهذا كانت التسمية بالأسماء الحسنة مطلوبة. ذكر الزمخشري: روي عن النبي ﷺ: «من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه» وكانت التكنية من السنة والأدب الحسن. قال عمر رضي الله عنه: «أشبعوا الكُفَى فإنها منبّهة» وقد لُقّب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها- من العرب والعجم- تجري في مخاطبتهم ومكاتبتهم من غير تكبر.

ب - كذلك حَرَّمَ اللهُ سبحانه بدلالة النهي أيضاً في الآية الثانية ثلاثة أشياء: هي سوء الظن بأهل الخير والصلاح والإيمان، والتجسس، والغيبة.

والظن أنواع^(١):

الأول - ظن واجب أو مأمور به: كحسن الظن بالله تعالى وبالمؤمنين، كما جاء في الحديث القدسي فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة: «أنا عند ظن عبد بي» وقال النبي ﷺ: فيما رواه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن جابر: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسِنُ الظن بالله» وقال أيضاً فيما رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة: «حسن الظن من حسن العبادة» ومثل قبول شهادة العدول، وتحري القبله، وتقويم المستهلكات وأروش الجنايات غير المقدره شرعاً.

الثاني- ظن محظور أو حرام، كسوء الظن بالله، وبأهل الصلاح، وبالمسلمين مستوري الحال، ظاهري العدله، قال النبي ﷺ: «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه، وأن يُظَنَّ به ظَنُّ السوء» ذكره القرطبي والألوسي، وقال أيضاً عن عائشة مرفوعاً: «من أساء بأخيه الظن فقد أساء الظن بربه، إن الله تعالى يقول: اجتنبوا كثيراً من الظن؟» .

روى أبو داود عن صفية قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفاً. فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته وقمت، فانقلبت فقام معي ليقبني^(٢)، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلاَن من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعَا، فقال النبي ﷺ: «على رسلكما، إنها صفية بنت حُيَيٍّ» قالا: سبحان الله، يا رسول الله! قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فخشيت أن يَقْذِفَ في قلوبكما شيئاً أو سوءاً»^(٣).

(١) انظر وقارن وراجع عمدة القاري شرح البخاري للمعيني: ١٣٧/٢٢، الطباعة المنيرية، ١٨/

١٧٩ ط البابي الحلبي.

(٢) أي فانصرفت فقام معي ليصرفني.

(٣) أحكام القرآن للجصاص: ٤٠٦/٣

أما من يجاهر بالخبائث أو يتعاطى الريب، فلا يحرم إساءة الظن به، فليس الناس أحرص منه على نفسه، وقد أمر الله أن يتجنب الإنسان مواضع الريبة ومواقف التهم.

الثالث- ظن مندوب إليه: كإحسان الظن بالأخ المسلم، وإساءة الظن إذا كان المظنون به ظاهر الفسق، قال ﷺ: «من الحزم سوء الظن» وقال أيضاً فيما رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي عن أنس، وهو ضعيف: «احترسوا من الناس بسوء الظن». فإذا كان الظن لاتقاء الشر ولا يتعدى إلى الغير، فهو من هذا النوع، محمود غير مذموم، وعليه يحمل هذان الحديثان، وما جاء في الحكم: «حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة».

وحرمة سوء الظن بالناس: إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدى إلى الغير.

الرابع- ظن مباح: كالظن في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية العملية بالاجتهاد، والعمل بغالب الظن في الشك في الصلاة، كم صلى ثلاثاً أو أربعاً.

وأما التجسس فهو من الكبائر وهو البحث عن الأمور المكتومة أو السرية، ومنه الجاسوس، وكذلك التجسس وهو الاستماع لحديث القوم وهم له كارهون حرام أيضاً، لكنه قد يستعمل في البحث عن الخير، كما قال تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُؤُسَفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ١٢/٨٧].

والغيبة أيضاً حرام، وهي من الكبائر بالإجماع كما ذكر القرطبي، وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلى الله عز وجل، مع استحلال المغتاب في رأي جماعة، ودون استحلاله في رأي آخرين كما تقدم.

والفرق بين الغيبة والإفك والبهتان: أن الغيبة أن تقول في أخيك ما هو

فيه، والإفك: أن تقول فيه ما بلغك عنه، والبهتان: أن تقول فيه ما ليس فيه. والله تعالى نَقَر من الغيبة أشد تنفير، مشبهاً الاغتياب بأكل لحم الإنسان ميتاً. وقد ذكر العلماء أشياء ليس لها حكم الغيبة، فالغيبة لا تحرم إذا كانت لغرض صحيح شرعاً لا يتوصل إليه إلا به وهي ستة أمور^(١):

الأول- التظلم: فلمن ظلم تقديم شكوى للحاكم لإزالة ظلمه، لحديث أخرجه البخاري والترمذي عن أبي هريرة: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً» وحديث أخرجه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة: «مَظْلُ الغني ظلم» أو «لِيّ الواجد يُحَلَّ عِرْضُهُ وعقوبته» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه عن الشريد.

الثاني- الاستعانة على تغيير المنكر: بأن يذكره لمن يظن قدرته على تغييره، لقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨/٤].

الثالث- الاستفتاء: كأن يقول للمفتي: ظلمني فلان بكذا، فما طريق الوصول إلى حقي؟ لقول هند للنبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن عائشة: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فأخذ من غير علمه؟ فقال النبي ﷺ: نعم فخذني».

الرابع- التحذير من الفساق: فلا غيبة لفاسق فاجر كمدمن خمر وارتياك أماكن الفجور، للحديث الذي رواه الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدي عن بهز بن حكيم: «اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس» وفي رواية للبيهقي عن أنس، وهو ضعيف: «من ألقى جلباب الحياء، فلا غيبة له، واتقوا الله فيما نهاكم، وتوبوا فيما وُجد منكم»^(٢).

(١) انظر الإحياء للغزالي: ١٣٢/٣

(٢) أما حديث (لا غيبة لفاسق) فلم يصح.

الخامس- التحذير من شر عام: كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمفتين مع عدم الأهلية، ونصح الخاطب والشريك ونحو ذلك.

السادس- التعريف بلقب مشهور إذا لم تمكن المعرفة بغيره، كالأعور والأعمش والأعرج. وصنف القرافي ما استثناء العلماء من الغيبة المحرمة وهي ست صور كما يلي: النصيحة، والتجريح والتعديل في الشهود، والمعلن بالفسوق، وأرباب البدع والتصانيف المضلة، ينبغي أن يشهر الناس فسادها وعيوبها، والعلم السابق بالمغتتاب به بين المغتاب والمغتتاب عنده، والدعوى عند وفاة الأمور^(١).

٣ - ذكرت الآية الثالثة أشياء: المساواة، وتعارف المجتمع الإنساني، وحصر التفاضل بالقوى والعمل الصالح.

أما المساواة: فالناس سواسية كأسنان المشط في الأصل والمنشأ الإنساني، فهم من أب وأم واحدة، وفي الحقوق والواجبات التشريعية، وهذه أصول الديمقراطية الحققة.

وقد أبان الله أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، ولو شاء لخلق من غيرهما كخلقه لأدم، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى كخلقه حواء.

وأما التعارف: فإن الله خلق الخلق أنساباً وأصهاراً، وقبائل وشعوباً من أجل التعارف والتواصل والتعاون، لا للتناكر والتقاطع، والمعاداة واللمز والسخرية والغيبة المؤدية إلى التنازع والعداوة، ولا للتفاخر بالأنساب والأعراق والأصول، فكل ذلك اعتبارات وهمية مصطنعة تتعارض مع وحدة الأصل والمنشأ الإنساني.

(١) الفروق: الفرق بين الغيبة المحرمة والغيبة التي لا تحرم: ٢٠٥-٢٠٨

وأما التقوى: فهي ميزان التفاضل بين الناس، فالأكرم عند الله، الأرفع منزلة لديه تعالى في الدنيا والآخرة هو الأتقى الأصلح لنفسه وللجماعة، فإن حدث تفاخر فليكن بالتقوى التي هي التزام المأمورات واجتناب المنهيات.

أخرج الترمذي عن سُمرة عن النبي ﷺ قال: «الحَسْبُ المال، والكرم التقوى» وفي حديث آخر: «من أحب أن يكون أكرم الناس، فليثق الله». وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إني جعلت نَسَباً، وجعلتم نسباً، فجعلت أكرمكم وأتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبي، وأضع أنسابكم، أين المتقون، أين المتقون؟!».

وروى الطبري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوليائي المتقون يوم القيامة، وإن كان نسب أقرب من نسب، يأتي الناس بالأعمال، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم، تقولون: يا محمد، فأقول: هكذا وهكذا» وأعرض في كل عطفه.

٤ - احتج مالك بآية ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ على عدم اشتراط النسب في الكفاءة في الزواج إلا الدين، فيجوز زواج الموالي بالعربية، وقد تزوج سالم مولى امرأة من الأنصار هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف، وتزوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش، فالكفاءة إنما تراعى في الدين فقط. قال ﷺ في الحديث الذي رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة): «تُنْكَحُ المرأة لما لها وحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تَرَبَّثْ يداك».

وقال الجمهور: يراعى الحسب والمال، عملاً بالأعراف، ومراعاة لواقع الحياة المعيشية، وتحقيقاً لهدف الزواج وهو الدوام والاستقرار.

أصول الإيمان الصحيح

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿لَا يَلِتْكُمْ﴾:

وقرأ أبو عمرو (لا يالتكم).

﴿تَعْمَلُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير (بعملون).

الإعراب:

﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾: ﴿يَلِتْكُمْ﴾ من لات يليت، مثل باع يبيع، وقرئ: لا يالتكم، من ألت يألت، والقراءتان بمعنى واحد، يقال: لات يليت، وألت يألت: إذا نقصه.

﴿لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ منصوب بنزع الخافض أي بإسلامكم، أو يضمن الفعل معنى الاعتداد.

لِلْبَلَاغَةِ:

﴿ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ بينهما طباق السلب.

﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ

المفردات اللغوية:

﴿الْأَعْرَابُ﴾ سكان البادية. ﴿ءَامَنَّا﴾ صدّقنا بما جئت به من الشرائع، وامتلنا الأوامر، والإيمان: التصديق بالقلب مع الثقة والطمأنينة. ﴿أَسْلَمْنَا﴾ اتقنا ظاهراً، والإسلام: الاستسلام والانقياد الظاهري وإظهار الشهادتين وترك المحاربة. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾ لم يدخل الإيمان في قلوبكم إلى الآن، لكنه يتوقع منكم. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص وترك النفاق، ﴿لَا يَلْزَمَكُمْ﴾ لا ينقصكم. ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ﴾ من ثواب أعمالكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط من المؤمنين. ﴿رَحِيمٌ﴾ بالفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الصادقو الإيمان، بدليل ما بعده. ﴿لَمْ يَرْكَبُوا﴾ لم يشكوا في شيء من الإيمان. ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعة الله ورضوانه. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هم الذين صدقوا في إيمانهم، لا من قالوا: آمنا ولم تؤمن قلوبهم، ولم يوجد منهم غير الإسلام الظاهري.

﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أخبرونه بقولكم: آمنا؟. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُوتِ﴾ لا يخفى عليه خافيه، وهو تجهيل لهم وتوبيخ. ﴿يَعْتُونَ﴾ يمتنون ويعدون إسلامهم عليك مئة ونعمة مسداة لك. ﴿لَا تَحْمِلُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ﴾ أي لا تمتنوا عليّ بإسلامكم. ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي بحسب زعمكم، علماً بأن الهداية لا تستلزم الاهتداء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فله المنة والفضل عليكم.

﴿غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سرهم وعلايتكم، فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم؟.

سبب النزول:

نزول الآية (١٤):

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾: نزلت في نفر من بني أسد بن خزيمه، قدموا المدينة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السر، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمينون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية^(١)

وقال السدي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: أعراب مُزَيِّنَة وَجُهَيْنَة وَأُسْلَمَ وَغِفَارَ وَالذَّيْلَ وَأَشْجَعَ، قالوا: آمَنَّا لِيَأْمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَنْفَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ تَخَلَّفُوا^(٢).

المناسبة:

بعد أن حث الله تعالى على التقوى، قالت الأعراب: لنا النسب الشريف، فلنا الشرف، فذمهم الله تعالى، وأبان ضعف إيمانهم، وحدد أصول الإيمان الصحيح: وهي التصديق بالله ورسوله، والإخلاص في القلب، والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله وطاعته وإعلاء دينه، وأخبر بأن الله يعلم ما في السرائر والعلانية، فيعلم ما هم عليه من ضعف الإيمان وقوته، وأفاد بأنه لا ينبغي لمؤمن أن يمتن على الرسول ﷺ بإيمانه، بل يمن عليه بتوفيقه للهداية على يد رسول ﷺ.

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٢٥

(٢) تفسير القرطبي: ٣٤٨/١٦

التفسير والبيان:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي قالت جماعة من سكان البادية وهم بنو أسد أول ما دخلوا الإسلام مدعين لأنفسهم مقام الإيمان: صدقنا بالله ورسوله وتمكن الإيمان في قلوبنا، فرد الله تعالى عليهم مبيناً لهم أنهم لم يؤمنوا بالإيمان الكامل، ولم يصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب وخلص نية وطمأنينة وثقة تامة بالله عز وجل، وأمرهم بأن يقولوا: انقذنا لك يا رسول الله واستسلمنا، وسالمناك فلا نحاربك، وأعلمهم بأنه لن يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد، بل كان مجرد قول باللسان، دون اعتقاد صحيح ولا نية خالصة، لذا جاء النبي بـ ﴿وَلَمَّا﴾ حرف الجزم الدال على انتفاء الشيء إلى زمان الإخبار. وقوله: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ لا يراد به انتفاء الإيمان في الزمن الماضي، بل متصلاً بزمان الإخبار أيضاً.

وقد دلت الآية الكريمة على أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترق من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب، فهو تصديق القلب مع الطمأنينة والثقة بالله، والإسلام أعم، فهو مجرد نطق باللسان بالشهادتين وإظهار الانقياد والخضوع لما جاء به النبي ﷺ.

وهذا لا يمنع أن المؤمن والمسلم واحد عند بعض أهل السنة^(١)، بدليل قوله تعالى عن لوط عليه السلام ومن آمن معه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ [الذاريات: ٢٥-٣١].

ثم حرضهم الله تعالى على الإيمان الصادق بقوله:

(١) تفسير الرازي: ١٤١/٢٨

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي وإن طيعوا الله ورسوله إطاعة تامة، وتخلصوا العمل، وتصدقوا تصديقاً صحيحاً، لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الإخلاص، والله تعالى غفور ستار لمن تاب إليه وأناب وأخلص العمل، رحيم به فلا يعذبه بعد التوبة، وفيه حث على التوبة من الأعمال السالفة، وتسلي لقلوب من تأخر إيمانه، فالله تعالى يغفر لكم في كل وقت ما قد سلف، ويرحمكم بما أتيتم به. ونظير الآية: ﴿وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٥٢/٢١].

ثم أبان الله تعالى صفات المؤمنين وحقيقة الإيمان بقوله:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي إنما المؤمنون إيماناً صحيحاً خالصاً وهم المؤمنون الكمل هم الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله محمد ﷺ تصديقاً تاماً بالقلب، وإقراراً باللسان، ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، وجاهدوا بالأموال والأنفس حق الجهاد، من أجل طاعة الله وابتغاء مرضاته، قاصدين بجهادهم إعلاء كلمة الله ودينه، أولئك المتصفون بهذه الصفات المذكورة هم الصادقون بالاتصاف بصفة الإيمان، والدخول في عداد المؤمنين، لا كبعض الأعراب الذين أظهروا الإسلام، ولم يطمئن الإيمان في قلوبهم.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ والذي يأمنه الناس على أموالهم بأنفسهم؛ والذي إذا أشرف على طمع تركه الله عز وجل».

ثم عرفهم الله تعالى بأنه عالم بحقيقة أمرهم قائلاً:

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١) قل لهم أيها الرسول: أتخبرون الله بما في ضمائرکم من الدين ليعلم بذلك حيث قلتم: آمنا؟ والله عالم لا يخفى عليه شيء، يعلم كل ما في السماوات وما في الأرض من جمادات ونباتات وحيوانات وإنس وجن، فكيف يجهل حقيقة ما تدعون من الإيمان؟ والله لا تخفى عليه خافية من ذلك، يعلم بكل شيء، فاحذروا أن تدعوا شيئاً خلاف ما في قلوبكم.

وفيه إشارة إلى أن الدين ينبغي أن يكون لله، وأنتم أظهرتموه لنا، لا لله، فلا يقبل ذلك منكم.

ثم أوضح الله تعالى أن إسلامهم لم يكن لله، فقال:

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي يعدّون إسلامهم منّة ونعمة عليك أيها النبي، حيث قالوا: جئناك بالأنفال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان. فرد الله تعالى عليهم قائلاً:

﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل أيها الرسول: لا تعدوا أيها الأعراب إسلامكم منّة علي، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنّة عليكم فيه، فهو سبحانه الذي يمن عليكم، إذ أرشدكم إلى الإيمان وأراكم طريقه، ووفقكم لقبول الدين، إن كنتم صادقين فيما تدعون، وفي هذا إيماء إلى أنهم كاذبون في ادعائهم الإيمان.

وذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجذكم ضلّالاً، فهذاكم الله بي؟ وكنتم متفرّقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمّن وأفضل».

ثم أكد الله تعالى علمه بكل شيء، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢) أي إن

الله عليم بما ظهر وما غاب في جميع أنحاء السماوات والأرض، ومن جملة ذلك: ما يشره كل إنسان في نفسه، والله مطلع على كل شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشر شراً. والآية تكرار وتأكيد الإخبار بعلم الله بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، ليترسخ ذلك في الأذهان، ويستقر في أعمال القلوب، ويتمثل دائماً في النفوس.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - موضوع الآيات توبيخ من في إيمانه ضعف بعد الآيات السابقة التي فيها حث عموم الناس على تقوى الله تعالى.

فلا يكفي الإسلام الظاهري، وإنما لا بد من الإيمان والإذعان القلبي، ولا يكفي الإسلام اللغوي، وهو الخضوع والانقياد خوفاً من القتل، ودخولاً في زمرة أهل الإيمان والسلام.

٢ - إن أخلص الناس الإيمان لله تعالى وقر لهم ثواباً عظيماً لأعمالهم، ولم ينقصهم شيئاً من أجورهم.

٣ - لا حرج على من تأخر إيمانه، فالله سبحانه غفار للذنوب عباده كلها بمشيئته، رحيم بهم فلا يعذبهم بعد التوبة.

٤ - إن عناصر الإيمان الجوهرية في الآية: هي الإيمان بالله وحده لا شريك له، والإيمان بأن محمداً رسول الله وخاتم الأنبياء والرسل، وعدم الارتياب في شيء، بل لا بد من عقيدة ثابتة وبقين كامل لا يتزعزع أبداً، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس محك الإيمان ودليله، والمؤمنون هم الذين صدقوا ولم يشكوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة، وهم الذين صدقوا في إيمانهم، لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب.

ويجب أن يكون الجهاد من أجل نصرة دين الله والدعوة إلى سبيله، أو لاسترداد الحقوق المعتصبة والبلاد المحتلة، لذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وقال تعالى في الدفاع عن البلاد: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧/٣] .

٥ - لا حاجة لإعلام الله تعالى بأن الإنسان مؤمن، فهو سبحانه يعلم بالدين الذي يكون الناس عليه، ويعلم كل شيء في الكون، والآية تجهيل لهم في قوله: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾.

٦ - إن نفع الإيمان يعود للمؤمن نفسه، فلا يصح لأحد أن يمتن بإسلامه على أحد، بل المنة والفضل والنعمة لله عز وجل الذي وفق عباده للإيمان، وأرشدهم إليه ودلهم عليه.

والصادقون هم الذين يعترفون بهداية الله لهم، والهداية هنا بمعنى الدلالة وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ تعريض بأن الأعراب سبب النزول كاذبون، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِسُوا﴾ وذلك تأديب لهم.

٧ - ظاهر الآية يدل على أن أولئك الأعراب لم يكونوا مؤمنين إيماناً صحيحاً، بل كانوا مسلمين إسلاماً ظاهرياً، والإيمان أخص، والإسلام أعم، كما تقدم، ولم يكونوا منافقين، فلو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما فعل الله تعالى في سورة براءة.

٨ - إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك ما في الضمائر والقلوب، فهو تعالى يعلم الإيمان الحقيقي من الإيمان الكاذب، ويعلم المقاصد والغايات، والمخاوف والأطماع، والبواعث التي تدفع إلى الدخول في الإسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ قن

مكية، وهي خمس وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة ﴿قن﴾ تسمية لها بما افتتحت به من أحرف الهجاء، كقوله تعالى: ﴿قن﴾، ﴿نن﴾، ﴿آلن﴾، ﴿حمن﴾، ﴿طسن﴾ قال الشعبي: ق: فاتحة السورة.

مناسبتها لما قبلها:

أخبر الله تعالى في آخر سورة الحجرات المتقدمة أن أولئك الأعراب الذين قالوا: آمنا، لم يكن إيمانهم حقاً، وذلك دليل على إنكار النبوة وإنكار البعث، فافتتح هذه السورة بوصف إنكار المشركين نبوة النبي ﷺ وإنكار البعث، ثم رد عليهم بالدليل القاطع.

ما اشتملت عليه السورة:

بما أن هذه السورة مكية بالإجماع، فموضوعها مثل موضوعات سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية وهي التوحيد، والبعث، والنبوة والرسالة، ولكنها عنيت بالأصل الثاني وهو البعث وإثباته والرد على منكره.

لذا ابتدأت بالكلام عن إنكار مشركي العرب وقريش أمر البعث والنشور، وأمر النبوة ورسالة محمد ﷺ، وتعجبهم من إرسال رسول منذر منهم، ومن إعادة الحياة بعد الممات، فأقسم الله بالقرآن المجيد قائلاً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ إِنْ أَلْمَجِيدُ ①﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② إِنْ هَذَا إِلَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③﴾

ومن أجل الاستدلال على قدرة الله الباهرة على البعث وغيره، حثت الآيات بعدئذ على التأمل في صفحة الكون، والنظر في السماء ونباتها وزيتها، وفي الأرض وجبالها وزروعها ونباتاتها وأمطارها: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ ④﴾ الآيات.

ثم أثارت دواعي التفكير وأقامت العبر والعظات في إهلاك الأمم السابقة المكذبة بالرسول، كقوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود وعاد وفرعون وقوم لوط وأصحاب الأيكة قوم شعيب وقوم ثُبُع، تحذيراً لكفار مكة أن يصيهم مثلما أصاب غيرهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ⑤﴾ الآيات.

وانتقلت الآيات للحديث عن الإنسان ومسؤوليته وملازمة الملكين له لرصد أعماله وأقواله ومراقبة أحواله، وطيّ صحيفته بسكرة الموت، وتعرضه لأهوال الحشر وأهوال الحساب: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ⑥﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ⑦﴾ الآيات، وأعقبت كل ذلك بضرورة العبرة والتذكر بتلك الأحداث الكبرى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا ⑧﴾

وختمت السورة الكريمة بمشاهد عظيمة، من خلق السماوات والأرض وما بينهما، وسماع صيحة الحق للخروج من القبور، وتشقق الأرض عن الأموات سراعاً، وتحلل ذلك أمر الرسول وأتباعه بالصبر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار، وعدم المبالاة بإنكار المشركين البعث وتهديدهم عليه، والتذكير بالقرآن من وعيد الله وعقابه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ ⑨﴾ وَأَسْمِعَ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ ⑩﴾ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ⑪﴾ الآيات.

فضل السورة:

تقرأ هذه السورة في الأحداث الكبرى والمجامع العامة، كالجمع والعيد، لتذكير الناس ببدء الخلق، ومظاهر الحياة، وعقوبات الدنيا، والبعث والنشور، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

وأدلة سنّية قراءتها في تلك المناسبات أحاديث، منها حديث جابر بن سمرّة في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (١) وكانت صلاته بعد تخفيفاً.

وأخرج مسلم وأبو داود والبيهقي وابن ماجه عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان، قالت: ما أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (٢) إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرأها كل يوم جمعة على المنبر، إذا خطب الناس.

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه سأل أبا واقد الليثي ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحية والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (٣) و﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقَّ الْقَمَرِ﴾ (٤).

والسبب أن العيد يوم الزينة والفرح، فينبغي ألا ينسى الإنسان خروجه إلى ساحات الحساب، فلا يكون فرحاً فخوراً، ولا فاسقاً فاجراً، فيتذكر بالقرآن كما في بداية السورة: ﴿ق وَالْقُرْآنِ﴾ ونهايتها: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ويتأمل في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

لوجه الشبه بين سورة ق وسورة ص:

لاحظ العلماء وجهي شبه بين سورتي ﴿ص﴾ و﴿ق﴾ وهما (١):

أولاً - تشترك السورتان في افتتاح أولها بحرف واحد من حروف الهجاء، والقسم بالقرآن، وقوله: ﴿بَلْ﴾ والتعجب. كما أن أول السورتين وآخرهما متناسبان، ففي أول ﴿صَّ﴾: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ وفي آخرها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧)، وفي أول ﴿قَ﴾: ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ وفي آخرها: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدَ﴾ فافتتح بما اختتم به. أي إن السورتين تبدأان بحرف هجاء، وتبتدئان وتنتهيان بالتحدث عن القرآن.

ثانياً - عنيت سورة ﴿صَّ﴾ بتقرير الأصل الأول وهو التوحيد، وقوله تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْأَلُ وَأَصِيرُوا عَلَىٰ إِلَهِئِكُمْ﴾، وعنيت سورة ﴿قَ﴾ بتقرير الأصل الثاني وهو الحشر، في قوله تعالى: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (١).

ويحدث وختمت كل سورة بما يناسبها، فكان افتتاح سورة ﴿صَّ﴾ في تقرير المبدأ، ثم قال تعالى في آخرها: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) لحكاية بدء الخلق؛ لأنه دليل الوجدانية، وكان افتتاح سورة ﴿قَ﴾ لبيان الحشر، ثم قال سبحانه في آخرها: ﴿يَوْمَ نَشْفُقُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ (١١) فاتفق بدء كل سورة مع خاتمها.

إنكار المشركين البعث والزّد عليهم

﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ④ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ⑤ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَاسَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ⑥ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ⑧ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑨ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ⑩ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ⑪﴾

القراءات:

﴿وَالْقُرْآنِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمة وقفاً (والقرآن).

﴿مِتْنَا﴾:

وهي قراءة نافع، وحفص، وحمة، وخلف، والكسائي.

وقرأ الباقون (مُتْنَا).

الإعراب:

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قسم، وجوابه: إما محذوف تقديره: (ليبعثن) أو جوابه ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ أي لقد علمنا، فحذفت اللام كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ④﴾ [الشمس: ٩٩/٩٠] أو يكون ما قبل القسم قام مقام الجواب على رأي من

يرى أن معنى «قَ»: قضي الأمر، وهو الذي قام مقام الجواب، ودلَّ «قَ» عليه. والمعنى: أقسم بالقرآن أنك جئتكم منذراً بالبعث، فلم يقبلوا بل عجبوا، وهو إضراب إبطالي.

«أَوَدَا مَتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا» عامل (إذا) فعل مقدر دلَّ عليه الكلام، تقديره: أنبعث إذا متنا وكنا تراباً، ولا يعمل فيه «مَتَنَا» لأنه محل مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف.

«الْأَرْضُ» معطوف على موضع «إِلَى السَّمَاءِ».

«تَبَصَّرَ وَذَكَرْنِي» منصوبان على المفعول لأجله.

«وَحَبَّ الْحَصِيدِ» تقديره: وحبَّ الزرع الحصيد، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

«بَاسِقَتِ» حال.

«رَزَقًا لِلْعِبَادِ» منصوب إما مفعول لأجله، أو منصوب على أنه مصدر.

البلاغة:

«فَقَالَ الْكَافِرُونَ» إظهار في موضع مفعول لأجله، أو منصوب على أنه مصدر.

«أَوَدَا مَتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا» استفهام إنكاري لاستبعاد البعث.

«بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ» إضراب عن الكلام السابق لبيان ما هو أشنع من التعجب، وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله.

«كَذَلِكَ الْخُرُوجُ» تشبيه مرسل مجمل، شبه إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة.

المفردات اللغوية:

﴿قَ﴾ حرف هجاء، يقرأ هكذا: قاف، بإسكان القاف. للتنبيه على إعجاز القرآن وعلى خطورة ما يتلى بعده من الأحكام والأحداث. قال أبو حيان: ﴿قَ﴾: حرف هجاء، وقد اختلف المفسرون في مدلوله على أحد عشر قولاً متعارضة، لا دليل على صحة شيء منها، فأطرحنا نقلها في كتابي هذا.

﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن ذي المجد والشرف على سائر الكتب، ولكثرة ما فيه من الخير الدنيوي والأخروي، قال الراغب: المجد: السعة في الكرم. ﴿بَلْ يَحْيُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس يعجب، وهو أن ينذرهم ويخوفهم بالنار بعد بعث رسول من أنفسهم ومن جنسهم. ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي هذا الإنذار، وهو حكاية لتعجبهم، قال البيضاوي: وهذا إشارة إلى اختيار الله تعالى محمداً ﷺ للرسالة، وإضمار ذكرهم، ثم تسجيل الكفر عليهم بذلك.

﴿إِذَا مِتْنَا﴾ أي أنبعث أو نرجع إذا متنا. ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك البعث بعث أو رجوع بعد الموت في غاية البعد عن التصديق والإمكان والعادة. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ تأكل من أجسادهم بعد موتهم، وهو رد لاستبعادهم. ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ هو اللوح المحفوظ، والحافظ لجميع الأشياء المقدرة وتفصيلها كلها، وهو تأكيد لعلمه بما يحدث.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ أي بالنبوة الثابتة بالمعجزات وبالقرآن. ﴿فَهُمْ﴾ في شأن القرآن والنبي ﷺ ﴿فِي أَمْرِ مَرِيجٍ﴾ مضطرب، وهو قولهم تارة: إنه شاعر وشعر، وتارة: إنه ساحر وسحر، وتارة: إنه كاهن وكهانة.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله

تعالى في خلق العالم . ﴿كَيْفَ بَيَّنَّهَا﴾ رفعناها بلا عمد . ﴿وَرَزَقْنَاهَا﴾ بالكواكب . ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ شقوق وفتوق تعييبها .

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها أي بحسب نظر الإنسان الجزئي إلى الموقع الجغرافي الذي يعيش فيه ، لا بالنظرة الكلية الشاملة للأرض ، فهي كروية ، كما أثبت العلم القديم والحديث ، وبخاصة بعد غزو الفضاء وإطلاق الصواريخ ورؤية رواد الفضاء أنها كرة معلقة في هذا الكون . ﴿رُوسَى﴾ أي جبلاً ثوابت لحفظ الأرض من الاضطراب . ﴿زُوجٍ﴾ صنف من النبات ﴿بِهَيْجٍ﴾ حسن مبهج .

﴿تَصِيرَةً وَذِكْرَى﴾ تبصيراً منا وتذكيراً ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ رجاء إلى طاعة الله وتوابع ، متفكر في بدائع صنع الله تعالى . ﴿مَاءً مُبْرَكًا﴾ كثير الخير والبركة والمنافع . ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذات أشجار وأثمار . ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي حب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالتر والشعير وغيرهما . و ﴿الْحَصِيدِ﴾ المحصود .

﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً . ﴿طَلْعٍ﴾ ما ينمو ويصير بلحاً ، ثم رطباً ، ثم تمراً . ﴿نَضِيدٍ﴾ منضود ، مترابك بعضه فوق بعض . ﴿زَرْقًا لِلْعَبَادِ﴾ علة لـ ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ ، أو مصدر فإن الإنبات رزق . ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء . ﴿بَلَدَةً مَّيِّنًا﴾ أرضاً جذباء لا غناء فيها ، والميئ : يستوي فيه المذكر والمؤنث . ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي من القبور ، والمعنى كما أحييت هذه البلدة بالماء ، يكون خروجكم أحياء بعد موتكم .

التفسير والبيان :

﴿قَ﴾ عرفنا أنها حرف هجاء ، لتحدي العرب بأن يأتوا بمثل القرآن أو آية منه ما دام القرآن مكوناً من حروف لغتهم التي ينطقون بها ويكتبون بها ، وهي أيضاً للتنبيه إلى أهمية ما يأتي بعدها ، وأكثر ما جاء القسم بحرف واحد إذا أتى بعده وصف القرآن ، كما أن أغلب القسم بالحروف ذكر بعده القرآن أو الكتاب أو التنزيل .

وذكر الرازي تصنيفاً دقيقاً للقسم من الله بالحروف الهجائية وغيرها، وهو بإيجاز ما يأتي^(١):

أ - وقع القسم من الله بأمر واحد، مثل ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (١) ﴿وَالنَّجْمِ﴾ ويجرف واحد مثل: ﴿صَّ﴾، و﴿تَّ﴾.

ب - ووقع بأمرين، مثل: ﴿وَالضُّحَى﴾ (١) ﴿وَاللَّيْلِ﴾، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١) ويجرفين مثل: ﴿طه﴾ (١)، ﴿طس﴾، ﴿يس﴾ (١)، ﴿حم﴾ (١).

ج - ووقع بثلاثة أمور، مثل: ﴿وَالصَّفَّاتِ﴾ (١) ﴿فَالزَّجَرِ﴾ (١) ﴿فَاللَّيْلِ﴾، وبثلاثة أحرف، مثل: ﴿المر﴾ (١)، ﴿طسم﴾ (١)، ﴿الرَّ﴾.

د - وبأربعة أمور، مثل: ﴿وَالذَّارِيَةِ﴾ (١) ﴿فَالْحَمْدِ﴾ (١) ﴿فَالْبَحْرِ﴾ (١) ﴿فَالْمَقْسَمِ﴾، وفي: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (١) وفي: ﴿وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (١)، وبأربعة أحرف، مثل: ﴿القص﴾ (١) أول الأعراف ﴿المر﴾ أول الرعد.

هـ - وبخمسة أمور، مثل: ﴿وَالْطُّورِ﴾ (١)، وفي: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾، وفي: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾، وفي: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ (١)، وبخمسة أحرف، مثل: ﴿كَهَيِّضٍ﴾ (١)، ﴿حم﴾ (١) ﴿عسق﴾ (١). ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا في سورة واحدة وهي: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (١) ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول؛ منعاً من الاستثقال.

وفي القسم قد يذكر حرف القسم وهي الواو، مثل: ﴿وَالطُّورِ﴾ (١)، ﴿وَالنَّجْمِ﴾، ﴿وَالشَّمْسِ﴾ وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم، فلم يقل

(١) تفسير الرازي: ١٤٦/٢٨ وما بعدها.

و﴿قَ﴾، و﴿حَمَّ﴾ لأن القسم لما كان بالحروف نفسها كان الحرف مقسماً به.

وأقسم الله بالأشياء كالتيين والطور وأقسم بالحروف من غير تركيب. وأقسم بالحروف في أول ثمان وعشرين سورة، ولم يوجد القسم بالحروف إلا في أوائل السور، وأقسم في أربع عشرة سورة عدا ﴿وَالْتَمِمْ﴾ بأشياء عددها عدد الحروف، في أوائل السور وفي أثنائها، ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ (٢٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ (٢٣)، ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (٢٤)، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ (٢٥).

ووقع القسم بالحروف في نصفي القرآن، بل في كل سبع، وبالأشياء المعدودة لم يوجد إلا في النصف الأخير والسبع الأخير غير ﴿وَالصَّفَّاتِ﴾.

﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ القرآن مقسم به، والمقسم عليه محذوف، أي أقسم بالقرآن الكريم كثير الخير والبركة، أو الرفيع القدر والشرف، أنك يا محمد جنتهم منذراً بالبعث. دل على جواب القسم المذكور مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وهذا كثير في القرآن، مثل: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (٢).

﴿بَلِ عِيبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٣) أي عجب كفار قريش، لأن جاءهم منذر، هو واحد منهم أي من جنسهم، وهو محمد ﷺ، فلم يكتفوا بمجرد الشك والرد، بل جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، فقالوا: كون هذا الرسول المنذر بشراً مثلنا شيء يدعو إلى العجب، وهو كقوله جل جلاله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢/١٠]، أي وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

وتعجبوا أيضاً من البعث فقالوا كما حكى القرآن:

﴿أَفَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٢) أي أنبعث ونرجع أحياء إذا متنا وتفرقت أجزاءنا في الأرض وبلينا وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعدئذٍ إلى هذه البنية والتركيب؟ إن ذلك البعث والرجوع بعيد الوقوع عن العقول؛ لأنه غير ممكن في زعمهم، وغير مألوف عادة.

فردّ الله تعالى عليهم مبيّناً قدرته على البعث وغيره، فقال:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيطٌ﴾ (٣) أي علمنا علماً يقينياً ما تاكل الأرض من أجسادهم حال البلى، ولا يخفى علينا شيء من ذلك، فإننا ندرى أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أي شيء صارت؟ وعندنا كتاب حافظ شامل لعددتهم وأسمائهم وتفاصيل الأشياء كلها، وهو اللوح المحفوظ الذي حفظه الله من التغير ومن الشياطين. أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «كلُّ ابنِ آدم يأكله التراب إلا عَجَبَ الذنْب ومنه خلق ومنه يرْكَبُ».

والأصح في تقديري أن هذا تقريب لأذهاننا وتمثيل لإحاطة علم الله تعالى بجميع الأشياء والكائنات، وإحصائه كل الوقائع والأعمال، كمن عنده سجل حسابات لكل شاردة وواردة. ولا يمنع ذلك وجود اللوح المحفوظ الذي نؤمن به لوروده في آيات كثيرة أخرى. والآية إشارة إلى جواز البعث وقدرته تعالى عليه.

ثم أبان الله تعالى سبب كفرهم وعنادهم وما هو أشنع من تعجبهم من البعث، وهو تكذيبهم بآيات الله تعالى ورسوله ﷺ، فقال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِآلِ حَقٍّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ (٤) أي إن كفار قريش في الحقيقة كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ الثابتة بالمعجزات، إنهم كذبوا (بالقرآن وبالنبوة) بمجرد تبليغهم به من قبل الرسول ﷺ، من غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان نظر، فهم في أمر دينهم في أمر مختلط مضطرب، يقولون مرة

عن القرآن والتَّيِّ: ساحر وسحر، ومرة: شاعر وشعر، ومرة: كاهن وكهانة، فهم في قلق واضطراب ولئس، لا يدرون ماذا يفعلون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ قَوْلِ مُخْلِيفٍ ۝٨ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنَ أَفَكَ ۝٩﴾ [الذاريات: ٨/٩-٩].

ثم أقام الله تعالى الدليل على قدرته العظيمة على البعث وغيره، على حقيقة المبدأ والمعاد، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٦﴾ أي أفلم ينظر هؤلاء الكفار بأم أعينهم، المكذبون بالبعث بعد الموت، المنكرون قدرتنا العظمى، إلى هذه السماء بصفاتها العجيبة، فهي مرفوعة بغير أعمدة تعتمد عليها، ومزينة بالكواكب المنيرة كالمصابيح، وليس فيها شقوق وفتوق وصدوع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [المك: ٣/٤-٤] أي يرجع كليلاً عن أن يرى عيباً أو نقصاً. وقوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ مزيد توبيخ لهم، ونداء عليهم بغاية العباوة.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾ أي وكذلك، أو لم ينظروا إلى الأرض التي بسطناها ووسعناها، وألقينا فيها جبلاً ثوابت لثلاث تميم بأهلها وتضطرب، وأنبتنا فيها من كل صنف ذي بهجة وحسن منظر، من جميع الزروع والثمار والأشجار والنباتات المختلفة الأنواع، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩﴾ [الذاريات: ٤٩/٥١].

﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨﴾ أي فعلنا ذلك لتبصرة العباد وتذكيرهم، فيتبصر بكل ما ذكر ويتأمل العبد المنيب الراجع إلى ربه وطاعته، ويفكر في بدائع المخلوقات.

ثم أوضح الله تعالى كيفية الإنبات، فقال:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝١٠﴾ أي لينظروا إلى قدرتنا كيف أنزلنا من السحاب ماء المطر الكثير المنافع، المنبت للنباتين الكثيرة الخضراء والأشجار المثمرة، وحبّات الزرع الذي يحصد ويقتات كالقمح والشعير ونحوهما.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١١﴾ أي وأنبتنا به أيضاً النخيل الطوال الشاهقات، التي لها طلع (وهو أول ما يخرج من ثمر النخل) منضد متراكم بعضه على بعض، والمراد كثرة الطلع وتراكمه الدال على كثرة التمر.

وفائدة إعادة هذا الدليل بعد المذكور في الآية السابقة: هو أن قوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ استدلال بالنبات نفسه، أي الأشجار تنمو وتزيد، فكذاك بدن الإنسان بعد الموت ينمو ويزيد، بأن يرجع إليه قوة النشوء والنماء كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء.

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝١٢﴾ أي أنبتنا كل ما ذكر للرزق، أي إن إنبات النباتات والأشجار والنخيل، ليكون أرزاقاً وأقواتاً للعباد. وأحيينا بالماء بلدة مجدبة، لا ثمار فيها ولا زرع، وإن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة، فكما أن هذا مقدور الله، فذلك أيضاً مقدور له. وهذا تشبيه قريب الإدراك، ومن واقع الحياة الملحوظة المجاورة للإنسان، وهو أيضاً تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث في مقدور القدرة الإلهية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

أ - القرآن كثير الخير والمنفعة عظيم المجد والقدر والرفعة، وقد أقسم الله به للدلالة على ما فيه من الخيرات.

٢ - لقد تعجب الكفار من قریش من أمرين: إرسال رسول بشر يخوفهم من عذاب الله من جنسهم وهو محمد ﷺ، وإمكان حدوث البعث والمعاد والرجوع إلى الحياة بعد الموت مرة أخرى.

٣ - إن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وعالم بكل شيء، فهو سبحانه قادر على إحياء الموتى، عالم بما تقول إليه الأجساد من ذرات متفتتة وعظام بالية، ولا يشبهه عليه جزء أحد على الآخر، وقادر على جمعها وتأليفها وإحيائها مرة أخرى، كما خلق الناس جميعاً في مبدأ الأمر من التراب: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾ [طه: ٥٥/٢٠].

٤ - إن سبب تكذيب الكفار بالبعث وبالمعاد وعنادهم: هو تكذيبهم بالحق الثابت الذي لا شك فيه، وهو القرآن الكريم المنزل من عند الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والنبوة الثابتة بالمعجزات، فصاروا في أمر دينهم في قلق واضطراب.

٥ - الأدلة على قدرة الله تعالى العظيمة لإثبات البعث وإمكانه كثيرة، منها خلق الكون المشتمل على السماوات المبنية بغير أعمدة، المزينة بالكواكب المنيرة، الخالية من الشقوق والصدوع، والمتضمن الأرض البديعة الجميلة التي بسطها الله لتصلح للعيش الهنيئ المريح، وثبتها بالجبال الراسخات الشاخصات، وأنبت فيها النباتات والأشجار ذات الألوان المختلفة والأشكال العجيبة والروائح العطرة والثمار الطيبة الياقة.

فعل الله ذلك تبصيراً وتنبهاً للعباد على قدرته، وتذكيراً لكل عبد راجع إلى الله تعالى، مفكراً في قدرته.

٦ - ومن أدلة القدرة الفائقة لله تعالى إنزال المطر الكثير البركة والنفع من السحاب، الذي أنبت به البساتين، والحبوب المحصودة زروعها، المقتاتة على

مدار العام، والنخيل الطوال الشاهقات ذات الطلع (وهو أول ما يخرج من ثمر النخل).

٧ - وكما أحيا الله هذه الأرض الميتة، فكذلك يخرج الناس أحياء بعد موتهم. وهذا دليل الإبقاء للأشياء المخلوقة بعد ذكر دليل الإحياء، فأبان تعالى أولاً أنه يحيي الموتى، ثم بين أنه يقيهم.

والخلاصة: أن الآيات اشتملت على أدلة أربعة على جواز البعث وإمكانه، وهي علم الله تعالى الشامل بمصير الأجساد بعد موتها، وخلق السماوات وتزيينها بالكواكب وتسويتها دون شقوق أو صدوع، وخلق الأرض وما فيها من جبال وأنهار ونباتات وحيوانات، وإنزاله المطر من السحاب وإخراج النبات، وهذا دليل مما بين السماء والأرض.

ويلاحظ أنه تعالى ذكر في كل آية ثلاثة أمور متناسبة، ففي آية السماء ذكر البناء والتزيين وسدّ الفروج، وفي آية الأرض ذكر المدّ وإلقاء الرواسي والإنبات فيها، وكل واحد هنا في مقابلة واحد مما سبق، فالمدّ في مقابلة البناء؛ لأن المدّ وضع والبناء رفع، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة مزينة لها، والإنبات في الأرض شقّها. وفي آية المطر ذكر إنبات الجنات والحبّ والنخل، وهذه الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة: وهي ما له أصل ثابت يستمر مكثه في الأرض سنين وهو النخيل، وما ليس له أصل ثابت مما لا يطول مكثه في الأرض وهو الحبّ ويتجدد كل سنة، وما يجتمع فيه الأمران وهو البساتين، وهذه الأنواع تشمل مختلف الثمار والزروع^(١).

(١) تفسير الرازي: ٢٨/١٥٦، ١٥٨

التذكير بحال المكذبين الأولين

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ تُسَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَّنَّا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴿١٥﴾ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

الفردات اللغوية:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أنث الفعل ﴿كَذَّبَتْ﴾ بمعنى قوم ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ أصحاب بئر لم تُظَوَّ أي لم تبين، كانوا مقيمين عليها بمواشيهم، يعبدون الأصنام، وهم قوم باليماة، وقيل: أصحاب الأخدود، ونيهم المزعوم: حنظلة بن صفوان أو غيره ﴿وَأَصْحَابُ الْآيَةِ﴾ الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر، وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿وَقَوْمُ تُسَّعٍ﴾ الحِميري ملك اليمن، أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، فكذبوه ﴿كُلُّ﴾ من المذكورين، أي كل واحد أو قوم منهم، أو جميعهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أفراد الضمير لإفراد لفظه ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ وجب نزول العذاب على الجميع، وحل عليهم وعيدي. وفيه تسليية للرسول ﷺ وتهديد لهم، أي فلا يضيق صدرك من كفر قريش بك.

﴿أَفَعَيَّنَّا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أفعجزنا على الإبداء حتى نعجز عن الإعادة؟ لم نعي به، فلا نعيًا بالإعادة، من العي عن الأمر: العجز عنه ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بل هم في شك وحيرة من البعث، أي هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، بل هم في خلط وشبهة من خلق مستأنف، لما فيه من مخالفة العادة. وتنكير كلمة ﴿خَلْقٍ﴾ لتعظيم شأنه والإشعار بأنه على وجه غير متعارف ولا معتاد.

المناسبة:

بعد بيان تكذيب مشركي قريش والعرب للنبي ﷺ، ذكرهم الله تعالى

وهدهم بما عاقب به أمثالهم من المكذبين قبلهم في الدنيا كقوم نوح وغيرهم، تسلياً لرسول الله ﷺ. ثم ذكر تعالى دليلاً جديداً على البعث وهو خلق الأنفس في بداية أمر الخلق.

التفسير والبيان:

﴿كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَنَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾﴾ أي إن الله سبحانه هدد كفار قريش بأن يعاقبهم بمثل ما عاقب به الأمم السابقة قبلهم، الذين كذبوا رسلهم، فعذبهم الله إما بالطوفان كقوم نوح عليه السلام، أو بالغرق في البحر كقوم فرعون، أو بريح صرصر عاتية كعاد قوم هود، أو بالريح الحاصب التي تأتي بالحصباء وخسف الأرض وهم قوم لوط، أو بالصيحة وهم ثمود وأهل مدين وأصحاب الرس وأصحاب الأيكة قوم شعيب، أو بالخسف وهو قارون وأصحابه.

والسبب أن كلاً من هذه الأمم كذب رسوله الذي أرسله الله إليه، فوجب عليهم ما أوعدهم الله تعالى، وحقَّت عليهم كلمة العذاب على التكذيب، فليحذر المخاطبون أن يصيهم مثلما أصاب هؤلاء الأقوام، لاشتراكهم في العلة، وتكذيبهم رسولهم كما كذب أولئك رسلهم.

ثم ذكر الله تعالى دليلاً على إمكان البعث من الأنفس، فقال:

﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ أي أفعجزنا بالخلق المبتدأ الأول حين خلقناهم ولم يكونوا شيئاً، أو بابتداء الخلق، فكيف نعجز عن بعثهم وإعادةهم مرة أخرى؟!

الحق أننا لم نعجز، والإعادة أسهل من الابتداء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧/٣٠] وقال جل

جلاله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩/٣٦].

وجاء في الحديث القدسي الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته».

وإنما هم في شك وحيرة واختلاط من خلق مبتدأ مستأنف، وهو بعث الأموات، فهم معترفون بأن الله هو مبدئ الخلق أولاً، فلا وجه لإنكارهم البعث. وهذا توبيخ للكفار وإقامة الحجة الواضحة عليهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذا تهديد لكفار قريش وأمثالهم بأحوال الأمم السابقة، وقد تكرر ذلك في القرآن مراراً، لتأكيد العبرة والعظة، فإن من كذب رسول الله ﷺ استحق مثل عقاب الأمم الذين كذبوا رسلهم، فهو تذكير بأنباء من قبلهم من المكذبين، وتخويف بما أصابهم من العذاب الأليم في الدنيا.

وفيه أيضاً تسلية للنبي ﷺ حتى لا يضيق صدره بتكذيب قومه له، وكفرهم برسالته. وفي الآيات إشارة إلى أن الرسل جميعاً جاؤوا بالتوحيد وبإثبات البعث.

ثم وثَّع الله تعالى منكري البعث، وأجاب عن قولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ بأنه هل عَجَزَ الله عن ابتداء الخلق حتى يعجز عن إعادته؟ وهذا دليل من الأنفس مضاف إلى الأدلة السابقة من الآفاق على صحة البعث وإمكانه عقلاً وعادة، فالذي لم يعجز عن الخلق الأول، كيف يعجز عن الإعادة؟!.

والحقيقة أنهم في حيرة من البعث والحشر، منهم المصدِّق، ومنهم المكذِّب، وليس تكذيب المكذِّبين إلا كفرًا وعنادًا.

تقرير خلق الإنسان وعلم الله بأحواله

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾
 ﴿١٧﴾ إِذْ يَتَلَفَّى التَّتَلَفِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٨﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
 عَنِدٌ ﴿١٩﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
 ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢١﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَهِيدٌ ﴿٢٢﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ
 مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٣﴾

الإعراب:

﴿وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾: ﴿وَنَعَلَهُ﴾: في محل حال، أي نحن نعلم.
 و﴿مَا﴾: اسم موصول بمعنى الذي، و﴿تُوَسَّوِسُ﴾: صلتته، و﴿بِهِ﴾: في
 موضع نصب متعلق بصلة الموصول، وهاء ﴿بِهِ﴾ تعود على ﴿مَا﴾.

﴿إِذْ يَتَلَفَّى﴾: ﴿إِذْ﴾: ظرف، منصوب بـ اذكر مقدراً.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: ﴿قَعِيدٌ﴾: إما خبر عن الأول أو عن الثاني،
 فإن كان عن الأول فأشعر اتساعاً، وحذف من الثاني لدلالة الأول عليه، وإن
 كان عن الثاني، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه. أو هو خبر عن الاثنين،
 ولا حذف في الكلام، في قول الفراء.

﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾: ﴿سَائِقٌ﴾: إما مبتدأ، وخبره ﴿مَعَهَا﴾ والجملة في موضع
 جر؛ لأنها صفة لـ ﴿نَفْسٍ﴾ أو مرفوع بالظرف.

البلاغة:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ استعارة تمثيلية، مثل الله تعالى علمه
 بأحوال العبد بجبل الوريد القريب من القلب، للدلالة على القرب بطريق
 الاستعارة.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ حذف بالإيجاز، أصله عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه. وبين ﴿الْيَمِينِ﴾ ﴿الشِّمَالِ﴾ طباق.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ استعارة تصريحية، استعار لفظ السكره لهول الموت وشدته.

﴿الْوَرِيدِ﴾، ﴿فَيْدٌ﴾، ﴿عَبِيدٌ﴾، ﴿نَجِيدٌ﴾، ﴿الْوَعِيدِ﴾، ﴿وَشَهِيدٌ﴾، ﴿حَلِيدٌ﴾ توافق فواصل وسجع غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿تُوسِشُ﴾ تحدث، من الوسوسة: الصوت الخفي، ومنها وسواس الحلي والمراد: ما يخطر بالبال أو حديث النفس ﴿جَلَّ الْوَرِيدُ﴾ العرق في صفحة العنق، ولكل إنسان وريدان، والإضافة لليان ﴿إِذْ﴾ أي اذكر حين ﴿يَنْلَقَى﴾ التَّلَفِّيَّانِ يأخذ ويثبت الممكان الموكلان بالإنسان ما يعمله ﴿فَيْدٌ﴾ مقاعد، كجلس بمعنى مجالس.

﴿رَفِيبٌ﴾ ملك يرقب قوله وعمله ويكتبه ويحفظه ﴿عَبِيدٌ﴾ حاضر مهياً لكتابة الخير والشر، فملك اليمين يكتب الخير، وهو أمير على كاتب السيئات، وملك الشمال يكتب الشر ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ شدته التي تذهب بالعقل ﴿بِالْحَقِّ﴾ بحقيقة الأمر ﴿ذَلِكَ﴾ الموت ﴿مَا كُنْتُ مِنْهُ نَجِيدٌ﴾ تهرب وتفزع وتميل عنه، والخطاب للإنسان.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي نفخة البعث ﴿ذَلِكَ﴾ النفخ ﴿يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ أي يوم إنجاز الوعيد وتحقيقه للكفار بالعذاب ﴿وَجَاءَتْ﴾ فيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ إلى المحشر ﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملكان أحدهما يسوقها إلى أمر الله، والآخر يشهد على النفس بعملها.

﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ الذي ينزل بك ﴿عِطَاءَكَ﴾ الغطاء الحاجب لأمر المعاد، وهو الغفلة والانهماك في ملذات الدنيا ﴿فَصَرُّكَ الْيَوْمَ حَرِيذٌ﴾ حاد نافذ تدرك به ما أنكرته في الدنيا.

للناسبة:

بعد أن أقام الله تعالى الأدلة الساطعة على إمكان البعث في الآفاق والأنفس، شرع في تقرير خلق الإنسان الدال على شمول علم الله تعالى، وعظيم قدرته على بدئه وإعادة. ثم أخبر عن انكشاف الحقيقة بالموت، وإتيان ملكين بكل نفس يوم القيامة للسوق إلى المحشر والشهادة عليها، ورفع حجاب الغفلة عن كل إنسان، وإدراكه أحوال المعاد والمحشر.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١١) أي تالله لقد أوجدنا الإنسان (وهو اسم جنس) ونعلم بجميع أموره، حتى ما يختلج في سره وقلبه وضميره من الخير والشر، ونحن أقرب إليه من حبل وريده، فكيف يخفى علينا شيء مما في قلبه، فقله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ معناه أن الله تعالى لا يحجب عنه شيء، وقال ابن كثير: يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده.

فهذا إخبار من الله تعالى بأنه خلق الإنسان، وأن علمه محيط بجميع أموره، حتى ما يجول في خاطره، وحتى حديث النفس، وأنه لا يخفى عليه شيء من أحواله. لكن لا عقاب على حديث النفس؛ لقوله ﷺ في الصحيح: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به»^(١).

(١) أخرجه أصحاب الكتب الستة (البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) عن أبي هريرة، وأخرجه الطبراني عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

والآية لإقامة الحجج على الكفار في إنكارهم البعث.

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه بما في قلب ابن آدم وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله، إلزاماً للحجة، فقال:

﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۖ﴾ أي ونحن أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الملكان الحفيظان ما يتلفظ به وما يعمل به، فيأخذان ذلك ويثبتانه، عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، والقعيد: من يقعد معك. فملك اليمين يكتب الحسنات، وملك الشمال يكتب السيئات.

جاء في الحديث عن أبي أمامة: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات، لعله يسبح أو يستغفر»^(١).

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۖ﴾ أي ما يتكلم ابن آدم من كلمة إلا ولها من يرقبها، وهو حاضر معدّ لذلك، يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَثِيرِينَ ۖ يَكَلِمُونَ مَا تَقُولُونَ ۚ﴾ [الانفطار: ١٠٢-١٠٣]. الرقيب: المتبع للأمور، والحافظ لها، والعتيد: الحاضر الذي لا يغيب والمهيأ للحفظ والشهادة.

وظاهر الآية أن الملك يكتب كل شيء من الكلام، وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب. يؤيد الأول الحديث الحسن الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما

(١) ذكره الزمخشري والقرطبي والبيضاوي، وروى ابن أبي حاتم عن الأحنف بن قيس مثل ذلك، فقال: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهأ أن يكتبها، وإن أبى كتبها.

بلغت، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة^(١) فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعني حديث بلال بن الحارث. قال الحسن البصري وقتادة: يكتبان جميع الكلام، فيثبت الله تعالى من ذلك الحسنات والسيئات، ومحو غير ذلك.

وقال الحسن البصري، وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك، فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا ميت، طويت صحيفتك، وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْفِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ثم يقول: خَدَل، والله، فيك من جعلك حسيب نفسك.

وبعد بيان إنكارهم للبعث والرد عليهم بإخبارهم عن قدرته وعلمه، أخبرهم الله تعالى عن ملاقة صدق ذلك حين الموت وحين القيامة، وعن قرب القيامتين: الصغرى والكبرى، فقال عن الأولى:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٥) أي يا أيها الإنسان، جاءت شدة الموت وغمرته التي تغشي الإنسان، وتغلب على عقله ببيان اليقين الذي يتضح له الحق، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الأخبار بالبعث والوعد والوعيد، والذي كنت تمتري فيه، ذلك الموت أو ذلك الحق الذي كنت تميل عنه وتفر منه. والخطاب للإنسان على طريق

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وله شاهد في

الالتفات في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ إذا فسر ب: ذلك الموت، والخطاب للفاجر إذا فسر ب: ذلك الحق.

والباء في ﴿بِالْحَقِّ﴾ للتعدي، أي أحضرت السكرة حقيقة الأمر وجلية الحال، من تحقق وقوع الموت، أو من سعادة الميت أو ضدها، كما نطق بها الكتاب والسنة.

جاء في الحديث الصحيح عن عائشة عن النبي ﷺ: أنه لما تغشاه الموت، جعل يمسح العرق عن وجهه، ويقول: «سبحان الله، إن للموت لسكرات».

ثم قال الله تعالى مخبراً عن القيامة الكبرى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي ونفخ في الصور نفخة البعث، ذلك الوقت الذي يكون عظيم الأهوال هو يوم الوعيد الذي أوعده الله به الكفار بالعذاب في الآخرة.

جاء في الحديث الثابت: أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحتى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟ قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال ﷺ: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل».

﴿وَحَاجَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي وأتت كل نفس من نفوس البشر، بالبدن والروح، معها ملك يسوقها إلى المحشر، وملك يشهد عليها أو لها بالأعمال من خير أو شر.

ويقال للإنسان حينئذ:

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي يقال للكافر أو لكل أحد من بر وفاجر: لقد كنت في الدنيا غافلاً عن هذا

المصير وهذا اليوم، فرفعنا عنك الحجاب الذي كان لديك، والذي كان بينك وبين أمور الآخرة، فبصرك اليوم قوي نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في حياتك، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً مصيره، ومدركاً ما أنكره في الدنيا.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - إن خلق الله تعالى الإنسان، وعلمه بكل ما يصدر منه حتى حديث النفس، دليل على قدرته تعالى على البعث، وإعادة الناس أحياء يوم القيامة.

٢ - إن علم الله بالإنسان وغيره شامل، لا يخفى عليه شيء، ولا يحجب عنه شيء، وقد مثل تعالى قربه من الإنسان بأنه أقرب إليه من حبل الوريد، وهو مجاز يراد به قرب علمه منه، وشمول معلومه عنه، وليس المراد قرب المسافة. قال القشيري في آية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: في هذه الآية هبة وفزع وخوف لقوم، ورؤح وأنس وسكون قلب لقوم.

٣ - إن الله تعالى أعلم بأحوال الإنسان من غير وساطة ملك، فهو لا يحتاج إلى ملك يخبر، ولكن توكيل ملكي اليمين والشمال بكل إنسان للإلزام بالحجة، وتوكيد الأمر عليه.

٤ - يحصي الملكان كل شيء من أقوال الإنسان وأعماله، فما يتكلم بشيء إلا كتبت عليه، وما يفعل من شيء إلا دُون عليه، قال أبو الجوزاء ومجاهد: يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه.

٥ - ما دام الإنسان حياً يكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها، ثم يحية الموت ويدرك الحق: وهو ما يراه عند المعايمة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده، ويقال لمن جاءته سكرة الموت: ذلك ما كنت تفر منه وتهرب.

٦ - إذا نفخ في الصور النفخة الآخرة للبعث، فذلك اليوم الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه.

٧ - يصحب كل إنسان يوم القيامة ملكان: سائق يسوقه إلى المحشر، وشاهد يشهد له وعليه بأعماله. قال أبو حيان: والظاهر أن قوله: ﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ اسما جنس، فالسائق ملائكة موكلون بذلك، والشهيد: الحفظة وكل من يشهد.

٨ - يقال للإنسان البر والفاجر يوم القيامة: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من عواقب الأمور، فاليوم تتيقظ وتبصر ما لم تكن تبصره من الحقائق، وما لم تكن تصدق به في الدنيا، وتتغافل عن النظر فيه، كالإيمان بالله وحده لا شريك له، والتصديق برسوله، وبالبعث والمحشر والحساب.

الحوار بين الكافر وقرينه الشيطان يوم القيامة

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ۖ أَلَيَّا فِي جَهَنَّمَ ۖ كُلُّ كَفَّارٍ عِنْدِي ۖ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُّعْتَدٍ ثَرِيحٌ ۖ ۝٢٥ أَلَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۖ ۝٢٦﴾
 ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُمْ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۖ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ۖ ۝٢٨ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْبَعِيدِ ۖ ۝٢٩ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۖ ۝٣٠﴾

القراءات:

﴿نَقُولُ﴾:

وقرأ نافع (يقول).

الإعراب:

﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ «هذا»: مبتدأ، وخبره: ﴿مَا﴾ التي هي نكرة

موصوفة بمعنى شيء. و﴿عَيْدٌ﴾: إما خبر ثان، أو صفة لـ ﴿مَا﴾ أو بدل من ﴿مَا﴾

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ ﴿أَلْقِيَا﴾: الخطاب للسائق والشهيد، فهو خطاب لاثنتين، أو الخطاب للملك واحد هو مالك خازن النار؛ لأن من عادة العرب مخاطبة الواحد بلفظ الاثنتين، أو تشية ما يقال له: ألق ألق، أو ألقين بنون التوكيد الخفيفة، لكنه ضعيف؛ لأن مثل هذا يكون في الوقف على الكلام لا في الوصل.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ﴾ ﴿الَّذِي﴾: إما مرفوع على أنه مبتدأ ضمّن معنى الشرط، وخبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الذي، أو منصوب على أنه بدل من قوله تعالى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ أو منصوب بفعل مقدّر يفسره ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: ناصبه ظلام.

البلاغة:

بين قوله ﴿عَيْدٌ﴾ و﴿عَيْدٍ﴾ جناس ناقص لتغاير حرفي النون والتاء.

المفردات اللغوية:

﴿قَرِينٌ﴾ الملك الموكل به أو الشيطان الذي قبض له، والثاني أصح بدليل قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا﴾. ﴿عَيْدٌ﴾ مهياً معدّ لجهنم، حاضر لدي ﴿عَيْدٍ﴾ معاند للحق. ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمفروض كالزكاة، وقيل: المراد بالخير: الإسلام. ﴿مُعَذِّبٌ﴾ ظالم متعدّد للحق. ﴿مُرِيبٌ﴾ شاك في الله وفي دينه وأخباره.

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكرر للتأكيد. ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ الشيطان المقيض له في قوله تعالى: ﴿نَفِيسٌ لَّهُمَّ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمَّ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦/٤٣] ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُمُ﴾

أضلّته، كأن الكافر قال: هو أطعاني، فقال: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْقَيْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ بعيد عن الحق، أي فأعته على ضلاله، فإن إغواء الشيطان إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي، مائلاً إلى الفجور، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٢] .

﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ لا تتجادلوا عندي في موقف الحساب، فلا ينفع الخصام والجدال هنا. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ أخبرتكم في الدنيا وتقدمت إليكم في الكتب بالرسول بوعيدي بالعذاب في الآخرة، إذا لم تؤمنوا. ﴿وَمَا يُبَدِّلُ﴾ يغير. ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي فلا أعذب بغير جرم، وظلام: ذو ظلم، لقوله تعالى: ﴿لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ٤٠/١٧] .

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٢٠) زيادة، وهذا سؤال وجواب جيء بهما لتصوير ملء النار بالناس والجن، وهي من السعة بحيث يدخلها من يدخلها، ويبقى فيها فراغ بعدئذ.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٦-٢٤):

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ : قيل: نزلت الآيات في الوليد بن المغيرة، لما منع بني أخيه عن الخير وهو الإسلام.

المناسبة:

بعد بيان أحوال الناس يوم القيامة وعند الموت، ذكر الله تعالى صورة حوار بين الكافر وقرينه الشيطان، في يوم القيامة، لمعرفة مدى جناية الإنسان على نفسه، وزجها في نيران جهنم، وإصغائه لوساوس الشيطان وإغراءاته، وتأثره بها بسبب خلل رأيه، وضعف عقله، وميله إلى الفجور.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَيْنٌ﴾ (١٣) أي قال الملك الموكل به بابن آدم: هذا ما عندي من كتاب عملك معدّ محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته، واختار ابن جرير: أنه يعم السائق والشهيد.

وفسر الزمخشري القرين هنا بأنه هو الشيطان الذي قبض للإنسان في قوله تعالى: ﴿فَقَبَضَ لَهُمُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦/٤٣] ويشهد له قوله تعالى بعدئذ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَفْغَيْتُهُ﴾ يقول الشيطان: هذا شيء لدي وفي ملكتي عتيد لجهنم، والمعنى: أن ملكاً يسوقه، وآخر يشهد عليه، وشيطاناً مقروناً به يقول: قد اعتدته لجهنم وهيأته لها بإغوائي وإضلالي.

وقد رجحت الرأي الثاني؛ لأن الشيطان هو قرين كل فاجر، يقول لأهل الحشر، أو لسائر القراء، قد هيأت قريني لجهنم.

﴿أَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنٍ﴾ (١٤) مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (١٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢١) أي يقول الله تعالى للسائق والشهيد: اطرحا في جهنم كل من كفر بالله أو أشرك به شريكاً آخر، مكابر معاند للحق وأهله، كثير الكفر والتكذيب بالحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك.

وهو أيضاً كثير المنع للخير كالزكاة، ولا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا يبذل خيراً لأحد من قريب أو فقير بصلة رحم أو صدقة، ويمنع أقاربه عن الدخول في الإسلام، قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كما تقدم، كان يمنع بني أخيه من الإسلام، وكان يقول: من دخل منكم في الإسلام، لم أنفعه بخير ما عشت.

وهو متعدٍ على الناس بالفحش والأذى والبطش، متجاوز الحد في الإنفاق من ماله، ظالم لنفسه لا يقر بتوحيد الله؛ شك في الحق وفي أمره وفي دين الله، ومشكك غيره.

لكل هذا أكد الله تعالى إلقاءه في جهنم فقال للملكين، أو لملك خازن النار جرياً على عادة الكلام في مخاطبة الواحد ب خطاب الاثنين: فألقياه في النار ذات العذاب الشديد.

جاء في الحديث: «أن عنقاً من النار يبرز للخلائق، فينادي بصوت يسمع الخلائق: إني وُكِّلْتُ بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين، ثم تنطوي عليهم». وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج عُتُقُ من النار، يتكلم يقول: وُكِّلْتُ اليوم بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس، فتتنطوي عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم».

ثم ذكر الله تعالى صورة من الحوار بين الكافر والشیطان قرينه، فقال:

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٧) أي يقول الشيطان عن قرينه الذي وافى القيامة كافراً، متبرئاً منه: يا ربنا ما أضللتته أو أوقعته في الطغيان، بل كان هو في نفسه ضالاً، مؤثراً الباطل، معانداً للحق بعيداً عنه، فدعوته فاستجاب لي، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه، أي وكان الكافر يريد الاعتذار قائلاً: يا رب إن قريني الشيطان أطعاني، فأجاب القرين الذي قبض له وهو الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾

وهذا اعتراف بالحقيقة، كما قال الشيطان في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتٍ إِيَّاهُ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) [إبراهيم: ٢٢/١٤].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ (٢٨) أي قال الرب عز وجل لهما- للكافر وقرينه الشيطان: لا تتخاصموا ولا تتجادلوا عندي في موقف الحساب، فإني تقدمت إليكم في الدنيا بالإنذار والوعيد، وأعدت إليكم على السنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبراهين، والمراد أن اعتذاركم الآن غير نافع لدي.

وأضاف الله تعالى يرد آخر قائلاً:

﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (٢٩) أي قضيت ما أنا قاضٍ، ولا يغير حكمي وقضائي، ولا خلف لوعدي، بل هو كائن لا محالة، وقد قضيت عليكم بالعذاب بسبب كفركم، فلا تبديل له، ولا أعذب أحداً ظلماً بغير جُرم اجترمه أو ذنب اقترفه أو أذنبه بعد قيام الحجة عليه.

ثم أكد الله تعالى حلول العذاب في جهنم قائلاً:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ (٣٠) أي اذكر يا محمد لقومك وأنذرهم حين يقول الله تعالى لجهنم: هل امتلأت بالأفواج من الجنة والناس؟ فتنتطق جهنم وتجيبه قائلة: هل بقي شيء من زيادة تزيدوني بها؟ والمراد أنها اكتفت وامتلات بما ألقى فيها، أي لا أسع أكثر من ذلك فإني قد امتلأت^(١)، ويحتمل أنها تطلب الزيادة بعد امتلائها غيظاً على العصاة، وتضييقاً للمكان عليهم.

قال أهل المعاني: سؤال جهنم وجوابها من باب التخيل والتصوير الذي يقصد به تقرير وتصوير المعنى في النفس وتشبيته، وفيه معنيان كما تقدم:

(١) وعلى هذا يكون الاستفهام الأول للتقرير، فإله يقررها بأنها امتلأت، أي يجعلها تقر بذلك، والاستفهام الثاني بمعنى النفي، أي لا أسع غير ذلك، وهو جواب الاستفهام الأول.

أحدهما- أنها تمتلئ مع اتساعها، حتى لا يزداد عليها شيء، والثاني- أنها من السعة حيث يدخلها من يدخلها، وفيها موضع للمزيد^(١).

وقد أورد ابن كثير عدة أحاديث تؤيد مدلول الآية بالمعنى الأول وهو استكثارها الداخلين، لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١/١١٩] منها: ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُلْقَى في النار، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قَطَّ قَطَّ» أي كفى كفى.

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّت الجنة والنار، فقالت النار: في الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: في ضعفاء الناس ومساكينهم، فَقُضِيَ بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي، ولكل واحد منكما ملوؤها».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - يقدم الملك الموكل بالإنسان ما عنده من كتابة عمله المعد المحفوظ. ويقدم الشيطان قرناه فيقول: هذا العاصي معدّ عندي للجهنم، أعدته بالإغواء والإضلال.

٢ - إن من كبائر الأعمال الموجبة لعذاب جهنم: الكفر بالله والشرك به ومعاندة الحق ومكابرته، وإيثار الباطل وأهله، ومنع المال عن حقوقه، أو منع الناس عن الإسلام، وتجاوز الحد المعتدل في الإنفاق، والتكذيب بالحق، والشك في دين الله، وتشكيك الآخرين، وجعل شريك آخر معبود مع الله.

(١) الكشف: ١٦٣/٣.

٣ - يؤمر الملكان: السائق والشهيد بإلقاء الكافر العنيد المتصف بما ذكر في نار جهنم ذات العذاب الأليم الشديد، ويؤكد الله تعالى أمره بإلقاء الكفار.

٤ - كل من الشيطان والفاجر الكافر يلقي التبعة في كفره على الآخر ويتبرأ الشيطان من الكافر ويكذبه يوم القيامة، وينسب الطغيان والكفر له، لا لنفسه، والحق أن كلا الفريقين في النار، وقد أعذر من أنذر، والله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية الإنس والجن، فاختر كل منهما ما يحلو له.

٥ - يستحيل الظلم على الله تعالى، فهو سبحانه لا يعذب أحداً بغير جرم، ولا يعذب من لا يستحق العذاب، ولا يغير قضاءه المبرم، وحكمه العادل الذي حكم به.

٦ - يملأ الله تعالى جهنم بالكفار والمشركين والملحدين والماديين والعصاة حتى لا يبقى فيها موضع لزيادة، أو أنها تطلب الزيادة تغيظاً على الكفار، وتضييقاً للمكان عليهم.

حال المتقين

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٢١ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ۝٢٢ مَنْ حَتَّىٰ الرَّحْمَنَ بِالْقَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٢٣ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝٢٤ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٢٥﴾

القراءات:

﴿تُوعَدُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير (يوعدون).

﴿مُنِيبٌ ، ادْخُلُوهَا﴾:

كَسَرَ التَّنْوِينَ وَصَلًا: أَبُو عَمْرٍو، وَعَاصِمٌ، وَابْنُ ذَكْوَانَ، وَهَمَزَةٌ.

وَضَمَهُ الْبَاقُونَ.

الإعراب:

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ (٣٢) مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴿مَنْ﴾: إما بالجر على البدل من ﴿أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ وإما بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ على تقدير، يقال لهم: ادخلوها.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾: بدل من قوله ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، بإعادة الجار.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَزَلَفَتْ﴾ قُرِبَتْ لهم. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي في مكان غير بعيد منهم، بل هو بمرأى منهم، فهي منصوبة على الظرف، ويجوز أن تكون ﴿غَيْرَ﴾ حالاً، وذُكِرَتْ كلمة ﴿بَعِيدٍ﴾ لأنها صفة لشيء محذوف، أي شيئاً غير بعيد، أو لأن الجنة بمعنى البستان، أو على زنة المصدر كالزفير والصهيل، كما تقرر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦/٧].

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي يقال لهم: هذا ما توعدون، والإشارة إلى الثواب، أي هذا هو الثواب الذي وُعدتم به على ألسنة الرسل، ويقرأ أيضاً بالياء: (بوعدون). ﴿أَوَّابٍ﴾ كثير الرجوع إلى الله تعالى وطاعته. ﴿حَفِيفٍ﴾ كثير الحفظ أي حافظ لحدود الله وشرائعه.

﴿مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ من خاف عقاب الله، وهو غائب عن الأعين، فلم يره أحد. ﴿مُتَنِيْبٍ﴾ مقبل على طاعة الله. ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي يقال لهم: ادخلوها سالمين من كل خوف أو مسلماً عليكم من الله وملائكته. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي ذلك اليوم الذي حصل فيه الدخول يوم الخلود في الجنة؛ إذ لا

موت فيها، أي يوم تقدير الخلود، كقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣/٣٩].

﴿لَمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٢٥) أي زيادة، وهو ما لا يخطر ببالهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

المناسبة:

بعد بيان الحوار الذي يحصل يوم القيامة بين الكافر وقرينه من الشياطين، بين الله تعالى حال المتقين، جرياً على عادة القرآن بالمقارنة بين الأضداد، وإيراد الشيء بعد نقيضه، فيحذر الإنسان ويخاف، وبطمع ويتأمل ويرجو رحمة الله تعالى، وبه تم الجمع بين الترهيب والترغيب وبين الخوف والرجاء أو الطمع.

التفسير والبيان:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٢١) أي أدنيت وقربت لأهل التقوى تقريباً غير بعيد، أو في مكان غير بعيد، بل هي بمرأى منهم، يشاهدونها في الموقف، وينظرون ما فيها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِظٍ﴾ (٢٢) أي تقول الملائكة لهم: هذا النعيم الذي تروونه من الجنة هو ما وعدتم به في كتب ربكم وعلى ألسنة الرسل الذين أرسلهم الله لكم، وهذا الثواب بعينه هو لكل رجاء إلى الله تعالى وطاعته بالتوبة عن المعصية، والإقلاع عن الذنب، كثير الحفظ لحدود الله وشرائعه، ويحفظ العهد، فلا ينقضه ولا ينكته ولا يهمل شيئاً منه.

﴿مَنْ حَقَّقَ الرَّحْمَنُ بِالْعَقَبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (٢٣) أي ذلك المحافظ على الحدود، فلا يقربها: هو من خاف الله ولم يكن رآه، وخاف الله في سره حيث

لا يراه أحد إلا الله عز وجل، كقوله ﷺ في السبعة الذين يظلمهم في ظله يوم القيامة فيما أخرجه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة: «ورجل ذكر الله تعالى خالياً، ففاضت عيناه» أي: بالدموع.

وهو أيضاً من رجع إلى الله بقلب مخلص في طاعة الله، ولقي الله عز وجل يوم القيامة بقلب سليم إليه، خاضع لديه.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي ويقال لهم: ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب، ومن زوال النعم، ومن كل المخاوف، أو مسلماً عليكم من الله وملائكته، ذلك اليوم الذي تدخلون فيه هو يوم الخلود الدائم أبداً، الذي لا موت بعده، ولا تحوّل عنه.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي هؤلاء المتقين الموصوفين بما ذكر كل ما يريدون في الجنة، وتشتهيهم أنفسهم، وتلد أعينهم، من أنواع الخير، وأصناف النعم بحسب رغبتهم، فهما اختاروا وجدوا ومن أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم. ولدينا مزيد من النعم التي لم تخطر لهم على بال، ولا مرت لهم في خيال، كقوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/٢٦]. جاء في صحيح مسلم عن ضهيب بن سنان الرومي: أنها النظر إلى وجه الله الكريم.

فقه الحياة أو الاحكام

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - إن في وصف جهنم الملأى بالكفار والفجار والعصاة، وفي وصف الجنة المقربة المرتبة للمتقين تثبيتاً للإيمان بالبعث وتقوية له، وتحذيراً وتخويفاً من عمل أهل النار، وترغيباً في اقتفاء آثار وأعمال المؤمنين الذي يدخلون الجنة، كما أن في تقريب الجنة للمتقين وإدنائها لهم غير بعيدة عنهم إشعاراً لهم بتيسير الوصول إليها.

٢ - يؤكد الله تعالى الشعور بالنعمة والاطمئنان في الجنة للمتقين، فتقول الملائكة لهم: هذا الجزاء الذي وعدتم به في الدنيا على ألسنة الرسل.

٣ - أهل الجنة هم كل أوّاب رجّاع إلى الله عن المعاصي، حافظ لحدود الله وشرائعه، فيعمل بها ولا يتجاوزها ولا يتخطاها إلى غيرها، خائف من الله رب العزة، وإن لم يره، وجيل منه في سره وعلانيته، ينجي إلى ربه يوم القيامة بقلب منيب أي مقبل على الطاعة، محب لها، مرتاح بفعلها، غير متضجر بها.

٤ - تقول الملائكة للمتقين أهل الجنة: ادخلوها بسلام من العذاب ومن زوال النعم، ويسلام من الله وملائكته عليكم.

٥ - في الجنة للمتقين ما تشتهيه أنفسهم وتلذّ أعينهم، ويجدون لدى ربهم مزيداً من النعم، مما لم يخطر على بالهم، زيادة على النعم: وهو النظر إلى وجه الله تعالى بلا حصر ولا كيف ولا تجسيد.

ذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة، فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة، كل يوم جمعة، في كتيب من كافور أبيض، فيكونون منه في القرب. وروى الإمام الشافعي في مسنده عن أنس بن مالك قريباً من ذلك، وجاء فيه: «.. فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله تعالى ما شاء من الملائكة، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحفت تلك المنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون، فجلسوا من ورائهم على تلك الكُتب، فيقول الله عز وجل: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطكم، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم علي ما تمنيتم، ولدي مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم تبارك وتعالى من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة».

تهديد منكري البعث وإثباته لهم مرة أخرى وأوامر للرسول ﷺ

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُبْنِيهِ وَلِلَّيْلِ الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَأَدْبَرَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وحزة (وإدبار).

﴿نَشَقُّ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (نَشَقُّ).

﴿بِالْقُرْآنِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحزة وفقاً (بالقرآن).

الإعراب:

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: بدل من يوم في قوله: ﴿وَاسْمِعْ يَوْمَ﴾

﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ ﴿يَوْمَ﴾: منصوب من وجهين.

أحدهما: أنه منصوب على البدل من ﴿يَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ﴾ أي واستمع حديث يوم ينادي المنادي، فحذف المضاف، وهو مفعول به.

والثاني: أنه منصوب لتعلقه بقوله تعالى: ﴿وَالْيَا أَمَّصِيرُ﴾ وتقديره: وإلينا يصيرون في يوم تشقق.

و ﴿سِرَاعًا﴾: حال من الهاء والميم في ﴿عَنْهُمْ﴾ وعوامله: إما ﴿تَشَقُّ﴾ أو فعل مقدر، أي فيخرجون سراعاً.

المفردات اللغوية:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي كثيراً ما أهلكنا. ﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك كفار قريش. ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ القرن: الأمة والجماعة والجيل من الناس، أي أهلكنا قبل كفار قريش أمماً وقروناً وجماعات كثيرة من الكفار. ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ قوة، كعاد وفرعون. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ بحثوا وفتشوا وساروا في الأرض يطلبون الرزق والمكسب. ﴿هَلْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ مهرب لهم من الله أو من الموت.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾ أي إن فيما ذكر في هذه السورة لتذكرة وعظة وعبرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ عقل يعي به ويتفكر في الحقائق. ﴿أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ﴾ أصغى بسمعه للوعظ. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر الذهن ليفهم المعاني. وفي تنكير كلمة ﴿قَلْبٌ﴾ وإيهامه إشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كأنه غير موجود.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة. ﴿تُؤْبَى﴾ تعب وإعياء، وهو رد لما زعمت اليهود من أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش، فالله منزّه عن صفات المخلوقين، لا يتعرض لعب حتى يستريح منه، وإذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾

﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر أيها النبي على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإن من قدر على خلق العالم بلا إعياء، قادر على بعثهم والانتقام منهم، واصبر أيضاً على ما يقول اليهود وغيرهم من التشبيه للخالق والتكذيب لك، والكفر. ﴿وَسَيَحْيِي مُحَمَّدٌ رَّبِّكَ﴾ أي نزهه عن العجز وعن كل نقص، مصحوباً بالحمد والشكر. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي صلاة الفجر والعصر والظهر.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي سبحه بعض الليل، وصل العشاءين. ﴿وَأَذِّنْ لِلْعَجُودِ﴾ أعقاب الصلوات، جمع دُبُر، وقرئ بالكسر: ﴿وإِدْبَارِ﴾ مصدر أدبر، أي صل النوافل المستنونة عقب الصلوات الفرائض المكتوبة، وسبح التسبيح المعروف في هذه الأوقات مع الحمد.

﴿وَأَسْتَمِعْ﴾ أيها المخاطب لما أخبرك به من أحوال القيامة. وفي هذا تهويل وتعظيم للمخبر به. ﴿يَوْمَ يَنَادُ الْمُنَادُ﴾ هو إسرافيل، فيقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي كما ذكر الزمخشري: من صخرة بيت المقدس^(١)، وهي أقرب الأرض من السماء، وهي وسط الأرض، أو من أقرب الأماكن إلى الناس بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ يسمع الخلق كلهم. ﴿الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ صيحة البعث وهي النفخة الثانية من إسرافيل بالبعث والحشر للجزاء. ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ أي ذلك يوم النداء والسماع هو يوم الخروج من القبور. ﴿الْمَصِيرُ﴾ المرجع والمآب للجزاء في الآخرة.

(١) هذا - كما قال قتادة - منقول عن كعب الأحبار. وفي تقديري كما ذكر الرازي أن المراد ظهور

النداء لكل مخلوق، وليس المراد من المكان القريب المكان نفسه.

﴿تَشَقَّقُ﴾ تتشقق، وقرئ بتشديد الشين، أي تشقق ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين، جمع سريع. ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي ذلك بعث وجمع هين علينا، وتقديم الظرف: ﴿عَلَيْنَا﴾ للاختصاص؛ لأن الإحياء بعد الإفناء، والجمع للعرض والحساب لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته، الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال سبحانه: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثْكُمْ إِلَّا كَفَافًا﴾ [لقمان: ٢٨/٣١].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي كفار قريش، وهو تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديد لهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بمسلط عليهم تقصرهم أو تحبرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد، وإنما أنت داع ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي يخاف وعيدي، وهم المؤمنون، فإنه لا ينتفع بالقرآن غيرهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٨):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ﴾ : أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس: أن اليهود أتت رسول الله ﷺ، فسألته عن خلق السماوات والأرض، فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق أول ساعة الآجال حتى يموت من مات، وفي الثانية ألقى الآفة عن كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها في آخر ساعة.

قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش، قالوا: قد أصبت لو أتممت، قالوا: استراح، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، فنزل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ
(٢٨) فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

وقال الحسن وقتادة: قالت اليهود: إن الله خلق الخلق في ستة أيام، واستراح يوم السابع، وهو يوم السبت، يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

نزول الآية (٤٥):

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله، لو خوفتنا؟ فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾
المناسبة:

بعد أن أُنذِر الله تعالى منكري البعث بالعذاب الأليم في الآخرة، عاد إلى التهديد والإنذار بعذاب الدنيا المهلك والدمار الشامل، وتوسط الإنذارين بيان حال المتقين في الجنان للجمع بين الترهيب والترغيب كما تقدم، ثم أبان تعالى أن الإهلاك عظة وتذكير وعبرة لكل ذي عقل واعي، مفكر بالربط بين الأسباب والنتائج.

ثم أعاد الله تعالى دليل إمكان البعث من خلق السماوات والأرض مرة أخرى مع تنزيه نفسه عن العناء والتعب في الخلق، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بالصبر على ما يقولون من إنكار البعث ومن حديث التعب بالاستلقاء، وتنزيه الله عن كل نقص منتظراً المنادي، ولا تكن من الغافلين حتى لا تصعق يوم الصيحة، فقد اقترب يوم البعث، وسمع صوت الداعي إليه، فالله هو المحيي والمميت وإليه المصير، يوم تشقق الأرض سراعاً ويخرج الناس من القبور، ثم أخبر سبحانه رسوله ﷺ بعلمه بما يقول المشركون في البعث، فلست عليهم بجبار مضطر، وتابع مهمتك في الإنذار وتبليغ الدعوة بالتوحيد، وذَكَرَ بهذا القرآن من يخاف عقابي ويخشى وعيدي.

التفسير والبيان:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَخِصٍ ۝﴾ أي وكثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين من قريش ومن وافقهم، من أمم وجماعات، كانوا أكثر منهم، وأشد قوة، وآثاراً في الأرض، كعماد وثمود وقوم ثُعُب وغيرهم، وقد أثروا في البلاد، فساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب، أكثر مما طفتهم بها، فهل لهم من مفر أو مهرب يهربون إليه، يتخلصون به من العذاب، ومن قضاء الله وقدره، وهل نفعهم ما جمعوه من أموال، وردّ عنهم عذاب الله لما جاءهم لتكذيبهم الرسل، فأنتم أيضاً لا مفر لكم، ولا محيد، ولا مناص، ولا مهرب.

ثم ذكر الله تعالى أن تلك الإنذارات والتهديدات والزواجر لا يتفعل بها إلا المفكرون، فقال:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝﴾ أي إن فيما ذكر من قصة هؤلاء الأمم، وما ذكر في هذه السورة وما قبلها من الآداب والمواعظ، سواء بين الأفراد أو بين الجماعات، لتذكرة وموعظة وعبرة لمن يعتبر بها، من كل ذي عقل واعي، يتأمل به، ويتدبر الحقائق والأسباب والنتائج.

ثم أعاد الله تعالى دليل إمكان البعث مرة أخرى، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُؤُوبٍ ۝﴾ أي وتالله لقد أوجدنا من غير مثال سبق السماوات والأرض وما بينهما من عجائب المخلوقات، في أيام ستة، وما أصابنا أي إعياء ولا تعب ولا نصب. وهذا رد على اليهود، فإنهم - كما قال قتادة - قالوا: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام أولها الأحد، وآخرها الجمعة، ثم استراح في

اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه.

والآية تقرير للمعاد؛ لأن من قدر على خلق السماوات والأرض، ولم يتعب بخلقها، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئِمْ بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف: ٤٦/ ٢٣) وكما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧/٤٠].

ذكر الرازي أن المراد بقوله ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ستة أطوار، لا الأيام المعروفة في وضع اللغة؛ لأن اليوم عبارة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب، وقبل خلق السماوات لم يكن شمس ولا قمر، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت أو الحين^(١).

ثم أوضح الله تعالى لنيه الموقف الذي يتخذه في مواجهة منكري البعث واليهود المشبهة للمخلوق بالمخلوق، فقال آمراً له بعدة أوامر هي:

١ - ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر أيها الرسول على ما يقوله المشركون المكذبون بالبعث، وعلى ما يقوله اليهود من حديث التعب والاستلقاء، فتلك أقوال باطلة لا دليل عليها.

٢ - ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾ أي ونزه دائماً الله ربك عن كل عجز ونقص، واحمده دائماً، قائلاً: سبحان الله وبحمده، وقت الفجر ووقت العصر، وبعض الليل، وفي أعقاب الصلوات.

(١) تفسير الرازي: ١٨٣/٢٨-١٨٤.

وقال ابن عباس: المراد بالتسبيح والتحميد قبل طلوع الشمس: صلاة الفجر، وقبل الغروب: الظهر والعصر، ومن الليل: العشاءان، وأدبار السجود: النوافل بعد الفرائض أو التسبيح بعد الصلاة. ومن قال: إن المراد بالتسبيح الصلاة، فلأن الصلاة تسمى تسبيحاً، لما فيها من تسبيح الله تعالى.

وقد جاء الأمر بالتسبيح بعد الصلاة في أحاديث كثيرة منها: ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «جاء فقراء المهاجرين، فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور^(١) بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: غوما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون كما نتصدق، ويعتقون كما نعتق، قال ﷺ: أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتكم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون ذُبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال ﷺ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤/٥]. وجاء في صحيح الحديث: أن النبي ﷺ كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة.

٣- ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واستمع أيها الرسول صيحة القيامة وهي النفخة الثانية في الصور من إسرافيل عليه السلام، يوم ينادي نداء يسمعه كل فرد من أفراد المحشر، قائلاً: هلموا إلى الحساب، فيخرجون من قبورهم.

(١) المراد بهم: الأغنياء أصحاب الثراء، من الدُّنَّار: وهي الثياب الخارجية.

ولا مانع من عطف ﴿وَأَسْتَعِمْ﴾ على ﴿فَأَصْبِرْ﴾ ﴿وَسَبِّحْ﴾ مع أن الصبر والتسبيح يكون في الدنيا، والاستماع يكون يوم القيامة؛ لأن المراد كما في قولهم: صل وادخل الجنة، أي صل في الدنيا، وادخل الجنة في العقبى. ويحتمل أن يقال: بأن ﴿وَأَسْتَعِمْ﴾ بمعنى انتظر.

قال الرزاي: وقوله تعالى: ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إشارة إلى أن الصوت لا يخفى على أحد، بل يستوي في استماعه كل أحد، وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى؛ إذ ليس المراد من المكان القريب المكان نفسه، بل ظهور النداء، وهو من الله تعالى أقرب^(١).

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ يعني أن صيحة البعث كائنة حقاً، وهي يوم سماع النفخة الثانية في الصور التي تنذر بالبعث والحشر والجزاء على الأعمال، وذلك اليوم يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي إنا نحن نحْيي في الدنيا والآخرة، ونميت في الدنيا حين انقضاء الآجال، لا يشاركنا في ذلك مشارك، وإلينا المرجع في الآخرة للحساب والجزاء، فنجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وهذا تقرير القدرة الإلهية على الإحياء ابتداء وإعادة وعلى الإمامة، وإجراء الحساب، وأكد ذلك بقوله:

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي وإلينا المصير وقت أن تتصدع الأرض عنهم، فيخرجون من القبور، ويساقون إلى الحشر، مسرعين إلى المنادي الذي ناداهم، ذلك بعث وجمع هين لدينا وعلينا، لا مشقة فيه ولا عسر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [الفر: ٥٤/٥٠] وقال سبحانه: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨/٢٨].

ثم هدد المشركين بقوله:

﴿نَحْنُ أَكْبَرُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي نحن نعلم علماً محيطاً بما يقول لك المشركون، من التكذيب فيما جئت به، ومن إنكار البعث والتوحيد، وما أنت عليهم بمسلط يجبرهم، ويقسره على الإيمان، إنما أنت مبلغ، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠/١٣] وقوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢-٢١/٨٨] .

٤- ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي فذكر أيها الرسول بهذا القرآن العظيم، وبلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر به من يخاف الله ويخشى عقابه ووعيده للعصاة بالعذاب، ويرجو وعده وفضله ورحمته، وأما من عداهم فلا تشغل بهم.

فقه الحياة لو الأحكام:

هذه الآيات تعبر عن التحدي لدعوة النبي ﷺ وكيفية مواجهة التحدي والصمود أمامه، أو ما يعبر عنه اليوم الفعل ورد الفعل. ويفهم منها ما يأتي:

أ - هدد الله المشركين من كفار قريش وأمثالهم وأندهرهم وحذرهم بعذاب الآخرة الأليم، وبعذاب الدنيا المدمر الذي أوقعه بمن قبلهم من الأمم والشعوب المكذبة رسلها، مع أنهم كانوا أقوى وأصلب وأغنى وأكثر مالاً وأرق مدينة وحضارة من أهل مكة.

فلم يجدوا مهرباً ولا مفرأ من الإهلاك والتدمير، وكذلك لا يجد أمثالهم ملجأ ولا محيداً من إيقاع العذاب المماثل بهم.

٢ - إن في هذا الإنذار والتهديد والتخويف والمذكور في هذه السورة تذكرة وموعظة لكل ذي قلب أو عقل يتدبر به، فكفى بالقلب عن العقل؛ لأنه موضعه في رأي القرطبي وغيره من المتقدمين.

٢ - بالرغم من هذا التذكير العام بما سبق، أعاد الله تعالى دليل إمكان البعث مرة أخرى للرد على منكريه، وللرد على اليهود الذين زعموا أن الله تعالى بعد خلق السماوات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، فأكذبهم الله تعالى في ذلك.

٤ - عَلمَ الله نبيه محمداً ﷺ في مواجهة هذه التحديات لرسالته بأربعة أوامر: هي الصبر على ما يقولون، والاستعانة على ذلك بالتسبيح والصلاة، لتقوية الإرادة والعزيمة بالصبر، وتقوية الروح بالتسبيح والصلاة، ففي ذلك لقاء مع خالق الوجود، وتقويض له، واستلهاهم منه، واستعانة واستغاثة به وبقدرته الفائقة الباهرة.

والأمر الثالث: الاشتغال بتنزيه الله تعالى مدى الدهر، كقوله سبحانه: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩/١٥) أي الموت، والاستماع لما يخبره الله به من أهوال القيامة، وتحذيره أن يكون مثل هؤلاء المعرضين.

والأمر الرابع: التذكير بالقرآن، ومتابعة تبليغ الرسالة ودعوة الله، لمن يخاف عقاب الله ويخشى وعيده. كان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك يا بارّ يا رحيم. ونحن نقول معه ذلك إلى الأبد.

وتخلل هذه الأوامر الأربعة إخبار بأمور أربعة تساعد على امتثال الأوامر واستهلاك طاقات التحدي واستيعابها وإنائها: وهي التذكير بسماع صيحة القيامة وصيحة البعث والحشر للجزاء والحساب يوم خروج الناس من القبور؛ وإعلان حقيقة كون الله هو المحيي والمميت وإليه مصير الخلائق للحساب والجزاء؛ وإظهار كيفية تصدع الأرض وتشققها لخروج الناس الموق منها أحياء مسرعين لإجابته نداء المنادي إلى الحشر، علماً بأن ذلك الحشر

والجمع هتّٰن يسير على الله؛ وإعلام الكفار وغيرهم بأن علم الله محيط شامل لكل ما يقولون، وما يعملون من تكذيب وشتم.

وهذه الأمور الأربعة في غاية التهويل والتفخيم والتهديد لأهل التحدي ودعاة التحدي وأعوانهم وسلالاتهم وأشياعهم في كل عصر.

انتهى الجزء السادس والعشرون

فَللّٰهُ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ

فهرس المجلد الثالث عشر

فهرس الجزء الخامس والعشرون

الموضوع	الصفحة
اختصاص علم الساعة بالله تعالى وانتهاء أسطورة الشرك فيها	٥
تبدل أحوال الإنسان وتغير أطواره	٩
ضرورة التأمل في الآيات والأنفس	١٥
سورة الشورى	٢١
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٢١
ما اشتملت عليه السورة	٢٢
إنزال الوحي وعظمة الله ورقابته أحوال المشركين	٢٤
مقاصد الوحي الإلهي	٣٠
وحدة الأديان في أصولها	٣٩
الأمر بالدعوة والاستقامة على المتفق عليه ودحض حجة المجادلين فيه	٤٥
حتمية الجزاء للمؤمنين والظالمين وقبول التوبة	٥٤

الموضوع	الصفحة
من مظاهر حكمة الله في خلقه وآياته على قدرته	٧٠
صفات المؤمنين الكمل أهل الجنة	٨٢
أحوال الكفار أمام النار	٩٧
الاستجابة لنداء الله مالك السموات والأرض	١٠٢
أنواع الوحي	١٠٨
سورة الزخرف	١١٧
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	١١٧
مشمولاتها	١١٨
القرآن كلام الله بلغة العرب وعقاب المستهزئين بالأنبياء	١١٩
من مصنوعات الله تعالى وصفاته	١٢٦
عبادة المشركين الملائكة	١٣٤
الرد على تقليد الآباء، واختيار الأنبياء وبيان حال الدنيا	١٤٧
حال المعرض عن ذكر الله وتثبيت النبي ﷺ على	١٦١
دعوته	
العبرة من قصة موسى عليه السلام وفرعون	١٧٢
العبرة من قصة عيسى عليه السلام	١٨٢
ألوان نعيم المتقين أهل الجنة	١٩٢

الموضوع	الصفحة
عذاب أهل النار وأسبابه	١٩٩
تنزيه الله سبحانه عن الولد والشريك	٢٠٦
سورة الدخان	٢١٥
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٢١٥
ما اشتملت عليه السورة	٢١٦
فضلها	٢١٧
إنزال القرآن في ليلة القدر المباركة وصفات منزله	٢١٨
تهديد المشركين بالعذاب	٢٢٤
ضرورة الاعتبار بقوم فرعون وإنجاء بني إسرائيل	٢٣١
إنكار المشركين البعث وإثباته لهم	٢٤٢
أحوال يوم القيامة التي يتعرض لها الكفار والعصاة	٢٤٨
ما يلقاه المتقون من ألوان النعيم في الجنان	٢٥٥
سورة الجاثية	٢٦٣
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٢٦٣
ما اشتملت عليه السورة	٢٦٤
مصدر القرآن وإثبات الخالق ووحدانيته	٢٦٦
وعيد المكذبين بآيات الله وجزاؤهم	٢٧٣

الموضوع	الصفحة
من نعم الله تعالى على عباده	٢٧٨
نعم الدين وإنزال الشرائع	٢٨٤
الفارق بين المحسنين والمسيئين في المحيا والممات	٢٩٠
الدهرية وإنكار البعث وأهوال القيامة	٢٩٩
جزاء المؤمنين المطيعين وجزاء الكافرين العصاة	٣٠٨

* * *

فهرس الجزء السادس والعشرون

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الأحقاف	٣١٩
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٣١٩
ما اشتملت عليه السورة	٣٢٠
إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته ووقوع الحشر والرد على عبدة الأوثان	٣٢١
١- شبهات المشركين حول الوحي والنبوة والقرآن	٣٢٨
٢- شبهات أخرى للكفار	٣٤٥
الوصية ببر الوالدين	٣٤٥
١- وصف الولد البار بوالديه	٣٤٥
٢- وصف الولد العاق لوالديه منكر البعث	٣٥٧
قصة هود عليه السلام مع قومه عاد	٣٦٨
إيمان الجن بالقرآن	٣٧٩
إثبات البعث والأمر بالصبر	٣٨٨
تفسير سورة محمد ﷺ :	٣٩٥
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٣٩٥

الموضوع	الصفحة
ما اشتملت عليه السورة	٣٩٦
بيان الفرق بين الكفار والمؤمنين	٣٩٧
أحكام القتال والأسرى والقتلى في سبيل الله ونصرة الإسلام	٤٠٢
النظر في آثار الأمم السابقة والتأمل في أحوال المؤمنين والكافرين	٤١٥
صفة نعيم الجنة وعذاب النار	٤٢١
أوصاف المنافقين والمؤمنين	٤٢٧
١- حال المنافقين والمهتدين عند استماع آيات العقيدة	٤٢٧
٢- حال المنافقين والمؤمنين عند نزول الآيات العملية	٤٣٥
٣- حال المنافقين بعد ردتهم وعند قبض أرواحهم والتذكير بحكمة الجهاد	٤٤٢
حال بعض كفار أهل الكتاب وبعض المؤمنين في الدنيا والآخرة	٤٥٢
تأكيد الحث على الجهاد بالترهيد في الدنيا	٤٥٩
تفسير سورة الفتح	٤٦٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٤٦٦

الموضوع	الصفحة
ما اشتملت عليه السورة	٤٦٧
أضواء من السيرة على سبب نزول السورة (صلح الحديبية وبيعة الرضوان)	٤٦٩
فضائل صلح الحديبية على النبي ﷺ	٤٧٢
آثار صلح الحديبية في المؤمنين والمنافقين والمشركين	٤٧٨
وظائف النبي ﷺ وفائدة بعثته ومعنى بيعته في الحديبية	٤٨٤
أحوال المتخلفين عن الحديبية	٤٩١
جزاء أهل بيعة الرضوان	٥٠٦
مغانم وفتوحات ونعم كثيرة أخرى للمؤمنين	٥١١
ذم المشركين وحكمة المصالحة يوم الحديبية	٥١٨
تصديق رؤيا الرسول ﷺ عام الفتح	٥٢٦
أوصاف الرسول ﷺ والمرسل إليهم	٥٣٢
تفسير سورة الحجرات	٥٤٠
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٥٤٠
ما اشتملت عليه السورة	٥٤١
طاعة الله تعالى والرسول ﷺ والتأدب في خطاب النبي ﷺ الآداب العامة	٥٤٣

الموضوع	الصفحة
١- وجوب التثبت من الأخبار	٥٥٤
٢- وسائل فض المنازعات الداخلية - حكم البغاة	٥٦٤
٣- آداب المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة	٥٧٦
أصول الإيمان الصحيح	٥٩٨
تفسير سورة ق	٦٠٦
تسميتها ومناسبتها لما قبلها وما اشتملت عليه السورة	٦٠٦
إنكار المشركين البعث والردّ عليهم	٦١٠
التذكير بحال المكذبين الأولين	٦٢١
تقرير خلق الإنسان وعلم الله بأحواله	٦٢٤
الحوار بين الكافر وقرينه الشيطان يوم القيامة	٦٣١
حال المتقين	٦٣٨
تهديد منكري البعث وإثباته لهم مرة أخرى وأوامر	٦٤٣
الرسول ﷺ	
فهرس الجزء الخامس والعشرون والجزء السادس والعشرون	٦٥٥

